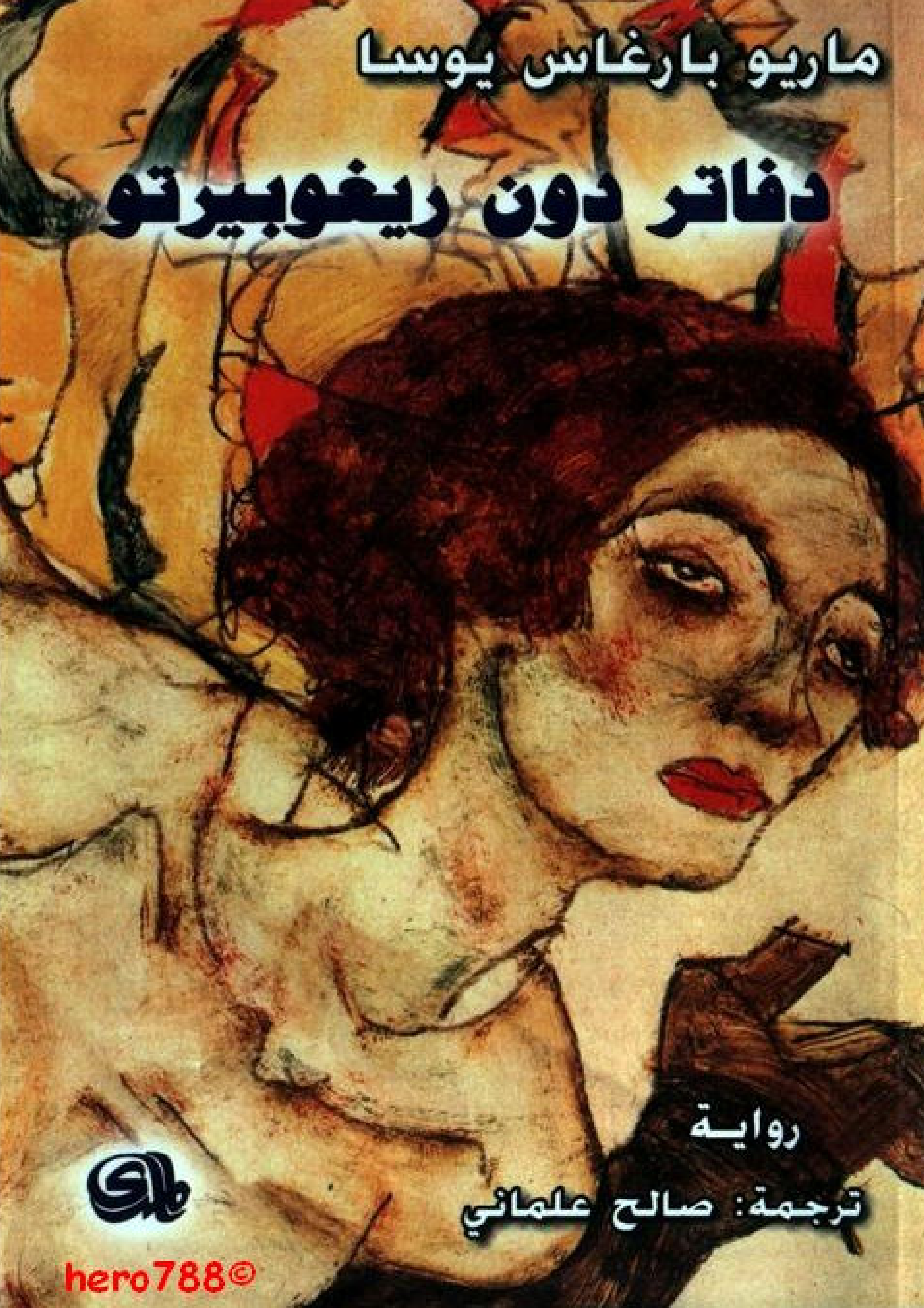


ماريو بارغاس يوسا
دفاتر دون ريغوبيرتو
روايـة
ترجمة: صالح علماني
hero788©

مـــــاريو بارغاس يوســـــــــا

دفــــاتر دون ريغـــــوبــــــيرتـــــو

رواية

ترجمة صـــــــــــالح علمـــــــــــاني

العنوان الأصلي للكتاب:

Los cuadernos de don Rigoberto
Mario Vargas Llosa
Madrid, abril 1997

الإنسان إله حين يحلم
ولا يكاد يكون شحاذاً حين يفكر.

هولدرلين، هيبيريون

لا يمكنني أن أضع سجلاً لحياتي من أعمالي، لأن الحظ جعل أعمالي فـــي موضع منخفض: ولهذا فإنني أضعه من خيالاتي.

مونتين

I. عودة فونتشيتو

طُرق الباب، فذهبت دونيا لوكريثيا لتفتحه، وفــي فراغه، على خلفــية أشجار حقل زيتون سان ايسيدرو الملتوية والشائبة، رأت رأس فونتشيتو بخصل شعره الذهبية وعينيه الزرقاوين. فبدأ كل شيء يدور.

غرد الصوت الذي تعرفه جيداً:

ـــ لقد اشتقتُ إليك كثيراً يا خالتي. أما زلتِ غاضبة مني؟ لقد جئت لأطلب منك الصفح. هل تسامحينني؟

ـــ أنت، أنت؟ ـــ قالت دونيا لوكريثيا وهي تمسك مقبض الباب وتبحث عن سند لها فــي الجدار: ـــ ألا تخجل من المجيء إلى هنا؟

فألح الطفل وهو يعرض عليها دفتر الرسم وأقلام ألوانه:

ـــ لقد هربتُ من المعهد. إنني أشتاق إليك كثيراً، حقاً. لماذا أصابك الشحوب هكذا؟

ـــ رباه، رباه. ـــ ترنحت دونيا لوكريثيا وتهاوت على مقعد بجوار الباب فــيه تقليد لمقاعد الطراز الاستعماري. كانت تغطي عينيها، وقد جعلها الشحوب بيضاء مثل ورقة.

ـــ لا تموتي! ـــ صرخ الطفل مذعوراً.

ورأتْ دونيا لوكريثيا ـــ وهي تشعر بأنها تذهب ـــ الشبح الطفولي يجتاز عتبة البيت، ويغلق الباب، ويهوي على ركبتيه عند

قدميها، ويمسك يديها ويضربهما قلقاً: «لا تموتي، لا تغيبي عن الوعي، أرجوك». بذلتْ مجهوداً لكي تنهض وتستعيد السيطرة على نفسها. تنفستْ بعمق، قبل أن تتكلم. وفعلت ذلك ببطء، شاعرة بأن صوتها قد ينكسر فـــي أي لحظة:

ـــــ لم يصبني أي شيء، إنني بخير. رؤيتك هنا هي آخر ما كنت أتوقعه. كيف تجرأت على المجيء؟ ألا تشعر بتأنيب الضمير؟

ـــــ قولي إنك قد صفحت عني يا خالتي ـــــ توسل إليها ـــــ. قولي ذلك، قوليه لي. البيت لم يعد هو نفسه بعد أن غادرتِه. لقد كنتُ أجيء لأراقبكِ أحياناً، لدى الخروج من الدروس. وكنت أرغبُ فـــي طرق الباب، ولكنني لم أكن أتجرأ. ألن تصفحي عني أبداً؟

فقالت بحزم:

ـــــ أبداً. لن أغفر لك أبداً ما فعلته أيها الخبيث.

ولكن على نقيض كلماتها، كانت عيناها السوداوان الكبيرتان تتعرفان بفضول وبشيء من الرضا، بل ربما الرقة، على الحلقات غير المنتظمة لذلك الشعر، وأوردة العنق الزرقاء، وحواف الأذنين البارزة بين خصل الشعر الأشقر، والجسد الرشيق المحشور فـــي السترة الزرقاء، والبنطال الزي المدرسي الرمادي. وكان أنفها يشم رائحة المراهقة التي لها عبق مباريات كرة القدم والسكاكر ومثلجات دي أونوفريو، وأذناها تتعرفان على الصرخات الحادة وتبدلات الصوت التي ترن فـــي ذاكرتها أيضاً. واستسلمت يدا دونيا لوكريثيا لأن تضمخهما قبلات العصفور الصغير بذلك الفم:

ـــــ أحبك كثيراً يا خالتي ـــــ قال فونتشيتو وهو يكاد يبدأ

بالبكاء ـــ وأبي أيضاً يحبك، حتى ولو كنتِ لا تصدقين ذلك.

فـــي هذه الأثناء ظهرت خوستينيانا: شبحٌ رشيق بلون القرفة متشحة بثوب مزين بأزهار، وعلى رأسها منديل وفـــي يدها منفضة من ريش. وقفت متجمدة فـــي الممر المؤدي إلى المطبخ، ثم تلعثمت غير مصدقة:

ـــ الصغير ألفونسو. فونتشيتو! غير معقول!

فهتفت دونيا لوكريثيا وهي تحاول إظهار قدر من السخط أكبر مما تشعر به:

ـــ تصوري، تصوري! إنه يتجرأ على المجيء إلى هذا البيت. بعد أن دمر حياتي بتوجيهه ذلك الخنجر إلى ريغوبيرتو. يأتي ليطلب مني الصفح، ليسكب دموع التماسيح. هل رأيت مثل هذه الوقاحة يا خوستينيانا؟

ولكنها لم تحاول الآن أن تنتزع أصابعها الرفيعة التي كان فونتشيتو لا يزال يقبّلها وهو يرتعش منتحباً.

ـــ فلتنصرف حضرتك أيها الصغير ألفونسو ـــ قالت الفتاة ذلك وهي مضطربة إلى حـــد لم تنتبـــه معـــه إلى اســـتبـــدالها صيغـــة التوقير "حضـــرتك" واســـتعمالها صيغـــة "أنت"، حـــين أضافت: ـــ ألا تـــرى الغضب الذي تســـببه للسيدة، هيا انصرف من هنا يا فونتشيتو.

فتوسل الطفل وسط التنهدات ووجهه منكبّ على يديّ دونيا لوكريثيا:

ـــ سأغادر إذا قالت لي إنها تسامحني. أهكذا تبدئين بشتمي يا

خوستيتا حتى قبل أن تسلّمي عليّ؟ ما الذي فعلته لكِ أنت؟ بل إنني أحبك كثيراً، ويوم غادرتِ البيت بكيتُ طوال الليل.

ـــ اصمت أيها الكاذب، لست أصدق كلمة مما تقول.ـــ

كانت خوستينيانا تمسد شعر دونيا لوكريثيا: ـــ هل آتيك بمنديل عليه بعض الكحول يا سيدتي؟

ـــ من الأفضل أن تأتيني بكأس ماء. لا تقلقي، إنني أحسن حالاً. إن رؤية هذا الصغير هنا قلبت كل شيء فـــيّ.

وأخيراً، سحبت يديها، دون خشونة، من بين يديّ فونتشيتو. ظل الطفل عند قدميها، دون بكاء، كابحاً بمشقة شهقات جديدة. كانت عيناه محمرتين والدموع قد شقت أثلاماً على خديه. وكان خيط من اللعاب يتدلى من فمه. ومن خلال الغلالة التي تغطي عينيها تطلعت دونيا لوكريثيا خلسة إلى الأنف الدقيق، وإلى الشفتين المرسومتين، وإلى الذقن الصغيرة المتكبرة ومنتصفها الغائر، وإلى أسنانه البيضاء الناصعة. وأحست برغبة فـــي صفع وخمش وجه ذلك الطفل يسوع. منافق! يهوذا! بل ورغبت فـــي عضه من عنقه ومص دمه مثل مصاص دماء.

ـــ هل يعرف أبوكَ أنك جئت إلى هنا؟

فرد الطفل على الفور بنبرة سرية:

ـــ كيف يخطر لك مثل هذا يا خالتي. من يدري ما الذي سيفعله بي إذا عرف. ومع أنه لا يتكلم عنكِ أبداً، إلا أنني أعرف أنه يفتقدك كثيراً. إنه لا يفكر فـــي أي شيء آخر طوال الليل والنهار، أقسم لك. لقد جئتُ خفـــية، هربتُ من المعهد. إنني أذهب ثلاث

مرات فـــي الأسبوع، بعد الانتهاء من المدرسة. أتريدين أن أريك رسومي؟ قولي إنك سامحتني يا خالتي.

ـــــ لا تقولي له ذلك واطرديه يا سيدتي ـــــ كانت خوستينيانا قد رجعت بكأسٍ من الماء؛ وشربت دونيا لوكريثيا عدة رشفات ـــــ. لا تنخدعي بوجهه الجميل. إنه الشيطان بشخصه، وأنت تعرفـــين ذلك. سيُلحق بك شروراً أسوأ من الشر السابق.

بدا على فونتشيتو وكأنه سيجهش بالبكاء من جديد:

ـــــ لا تقولي مثل هذه الأشياء يا خوستيتا. أقسم لك إنني نادم يا خالتي. لم أكن أدرك ما أفعله، أقسم لك بأقدس ما لديّ. لم أكن أريد حدوث أي شيء. وهل كنتُ أرغب فـــي أن تغادري البيت؟ هل كنت أرغب فـــي أن أبقى أنا وأبي وحدنا؟

فأنبته دونيا لوكريثيا وهي تضغط على أسنانها:

ـــــ أنا لم أغادر البيت. لقد طردني منه ريغوبيرتو مثلما تُطرد عاهرة. وكل ذلك بسببك!

رفع الطفل كلتا يديه مستنكراً:

ـــــ لا تنطقي بذاءات يا خالتي. لا تقولي هذا الكلام، إنه لا يناسبك.

وبالرغم من الحزن والغضب فقد كادت دونيا لوكريثيا أن تبتسم. لا يروقه قول بذاءات! أهو طفل لبيب، حساس؟ إن خوستينيانا على حق: فهو ثعبان له وجه ملاك، إنه إبليس.

انفجر الطفل طرباً وسعادة:

ـــــ إنك تضحكين يا خالتي! هل صفحتِ عني إذاً؟ أخبريني،

قولي إنك قد غفرتِ لي إذاً يا خالتي.

كان يصفق وقد انقشع الحزن عن عينيه الزرقاوين ولمع فـيهما بريق وحشي. لاحظت دونيا لوكريثيا وجود لطخات من الحبر على أصابعه. وأحست بالتأثر رغماً عنها. هل سيغمى عليها من جديد؟ ما هذا الخاطر. رأت نفسها فـي مرآة المدخل: كانت قد استعادت ملامحها، وكان خفر خفـيف يلون خديها بينما صدرها يعلو ويهبط من الانفعال. وبحركة آلية، غطت فتحة عنق روبها البيتي. كيف يمكن له أن يكون على هذا القدر من الوقاحة، من الصفاقة، من القدرة على الرد، رغم كونه صغيراً؟ وكانت خوستينيانا تقرأ أفكارها. وكانت تنظر إليها كأنها تقول لها: «لا تضعفـي يا سيدتي، إياك أن تسامحيه. إياك أن تكوني حمقاء إلى هذا الحد!». وعادت دونيا لوكريثيا وهي تحاول مداراة سخطها إلى شرب بضع رشفات من الماء؛ كان الماء بارداً، فحسّن مزاجها. وسارع الطفل إلى إمساك يدها غير المشغولة وراح يقبلها من جديد وهو يهذر:

ـــ شكراً يا خالتي. أنت طيبة جداً، كنتُ أعرف ذلك، ولهذا تجرأتُ على طرق الباب. أريد أن أريك رسومي. وأن نتحدث عن إيغون شيلي، عن حياته وعن رسومه. وأن أخبرك عما سأصير فـي المستقبل وعن ألف شيء آخر. هل حزرت ما أريد أن أصير؟ رساماً يا خالتي! هذا ما أريد أن أصيره.

كانت خوستينيانا تهز رأسها مذعورة. وكانت أصوات محركات السيارات وأبواقها تذهل غروب سان ايسيدرو. ومن خلال ستارة نافذة غرفة الطعام كانت دونيا لوكريثيا تلمح الأغصان العارية

وجذوع الزيتون المملوءة بالعقد التي تحولت إلى حضور أليف. يكفـــي ضعفاً، فقد حان الوقت للقيام برد فعل.

ـــ حسن يا فونتشيتو ـــ قالت ذلك بصرامة لم يعد قلبها يتطلبها ـــ. والآن، أرحني. هيا انصرف، أرجوك.

نهض الطفل قافزاً:

ـــ أجل يا خالتي. مثلما تشائين. سأكون مطيعاً لك دوماً، سأطيعك على الدوام فـــي كل شيء. وسترين كيف سأُحسن التصرف.

كان له صوت وملامح من أزاح ثقلاً عن كاهله وتوصل إلى المصالحة مع ضميره. وكانت خصلة شعر ذهبية تكنس جبهته، وعيناه تشعان سعادة. ورأته دونيا لوكريثيا يدس يده فـــي جيبه الخلفـــي، ويُخرج منه منديلاً، وينف فـــيه؛ ثم يلتقط بعد ذلك عن الأرض حقيبته وحافظة رسومه وعلبة ألوانه. وبعد أن حمل كل ذلك على ظهره، تراجع مبتسماً إلى الباب، دون أن يرفع بصره عن دونيا لوكريثيا وخوستينيانا.

ـــ عندما يتاح لي، سأهرب مرة أخرى لكي آتي وأزورك يا خالتي ـــ قال مؤكداً وهو عند الباب ـــ وأنتِ أيضاً يا خوستيتا بالطبع.

عندما أُغلق الباب الخارجي، بقيتا كلتاهما جامدتين دون أن تقولا شيئاً. وبعد قليل، دوت فـــي البعيد نواقيس كنيسة عذراء البيلار. ونبح كلب.

ـــ لا أستطيع أن أصدق ـــ دمدمت دونيا لوكريثيا ـــ. لقد

بلغت به الصفاقة حد المجيء إلى هذا البيت.

فردت الفتاة ساخطة:

ـــ ما لا يُصدّق هو مدى طيبتك. فقد صفحتِ عنه، أليس كذلك؟ بعد الشرك الذي نصبه لك كي تتشاجري مع السيد. أنت ستذهبين إلى الجنة بملابسك مباشرة يا سيدتي!

ـــ ليس مؤكداً أنه كان شركاً، وأن دماغه الصغير قد خطط لما حدث.

ومضت نحو الحمام وهي تحدث نفسها، ولكنها سمعت خوستينيانا تصحح لها:

ـــ لقد خطط لكل شيء بالطبع. فونتشيتو قادر على أسوأ الأمور، ألم تلاحظي ذلك بعد؟

«ربما»، فكرت دونيا لوكريثيا. ولكنه مجرد طفل، مجرد طفل. أليس طفلاً؟ أجل، فهذا على الأقل أمر لا شك فيه. وفي الحمام، بللت جبهتها بماء بارد وتفحصت نفسها في المرآة. كان التأثر قد شحذ أنفها الذي كان يتشمم بجزع، وسبب لها ازرقاقاً حول عينيها. وفي فمها المفتوح قليلاً رأت طرف ورقة السنفرة تلك التي تحول إليها لسانها. تذكرت حراذين وعظاءات بيورا؛ فألسنتها تكون جافة على الدوام، مثلما هو لسانها الآن. لقد جعلها مجيء فونتشيتو إلى بيتها تشعر بأنها متحجرة وعتيقة مثل تلك التذكارات الخرافية في الصحارى الشمالية. وبحركة آلية، دون تفكير، حلت حزام خصرها وتجردت بحركة من كتفيها من الروب البيتي؛ فانزلق الحرير على جسدها مثل مداعبةٍ وسقط على الأرض متهادياً.

الروب الذي غطى قدميها، بدا فـــي تسطحه واستدارته مثل زهرة عملاقة. ودون أن تدري ما الذي تفعله أو ستفعله، وبينما هي تتنفس جزعة، اجتازت قدماها حدود الروب المحيط بهما وقادتاها إلى حوض البيديه، حيث جلست، بعد أن أنزلت سروالها الداخلي المطرز. ماذا تفعلين؟ ما الذي ستفعلينه يا لوكريثيا؟ لم تبتسم. كانت تحاول أن تتنفس وتُخرج الهواء بهدوء أشد بينما يداها، وباستقلالية عن إرادتها، تفتحان صنبوري الحوض، الساخن، البارد، تلمسان الماء، تخلطانه، تقدران حرارته، ترفعان أو تخفضان خلاط الماء، ساخن جداً، بارد، شديد البرودة، ضعيف، مندفع، متقافز. بينما أسفل جسدها يتقدم، يتراجع، يميل إلى اليمين، إلى اليسار، إلى أن يجد الوضع المناسب. ها هو ذا. وتجتاح نخاعها الشوكي هزة قشعريرة. «ربما لا ينتبه لأي شيْ، ربما يفعل كل ذلك دون أية نوايا»، كررت لنفسها، مشفقة على الطفل الذي طالما لعنته فـــي هذه الشهور الستة الأخيرة. ربما لم يكن خبيثاً، ربما لم يكن كذلك. مشاكس، شقي، أكبر من سنه، عديم المسؤولية، وألف شيء آخر. ولكنه ليس خبيثاً. «ربما لم يكن كذلك». كانت الأفكار تنفجر فـــي ذهنها مثل فقاعات طنجرة تغلي. تذكرت اليوم الذي تعرفت فـــيه على دون ريغوبيرتو، الأرمل ذي الأذنين البوذيتين والأنف الشهواني الذي ستتزوج منه بعد ذلك بقليل، وتذكرت المرة الأولى التي رأت فـــيها ابن زوجها، الملاك، بلباس البحارة ـــــ بدلة زرقاء، أزرار ذهبية، وقبعة عليها مرساة ـــــ، وتذكرت ما راحت تكتشفه وتتعلمه، تلك الحياة غير المتوقعة، المتخيلة، الليلية، الزخمة، فـــي بيت بارانكو الذي أمر

ريغوبيرتو ببنائه لكي يبدأ معها حياة مشتركة، والمشاجرات بين المهندس وزوجها عند وضعهما علامات البناء الذي سيكون منزلها. هل انقضت كل تلك الأشياء! الصور تذهب وتجيء، تذوي، تتغير بالتبادل، تتداخل، تتوالى وكأن مداعبة خلاط الماء السائلة والخفيفة تصل إلى روحها.

تعليمات للمهندس

سوء تفاهمنا من النوع المتعلق بالمفاهيم. أنت وضعت هذا التصميم الجميل لبيتي ومكتبتي منطلقاً من الافتراض ــــ وهو افتراض شائع جداً للأسف ــــ بأن المهم في البيت هم الناس وليس الأشياء. لستُ أنتقدك لتبنيك وجهة النظر هذه، وهي ضرورية لرجل في مهنتك لا يمكنه الاستغناء عن الزبائن. ولكن مفهومي لبيتي المستقبلي هو النقيض. ولعلمك: في هذا الحيز الصغير المبني الذي سأدعوه عالمي وستحكمه نزواتي، ستكون الأولوية الأولى لكتبي ولوحاتي، أما نحن الأشخاص فسنكون مواطنين من الدرجة الثانية. فهذه أربعة الآلاف مجلد والمئة لوحة قماشية وكرتونية وغرافيكية هي التي تشكل المبرر الأول للتصميم الذي كلفتك به. وعليك أن تُخضع راحة البشر وأمنهم ومتعتهم لراحة تلك الأشياء وأمنها.

وأن يكون بالإمكان تحويل المدفأة إلى فرن لإحراق الكتب واللوحات الزائدة هو تفصيل لا غنى عنه في رأيي. ولهذا يجب

أن يكون موقعها قريباً جداً من رفوف الكتب وفـــي متناول مقعدي، ذلك أنني أستمتع بلعب دور قاضي التفتيش مع البلايا الأدبية والفنية وأنا جالس، وليس وأنا واقف على قدمي. وسأشرح لك ما أعنيه. أربعة الآلاف مجلد والمئة لوحة التي اقتنيها هي أرقام ثابتة. فلن أمتلك مطلقاً أكثر من هذا العدد، لكي أتفادى الفـــيضان والفوضى، ولكن هذه الكتب لن تبقى هي نفسها أبداً، بل ستتجدد دون توقف إلى أن أموت. وهذا يعني أنه مقابل كل كتاب أضيفه إلى مكتبتي، سألغي كتاباً آخر، وكل لوحة ــــ ليتوغرافــية، خشبية، حفر على الخشب، رسم بالفحم، حفر مختلط، زيتية، مائية، إلى آخره ــــ تنضم إلى مجموعتي ستحل محل أقل الأخريات محبة إلى نفسي. ولا أكتمك بأنه من الصعب اختيار الضحية، بل إنه أمر مؤثر أحياناً، وأشبه بمعضلة هاملتية تبعث فـــي نفسي الكآبة أياماً، أسابيع، وتعيد تكوين كوابيسي فـــي ما بعد. فـــي البدء كنت أهدي الكتب واللوحات المضحى بها إلى المكتبات والمتاحف العامة. أما الآن فإنني أحرقها، ومن هنا تأتي أهمية المدفأة. وقد اخترت هذه الصيغة القاسية التي تذرُّ بهار التدنيس الثقافـــي أو المخالفة الأخلاقية على القلق الناجم عن وجوب اختيار الضحية، فـــي اليوم، أو بكلمة أدق، فـــي الليلة التي قررت فـــيها أن أستبدل لوحة بديعة لسيزيلو مستوحاة من بحر باراكاس بنسخة من لوحة علبة حساء كامبيللز متعددة الألوان لآندي وارهول، أدركت أنه من الحمق إلحاق الضرر بعيون أخرى من خلال لوحة كنت قد توصلت إلى تقدير أنها غير جديرة بعيني. عندئذ ألقيت بها إلى النار. أعترف بأنني أحسست بندم غامض وأنا

أرى تلك اللوحة تحترق. أما الآن فلم يعد يخطر لي ذلك. لقد بعثت بعشرات الشعراء الرومنطيقيين والإنديخينستا إلى النار، وبعدد لا بأس به من اللوحات غامضة المعاني والتجريدية واللاشكلانية والمناظر الطبيعية والتصويرية والدينية، لكي أحافظ على العدد المحدد لكتب مكتبتي ومجموعة لوحاتي، دون ألم، بل بالإحساس المُشجع بأنني أمارس النقد الأدبي والفني مثلما يجب ممارسته: بصورة جذرية، لا رجعة عنها، ووقودية. وأضيف، كي أنهي هذا الاستطراد، بأن التسلية تمتعني، ولكنها لا تفيد شيئاً في الاستثارة الجنسية، ولهذا فإنني أمارسها بصورة محدودة وفي الحدود الدنيا، كوسيلة روحية وحسب، ودون أي انعكاسات على الجسد.

أثق بأنك لن تأخذ ما انتهيت من قراءته ـــ الأفضلية التي أعطيها للوحات والكتب على ذوي القدمين من لحم وعظم ـــ على أنه نوبة مزاح أو موقف مستهتر. الأمر ليس هكذا، وإنما هي قناعة متجذرة، ونتيجة لتجارب صعبة، ولكنها ممتعة في الوقت نفسه. لم يكن من السهل عليّ التوصل إلى موقف يناقض التقاليد القديمة ـــ ولندعُها تقاليد إنسانية بابتسامة على شفاهنا ـــ والفلسفات والديانات المؤمنة بمركزية الإنسان، والتي لا تستطيع أن تتقبل اعتبار الإنسان الواقعي، وهو بنيان من لحم وعظم محسوسين، أقل جدارة بالاهتمام والاحترام مما هو مُبتَكَر، ذاك الذي يظهر (وإذا كان يروقك أكثر، نقول ينعكس) في صورة الفن والأدب. وسأعفيك من تفاصيل هذه الحكاية وأنتقل بك إلى النتيجة التي توصلت إليها والتي أُطالب بها الآن دون خجل. فليس عالم الأوغاد ذاتيي الحركة الذي نشكل أنا

وأنت جزءاً منه هو الذي يهمني، أو الذي يجعلني أستمتع وأتألم، وإنما تلك الآلاف المؤلفة من الكائنات المُتحركة بالمخيلة وبالرغبات وبالبراعة الفنية، والماثلة فـــي هذه اللوحات والكتب وأعمال الحفر التي تمكنتُ من جمعها بصبرٍ وحبٍ سنوات طويلة. البيت الذي سأشيده فـــي بارانكو، والذي عليك أن تصممه بإعادة البدء ثانية فـــي المشروع من البداية حتى النهاية، سيكون لتلك الأشياء قبل أن يكون لي أو لزوجتي الجديدة الباهرة، أو لأبني الصغير. هذا الثلاثي الذي يشكل أسرتي، دون أي تجديف، هو فـــي خدمة تلك الأشياء مثلما يتوجب عليك أنت أيضاً أن تكون فـــي خدمتها عندما تنتهي من قراءة هذه الرسالة وتنحني على طاولتك لتصحح ما أسأتَ عمله.

ما انتهيتُ من كتابته هو حقيقة حرفـــية، وليس تورية غامضة. سأبني هذا البيت لأعاني وأسعد معـــ**هم**، ومن أجلـــ**هم** ولأجلـــ**هم**. فابذل جهدك فـــي محاكاتي خلال الفترة المحدودة التي ستعمل فـــيها من أجلي.

والآن، ابدأ الرسم.

ليلة القطط

وفـــيةٌ لموعدها، دخلت لوكريثيا فـــي الظلال متحدثة عن القطط. وكانت هي نفسها تبدو مثل هرة أنغورة جميلة تحت حفـــيف فرو القاقُم الذي يصل حتى قدميها ويخفـــي حركاتها. أكانت عارية تحت روبها المفضض؟

ـــــ هل قلتِ قطط؟

ـــــ بل قطيطات بكلمة أصح ـــــ ماءت وهي تخطو بضع خطوات حاسمة حول دون ريغوبيرتو الذي فكر فـــي ذي قرنين خارج لتوه من الإسطبل يتفحص مصارع الثيران ـــــ. هررة، قطط، هريرات. دزينة منها، وربما أكثر.

كانت تلعب فوق غطاء السرير المخملي الأحمر. تتكمش على نفسها، تمد قوائمها تحت مخروط الضوء الغبش الذي يَنزلُ، غبار نجوم، على السرير من السماء الصافـــية غير المرئية. وكانت رائحة مسك تحمم الجو، وموسيقى باروكية ذات إيقاعات جافة تأتي من الركن نفسه الذي جاء منه الصوت المهيمن والجاف:

ـــــ تعرّي.

اعترضت دونيا لوكريثيا:

ـــــ غير ممكن. أنا أتعرى هنا، مع هذه الكائنات؟ لن أفعل ذلك ولو مت، إنني أكرهها.

ـــــ هل أرادك أن تمارسي الحب معه بين القطط؟ ـــــ لم يكن دون ريغوبيرتو يضيع حركة واحدة من حركات دونيا لوكريثيا على السجادة الوثيرة. لقد بدأ قلبه يصحو، وبدأ ليل بارانكو يتخلص من الرطوبة ويجف.

ـــــ تصور ـــــ تمتمت وهي تتوقف لثانية، ثم عادت تخطو خطواتها الدائرية حوله ـــــ. أراد رؤيتي عارية بين تلك القطط. مع القرف الذي أشعر به نحوها! إن بدني كله يقشعر حين أتذكر ذلك.

بدأ دون ريغوبيرتو يتبين شبحيهما، آذانهما وهي تتسمع مواء

القطط الصغيرة الخافت. بدأا يطلان فـــي العتمة، يتميزان، يتجسدان، وعلى ملاءة السرير الملتهب، تحت وابل الضوء، دوّخه البريق، وانعكاسات الضوء، والجدران المتلوية. وحدس أنه فـــي أقصى تلك الأطراف المتحركة تُلمح مخالب مائية، منحنية، حديثة البروز.

ـــــ تعالي، تعالي إلى هنا ـــــ أمر الرجل الذي فـــي الركن بعذوبة. وكان عليه فـــي الوقت نفسه أن يرفع صوته لأن ألحان بيانوهاتٍ وكماناتٍ راحت تتعالى صافعة أذنيه. بيرغوليسي!، تعرف دون ريغوبيرتو على الموسيقى، وتفهم اختيار هذه السوناتا؛ فالقرن الثامن عشر لم يكن عصر التقنع وعدم تمييز الذكر من الأنثى وحسب، بل كان كذلك، وبامتياز، عصر القطط. أولم تكن فـــينسيا، منذ الأزل، جمهورية هِرّيّة؟

ـــــ أكنتِ قد تعريتِ؟ ـــــ سمع نفسه يقول ذلك، وأدرك أن اللهفة قد سيطرت على جسده بسرعة كبيرة.

ـــــ ليس بعد. لقد عراني هو، كالعادة. لماذا تسأل وأنتَ تعرفُ أن هذا هو أكثر ما يروقه.

فقاطعها برقة:

ـــــ وأنتِ أيضاً؟

ضحكت دونيا لوكريثيا، وكأنها ضحكة مغتصبة.

ـــــ من المريح على الدوام أن يكون هناك فاليت[1] ـــــ ثم

---

[1] ـ فاليت valet: خادم متخصص بمساعدة سيده على ارتداء ملابسه وخلعها.

همست وهي تبتدع ابتسامة خفر : ـــــ مع أن الحال كانت مختلفة فـــي هذه المرة.

ـــــ بسبب القطط؟

ـــــ ومن سيكون السبب سواها. لقد جعلتني عصبية، كانت تستثير أعصابي يا ريغوبيرتو.

ومع ذلك فقد انصاعتْ لأمر العشيق المتخفـــي فـــي الركن. كانت تقف بجانبه، وديعة، فضولية ومتلهفة، وكانت تنتظر، دون أن تنسى لحظة واحدة مجموعة القطط المختلطة، المختبئة، المتقلبة، اللاعقة، وهي تعرض نفسها فـــي الدائرة الصفراء اللجوجة التي تحبسها فـــي وسط الفراش الملتهب. حين أحست باليدين فـــي كاحليها، تتزلقان إلى قدميها وتخلعان منهما الحذاء، توتر نهداها مثل قوسين، وتصلبت الحلمتان. كان الرجل يخلع عنها الآن بحذر الجوربين، مُقبّلاً دون تعجل، كل تفصيل ، كل جزء صغير من البشرة المكشوفة. وكان يهمس شيئاً بدا فـــي أول الأمر لدونيا لوكريثيا كلمات رقيقة أو بذيئة أملتها الاستثارة.

ـــــ ولكن لا، لم تكن عبارات بوح بالغرام، ولم تكن تلك البذاءات التي تخطر له أحياناً ـــــ قالت ذلك وهي تضحك من جديد، تلك الضحكة الجاحدة نفسها، متوقفة فـــي متناول يدي دون ريغوبيرتو. ولم يحاول هذا لمسها، بل تلعثم مناضلاً ضد تيبس لسانه:

ـــــ ماذا كانت إذاً؟

ـــــ توضيحات وشروح، محاضرة هريّة متكاملة. أتعرف أن

أكثر ما يعجب القطط فـــي الدنيا هو العسل؟ وأن لها فـــي مؤخراتها جراباً يُستخرج منه عطر؟

تشمم دون ريغوبيرتو الليل بمنخريه الواسعين.

ـــ أهي الرائحة التي تنبعث منكِ؟ أليس هذا مسكاً إذاً؟

ـــ إنه زَباد. عطر القطط. إنني مضمخة. أيزعجك هذا؟

كانت القصة تستثير دون ريغوبيرتو، تضلله، فـيظنُ أنه فـــي الداخل وهو فـــي الخارج. ولم يكن يعرف فـــي ما يفكر.

ـــ ولماذا أحضر أواني العسل؟ ـــ سأل وهو خائف من لعبة، من مزحة، تنزع الطابع الشكلي عن تلك الطقوس.

ـــ لكي أدهنك ـــ قال الرجل متوقفاً عن تقبيلها. وواصل تعريتها. كان قد انتهى من الجوربين، من المعطف، من البلوزة. وبدأ يفك الآن أزرار تنورتها ـــ لقد أحضرته معي من اليونان، من نحل جبل إيميتو. إنه العسل الذي يتحدث عنه أرسطو. وقد خبأته لك، مفكراً فـــي هذه الليلة.

«إنه يحبها»، فكر دون ريغوبيرتو بغيرة وتأثر.

ـــ هذا غير ممكن ـــ احتجتْ دونيا لوكريثيا ـــ. لا وألف لا. فأنا لا تُمارس معي هذه القذارات.

كانت تقول ذلك دون سُلطة، فدفاعاتها كانت مكتسحة بعدوى إرادة عشيقها، فكانت تقول ما تقوله بنبرة من تعرف أنها مهزومة. وكان جسدها قد بدأ يصرف انتباهها عن صرير السرير، وأخذ يذبذبها، يركزها مع تجريد الرجل لها من آخر ملابسها وركوعه عند قدميها وهو يواصل مداعبتها. تركته يفعل ذلك، محاولة نسيان

نفسها فـــي اللذة التي تثيرها فـــيها المداعبة. كانت شفتاه ويداه تخلّف لهيباً فـــي كل موضع تمر عليه. وكانت القطط هناك طوال الوقت، شهباء، مائلة إلى الاخضرار، متناومة أو متحمسة، مجعدة ملاءة السرير. تموء، تتلاعب. وكان بيرغوليسي قد استكان، لقد كان نسيماً نائياً، وإغماءة مدوية.

ـــــ هل طلى جسدك بعسل نحل من جبل إيميتو؟ ـــــ كرر دون ريغوبيرتو السؤال، متهجياً كل كلمة.

ـــــ لكي تلحسني القطط، لاحظ ذلك. بالرغم من القرف الذي تثيره فـــي هذه الأشياء، ومن تحسسي من القطط، ومن الضيق الذي أحس به إذا ما تلوثتُ بشيء دبق (وفكر دون ريغوبيرتو ممتناً:«لم تمضغ لباناً فـــي حياتها»)، حتى ولو تلوث طرف إصبعي فقط. أتلاحظ ذلك؟

ـــــ لقد كانت تضحية عظيمة، وقد أقدمتِ عليها فقط لأنك...

ـــــ لأنني أحبك ـــــ قطعت هي كلمته ـــــ. وأنت تحبني أيضاً. أليس هذا صحيحاً؟

«من كل روحي»، فكر دون ريغوبيرتو. كانت عيناه مغمضتين. وكان قد توصل أخيراً إلى حالة الصفاء التام التي يبحث عنها. يمكنه أن يجول الآن دون مشقة فـــي تلك المتاهة كثيفة الظلال. وبوضوح تام، مع لمسة من الحسد، كان يتخيل مهارة الرجل الذي يجرد لوكريثيا ـــــ دون تسرع ودون أن يفقد السيطرة على أصابعه ـــــ من ثوبها، من حمالة صدرها، من سروالها الداخلي، بينما شفتاه تقبلان بنعومة لحمها المصقول، شاعراً بالحُبَيْبات ـــــ أهو البرد، أم

التردد، أم الاشمئزاز، أم القرف أم الرغبة؟ ـــ التي توتر أعصابها وبالأنفاس الدافئة التي تجسدت، مع مجموع المداعبات، فـــي هذه الأشكال المتوقعة هجساً. وحين أحس فـــي لسان العشيق وأسنانه وحلقه أجمة الزغب المجعد وصعد إلى دماغه طعم عصارتها اللاذع، بدأ يرتجف. هل بدأ بطليها؟ أجل. أهو يفعل ذلك بفرشاة رسام صغيرة؟ لا. بمنديل؟ لا. بيديه نفسيهما؟ أجل. ومن الأفضل القول بكل واحد من أصابعه الطويلة المعروقة وبحكمة خبير تدليك. كانت الأصابع تنثر على البشرة تلك المادة البراقة ـــ رائحتها السكرية تصعد عبر فتحتي أنف دون ريغوبيرتو، فتتخمه ـــ وتتحقق من تماسك الفخذين، الكتفـــين، الثديين، وتقرص الردفـــين، وتمر على الإليتين، وتغرق فـــي تلك الأعماق المجعدة، مباعدة ما بينها. تحولت موسيقى بيرغوليسي إلى النزق. فكانت تدوي مطفئة اعتراضات دونيا لوكريثيا وتهيج القطط التي تشممت رائحة العسل وبدأت تتقافز وتصرخ وقد أدركت ما الذي سيحدث. كانت تفتح أشداقها وهي تركض فوق ملاءة السرير جزعة.

ـــ من الأصح القول: جائعة. ـــ صححت له دونيا لوكريثيا.

فلهث دون ريغوبيرتو:

ـــ أكنتِ قد تهيجتِ؟ أكان هو عارياً؟ هل طلى جسده بالعسل أيضاً؟

ـــ أيضاً وأيضاً وأيضاً ـــ رتلت دونيا لوكريثيا ـــ طلاني، طلى نفسه، طلب مني أن أطلي ظهره، حيث لا تصل يده. إنها ألعاب مهيجة جداً بالطبع. فهو ليس خشبة وأنتَ لا تحبني أن أكون

خشبة، أليس كذلك؟

فأكد دون ريغوبيرتو:

ـــ كلا بالطبع. يا حبي.

ـــ تبادلنا القبلات طبعاً، واللمس، والمداعبة ـــ حددت زوجته. وكانت قد جددت مشيها الدائري حوله بينما أذنا دون ريغوبيرتو تحسان بحفيف فرو القاقم في كل خطوة. أكانت متهيجة وهي تتذكر؟ ـــ. أعني أننا فعلنا ذلك دون أن نتحرك من الركن. وبقينا هناك لبعض الوقت. إلى أن حملني، هكذا وأنا مطلية بالعسل بالكامل، وأوصلني إلى السرير.

كانت الرؤية واضحة تماماً، ومعالم الصورة جلية إلى حد أن دون ريغوبيرتو أحس بالخوف: «قد أُصاب بالعمى». مثل أولئك الهبيين في سنوات الهذيان، الذين كانوا يتعاطون عقار الهلوسة، ويتحدون شمس كاليفورنيا إلى أن تُفَحّم لهم الأشعة شبكيات عيونهم وتحكم عليهم برؤية الحياة بمسامعهم وملامسهم وخيالهم. كانا هناك، مشحمين، يقطران عسلاً وملاطفة، هيلينيين في عريهما ووجاهتهما، يتقدمان نحو الجلبة الهِرّيّة. كان هو رَمّاحاً من العصر الوسيط مسلحاً من أجل المعركة، وكانت هي غادة الغابة، سابينية مخطوفة[1]. تهز قدميها الذهبيتين وتعترض: «لا أريد، لا يروقني ذلك»، ولكن ذراعيها تحيطان بوله بعنق خاطفها، ولسانها يسعى لاقتحام فمه ولعق لعابه بتلذذ. «انتظري، انتظري»، طلب منها دون

---

[1] ـ إشارة إلى إقدام رومولوس على سبي نساء السابينيين عند تأسيس مدينة روما.

ريغوبيرتو. فتوقفت دونيا لوكريثيا بوداعة، وبدا كما لو أنها ستختفـــي فـــي تلك الظلال المتواطئة، بينما كانت ترجع إلى ذاكرة زوجها فتاة بالثوس النحيلة (**عارية مع القطط**) الجالسة على كرسي، رأسها مستند إلى الوراء بشهوانية، إحدى ساقيها ممدودة، والأخرى مثنية، والكعب عند حافة المقعد، تمد ذراعها لتداعب هراً يقبع فوق خزانة، ينتظر متعته بعينين نصف مطبقتين. وفـــي أثناء تقليبه وبحثه تذكر كذلك أنه كان قد رأى لوحة لم يولها اهتماماً، أكان ذلك فـــي كتاب الهولندي المتخصص بالحيوانات ميداس ديكرز؟ لوحة **روسالبا** لبوتيرو (1968)، عمل زيتي يقبع فـــيه على سرير زوجي هِرٌّ صغير أسود يتقاسم الملاءات والفرشة مع المومس الوافرة ذات الشعر الأجعد الطويل وهي تنهي سيجارتها، وكذلك لوحة على الخشب لفـــيلكس فالوتون (أهي **هر الأنغورة** من عام 1896 تقريباً؟) حيث تظهر صبية حيوية ما بين وسائد مزينة بزهور ولحاف هندسي، وهي تحك الرقبة المهيجة لقط منتصب. باستثناء هذه المقاربات غير المؤكدة، ليس هناك فـــي ترسانة ذاكرته أي صورة تتماثل مع هذا الذي يحدث. كان مذهولاً بصورة طفولية. فقد تراجعت الإثارة إلى الوراء، دون أن تختفـــي تماماً؛ كانت تطل من أفق جسده مثل إحدى تلك الشموس الباردة فـــي خريف أوربي، وهو الفصل المفضل لرحلاته.

ـــــ ثم ماذا؟ تساءل وهو يعود إلى واقع الحلم الذي انقطع.

كان الرجل قد وضع لوكريثيا تحت مخروط الضوء، وبعد أن تخلص بحزم من ذراعيها اللذين يريدان منعه، خطا خطوة إلى الوراء

دون أن يستجيب لتوسلاتها. ولأن دون ريغوبيرتو كان يتأملها كذلك من الظلمة، فقد كان المشهد فريداً، بل وجميلاً بصورة لا تقارن، بعد أن تم تجاوز التردد الأولي. فالقطط التي كانت قد ابتعدت مرتعبة لتفسح لها مكاناً وتراقبها، بقيت رابضة، مترددة، ولكنها متيقظة طوال الوقت ــــ شرارات خضراء، صفراء، شوارب متصلبة ــــ وحين تشممتها، انقضت الحيوانات على هذه الفريسة الحلوة. تسلقت وحاصرت واحتلت الجسد المطلي بالعسل وهي تزعق من السعادة. وأخمدت صرخاتها اعتراضات دونيا لوكريثيا المتقطعة، وضحكاتها المكتومة ونداءاتها المتوسلة. لفت ذراعيها على وجهها لتحمي فمها وعينيها وأنفها من اللعقات المتحمسة، فقد كانت تحت رحمتها. وكانت عينا دون ريغوبيرتو تلاحقان تلك المخلوقات القزحية الشرهة، فتنزلان معها عبر نهديها وإليتيها، وتتزلقان على ركبتيها، وتلتصقان بمرفقيها، وتصعدان عبر فخذيها وتتسليان أيضاً مثل تلك الألسنة الصغيرة بالحلاوة السائلة والراكدة فـــي القمر المقعر الذي بدا عليه بطنها. كان بريق العسل الذي تتبل بلعاب القطط يمنح التكورات البيضاء مظهراً شبه سائل، وكان فـــي الطفرات الصغيرة التي يطبعها عليها عدو الحيوانات الصغيرة وتدحرجها شيء من الليونة الحركية للأجسام فـــي الماء. كانت دونيا لوكريثيا تطفو، إنها زورق حي يمخر مياهاً غير مرئية. وفكر:«كم هي جميلة!» كان جسدها ذو النهدين الصلبين والوركين الوافرين، والإليتين والفخذين جيدي التحديد، فـــي تلك النهاية القصوى التي يستطيع هو أن يقدرها لأنه يعرف كل أشياء ذلك الشبح الأنثوي: الوفرة التي توحي بها،

وتتجنبها، السمنة غير المرغوبة.

وطلب منها الرجل الذي بلا وجه:

ــــ افتحي ساقيك يا حبي.

وتوسل دون ريغوبيرتو:

ــــ افتحيهما، افتحيهما.

وألح الرجل:

ــــ إنها صغيرة جداً، لا تعض، لن تؤذيكِ.

سألها دون ريغوبيرتو:

ــــ أكنت قد بدأتِ تستمتعين؟

ــــ لا، لا. ــــ ردت دونيا لوكريثيا التي كانت قد أعادت تجديد نزهة ذلك التنويم المغنطيسي. حفــيف فرو القاقم أيقظ شكوكه: أتكون عارية تحت المعطف؟ أجل، إنها كذلك ــــ. الدغدغات تثير فـــي الجنون.

ولكنها انتهت إلى القبول وسارع هران أو ثلاثة بلهفة إلى لعق الجانب المختفـــي من فخذيها، وقطرات العسل التي تُلمِّع الشعيرات الحريرية السوداء على قمة فـــينوس. بدا كورال الألسنة اللاعقة لدون ريغوبيرتو أشبه بموسيقى سماوية. وكان رجع موسيقى بيرغوليسي الآن دون قوة، عذباً، يتأوه ببطء. وكان الجسد المتماسك منزوع الطلاء ساكناً، فـــي راحة عميقة. ولكن دونيا لوكريثيا لم تكن نائمة، فقد كان يصل إلى أذني دون ريغوبيرتو التكسّل المتكتم الذي كان يفلت من أعماقها دون أن تنتبه إليه. سألها:

ــــ أكنت قد تجاوزت القرف؟

فردت هي:

ـــــ لا، بالطبع لا ـــــ ثم أضافت بعد لحظة، بمزاج طيب:

ـــــ ولكنني لم أعد أهتم كثيراً بذلك.

وضحكت، وكانت ضحكتها هذه المرة هي تلك الضحكة التي تخصه بها وحده في ليالي الحميمية المتقاسمة، ليالي الخيال غير المكمم التي تجعلهما سعيدين. واشتهاها دون ريغوبيرتو بكل ما في جسده من أفواه. فتضرع إليها:

ـــــ اخلعي المعطف. تعالي، تعالي إلى ذراعي يا ملكتي، يا معبودتي.

ولكن المشهد الذي صار ثنائياً في هذه اللحظة بالذات شده من جديد. فالرجل غير المرئي لم يعد كذلك. فقد تسلل جسده الطويل الزيتي بصمت إلى الصورة. وصار هناك أيضاً الآن. يستلقي على الفرشة المائلة إلى الحمرة، ويحتضن دونيا لوكريثيا. وجرّحت مسمعي دون ريغوبيرتو صرخات الهررة المسحوقة بين العاشقين وهي تلتمس الهرب، مضطربة، مفتوحة الأشداق، ومتدلية الألسن. ومع أنه أغلق أذنيه، فقد ظل يسمعها. وبالرغم من أنه أغمض عينيه، فقد رأى الرجل فوق دونيا لوكريثيا. بدا كأنه يغوص في الردفين المتينين البيضاوين اللذين يتلقيانه ببهجة. كان يقبلها بشراهة القطط التي لحستها ويتحرك فوقها، معها، ضاغطاً بذراعيه. وكانت يدا دونيا لوكريثيا تضغطان على ظهره، وساقاها المرفوعتان تسقطان فوق ساقيه وقدماها الشامختان تستقران على ربلتي ساقيه، وهو المكان الذي يُلهب دون ريغوبيرتو. تنهد، وكان يكبح بمشقة الحاجة إلى

البكاء التي كانت تُثقل عليه. وتمكن من رؤية دونيا لوكريثيا تتسل باتجاه الباب.

ـــ هل سترجعين غداً؟ ـــ سأل بلهفة.

فرد الشبح الصامت الذي كان يختفـــي

ـــ وبعد غد، والذي يليه. وهل تراني ذهبت؟

القطط التي استعادت أنفاسها من المفاجأة عاودت الهجوم، وراحت تبحث عن قطرات العسل الأخيرة، غير مبالية بتعارك العاشقين.



وثنيـــة الأســـماء

إنني مهووسة إلى حد العبادة بالأسماء، واسمك يفتنني ويجنّنني.

ريغوبيرتو! إنه اسم رجولي، إنه وجيه، إنه برونزي، إنه إيطالي. حين أنطقه بصوت خافت، لنفسي وأنا وحدي، أشعر بأفعى تنساب فـــي ظهري ويتجمد كعباي الورديان اللذان منحني إياهما الله (أو الطبيعة إن شئت أيها الملحد). ريغوبيرتو! شلال ضاحك من ماء زلال. ريغوبيرتو! صفَار كناري مرح يحتفل بالشمس. هناك حيث تكون، أكون أنا. ساكنة ومتيمة أكون هناك. أأنت تُوَقِّع الآن على كمبيالية، على سند مؤجل، باسمك رباعي المقاطع؟ أنا النقطة فوق الـــــ i ، وذيل الـــــ g والقرن الصغير للـــــ t. أنا لطخة الحبر التي تبقى على إبهامك. أتطفئ ظمأك من الحر بكأس صغيرة من المياه المعدنية؟ أنا الفقاعة التي ترطب حلقك ومكعب الثلج الذي يبعث القشعريرة فـــي لسانك الأفعواني. أنا يا ريغوبيرتو رباط حذائك ورقاقة رحيق الخوخ التي تتناولها كل ليلة لمقاومة الإمساك. كيف أعرف هذا التفصيل من حياتك المعوية؟ من يُحبّ يعرف، ويصير عارفاً بكل ما يتعلق بمحبوبه، ويقدس أصغر توافه شخصه. أمام صورتك أرسم إشارة الصليب وأصلي. للتعرف على حياتك لدي اسمك، وعلم أعداد العرافـــين، وفنون نوستراداموس التنبؤية. من أكون؟ إنني من تحبك مثلما يحب الزبد الشاطئ ومثلما تحب السحابة تورد الشفق. ابحث، ابحث عني وستجدني يا حبي.

لك، لك، لك

المهووسة بالأسماء



II. أشياء إيغون شيلي الصغيرة

ـــ لماذا تهتم كثيراً بإيغون شيلي؟ ـــ سألتْ دونيا لوكريثيا.

فأجاب فونتشيتو:

ـــ يحزنني موته وهو فـــي مطلع شبابه، ولأنهم زجوا به فـــي السجن. إن لوحاته بديعة جداً. إنني أقضي ساعات فـــي النظر إليها فـــي كتب أبي. ألا تعجبك أنت يا خالتي؟

ـــ لست أتذكرها جيداً. اللهم إلا فـــي الأوضاع. بعض الأجساد فـــي أوضاع غير تلقائية، ومنفصلة عن مكانها، أليس كذلك؟

وقاطعها الطفل وكأنه سيكشف سراً:

ـــــ ويعجبني شيلي أيضاً لأني، لأني... لست أتجرأ على قول ذلك يا خالتي.

ـــــ أنت تعرف جيداً كيف تقول الأشياء عندما تريد أن تقولها، لا تتصنع الحماقة.

ـــــ لأنني أشعر بأني أشبهه. وبأني سأعيش حياة مأساوية كحياته.

قفزت لونيا لوكريثيا من الضحك. ولكن قلقاً ما لبث أن داهمها. من أين يأتي الطفل بمثل هذه الأشياء؟ وكان ألفونسيتو ما يزال ينظر إليها بجدية. ثم بذل مجهوداً بعد هنيهة ليبتسم لها. كان جالساً على أرض الصالة التي تستخدم حجرة للطعام، مصالباً ساقيه. وكان لا يزال يرتدي سترة الزي المدرسي الزرقاء وربطة العنق الرمادية، ولكنه كان قد خلع القبعة ذات الواقية التي تقبع إلى جانبه، بين الحقيبة وحافظة الرسوم وعلبة ألوان معهد الرسم. وعند ذلك دخلت خوستينيانا وهي تحمل صينية الشاي. فاستقبلها فونتشيتو مبتهجاً، وصفق فجأة متخلصاً من القلق:

ـــــ بسكويت محمص مع الزبد والمربى. هذا هو أكثر ما أحبه فـــي الدنيا. ألا تتذكرين يا خوستيتا!

فكذبت خوستينيانا متصنعة الجفاء:

ـــــ لم أصنعه من أجلك، وإنما من أجل السيدة. أنت لا تستحق ولو قطعة فتات محروقة.

راحت تسكب الشاي وترتب الفناجين على المنضدة الصغيرة فـــي الصالة. وكان هناك فـــي بستان الزيتون بضعة صبيان يلعبون

كرة القدم تظهر أشباحهم من خلال ستائر النافذة. وكانت تصل إليهم فـــي الداخل، مخففة، الكلمات النابية والركلات وصرخات الفوز. عما قريب سيخيم الظلام.

أبدى الطفل حزناً:

ـــ ألن تصفحي عني أبداً يا خوستيتا؟ تعلَّمي من خالتي، فقد نسيتْ ما جرى وها نحن الآن على أحسن حال مثلما كنا من قبل.

«ليس مثل السابق»، فكرت دونيا لوكريثيا. وكانت موجة ساخنة تلعقها من قدميها حتى قمة شعرها. ولكنها تغاضت عما قاله بشغل نفسها فـــي شرب رشفات من الشاي.

وقالت خوستينيانا ساخرة:

ـــ هذا لأن السيدة طيبة جداً بينما أنا خبيثة جداً.

ـــ إننا متشابهان إذاً يا خوستيتا، لأني حسب رأيك خبيث جداً، أليس كذلك؟

ـــ أنت تتفوق علي بالأهداف ـــ قالت الفتاة ذلك مودعة، وغابت فـــي الممر إلى المطبخ.

ظلت دونيا لوكريثيا والطفل صامتين بينما هما يأكلان البسكويت ويشربان الشاي.

ـــ خوستيتا تكرهني بالكلام فقط ـــ أكد فونتشيتو حين انتهى من المضغ ـــ أما فـــي أعماق نفسها فأظنها قد غفرت لي أيضاً. ألا ترين ذلك يا خالتي؟

ـــ ربما لا. فهي لا تنخدع بأساليب الطفل الطيب التي تستخدمها. إنها لا تريد أن يحدث ثانية ما حدث لي من قبل. لأنني،

وإن كنت غير راغبة فـــي تذكر ذلك، قد عانيتُ وتألمت كثيراً بسببك يا فونتشيتو.

شحب وجه الطفل:

ـــــ وهل تظنينني لا أعرف ذلك يا خالتي؟ ولهذا سأفعل كل شيء، كل شيء، لكي أصلح الضرر الذي سببته لك.

أيتكلم بجد؟ أيمثل مهزلة باستخدامه مفردات شخص هرم قبل أوانه؟ من المستحيل التحقق من ذلك فـــي وجهٍ تبدو فـــيه العينان والفم والأنف والوجنتان والأذنان، وحتى فوضى الشعر، كأنها لشخص مولع بإظهار جمال مظهره. إنه جميل مثل ملاك، مثل إله وثني صغير. والأسوأ... أسوأ ما فـــي الأمر ـــــ تفكر دونيا لوكريثيا ـــــ أنه يشبه تجسيد الطهارة، مثال البراءة والفضيلة. «هالة النقاء نفسها التي كانت لموديستو»، قالت ذلك لنفسها وهي تتذكر المهندس المولع بالأغنيات المتكلفة الذي هام بها حباً قبل زواجها من ريغوبيرتو، والذي استخفت به، ربما لأنها لم تستطع أن تقدّر جيداً استقامته ونزاهته. أم أنها رفضت **بلوتو** المسكين ذاك بسبب طيبته بالذات؟ ألأن ما كان يجتذب قلبها هو القيعان العكرة التي يغوص فـــيها دون ريغوبيرتو؟ معه لم تكن لتتردد ولو ثانية واحدة. ففـــي طيبة بلوتو كانت الطهارة تعبيراً يعكس نقاء روحه، أما فـــي هذا الشيطان ألفونسو، فإنها استراتيجية للإغواء، مثل غناء الحوريات اللواتي ينادين من الأعماق.

ـــــ أتحبين خوستيتا كثيراً يا خالتي؟

ـــــ أجل، كثيراً. إنها بالنسبة إليّ أكثر من خادمة. لست أدري

ما الذي كنت سأفعله من دون خوستينيانا طوال هذه الشهور، ريثما أعتاد مرة أخرى على العيش وحيدة. لقد كانت صديقة وحليفة. هكذا أنظرُ إليها. ليست لدي الأحكام الحمقاء المسبقة التي لدى أهالي ليما عن فتيات الخدمة.

وكانت على وشك أن تروي لفونتشيتو قصة السيدة المحترمة جداً دونيا فـيلثيا دي غالاغير التي تتباهى فـي حفلات الشاي التي تقيمها بأنها منعت سائقها، وهو زنجي مربوع يرتدي بدلة ذات لون أزرق بحري، من شرب الماء فـي أثناء عمله حتى لا يشعر بالرغبة فـي التبول ويضطر إلى وقف السيارة ليبحث عن مرحاض تاركاً سيدته وحدها فـي هذه الشوارع الممتلئة باللصوص. ولكنها لم تفعل، لإحساسها بأن الإشارة، ولو بصورة غير مباشرة، إلى وظيفة عضوية أمام الطفل، سيكون أشبه بتحريك المياه النتنة فـي مستنقع.

لاطفها فونتشيتو:

ـــ هل أسكب لك مزيداً من الشاي؟ البسكويت لذيذ جداً. إنني أشعر بالسعادة يا خالتي كلما استطعت الهرب من معهد الرسم والمجيء إلى هنا.

ـــ يجب عليك ألا تضيع أمسيات كثيرة. فهذه الدروس ستنفعك كثيراً إذا كنت تريد أن تصير رساماً حقاً.

لماذا حين تتحدث إليه كما تتحدث إلى طفل ـــ مثلما هو ـــ، يسيطر عليها الإحساس بأنها تطأ أرضاً مزيفة، وبأنها تكذب؟ ولكنها إذا عاملته كرجل صغير، تشعر بالغم نفسه، ويسيطر عليها

الإحساس بالزيف نفسه.

ـــــ أتبدو لكِ خوستينيانا جميلة يا خالتي؟

ـــــ أجل. إنها من النمط البيروي جداً ببشرتها التي بلون القرفة ووجهها الذي يشع حيوية. لا بد أنها حطمت قلوباً كثيرة.

ـــــ هل قال لكِ أبي يوماً إنه يراها جميلة؟

ـــــ لا، لا أعتقد أنه قال ذلك. لماذا كل هذه الأسئلة؟

ـــــ لا شيء. ولكنك أجمل من خوستينا ومن جميع النساء يا خالتي ـــــ هتف الطفل. ولكنه سارع إلى الاعتذار فوراً وقد استولى عليه الذعر ـــــ هل أسأتُ التصرف بقول هذا لك؟ لن تغضبي مني، أليس كذلك؟

حاولت دونيا لوكريثيا ألا تفسح المجال لابن ريغوبيرتو بأن يلاحظ اختناقها. هل عاد إبليس إلى غيّه؟ هل عليها أن تمسكه من أذنه وترمي به خارجاً، وتأمره ألا يرجع؟ ولكن كان يبدو أن فونتشيتو قد نسي ما قاله للتو، وراح يقلّب محتويات حقيبته بحثاً عن شيء ما. وأخيراً وجده.

ـــــ انظري يا خالتي ـــــ قدم لها القصاصة الصغيرة ـــــ. إنه شيلي فـــي صغره. ألا أشبهه؟

تفحصت دونيا لوكريثيا الصبي الضامر ذا الشعر القصير والتقاطيع الرقيقة، المحشور فـــي بدلة قاتمة من بدايات القرن، مع وردة على الياقة، وبدا كما لو أن ياقة القميص القاسية وربطة العنق تخنقانه. وقالت:

ـــــ فـــي أدنى الحدود. إنه لا يشبهك فـــي شيء.

ـــــ البنتان اللتان إلى جانبه هما أختاه. جيرترود وميلاني. الصغرى الشقراء هي جيرتي الشهيرة.

ـــــ ولماذا هي شهيرة؟ سألته دونيا لوكريثيا بانزعاج. وكانت تعرف جيداً أنها تتوغل بذلك فـــي حقل ألغام.

ـــــ كيف تسألين لماذا؟ ـــــ فوجئ الوجه الأشقر، وقامت يداه بحركة مسرحية ـــــ ألا تعرفـــين؟ لقد كانت موديله فـــي أشهر لوحاته للعاريات.

اشتد ضيق دونيا لوكريثيا:

ـــــ آه، هكذا؟ أرى أنك تعرف جيداً حياة إيغون شيلي.

ـــــ لقد قرأت كل ما هو موجود عنه فـــي مكتبة أبي. هناك نساء كثيرات وقفن أمامه عاريات ليرسمهن. بنات مدارس، نساء شوارع، وعشيقته فالي. وكذلك زوجته إيديث وأخت زوجته آديل.

ـــــ طيب، طيب. ـــــ ونظرت دونيا لوكريثيا إلى ساعتها ـــــ لقد تأخر الوقت يا فونتشيتو.

وواصل الطفل متحمساً، وكأنه لم يسمع ما قالته:

ـــــ ألم تكوني تعرفـــين كذلك أنه جعل إيديث وآديل تتعريان معاً ليرسمهما؟ وعندما كان يعيش مع فالي فـــي قرية كروماو، فعل الشيء نفسه. أوقفها عارية مع بنات من المدرسة. ولهذا السبب حدثت فضيحة.

فعلقت السيدة لوكريثيا:

ـــــ لست أستغرب الأمر إذا كن بنات مدرسة. وبما إن الظلام يخيم الآن، فمن الأفضل أن تتصرف. إذا ما اتصل ريغوبيرتو

بالمعهد فسوف يكتشف أنك تتغيب عن الدروس.

وواصل الطفل وهو تحت تأثير انفعال كبير:

ـــ ولكن تلك الفضيحة كانت جائرة. لقد كان شيلي فناناً، وكان بحاجة إلى الإلهام. ألم يرسم أعمالاً رائعة؟ وما السيئ في أنه جعلهن يتعرين؟

نهضت دونيا لوكريثيا واقفة:

ـــ سآخذ هذه الفناجين إلى المطبخ. ساعدني برفع الأطباق وسفط البسكويت يا فونتشيتو.

سارع الطفل ليلتقط بيديه فتات البسكويت المنثور على المنضدة الصغيرة. ولحق الخالة بوداعة. ولكن السيدة لوكريثيا لم تتوصل إلى انتزاعه من الموضوع. فقد راح يقول بينما هما يجتازان الممر:

ـــ حسن، صحيح أنه كان يعمل أشياء أيضاً مع من يعريهن. مع أخت زوجته آديل مثلاً عمل ذلك. ولكنه لم يفعله مع أخته جيرتي، أليس كذلك يا خالتي؟

راحت الفناجين تتراقص بين يدي السيدة لوكريثيا. إن لهذا الصغير المخاطي العادة الشيطانية بنقل الحديث دائماً نحو موضوعات وعرة، مثل من لا يفعل ذلك دون قصد.

ـــ لم يعمل ذلك طبعاً معها ـــ ردت عليه وهي تشعر بأن لسانها ينعقد ـــ. بالطبع لم يفعل، يا لهذا الخاطر.

كانا قد دخلا المطبخ الذي بلاطه مثل المرايا. وقد كانت جدرانه تلمع أيضاً. تأملتهما خوستينيانا مذهولة. وكانت فراشة تحوم في عينيها، مثيرة الحيوية في وجهها الأسمر.

قال الطفل بإلحاح:

ـــ ربما لم يفعل شيئاً مع جيرتي، ولكنه فعل ذلك مع أخت زوجته. لقد اعترفتْ بذلك آديل نفسها حين كان إيغون شيلي قد مات. هذا ما تقوله الكتب يا خالتي. أي أنه عمل أشياء مع الأختين. وربما كان الإلهام يأتيه بفضل ذلك.

ـــ ومن هو هذا البارد؟ ـــ سألت الخادمة. وكانت ملامح وجهها حيوية جداً بينما هي تتلقى الفناجين والأطباق وتضعها تحت الصنبور المفتوح، ثم تغطسها في الحوض المملوء حتى حافته بماء رغوي أزرق. وكانت رائحة ماء الكلور تعبق في المطبخ.

فدمدمت دونيا لوكريثيا:

ـــ إيغون شيلي. رسام نمساوي.

وحدد الطفل:

ـــ لقد مات في الثامنة والعشرين من عمره يا خوستيتا.

ـــ مات من كثرة ما عمل أشياء ـــ قالت خوستينيانا ذلك وهي تغسل الفناجين والأطباق وتجففها بمنشفة ذات مربعات ملونة ـــ. عليك أن تحسن سلوكك إذن يا فونتشو، حذار أن يصيبك الشيء نفسه.

فرد الطفل الذي لا يتأثر بالمزاح:

ـــ لم يمت من عمل الأشياء، وإنما بالإنفلونزا الإسبانية. وماتت زوجته بالمرض نفسه قبله بثلاثة أيام. ما هي الإنفلونزا الإسبانية يا خالتي؟

ـــ إنفلونزا خبيثة كما أظن. ومن المؤكد أنها تأتي إلى فيينا

من إسبانيا. حسن، والآن يجب أن تذهب، فقد تأخر الوقت.

فتدخلت خوستينيانا دون كابح:

ـــ الآن عرفتُ لماذا تريد أن تصبح رساماً أيها الشقي. لأن الرسامين يعيشون على هواهم مع موديلاتهم كما أرى.

فأنبتها دونيا لوكريثيا:

ـــ لا تمزحي بهذا الكلام. إنه طفل.

ـــ ولكنه طفل كبير جداً يا سيدتي ـــ ردت عليها وهي تفتح فمها على اتساعه مظهرة أسنانها الناصعة.

فأمسك فونتشيتو ثانية بخيط أفكاره دون أن يبدي اهتماماً بحوار السيدة والخادمة:

ـــ قبل أن يرسمهن كان يلعب معهن. يجعلهن يقفن في أوضاع مختلفة، للتجريب. بملابسهن، ودون ملابس، ونصف عاريات. وكان أكثر ما يروقه هو أن يبدلن جواربهن. جوارب حمراء، خضراء، سوداء، من كل الألوان. وأن ينبطحن على الأرض. معاً، منفصلات، مختلطات. وأن يتصرفن كما لو أنهن يتصارعن. وكان يراقبهن لساعات. يلعب مع الأختين وكأنهما دميتاه. إلى أن يأتيه الإلهام. وعندئذ يرسمهن.

فاستثارته خوستينيانا:

ـــ يا للعب. أشبه بلعبة خلع الملابس، ولكن مثلما يلعبها البالغون.

ـــ نقطة وانتهى! يكفي! ـــ رفعت دونيا لوكريثيا صوتها إلى حد ظل معه فونتشيتو وجوستينيانا مفتوحي الفم. فهدّأت هي من

صوتها ـــ لا أريد أن يبدأ أبوك بتوجيه الأسئلة إليك. يجب أن تتصرف.

فتلعثم الطفل:

ـــ حسن يا خالتي.

كان شاحباً من الفزع، فندمت دونيا لوكريثيا لأنها صرخت. ولكن، لم يكن بمقدورها السماح له بمواصلة التحدث بذلك الاندفاع عن علاقات إيغون شيلي الحميمة، فقد كان قلبها يحدثها بأن في ذلك الحديث فخاً، بأن فيه مجازفة، وأنه لا بد من تجنبه. ما الذي لسع خوستينيانا حتى راحت تستحثه بهذه الطريقة؟ خرج الطفل من المطبخ. سمعته وهو يلتقط حقيبته وحافظة أوراقه وأقلامه من غرفة الطعام. وحين رجع كان قد أعاد وضع ربطة العنق، واعتمر القبعة وزرر السترة. وقف عند الباب ناظراً إلى عينيها، وسألها بطبيعية:

ـــ ألا يمكنني أن أقبلك قبلة الوداع يا خالتي؟

تسرع قلب دونيا لوكريثيا من جديد بعد أن كان قد بدأ يهدأ؛ ولكن أكثر ما أقلقها هو ابتسامة خوستينيانا. ما الذي عليها عمله؟ من المضحك أن ترفض. وافقت، وأحنت رأسها. وبعد لحظة من ذلك أحست بمنقار طائر صغير على خدها.

ـــ وأنت أيضاً يا خوستيتا؟

وأطلقت الفتاة قهقهة وهي تقول:

ـــ حذار أن تكون قبلة على الفم.

وفي هذه المرة احتفل الطفل بالنكتة مطلقاً ضحكة في الوقت الذي استعد فيه لتقبيل خوستينيانا من خدها. لقد كان ما قالته حماقة

بالطبع، ولكن السيدة لوكريثيا لم تكن تتجرأ على النظر إلى عيني الخادمة ولم تستطع تأنيبها لتجاوزها الحد فـــي مزاح سيء الذوق.

ـــ سأقتلكِ ـــ قالت لها أخيراً بين الجد واللعب، حين سمعتْ إغلاق الباب الخارجي ـــ هل جننتِ حتى تُظهري هذه الملاطفات لفونتشيتو؟

فاعتذرت خوستينيانا وهي تهز كتفـــيها:

ـــ فـــي هذا الطفل شيء لا أدري ما هو. إنه يجعل فم إحدانا يمتلئ بالخطايا.

فقالت دونيا لوكريثيا:

ـــ مهما يكن الأمر... ولكن، من الأفضل عدم إلقاء الحطب إلى النار معه.

فردت خوستينيانا بطلاقتها المعهودة:

ـــ النار هي ما يظهر فـــي وجهك يا سيدتي. ولكن لا تقلقي فهذا اللون يناسبك بصورة باهرة.

اليخضور والروث

يؤسفني أن أخيب أملك. فخطاباتك المؤثرة عن حماية الطبيعة والوسط المحيط لا تهزني. فقد ولدتُ وعشتُ وسأموت فـــي المدينة (فـــي مدينة ليما القبيحة، إذا ما حاولت التقصي بدقة) وابتعادي عن المدينة، حتى ولو فـــي نهاية الأسبوع، هو عبودية أُخضع نفسي لها

أحياناً لضرورات أُسرية أو بسبب العمل، ولكنني أفعل ذلك مغموماً على الدوام. لا تضمني إلى هؤلاء الوسطيين الذين تتمثل أثمن أحلامهم فـي شراء بيت صغير على شاطئ فـي الجنوب ليقضوا فـيه الصيف وعطلة نهاية الأسبوع فـي اختلاطات قبيحة مع الرمل والماء المالح والبطون المتخمة بالبيرة لوسطيين آخرين يشبهونهم تماماً. هذا المشهد الأحدي لأُسرٍ متآخية فـي استعراض حسن الترتيب على حافة البحر هو بالنسبة إليّ الأكثر غماً بين المشاهد التي تقدمها، فـي التراتب الاجتماعي المبتذل، هذه البلاد ما قبل الفردية.

أفهم أن قلب أناس مثلك يخفق طرباً لمرأى منظر طبيعي تزينه أبقار ترتع بين أعشاب شذية أو معز تتشمم أشجار خروب، وأنكم تشعرون عندئذ باستثارة مثل تلك التي يشعر بها شاب يافع وهو يرى امرأة عارية أول مرة. أما بالنسبة إليّ فإن المصير الطبيعي للثور الفحل هو ساحة مصارعة الثيران ـــ بكلمات أخرى، أن يعيش لمواجهة الرداء، والموليتا[1]، ورمح الطعن، والسهم، وسيف المصارع ـــ أما الأبقار البليدة فلا أرغب فـي رؤيتها إلا مقطّعة ومشويّة على السفود مع تتبيلة من البهار اللاذع، ودامية أمامي، ومحاطة ببطاطا مقلية تقرقش وسلطة طازجة، وأن أرى المعز مدقوقة، منزوعة الألياف، مقلية أو متبلة، حسب وصفات **السيكو** الشمالي، وهو أحد أطباقي المفضلة بين تلك التي يوفرها المطبخ

---

(1) ـ موليتا muleta: قضيب يثبت عليه الرداء الأحمر فـي مصارعة الثيران.

المحلي الهمجي.

أعرف أنني أجرح أغلى معتقداتك، فأنا أعرف أنك وجماعتك ــــ وهذه مؤامرة جماعية أخرى! ــــ تعتقدون مقتنعين، أو أنكم في طريقكم إلى الاقتناع، بأن للحيوانات حقوقاً بل وربما لها أرواحاً، كل الحيوانات، دون استثناء بعوض المستنقعات، أوضبع الجيف، أو الكوبرا الصافرة، أو سمكة البيرانيا الشرهة. أنا أعترف بوضوح بأن الحيوانات لا تتمتع في نظري إلا بأهمية صلاحيتها للأكل والزينة وربما للرياضة (مع أنني أحدد لك بأن حب الخيول يسبب لي من الغم قدر ما يسببه لي النباتيون، وأنا أنظر إلى الفرسان ذوي الخُصى القزمة بسبب الاحتكاك بالسرج، على أنهم نمط كئيب بصورة خاصة من الخصي البشري). وبالرغم من أنني أحترم، عن بعد، من ينسبون إلى الحيوانات وظائف إيروتيكية، إلا أنني شخصيا لن أُفتن على الإطلاق (والصحيح أنني أشتم روائح كريهة وأتصور أنواعاً من المضايقات الجسدية) بفكرة مجامعة دجاجة أو بطة أو قردة أو مهرة أو أي نوع من الحيوانات ذات الثقوب، بل إنني أتمسك بالارتياب المثير للأعصاب بأن من ينعمون بهذا النوع من الرياضة هم، في نخاع عظامهم ــــ ولا تأخذ حضرتك الأمر على أنه هجوم شخصي ــــ بيئيون في حالة وحشية، وحماة يجهلون ذلك، وهم قادرون في المستقبل على الذهاب للالتحاق بعصابة بريجيت باردو (التي أحببتها أيضاً في شبابي، ولكن لأشياء أخرى) من أجل العمل على إنقاذ الفقمات. ومع أن تخيلاتٍ هائجة قد راودتني يوماً على صورة امرأة باهرة الجمال وعاريةً، تتقلب على فراش مملوء بالقطط، إلا أن معرفة أنه يوجد

فـــي الولايات المتحدة ثلاثة وستون مليون قط وأربعة وخمسون مليون كلب أليف يرعبني أكثر مما يرعبني ركام الأسلحة الذرية المخزنة فـــي نصف دزينة من بلدان الاتحاد السوفــييتي السابق.

إذا كنت أفكر هكذا فـــي رباعيات الأرجل والطيور هذه، فإنه يمكن لحضرتك أن تتصور السخريات التي توقظها فـــي نفسي أشجارك الهامسة، والغابات الكثيفة، والأيكات الوارفة، والأنهار المزغردة، والصدوع العميقة، والقمم البلورية. كل هذه الأشياء الأولية يصبح لها معنى ومبرر إذا ما مرت عبر غربال الحضارة المدينية، بمعنى، إذا ما صنّعها وحوّلها ـــــ لا يهمني أن نقول أعاد تكوينها، ولكنني أفضل صيغة "أنسنها" سيئة السمعة ـــــ الكتاب، أو اللوحة، أو السينما، أو التلفزيون. ولكي نتفاهم، فإنني مستعد لتقديم حياتي (وهذا أمر يجب عدم أخذه بحرفــيته، لأنه مجرد قول مبالغ فــيه جداً) من أجل إنقاذ شجرات الحور التي ترفع هاماتها فـــي **البوليفـــيمو**[1] وأشجار اللوز التي تخط بالشيب **عزلات** غونغورا، وشجيرات البان فـــي قصائد غارثيلاسكو الرعوية أو أزهار عباد الشمس وحقول القمح التي تُقَطِّر عسلها الذهبي فـــي لوحات فان جوخ، ولكنني لا أذرف دمعة واحدة فـــي سبيل غابات الصنوبر المخربة فـــي حرائق موسم الاصطياف، ولا ترتعش يدي عند التوقيع على مرسوم العفو عن الحارقين الذين يفحِّمون غابات الأنديز أو سيبيريا أو الألب. فالطبيعة غير المُصفّاة عبر الفن أو الأدب، الطبيعة الطبيعية، الممتلئة بالذباب والبعوض والوحل والفئران والصراصير، لا

---

[1] ـ بوليفيمو El Polifemo y Galatea: أسطورة شعرية نظمها الشاعر الإسباني لويس دي غونغورا، وتعتبر من أجمل نماذج الشعر الناطق بالاسبانية.

يمكن مقارنتها بالمتع الراقية، مثلما هي النظافة الجسدية والأناقة فـــي الملبس.

ولكي أوجز، سألخص لك أفكاري ـــــ أو ميولي بكلمة أدق ـــــ موضحاً أن هذا الذي تدعوه حضرتك «الطاعون العمراني» الذي يزحف دون كابح ويبتلع كل مروج العالم ويسعى إلى تغطية الكوكب الأرضي بطفحٍ من ناطحات السحاب، والجسور المعدنية، والشوارع الإسفلتية، والبحيرات والحدائق الاصطناعية، والساحات الحجرية ومواقف السيارات تحت الأرضية، حيث الكوكب كله سيتغطى بطبقة من الأسمنت المسلح والدعائم الفولاذية ليصبح مدينة كونية واحدة غير محدودة (أجل، ومملوءة بالمكتبات والمعارض ودور الكتب العامة والمطاعم والمتاحف والمقاهي) فإن الداعي يؤيد كل ذلك لأنه سيبقى دُبالاً مدينياً إلى أن تتحلل عظامه.

لكل الأسباب المذكورة أعلاه، لن أساهم بقرش واحد فـــي أرصدة **جمعية اليخضور والروث** التي تترأسونها، وسأبذل كل ما بوسعي (وهو قليل، فاطمئن) كي لا تتحقق أهدافكم، وكي يكتسح فلسفتكم الشاعرية الرعوية هذا الشيء الرمزي من الثقافة التي تكرهها أنت وأُقدرها أنا، ألا وهو: الشاحنة.

حلـــم بلوتو

فـــي عزلة مكتبه، وقد أيقظته برودة الفجر، كرر دون ريغوبيرتو عن ظهر قلب عبارة بورخيس التي التقاها للتو: «الخيانة

الزوجية تساهم فـــيها الرقة ونكران الذات». وبعد بضع صفحات من العبارة البورخيسية، ظهرت الرسالة أمامه، سالمة رغم مرور السنوات الأكّالة.

عزيزتـي لوكريثيا

وأنت تقرئين هذه السطور ستجدين مفاجأة عمرك، وربما ستحتقرينني. ولكن لا يهم. فحتى لو كان هناك احتمال واحد بأن توافقي على اقتراحي مقابل ألف احتمال برفضك إياه، فإنني سأغامر بإلقاء نفسي فـــي البركة. سأوجز لك ما يحتاج إلى ساعات من المحادثة، يرافقها تبدلات فـــي نبرة الصوت وإيماءات إقناعية.

منذ أن غادرتُ البيرو (بعد خيبة الأمل التي سببتِها لي)، عملتُ فـــي الولايات المتحدة بنجاح لا بأس به. وخلال عشر سنوات توصلت إلى أن أكون مديراً وشريكاً صغيراً فـــي هذا المصنع للمُوصِّلات الالكترونية، وهو مؤسسة راسخة فـــي ولاية ماساشوستس. وقد تمكنت من شق طريقي كمهندس ورجل أعمال فـــي وطني الثاني هذا، ذلك أنني أصبحت منذ أربع سنوات من مواطني الولايات المتحدة.

ولكي تعرفـــي، فقد استقلت للتو من هذه الإدارة وأنا أبيع الآن أسهمي فـــي المصنع، وآمل أن أحصل على مبلغ يصل إلى ستمئة ألف دولار، وقد يكون أكثر إذا حالفني الحظ. وأنا أفعل كل هذا لأنهم عرضوا علي إدارة TIM أي (معهد ماساشوستس للتكنولوجيا)، وهي الكلية التي درست فـــيها واحتفظ باتصالات

دائمة معها. إن ثلث الطلاب فـيها هم hispanic (أي من الأمريكيين اللاتينيين). وسيكون راتبي نصف ما أتقاضاه هنا. ولكنني غير مهتم بذلك. فأنا أحلم بأن أكرس نفسي لتعليم وتكوين هؤلاء الشباب من الأمريكيتين الذين سيبنون القرن الحادي والعشرين. ولقد حلمت على الدوام بوهب حياتي للجامعة وهو ما كنت سأفعله لو أنني ظللت فـي البيرو، أي، لو أنني تزوجت منك.

لا بد أنك تتساءلين: «ما سبب كل هذا؟ لماذا ينبعث موديستو بعد عشر سنوات ليروي لي مثل هذه الحكايات؟». إنني آتٍ بالكلام يا عزيزتي لوكريثيا.

لقد قررتُ، بين مغادرتي بوسطن وذهابي إلى اكسفورد فـي المسيسبي، أن أنفق فـي أسبوع من الراحة مئة ألف دولار أدخرها. وأقول بالمناسبة إنني لم آخذ أية إجازة على الإطلاق من قبل، ولن آخذ فـي المستقبل، لأن العمل ، مثلما تتذكرين، هو ما كان يروقني على الدوام. وما زال عملي هو متعتي الكبرى. ولكن إذا ما تحققت خططي مثلما أرجو فإن هذا الأسبوع سيكون خارجاً عن المألوف. فلن تكون إجازة عادية فـي سفـينة تجوب الكاريبي أو شواطئ فـيها أشجار نخيل ومتزلقين على الماء فـي هاواي. وإنما شيء شخصي جداً ولا يتكرر: إنه تجسيد حلم قديم. وهنا تدخلين أنت فـي القصة، ومن أوسع أبوابها. أعرف أنك متزوجة من سيد محترم من ليما، أرمل ومدير شركة تأمين. وأنا أيضاً قد تزوجت، وزوجتي غرينغية من بوسطن، تعمل طبيبة، وأنا سعيد بالقدر المتواضع الذي يتيحه الزواج للسعادة. لن أقترح عليك الطلاق

وتغيير حياتك، لا شيء من هذا. وإنما أريدك أن تشاطريني هذا الأسبوع المثالي الذي داعب خيالي على امتداد سنوات طويلة، وأن تتيح لي الظروف تحويله إلى حقيقة واقعة. لن تندمي على العيش معي هذه الأيام السبعة الحالمة وستتذكرينها طوال ما تبقى من حياتك بحنين.. أعدك بذلك.

سنلتقي يوم السبت، السابع عشر، في مطار كينيدي في نيويورك، أنت قادمة من ليما في رحلة اللوفتهانزا، وأنا من بوسطن. وستنقلنا سيارة ليموزين إلى جناح في ***فندق بلازا***، *وهو محجوز منذ الآن، بما في ذلك تعليمات عن الأزهار التي يجب أن تعبق فيه. وسيكون لديك متسع من الوقت للراحة والذهاب إلى صالون الحلاقة، والتمتع بحمام ساونا أو الخروج للتبضع في الجادة الخامسة مشياً على قدميك. ولدينا في هذه الليلة مكانان محجوزان في المتروبوليتان لمشاهدة* ***البدائية*** *لبوتشيني، مع لوسيانو بافاروتي لماريو كافارادوسي وأوكسترا المتروبوليتان السيمفونية بقيادة المعلم إدوارد مولير. وسنتناول العشاء في مطعم* ***السيرك***، *حيث يمكنك إذا ما حالفنا الحظ أن تكوني على مقربة من ميك جاغير، أو هنري كيسينجر أو شارون ستون. وسننهي السهرة في بهجة* ***ريجنس***.

الكونكورد الذاهبة إلى باريس تغادر يوم الأحد عند الظهر، ولن تكون هناك حاجة إلى الاستيقاظ المبكر. وبما أن الرحلة تكاد لا تدوم ثلاث ساعات ونصف ـــ لن نشعر بها كما يبدو، بفضل لذائذ الغداء الذي أوصى بإعداده الطاهي بول بوكوس ـــ فإننا سنصل

إلى **مدينة النور** خلال النهار. وبعد أن نستقر في فندق **ريتز** (مع إطلالة مضمونة على ساحة الفاندوم) سيكون لدينا متسع من الوقت للقيام بجولة على جسور السين، مستغلين ليالي بداية الخريف الدافئة، وهي أفضل الليالي حسب رأي العارفين، شريطة ألا يهطل المطر. (لقد أخفقتُ في جهودي لمعرفة احتمالات الهطول المطري في باريس في يومي الأحد والاثنين المعنيين، ذلك أن **ناسا**، وهذا يعني علم الأرصاد الجوية المحكم، لا تستطيع أن تتنبأ بنزوات السماء إلا قبل أربعة أيام من اليوم المرغوب). أنا لم أذهب إلى باريس من قبل قطّ، وأرجو ألا تكوني قد ذهبتِ إليها أيضاً، وهكذا فإننا سنكتشف معاً في مشوارنا المسائي هذا الطريق المذهل كما يبدو، من فندق **ريتز** حتى **سان جرمان**. وعلى الضفة اليسرى (حي ميرافلوريس الباريسي، لكي نتفاهم) ينتظرنا في كنيسة سان جرمان دي باريس الاستماع إلى **صلاة جناز** موزارت غير المنتهية وعشاء في **مطعم ومشرب ليب** الألزاسي حيث تناول طبق **الشوكروت** إجباري (لست أعرف ما هو هذا الطبق، ولكنه سيروقني إذا كان لا يتضمن الثوم). لقد افترضتُ أنك ستستريحين بعد العشاء لكي تبدئي جولة يوم الاثنين المكثفة بنشاط، ولهذا لن يعرقل البرنامج في هذه الليلة ذهابٌ إلى صالة رقص أو بار أو ملهى أو علبة ليل حتى الفجر.

في صباح اليوم التالي سنمر على اللوفر لنقدم احتراماتنا للجوكندا، ثم نتناول غداء خفيفاً في **كلوز دي ليلا** أو في **كوبول** (مطعما السنوب المحترمان في مونبارناس)، وسيكون لدينا

*بعد الظهر حمام طليعي فـــي مركز بومبيدو، وسنلقي نظرة على الماريه الشهير بقصوره التي من القرن الثامن عشر ومخنثيه المعاصرين. وسنتناول الشاي فـــي **لاماركيز دي سيفـــينيا**، فـــي ميدلين، قبل أن نذهب لاستعادة قوانا بحمام فـــي الفندق. أما برنامج الليل فإنه بصراحة، تافه: تناول مقبلات فـــي بار فندق ريتز، وعشاء فـــي أجواء الحداثة فـــي مطعم* **مكسيم** *ثم ننهي الحفلة فـــي كاتدرائية الستريبتيز: **صالة الكريزي هورس** التي ستفتتح استعراضها الجديد "**يا للحر!**". (بطاقات الدخول مشتراة، والطاولات محجوزة والجراسين والبوابون تلقوا الرشى ليضمنوا لنا أفضل مكان وأفضل منضدة وخدمة.)*

*ستنتظرنا سيارة ليموزين، أقل استعراضية من سيارة نيويورك ولكنها أكثر فخامة، مع سائق ودليل لتنقلنا فـــي صباح يوم الثلاثاء إلى فرساي للتعرف على قصر وحدائق **ملك الشمس**. سنأكل شيئاً تقليدياً (أخشى أن يكون ستيك مع بطاطا مقلية) فـــي مطعم صغير على الطريق، وقبل الذهاب إلى الأوبرا (**عطيل**، لفـــيردي، مع **أحد هادئ** بالطبع) سيكون لديك متسع من الوقت للمشتريات من فوبور سانت اونوريه، وهو بجوار الفندق. ونتناول عشاء صورياً، لأسباب بصرية وسوسيولوجية بحتة، فـــي فندق ريتز بالذات، حيث ـــــ حسب مجربين ـــــ أبهة الإطار وفخامة الخدمة يعوضان عن الوجبة التي لا يمكن تخيلها. أما العشاء الحقيقي فسيكون بعد الأوبرا، فـــي **البرج الفضي** ومن نوافذه سنتمكن من وداع أبراج كاتدرائية نوتردام وأنوار الجسور المنعكسة على مياه السين الجارية.*

***قطار الشرق السريع** الذاهب إلى فنيسيا يخرج يوم الأربعاء عند الظهر، من محطة سان لازار. وسنقضي فـــي السفر والراحة بقية هذا اليوم والليلة التالية، ولكن حسب رأي من قاموا بهذه المغامرة القطارية، فإن اجتياز جغرافــية فرنسا وألمانيا والنمسا وسويسرا وإيطاليا فـــي قمرات **الحقبة الجميلة** هذه أمر يبعث على الاسترخاء واستعادة النشاط، وهو مثير ولكن دون إرهاق، ويستنهض الحماسة دون الوصول إلى الجنون، ويسلي حتى لأسباب أركيولوجية، وذلك بسبب الذوق الذي رُممت به القمرات والحمامات والبارات والمطاعم فـــي هذا القطار الأسطوري الذي كان مسرحاً لعدد من الروايات والأفلام ما بين الحربين. سآخذ معي رواية أغاتا كريستي **موت فـــي قطار الشرق السريع**، بطبعة إنكليزية وأخرى إسبانية، فلربما ترغبين فـــي إلقاء نظرة على مسرح الأحداث. وحسب النشرة الإعلامية، فإن التقيد بالإتيكيت وبالفستان المفتوح جداً عند الصدر صارم تماماً فـــي **العشاء على ضوء الشموع** لهذه الليلة.*

*الجناح المحجوز فـــي فندق شيبرياني، فـــي جزيرة جيوديكا، يطل على القناة الكبرى وعلى ساحة سان ماركوس وأبراج كنائسها البيزنطية. وقد تعاقدتُ مع جندول ومع دليل تعتبره وكالة السياحة الأكثر كفاءة (واللطيف الوحيد) فـــي المدينة المائية؛ وذلك لكي يُعرّفنا فـــي صباح ومساء يوم الخميس على الكنائس والساحات والأديرة والجسور والمتاحف، مع استراحة قصيرة فـــي الظهيرة لتناول وجبة خفــيفة ـــــ بيتزا مثلاً ـــــ ونحن محاطان بالحمام والسياح فـــي شرفة **الفلوريان**. وسنتناول المقبلات ـــــ مغلي لا بد*

منه يدعونه ***بيلليني*** ـــ فـــي فندق دانيللي ونتناول العشاء فـــي هاريس بار الذي خلدته رواية سيئة لهيمنغواي. ونواصل الماراتون فـــي يوم الجمعة بزيارة إلى شاطئ ليدو وبرحلة إلى مورانو، حيث ما زال الزجاج يُصنع بقوة الأنفاس البشرية (وهي تقنية بعثتها التقاليد وتقوي رئات الوطنيين). وسيكون لدينا متسع من الوقت لشراء السوفـــينير وإلقاء نظرة اضطرارية على ***فـــيلا بالاديو***. وفـــي الليل، نتعشى فـــي جزيرة سان غريغوريو ـــ ***موسيقى فـــينيسية*** ـــ مع سماع مقطوعات مشهورة للباروكيين الفـــينيسيين بالطبع: فـــيفاردي، سيماروسا، وألبينوني. العشاء سيكون على شرفة ***دانيللي***، وسنتأمل ـــ إذا كانت الليلة دون غيوم ـــ أضواء فـــينيسيا التي ستبدو مثل «عباءة من الحباحب»، (وأنا ألخص هنا كتيبات سياحية). وسنودع المدينة والقارة العجوز يا عزيزتي لوكري، إذا ما سمح الجسد بذلك، ونحن محاطان بالحداثة فـــي صالة رقص ***القط الأسود***، التي تجتذب شيوخاً وناضجين وشباباً مولعين بموسيقى الجاز (أنا لم أكن من هؤلاء على الإطلاق، وأنتِ كذلك، ولكن إحدى متع هذا الأسبوع المثالي أن نفعل ما لم نفعله قطّ، مخضعين نفسينا للعبودية الدنيوية).

فـــي صباح اليوم التالي ـــ اليوم السابع، وكلمة النهاية أضحت فـــي الأفق ـــ يتوجب علينا الاستيقاظ باكراً. فالطائرة إلى باريس تُقلع فـــي العاشرة، لكي نلحق هناك بالكونكورد إلى نيويورك. وبينما نحن فوق الأطلسي نقارن ما بين الصور والأحاسيس المختزنة فـــي ذاكرتينا لكي نختار منها ما هو جدير

بالبقاء.

الوداع بيننا يكون فـــي مطار كينيدي (طائرتك إلى ليما وطائرتي إلى بوسطن ستقلعان فـــي وقت واحد تقريباً) وبعدها لن يكون بيننا أي لقاء دون شك. فأنا أشك بأن تتقاطع مصائرنا مرة أخرى. لأنني لن أرجع إلى البيرو ولست أظنك ستصلين أبداً إلى ذلك الركن فـــي الجنوب البعيد Deep South، الذي يمكنه أن يفاخر منذ شهر تشرين الأول بامتلاك مدير الجامعة الهسباني الوحيد فـــي هذه البلاد (فالألف وخمسمئة مدير الآخرون هم غرينغيون أو أفارقة أو آسيويون).

هل ستأتين؟ بطاقة سفرك بانتظارك فـــي مكتب لوفتهانزا فـــي ليما. لا حاجة بك إلى الرد على رسالتي. فأنا سأكون موجوداً على أي حال يوم السبت 17، فـــي المكان المحدد. وسيكون مجيئك أو عدم مجيئك هو الرد. فإذا لم تحضري، سأكمل برنامج الرحلة وحدي، متخيلاً أنك معي، محولاً إلى واقع هذه النزوة التي سلوت بها نفسي طوال هذه السنوات، مفكراً بامرأة ستبقى، رغم صدها الذي قلب مسار حياتي، فؤاد ذاكرتي إلى الأبد.

هل أحتاج إلى أن أحدد لك بأن هذه الدعوة التي ستشرفـــينني بمرافقتك فـــيها، لا تفرض عليك أي واجبات أخرى سوى مرافقتي؟ لن أطلب منك بأي حال من الأحوال خلال أيام الرحلة هذه أن ــــ لست أدري كيف أقول ذلك بعبارة أخرى ملطفة ــــ أن تشاطريني فراشي. إنني لا أتطلع يا عزيزتي لوكريثيا إلا إلى أن تشاطريني حلمي. الأجنحة المحجوزة فـــي فنادق نيويورك وباريس وفـــينيسيا

مؤلفة من غرفتين منفصلتين ومزودتين بأقفال ومفاتيح، يمكنني أن أضيف إليها خناجر وفؤوساً ومسدسات، بل وحراسا شخصيين أيضاً إذا ما استدعت وساوسك ذلك. ولكنك تعرفين أنه لا حاجة بك لأي شيء من هذا، وأن موديستو الطيب، بلوتو الوديع كما كنتِ تلقبينني في الحي، سيكون محترماً معك مثلما كان قبل سنوات في ليما، عندما كنتُ أحاول إقناعك بالزواج مني دون أن أتجرأ على لمس يدك في عتمة صالات السينما.

إلى اللقاء في مطار كينيدي أو إلى لا لقاء إلى الأبد يا لوكري.

موديستو (بلوتو)

أحس دون ريغوبيرتو بارتفاع في حرارته وبمداهمة الحمى الثلاثية له. كيف سيكون رد لوكريثيا؟ هل سترفض ساخطة رسالة هذا المنبعث من النسيان؟ هل ستستجيب لإغراء التجربة الطائش؟ وبدا له في الصباح الحليبي أن دفاتره تنتظر حل العقدة بجزع مثل جزع روحه المعذبة.

أوامر ملزمة للمسافر المتعطش

هذا أمر من عبدك، أيتها المحبوبة.

قبالة المرآة، وعلى سرير أو أريكة مزينة بحرير هندي مرسوم

يدوياً أو آتيك أندونيسي ذي عيون حمراء، تتبطحين عارية، وشعرك الأسود الطويل مفلت.

ترفعين ساقك اليسرى وهي منحنية حتى تشكل زاوية. تسندين رأسك إلى كتفك اليمنى، وتفتحين شفتيك قليلاً وتجعدين بيدك اليمنى أحد أطراف الملاءة، تخفضين رموشك متظاهرة بالنوم. وتتخيلين أن نهراً أصفر من أجنحة فراشات ونجوم غبارية يهبط فوقك من السماء ويشطرك.

من أنتِ؟

إنكِ **دانايه** لغوستاف كليمت. ليس مهماً من هي التي جلست أمامه ليرسم هذه اللوحة الزيتية (1907ـــ1908)، فالمعلم قد استبقكِ، خمنكِ، وربما رآكِ مثلما ستأتين إلى الدنيا ومثلما ستكونين، على الجانب الآخر من المحيط، بعد نصف قرن من الزمان. كان يظن أنه يبدع بفراشيه سيدة من المثولوجيا الهيلينية بينما هو فـــي الحقيقة يستبق إبداع جمال مستقبلي، وزوجة عاشقة، وعرابة حسية.

أنتِ وحدك بين جميع النساء، مثلما فـــي هذا التخيل الفني الجمالي، تجمعين بين الكمال الدقيق للملاك وبراءته ونقائه، وجسد أرضي إلى حد الجرأة. إنني أتخلى اليوم عن صلابة نهديك وعن حربية ردفـــيك لكي أقتصر فـــي تقديم التكريم إلى فخذيك وحدهما، معبد الأعمدة هذا الذي أريد أن أُقيِّد وأُجلد فـــيه بسبب سوء تصرفـــي.

كلكِ احتفال لحواسي.

يا بشرة المخمل، يا لعاب الأُلُوّة[1]، أيتها السيدة الرقيقة ذات المرفقين والركبتين الخالدة، استيقظي، انظري فـــي المرآة، وقولي: «إنني موضع احترام وتقدير مثلما لم تكن امرأة، وموضع شوق ورغبة مثلما هو السراب السائل بالنسبة إلى الرحالة الظامئين».

لوكريثيا ـــــ دانابيه، دانابيه ـــــ لوكريثيا.

هذا توسل من سيدك، يا عبدتي.

الأسبوع المثالي

قال دون ريغوبيرتو:

ـــــ اتصلتْ سكرتيرتي بلوفتهانزا، وبالفعل، بطاقة سفركِ موجودة هناك، ومدفوعة الثمن. بطاقة ذهاب وإياب. فـــي الدرجة الأولى بالطبع.

فهتفت دونيا لوكريثيا بخفر:

ـــــ هل أحسنتُ صنعاً بعرض هذه الرسالة عليك يا حبي؟ أنت لم تغضب، أليس كذلك؟ بما إننا قد تعاهدنا على ألا يخفـــي أحدنا أي شيء عن الآخر، فقد رأيتُ أن من واجبي عرضها عليك.

فقال دون ريغوبيرتو وهو يقبل يد زوجته:

ـــــ أحسنت صنعاً يا ملكتي. أريدك أن تذهبي.

ـــــ تريدني أن أذهب؟ ـــــ ابتسمت دونيا لوكريثيا، ثم تحولت

---

[1] ـ ألوّة aloe: نبات من الصباريات يستخرج منه سائل طبي شديد المرارة.

إلى الجديّة: ـــــ أتتكلم بجد؟

فألح هو، وشفتاه على أصابع امرأته:

ـــــ بل أتوسل إليك. إلا إذا كانت الفكرة تزعجك. ولكن، لماذا ستزعجك؟ بالرغم من أنه برنامج ثريٍ محدث ومبتذل بعض الشيء، إلا أنه مشغول بروح مرحة وتهكمية قلما توجد لدى المهندسين. ستتسلين يا حبي.

تلعثمت دونيا لوكريثيا مقاومة خجلها:

ـــــ لست أدري ما أقول لك يا ريغوبيرتو. هذا كرم منك، ولكن...

فأوضح لها زوجها:

ـــــ أطلب منك أن توافقي لأسباب أنانية. فأنت تعرفـــين أن الأنانية هي فضيلة فـــي فلسفتي. ستكون رحلتك تجربة عظيمة بالنسبة إليّ.

ومن خلال عيني دون ريغوبيرتو وملامح وجهه، عرفت دونيا لوكريثيا أنه يتكلم بجد. فقامت بالرحلة، وفـــي اليوم الثامن رجعت إلى ليما. وقد استقبلها فـــي مطار كورباك زوجها وفونتشيتو، وكان هذا الأخير يحمل باقة أزهار ملفوفة بورق سيلوفان وبطاقة تقول: «أهلاً بك فـــي الوطن يا خالتي». حيياها بمظاهر حب كثيرة، ولكي يساعدها دون ريغوبيرتو على مواراة قلقها راح يثقل عليها بأسئلة عن الطقس، والجمارك، وتبدل المواقيت، وطائرة الجت ليغ، وتعبها، متفادياً أية مقاربة للمادة العصبية. وفـــي طريقهما إلى بارانكو قدم لها عرضاً مفصلاً لوضع المكتب، ودراسة فونتشيتو فـــي المعهد، ووجبات

الفطور والغداء والعشاء خلال غيابها. كان البيت يزهو بمغالاة فـــي التنظيم والنظافة. فقد أمرت خوستينيانا بغسل الستائر وتجديد سماد الحديقة، وهي مهمات لا تنفذ عادة إلا فـــي آخر كل شهر.

أمضت المساء وهي تفتح الحقائب، وتتحدث مع الخدم فـــي أمور عملية، وترد على مكالمات هاتفـــية من صديقاتها وأقربائها الذين يريدون أن يعرفوا كيف كانت رحلتها إلى ميامي للتسوق من أجل أعياد الميلاد (وكانت هذه هي الرواية الرسمية لاختفائها). ولم يكن هناك أدنى استياء فـــي الأجواء عندما أخرجت الهدايا لزوجها ولابنه ولخوستينيانا. فقد أبدى دون ريغوبيرتو رضاه عن ربطات العنق الفرنسية، والقمصان الإيطالية والكنزة النيويوركية، وأُعجب فونتشيتو بملابس الجينز، والسترة الجلدية والملابس الرياضية التي كانت على مقاسه بالضبط. وشهقت خوستينيانا بحماسة حين جربت، فوق مريولها، الثوب الأصفر المزركش الذي كان من نصيبها.

وبعد العشاء دخل دون ريغوبيرتو إلى الحمام وتأخر أقل من المعتاد فـــي اغتساله. وعندما رجع وجد حجرة النوم غارقة فـــي عتمة مجروحة بضربة ضوء غير مباشرة لا تضيء إلا لوحتي غرافـــيك أوتامارو: اتصالين منقطعي النظير ولكنهما أورثوذكسيان للثنائي نفسه، هو مزود بقضيب محلزن وهي بفرج قزم، ما بين كيمونات منتفخة مثل غيوم عاصفة، ومصابيح ورقية، وحُصر، وطاولات صغيرة مع أواني الشاي الخزفـــية، وفـــي البعيد جسور على نهر متعرج. كانت دونيا لوكريثيا ما بين ملاءات السرير، غير عارية، وقد تأكد من ذلك حين انزلق إلى جوارها، ولكنها كانت

بقميص نوم جديد ـــ أتكون قد اشترته واستخدمته فـي الرحلة؟ ـــ يوفر ليديه الحرية الضرورية للوصول إلى الأركان الحميمة. مالت هي، واستطاع هو أن يُدخل ذراعه تحت كتفـيها وأن يلمسها من قدميها إلى رأسها. قبّلها دون أن يُثقل عليها، بعذوبة كبيرة، فـي عينيها، فـي خديها، متعمداً التأخر فـي الوصول إلى فمها.

ـــ لا تروي لي شيئاً لا تودين قوله ـــ همس فـي أذنها بمداعبة طفولية تُسعّر نفاذ صبره، بينما شفتاه تجوبان انحناءة أذنها ـــ. اروي لي ما بدا لك، أو لا تروي شيئاً إن أردتِ.

فهمست دونيا لوكريثيا وهي تبحث عن فمه:

ـــ سأروي لك كل شيء. ألم ترسلني من أجل ذلك؟

ـــ أيضاً. ـــ وافق دون ريغوبيرتو، مقبلاً عنقها، شعرها، جبهتها، متوقفاً بإلحاح عند الأنف، والخدين والذقن ـــ. هل استمتعتِ؟ أكان كل شيء على ما يرام؟

ـــ معرفة ما إذا كان جيداً أم سيئاً يعتمد على ما سيحدث الآن بيني وبينك ـــ قالت السيدة لوكريثيا ذلك بسرعة، وأحس دون ريغوبيرتو، للحظة، بأن زوجته قد تشنجت ـــ لقد استمتعتُ، أجل. سعدتُ، أجل. ولكنني كنت خائفة طوال الوقت.

ـــ أكنت تخشين أن أغضب؟ ـــ كان دون ريغوبيرتو يقبل الآن النهدين الصلبين، كل مليمتر فـيهما، وكان طرف لسانه يداعب الحلمتين ويحس كيف تنتصبان ـــ أكنتِ تخشين من غيرتي؟

فهمست دونيا لوكريثيا وهي تعانقه:

ـــ كنتُ أخشى أن تتألم.

«بدأت تتعرق»، تأكد دون ريغوبيرتو من ذلك. وكان يشعر بالسعادة وهو يداعب الجسد الذي يزداد فعالية فـــي كل لحظة، وكان لا بد له من تشغيل وعيه للتحكم بالدوار الذي بدأ يسيطر عليه. همس فـــي أذن زوجته بأنه يحبها أكثر، أكثر بكثير مما كان عليه قبل الرحلة.

بدأت هي الحديث، مع فواصل من التوقف، باحثة عن الكلمات ـــ وقفات صمت كانت محددة لاعترافها ـــ، ولكنها راحت تكتسب الثقة شيئاً فشيئاً، متشجعة بالمداعبات والمقاطعات الغزلية. وأخيراً انتبه دون ريغوبيرتو إلى أنها قد استعادت طلاقتها وأنها صارت تروي متخذة مسافة تكلّف مما ترويه. كانت تلتصق بجسده، وتسند رأسها إلى كتفه. وكانت أيديهما تتحرك على التوالي بين لحظة وأخرى لتتخذ وضعاً جديداً أو لتبحث عن عضو، عن عضلة أو جزء من بشرة الآخر.

ـــ هل تغير كثيراً؟

لقد تأمْرَكَ فـــي طريقته باللبس والتكلم، فدائماً تفلت منه عبارات بالإنكليزية. ولكن على الرغم من الشيب والسمنة، فإن وجهه يبقى دائماً هو وجه بلوتو الطويل والكئيب نفسه، وكذلك خجله وحياءه فـــي شبابه.

ـــ رآك تصلين وكأنك قد هبطتِ من السماء.

ـــ لكم شحب لونه! ظننتُ أنه سيغمى عليه. كان ينتظرني بباقة من الزهر أكبر منه حجماً. وكانت سيارةُ الليموزين واحدة من هذه السيارات المفضضة التي يستخدمها الغانغستر فـــي الأفلام.

فـــيها بار، وتلفزيون، وموسيقى استيريو، و ــــ فلتَمُتْ غيظاً ــــ مقاعد من جلد فهد.

تحمس دون ريغوبيرتو:

ــــ يا لحُماة البيئة المساكين.

ــــ أعرف أنها سيارة مبتذلة ــــ قال موديستو معتذراً، بينما كان السائق، وهو أفغاني طويل جداً يرتدي زياً أحمر، يرتب الحقائب فـــي صندوق السيارة ــــ. ولكنها الأغلى أجراً.

وأصدر دون ريغوبيرتو حكمه:

ــــ إنه شخص لا يتوانى حتى عن أن يسخر من نفسه. لطيف.

وواصلت دونيا لوكريثيا:

ــــ فـــي الطريق إلى فندق بلازا غازلني مرتين، وكان محمراً حتى أذنيه. قال إنني ما زلت أحتفظ بنضارتي على أحسن حال، وإنني أجمل مما كنت عليه حين أراد الزواج مني.

ــــ إنك كذلك فعلاً ــــ قاطعها دون ريغوبيرتو مرتشفاً أنفاسها ــــ كل يوم أجمل، كل ساعة تكونين أجمل.

وقالت هي:

ــــ لم يقل أي كلمة مزعجة، ولا أي تلميح مفاجئ. شكرني كثيراً لأني ذهبت إليه حتى جعلني أشعر وكأنني السامرية الطيبة فـــي الكتاب المقدس.

ــــ أوتدرين فـــيما كان يفكر وهو يقول لك هذه المجاملات؟

ــــ ماذا؟ قالت دونيا لوكريثيا وهي تلف ساقها على ساقي زوجها.

فأوضح لها دون ريغوبيرتو:

ـــ كان يفكر فــي ما إذا كان سيراك عارية ذلك المساء بالذات فــي فندق بلازا، أم أنه سينتظر إلى الليل، أم حتى الوصول إلى باريس.

ـــ لم يرني عارية فــي ذلك المساء ولا فــي تلك الليلة. اللهم إلا إذا كان قد تلصص علي من ثقب المفتاح وأنا أستحم وأرتدي ثيابي للذهاب إلى المتروبوليتان. مسألة الغرفتين المنفصلتين كانت صحيحة. غرفتي كانت تطل على السنترال بارك.

فتذمر هو وقد خاب رجاؤه:

ـــ ولكنه سيمسك يدك على الأقل فــي الأوبرا أو فــي المطعم. وبمساعدة الشمبانيا سيلصق وجهه بخدك وأنتما ترقصان فــي **ريجنس**. وسيقبّلك من عنقك، من أذنك.

لا شيء من هذا. لم يحاول أن يمسك يدها أو أن يقبلها طوال تلك الليلة التي لم يوفر فــيها مع ذلك الزهور الكلامية، ولكن مع مراعاة المسافة الفاصلة دائماً. لقد أظهر اللطف فعلاً، ساخراً من انعدام خبرته («إنني أموت خجلاً يا لوكري، ولكنني خلال ست سنوات من الحياة الزوجية لم أخن زوجتي مرة واحدة»)، واعترف لها بأنها المرة الأولى فــي حياته التي يحضر فــيها عرض أوبرا أو يضع قدميه فــي مطعم **السيرك** وفــي **ريجنس**.

ـــ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنه علي أن أطلب شمبانيا **دوم بيرونيا**، وأن أشم كأس النبيذ بأنف متحسس وأن أطلب الأطباق المكتوبة بالفرنسية.

كان ينظر إليها بامتنان لا يقدر، بامتنان كلبي.

ـــ إذا أردتَ أن أخبرك الحقيقة، فقد جئت بدافع الزهو يا موديستو. إضافة إلى الفضول بالطبع. هل من الممكن أن تكون قد ظللت مغرماً بي طوال هذه السنوات العشر، دون أن تكون رأيتني خلالها، ودون أن يعرف أحدنا أي شيء عن الآخر؟

فأوضح لها هو:

ـــ "مغرماً" ليست الكلمة المناسبة. فأنا مغرم بدوروثي ، الغرينغية التي تزوجت منها، وهي متفهمة جداً وتسمح لي بالغناء فـــي الفراش.

فشرح لها دون ريغوبيرتو:

ـــ لقد كنتِ بالنسبة إليه شيئاً أكثر رقة. كنتِ اللاواقع، الوهم، امرأة ذاكرته ورغباته. أنا أيضاً أريد أن أحبك هكذا، مثله. انتظري، انتظري.

جردها من قميص النوم الصغير وأعاد إراحة جسدها بحيث تتلامس بشرة جسميهما فـــي أكبر عدد ممكن من النقاط. ثم كبح رغبته، وطلب منها أن تواصل.

ـــ رجعنا إلى الفندق فور تثاؤبي الأول. تمنى لي ليلة سعيدة بعيداً عن مخدعي. وأن أحلم بالملائكة. لقد تصرف جيداً، وكان شهماً إلى حد دفعني إلى أن أقدم له حركة تغنج صغيرة فـــي صباح اليوم التالي.

لقد حضرتْ لتناول الفطور، فـــي الحجرة الوسطية بين غرفتي نومهما، وهي حافـــية وبروب خروج من السرير صيفـــي وقصير

جداً، يكشف عن ساقيها وفخذيها. وكان موديستو ينتظرها حليق الذقن ومستحماً ومرتدياً ملابسه. فانفتح فمه على مصراعيه.

ـــ هل نمتِ جيداَ؟ ـــ استطاع أن يركّب هذه العبارة وهو مرتخي الفكين، بينما كان يساعدها على الجلوس أمام عصير الفاكهة، والخبز المحمص ومربى الفطور، ثم أضاف: ـــ هل أستطيع أن أقول لك إنك تبدين جميلة جداً؟

فقاطعها دون ريغوبيرتو:

ـــ توقفـــي. دعيني أركع وأقبل الساقين اللتين بهرتا الكلب بلوتو.

وفـــي طريقهما إلى المطار، ثم بعد ذلك فـــي طائرة الكونكورد التابعة للايرفرانس، وبينما هما يتناولان وجبة الغداء، عاد موديستو إلى موقف الهيام المهذب الذي كان عليه فـــي اليوم الأول. ذكّر لوكريثيا، دون ميلودراما، كيف قرر الاستقالة من جامعة الهندسة حين اقتنع أنها لن تتزوج منه وسافر إلى بوسطن، ليجرب حظه. وحدثها عن البدايات الصعبة فـــي تلك المدينة ذات الشتاءات الباردة والبيوت الحمراء الفكتورية، حيث بقي ثلاثة أشهر للحصول على عمله الأول الثابت. لقد تحطمت روحه، ولكنه لم يندم على ذلك. فقد حصل على الأمان الذي لا بد منه، وعلى زوجةٍ يتفاهم معها، وهو سيبدأ الآن مرحلة جديدة بالعودة إلى الجامعة، وهذا عمل طالما تشوق إليه، وها هو يجسد لعبة خيالية، اللعبة الراشدة التي لاذ بها طوال تلك السنوات: لعبة الأسبوع المثالي، حيث يلعب دور الثري فـــي نيويورك وباريس وفـــينيسيا مع لوكري. يمكنه أن يموت الآن وهو مطمئن.

ـــ هل صحيح أنكَ ستنفق ربع مدخراتك فـــي هذه الرحلة؟
فأكد وهو ينظر إلى عينيها:
ـــ أرغب فـــي أن أنفق الثلاثمئة ألف دولار التي تخصني، لأن بقية المبلغ هو من نصيب دوروثي. ليس من أجل الأسبوع كله، وإنما لأني استطعت أن أراك فقط، فـــي ساعة الفطور، بهاتين الساقين والذراعين والكتفـــين المكشوفة. هذا هو أجمل ما فـــي الدنيا يا لوكري.
وقبّلها دون ريغوبيرتو:
ـــ ما الذي كان سيقوله لو أنه رأى نهديك ومؤخرتك. إنني أحبك، أحبك.
ـــ فـــي تلك اللحظة قررتُ أن أريه البقية فـــي باريس ـــ قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تتهرب من قبلات زوجها ـــ. قررتُ ذلك حين كان قائد الطائرة يعلن أننا قد اخترقنا جدار الصوت.
ووافق دون ريغوبيرتو:
ـــ كان هذا هو أقل ما يمكنك عمله لسيد شديد الصراحة إلى هذا الحد.
ما إن استقر كل منهما فـــي مخدعه ـــ الإطلالة من غرفة لوكريثيا كانت تحيط بالمسلة القائمة فـــي ساحة الفاندوم التي تضيع فـــي الأعلى وواجهات محلات المجوهرات النمطية فـــي محيط الساحة ـــ حتى خرجا ليتمشيا. كان موديستو يحفظ الطريق ويحسب الوقت عن ظهر قلب. ذرعا التويليري، ثم اجتازا السين

ونزلا نحو سان جرمان عبر أرصفة الضفة اليسرى. ووصلا إلى الكنيسة قبل نصف ساعة من موعد الكونشرتو. كان مساء شاحباً ودافئاً فـــي خريف أضفى بريقاً على أشجار الكستناء، وبين حين وآخر كان المهندس يتوقف وفـــي يده الدليل والخارطة، كي يقدم إلى لوكريثيا معلومة تاريخية، مدينية، معمارية أو جمالية. وكان عليهما أن يجلسا متقاربين جداً على مقاعد الكنيسة غير المريحة والمزدحمة من أجل الكونشرتو. استمتعت لوكريثيا بالكآبة السخية لموسيقى **صلاة الجناز** لموزارت. وبعد ذلك، بينما هما يجلسان إلى طاولة فـــي الطابق الأول فـــي مطعم ليب، هنأت موديستو:

ـــ لا أستطيع أن أصدق أنها رحلتك الأولى إلى باريس. إنك تعرف الشوارع، والأنصاب التذكارية والعناوين وكأنك تعيش هنا.

ـــ لقد أعددت نفسي لهذه الرحلة مثلما أستعد لامتحان نهاية الدراسة يا لوكري. كنت أراجع كتباً، وخرائط، ووكالات سفر، وأستجوب الرحالة. أنا لا أجمع الطوابع، ولا أربي كلاباً، ولا ألعب الغولف. ومتعتي الوحيدة منذ سنوات هي الإعداد لهذا الأسبوع.

ـــ وهل كنتُ أنا ضمن مشروعك دائماً؟

فلاحظ دون ريغوبيرتو:

ـــ خطوة أخرى على طريق الغنج.

واحمر وجه بلوتو حياءً:

ـــ أنتِ دائماً ولا أحد سواكِ. فنيويورك، وباريس ، وفـــينيسيا، ودور الأوبرا، والمطاعم وكل هذه الأشياء ليست سوى الإطار. أما المهم، المركزي، فهو أنت وأنا، وحدنا فـــي المشهد.

رجعا إلى ريتز فـــي سيارة تكسي، متعبين ومنتشيين قليلاً بسبب كأس الشمبانيا، ونبيذ بورغونيا والكونياك الذي انتظرا ورافقا وودعا به طبق الشوكروت. وعند تبادل التمنيات بليلة سعيدة وهما واقفان فـــي الصالة التي تفصل بين حجرتي النوم، أعلنت دونيا لوكريثيا لموديستو دون أي تردد:

ــــ إنك تتصرف بصورة جيدة جداً، وأنا أيضاً أريد أن ألعب. سأقدم لك هدية.

اختنق بلوتو:

ــــ آه، صحيح؟ ما هي هذه الهدية يا لوكري؟

فغردت هي:

ــــ جسدي كله. أدخل عندما أناديك. ولكن لتنتظر فقط.

لم تسمع ما الذي ردّ به موديستو، ولكنها كانت واثقة من أنه كان مختنقاً من السعادة بينما وجهه الأبكم يهتز موافقاً فـــي الردهة الظليلة. ودون أن تعرف كيف ستفعل ذلك، بدأت تتعرى، وعلقت ثيابها، ثم أفلتت شعرها فـــي الحمام («مثلما يروقني يا حبيبتي؟». «مثلما يروقك تماماً يا ريغوبيرتو.») ثم رجعت إلى غرفتها، فأطفأت كل الأنوار باستثناء مصباح السرير الذي حركته بحيث يضيء النورُ المخففُ بكُمّة وردية ملاءاتِ السرير التي كانت قد هيأتها عاملة الفندق للنوم. ثم استلقت على ظهرها، ومالت قليلاً فـــي وضع متكاسل، مستسلم، وأراحت رأسها على الوسادة.

ــــ ادخل عندما تشاء.

«أغمضت عينيها كيلا تراه وهو يدخل»، فكر دون ريغوبيرتو

متأثراً بهذا التفصيل الخَفِر. كان يرى بوضوح، من وجهة نظر شبح المهندس المتردد والمتشوق الذي اجتاز عتبة الباب، فـــي تدرجات الضوء الزرقاوية، جسد التكورات الذي يضاهي الوفرات العذراوية عند موريللو، دون أن يصل إلى الإفراطات الروبنزية، مستلقٍ وإحدى الركبتين متقدمة، تغطي العانة، والركبة الأخرى تقدم نفسها، وانحناءات الردفـــين البارزة توازن حجم اللحم الذهبي فـــي منتصف السرير. ومع أنه كان قد تأمل ذلك الجسد، وتفحصه، وداعبه واستمتع به مرات ومرات، إلا أنه كان يراه الآن أول مرة بهاتين العينين الغريبتين. وخلال برهة لا بأس بها ـــــ وأنفاسه محبوسة وعضوه متصلب ـــــ أُعجب به. وبينما كانت دونيا لوكريثيا تقرأ أفكاره، دون أي كلمة تكسر الصمت، راحت تتقلب بين لحظة وأخرى بحركة كاميرا بطيئة، بتهاون من تظن أنها بمنجى من أي نظرات مسترقة، وتُظهر لموديستو المحترم، المسمر على بعد خطوتين من السرير، خاصرتيها وظهرها، مؤخرتها ونهديها، إبطيها منزوعي الشعر وأجمة العانة. وأخيراً، راحت تفتح ساقيها كاشفة عمق ما بين فخذيها وهلال عضوها.. «فـــي وضع الموديل المجهولة للوحة **أصل العالم**، لغوستاف كوربيه (1866)»، بحثت ووجدت دون ريغوبيرتو، منهوكاً من الانفعال لدى تأكده من أن نضارة البطن ومتانة الفخذين وقمة فـــينوس عند زوجته تتطابق بصورة ميليمترية مع المرأة مقطوعة الرأس فـــي تلك اللوحة الزيتية، أميرة مجموعة لوحاته الخاصة. وعندئذ تبخرت الأبدية:

ـــــ أشعر بالنعاس، وأظنك تشعر به أيضاً يا بلوتو. لقد حان وقت النوم.

ـــ تصبحين على خير ـــ رد على الفور ذلك الصوت وهو عند حافة السعادة أو الاحتضار. وتراجع موديستو متعثراً، ثم أُغلق الباب بعد ثوانٍ.

صاح دون ريغوبيرتو مفتوناً:

ـــ استطاع كبح نفسه، لم ينقض عليك مثل وحش جائع. لقد كنتِ تحركينه بطرف خنصرك.

ضحكت لوكريثيا:

ـــ لم أصدق ذلك. ولكن وداعته هذه كانت جزءاً من اللعبة أيضاً.

في صباح اليوم التالي حمل عاملٌ في الفندق إليها وهي في السرير باقة أزهار مع بطاقة تقول:«عيون ترى، وقلب يحس، وذاكرة تتذكر وكلبُ رسومٍ متحركة يشكرك من أعماق روحه».

اعتذر دون ريغوبيرتو وهو يطبق فمها بيده:

ـــ أشتهيك كثيراً. يجب علي أن أحبك.

ـــ تصور إذن كيف أمضى بلوتو المسكين تلك الليلة.

ـــ المسكين؟ ـــ جاء رد فعل دون ريغوبيرتو بعد الحب، بينما هما يستردان أنفاسهما، منهوكين وسعيدين ـــ ولماذا تقولين إنه مسكين؟

ـــ أنا أسعد رجل في العالم يا لوكري ـــ أكد لها موديستو تلك الليلة ما بين جولتين من **السترييتيز** في افتتاح استعراض **صالة الكريزي هورس**، وهما محاطان بسياح يابانيين وألمان، وبعد أن شربا زجاجة الشمبانيا ـــ. حتى القطار الكهربائي الذي أحضره لي

بابا نويل وأنا فـي العاشرة من عمري لا يمكن مقارنته بهديتك لي.

طوال النهار، بينما هما يجوبان أنحاء اللوفر، ويتغديان فـي مطعم كلوزري دي ليلا، ويزوران مركز بومبيدو أو يضيعان فـي أزقة ماربيه المتبدلة الطراز، لم يُشر بأدنى تلميح إلى الليلة السابقة. مواصلاً التصرف كرفـيق رحلة حسن الاطلاع، ووفـي وخدوم.

وأكمل دون ريغوبيرتو:

ـــ فـي كل شيء تحدثينني عنه، أزدادُ حسنَ ظنٍ به.

واعترفت دونيا لوكريثيا:

ـــ لقد حدث لي الشيء نفسه. خطوت فـي ذلك اليوم خطوة صغيرة أخرى، لكي أكافئه. ففـي مطعم مكسيم لامستْ ركبتاي ركبته طوال فترة تناول الطعام. وعندما رقصنا، أحس بملامسة نهدي له. وفـي **الكريزي هورس** أحس بساقيّ.

هتف دون ريغوبيرتو:

ـــ من مثله. يتعرف إليك على النمط المتسلسل، على حلقات، جزءاً بعد آخر. إنها لعبة القط والفأر فـي نهاية المطاف. وهي لعبة لا تخلو من خطورة.

تغنجت دونيا لوكريثيا:

ـــ لا، ليست خطرة يا بلوتو إذا ما كانت تُلعب مع رجل محترم مثلك. إنني سعيدة لأني وافقت على دعوتك يا بلوتو.

كانا قد رجعا إلى فندق ريتز، سعيدين وحالمين. وفـي صالة الجناح ودع كل منهما الآخر.

ـــ انتظر يا موديستو ـــ ارتجلت هي الكلام وعيناها

ترمشان ـــــ. مفاجأة، مفاجأة. أغمض عينيك.

انصاع بلوتو فـــي الحال، وقد حوّله التوقع. اقتربتْ منه، والتصقت به وقبّلته، بصورة سطحية فـــي أول الأمر، مدركة أنه سيتأخر فـــي الرد على الشفتين اللتين تلامسان شفتيه، وفـــي الرد بعد ذلك على توعدات لسانها. وحين فعل ذلك، أحست أن المهندس يسلّم إليها فـــي القبلة حبّه القديم، وتقديسه لها، وتخيله، وصحته (إذا كانت لديه صحة) وروحه. وعندما أمسكها من خصرها، بحذر، وباستعداد لإفلاتها لدى أول صدود، سمحت له دونيا لوكريثيا باحتضانها.

ــــ هل يمكنني أن أفتح عيني؟

ــــ يمكنكَ.

«وعندئذ نظر إليها، ليس نظرة باردة مثل نظرة الماجن دي ساد ــــ فكر دون ريغوبيرتو ــــ وإنما نظرة الصوفـــي النقية، الولوعة، والولهة فـــي لحظة التجلي والرؤيا.»

ــــ هل كان متهيجاً؟ ــــ أفلت السؤال منه، وندم على ذلك ــــ. يا للسؤال الأحمق. اعذريني يا لوكريثيا.

ــــ على الرغم من أنه كان متهيجاً، إلا أنه لم يحاول استبقائي بين ذراعيه. فقد ابتعد عني عند أول إشارة.

عاتبها دون ريغوبيرتو:

ــــ كان يتوجب عليك أن تذهبي معه إلى الفراش فـــي تلك الليلة. إنك تتعسفـــين، أو ربما لا. ربما فعلت ما هو واجب. أجل، أجل، بالطبع. فالبطيء، والرسمي، والشعائري، والمسرحي، هو

الإيروتيكي. لقد كان انتظاراً حكيماً. فالتسرع يقربنا من الحيوان. أتعرفين أن الحمار، والقرد، والخنزير والأرنب تنهي الجماع في اثنتي عشرة ثانية على الأكثر؟

ــــ ولكن الضفدع يستطيع مواصلة النكاح طوال أربعين يوماً وأربعين ليلة، دون توقف. لقد قرأت هذا في كتاب جان روستن: **من البعوضة إلى الإنسان**.

فقال لها دون ريغوبيرتو بإعجاب:

ــــ يا للحسد. إنك ممتلئة بالحكمة يا لوكريثيا.

ــــ إنها كلمات موديستو نفسها ــــ شوشته زوجته بإعادته إلى **قطارِ شرقٍ سريع** يمضي ثاقباً أوربا، باتجاه فينيسيا. وأضافت: ــــ قالها لي في اليوم التالي في قمرتنا من طراز **الحقبة الجميلة**.

وهذا ما كانت تقوله كذلك بطاقة باقة الأزهار التي وجدتها بانتظارها في فندق شيبرياني، في جيوديكا المشمسة: «إلى لوكريثيا، الجميلة في الحياة والحكيمة في الحب».

وقال لها دون ريغوبيرتو منبهاً إياها إلى سكة الحديد:

ــــ انتظري، انتظري. هل تقاسمتما تلك القمرة في القطار؟

ــــ قمرة بسريرين. أنا في العلوي وهو في السفلي.

ــــ أي أنكما...

فأكملت هي:

ــــ كان علينا أن نبدل ملابسنا وأحدنا فوق الآخر، حرفياً. لقد رأى كل منا الآخر بالملابس الدنيا، ولكن في الظلام. فقد

أطفأتُ كل الأنوار، باستثناء ضوء النوم الخافت.

تَكَبْرَتَ دون ريغوبيرتو:

ــــ الملابس الدنيا هو مفهوم عام ومجرد. حددي ما الذي يعنيه.

وقدمت له دونيا لوكريثيا التحديد. ففــي موعد خلع الملابس ــــ وكان **قطار الشرق السريع** الأسطوري يجتاز غاباتٍ ألمانية أو نمساوية، ويمر بين الحين والآخر بقرية ما ــــ، سألها موديستو إذا ما كانت تريده أن يخرج. فردت عليه دونيا لوكريثيا: «لا لزوم لذلك، ففــي هذه العتمة نبدو أشباحاً». جلس المهندس على السرير السفلي، منكمشاً على نفسه قدر ما يستطيع ليُفسح لها مزيداً من المجال. تعرتْ بحركات لا يشوبها أي إكراه أو جفاء، وكانت تدور حول نفسها فــي المكان كلما نزعت قطعة من ملابسها؛ الفستان، الثوب الداخلي، حمالة الصدر، السروال. وكان وميض المصباح الليلي، وهو على شكل فطر مزين بأشكال رُمْحيّة، يداعب عنقها، كتفــيها، نهديها، بطنها، إليتيها، فخذيها، ركبتيها، قدميها. ورفعت ذراعيها لتُدخل من رأسها بيجامة حرير صينية مزينة بتنانين.

ــــ سأجلس مكشوفة الساقين بينما أنا أُسرّح شعري بالفرشاة ــــ قالت وهي تفعل ما قالته ــــ إذا كان يستثيرك أن تقبّل ساقي، فــيمكنك أن تفعل ذلك. حتى الركبتين فقط.

أكان ذلك تعذيباً لإغوائه؟ أكان حديقة اللذة؟ كان دون ريغوبيرتو قد انزلق إلى نهاية السرير، فجلست دونيا لوكريثيا التي لاحظت ذلك، على الحافة لكي يقبل زوجها ــــ مثلما فعل بلوتو

فـــي **قطار الشرق السريع** ــــ ظاهر قدميها، ويتنشق عبير الدهون والعطور التي ترطب كاحليها، ويعضعض أصابع القدمين ويلعق الفجوات التي تفصل بينها.

ــــ أحبُّكِ وأُقدّركِ ــــ. قال دون ريغوبيرتو

ــــ أحبُّكِ وأقدركِ ــــ. قال بلوتو

ــــ والآن إلى النوم ــــ. أمرته دونيا لوكريثيا.

وصلا إلى فـــينيسيا فـــي صباح انطباعي، شمس متجبرة وسماء زرقاء بحرية، وبينما كان الزورق يحملهما إلى فندق شيبرياني بين تموجات متجعدة، ودليل ميشلان السياحي فـــي اليد، قدم موديستو إلى لوكريثيا شرحاً سريعاً حول قصور وكنائس القناة الكبرى.

قاطعها دون ريغوبيرتو:

ــــ بدأت أشعر بالغيرة يا حبي.

فاقترحت عليه دونيا لوكريثيا:

ــــ إذا كنت جاداً فـــي قولك، فسنمحو كل شيء يا قلبي.

فقال متراجعاً:

ــــ ولا بأي حال. الشجعان يموتون وهم ينتعلون جزمتهم، مثل جون واين.

من شرفة الشيبرياني، ومن فوق أشجار الحديقة، كانت تظهر بالفعل أبراج سان ماركوس وقصور الضفة. خرجا فـــي الجندول مع الدليل الذي كان بانتظارهما. وكان دوار أقنيةٍ وجسور، ومياه مخضرة وأسراب نوارس تحلق لدى مرورهم، وكنائس قاتمة لا بد

من إجهاد العيون فـــي التحديق من أجل رؤية رموز الألوهية والقداسة المعلقة عليها. رأيا أعمالاً لتيزاني وفـــيرونسي، وبيلليني وبيومبو، وخيول سان ماركوس، وفسيفساء الكاتدرائية وقدّما حبوب ذرة ضامرة لحمائم الساحة السمينة. وعند الظهر التُقِطت لهما الصورة الإجبارية على إحدى موائد **الفلوريان** بينما هما يتذوقان البيتزا المعروفة. وواصلا بعد الظهر الجولة وهما يسمعان أسماء وتواريخ وطرائف لا يكادان يصغيان إليها، مستغرقين فـــي هديل صوت دليل وكالة السياحة. وفـــي الساعة السابعة والنصف، وبعد أن استحما واستبدلا ملابسهما تناولا **البيلليني** فـــي قاعة الأقواس الموريسكية والطنافس العربية فـــي **دانييللي**، وفـــي الساعة المحددة ــــ الساعة التاسعة ــــ كانا فـــي هاريس بار. وهناك رأيا وصول كاترين دينوف الإلهية إلى المنضدة المجاورة (بدت وكأنها جزء من البرنامج). وقال بلوتو ما يجب عليه أن يقوله: «أنتِ تبدين لي أجمل منها يا لوكري».

فاستعجلها دون ريغوبيرتو:

ــــ ثم؟

قبل أن يركبا الزورق إلى **جيوديكا**، تأبطت دونيا لوكريثيا ذراع موديستو وقاما بجولة على الأقدام فـــي أزقة شبه مقفرة. ووصلا إلى الفندق بعد انتصاف الليل. تثاءبت دونيا لوكريثيا.

فقد دون ريغوبيرتو الصبر:

ــــ ثم؟

ــــ عندما أكون متعبة إلى هذا الحد من المشي ومن الأشياء

اللطيفة التي رأيتها لا أستطيع أن أغمض عيني ـــ تأسفت دونيا لوكريثيا ـــ. ولكن لديّ لحسن الحظ علاجاً لا يخطئ أبداً.

سألها موديستو:

ـــ وما هو؟

وقال دون ريغوبيرتو:

ـــ أي علاج؟

ـــ حمام جاكوزي، بمناوبة الماء البارد والساخن ـــ أوضحت دونيا لوكريثيا وهي تتجه نحو مخدعها. وقبل أن تختفي فيها، أشارت للمهندس باتجاه حجرة الحمام الفسيحة والمضاءة، ذات البلاط والبورسلين الأبيض على الجدران ـــ هل تملأ لي الجاكوزي بينما أضع روب الحمام؟

تململ دون ريغوبيرتو في مكانه بجزع مؤرقٍ لا يستطيع النوم: ثم؟ ذهبت هي إلى غرفتها، وتعرت على مهل، وكانت تطوي ملابسها قطعة فقطعة، وكأنها تمتلك الأبدية. ثم رجعت بروب بَشْكير، وبمنشفة أخرى كعمامة. وكان حوض الحمام الدائري يفور بفقاعات الياكوزي.

قال موديستو مستفهماً:

ـــ لقد أضفتُ أملاحاً. هل هذا مناسب أم سيء؟

ـــ إنها ممتازة ـــ قالت وهي تختبر الماء بطرف قدمها.

تركت روب البشكير الأصفر يسقط على قدميها، محتفظة بالمنشفة التي تشكل العمامة، ودخلت الحوض واستلقت في الجاكوزي. أسندت رأسها إلى وسادةٍ سارعَ المهندس إلى تقديمها

إليها. وتنهدت شاكرة.

ـــ هل يجب علي أن أفعل شيئاً آخر ـــ سمع دون ريغوبيرتو سؤال موديستو بصوت كالخيط ـــ هل أذهب؟ هل أبقى؟

كانت دونيا لوكريثيا تمط ساقيها وذراعيها متلذذة:

ـــ يا للذه، كم هي لذيذة مساجات الماء البارد هذه. بعدها، سأضيف الماء الساخن جداً ثم إلى السرير، وكأنني جديدة.

وافق دون ريغوبيرتو بزمجرة:

ـــ كنتِ تشوينه على نار هادئة.

ـــ ابقَ إذا شئت يا بلوتو ـــ قالت ذلك أخيراً، بملامح استغراق كمن هي تستمتع دون حدود بمداعبات الماء الذي يذهب ويجيء على جسدها ـــ. الحوض واسع جداً، هناك متسع. لماذا لا تستحم معي.

وسجلت أذنا دون ريغوبيرتو الصوت الغريب ـــ أهو نعيب بوم، أم زعيق ببغاء، أم زقزقة عصفور؟ ـــ الذي رد على دعوة امرأته. وبعد ثوان رأى المهندس عارياً، يغطس في الحوض. جسده الذي على ضفاف الخمسين، وقد كبح السمنة في الوقت المناسب بفضل تمارين الايروبيك ورياضة المشي التي يمارسها حتى مشارف الإصابة بنوبة قلبية، صار على بعد مليمترات عن جسد امرأته.

ـــ ماذا أستطيع أن أفعل أيضاً ـــ سمعه يقول ذلك، وأحس بازدياد تقديره له بقدر ازدياد غيرته ـــ لا أريد أن أفعل شيئاً لا

ترغبين فــيه. لن أتخذ أي مبادرة. كل المبادرات رهن يديكِ. فأنا فــي هذه اللحظة أكثر كائنات الخليقة سعادة وأكثرهم تعاسة.

وهمست هي دون أن تفتح عينيها، بسلسلة بوليرو:

ـــ يمكنك أن تلمسني. داعبني، فــي الجسد والوجه. ولكن لا تقترب من شعري ، لأنه إذا ابتل فسوف تخجل غداً منه يا بلوتو. ألا ترى أنك لم تترك فــي برنامجك أي ثغرة تتيح لي الذهاب إلى صالون تجميل؟

ودمدم دون ريغوبيرتو:

ـــ وأنا أيضاً أسعد إنسان فــي العالم. والأكثر تعاسة.

فتحت دونيا لوكريثيا عينيها:

ـــ لا تبق مرتعباً هكذا. فلن نستطيع البقاء طويلاً فــي الماء.

ولكي يراهما بصورة أفضل، أغمض دون ريغوبيرتو رموشه. وكان يسمع قرقعة الجاكوزي الرتيبة ويحس الدغدغة، وارتطامات الماء، ومطر القطرات التي تنتثر على البلاط، ويرى بلوتو وهو يبالغ فــي الاحتياطات حتى لا يبدو فظاً، بينما هو يجهد مع هذا الجسد اللدن المتاح له لمسه ومداعبته، والذي كان يسهّل بحركاته وصول يديه وشفتيه إلى كل أنحائه، ولكن دون أن يردّ على المداعبات أو القُبل، محتفظاً بحالة من التلذذ السلبي. وكان يشعر بالحمى تحرق بشرة المهندس.

ـــ ألن تقبليه؟ ألن تعانقيه يا لوكريثيا ولو مرة واحدة؟

ردت زوجته:

ـــ ليس بعد. فأنا أيضاً كان لدي برنامجي المدروس جيداً. ألم

يكن سعيداً؟

ـــــ لم أكن سعيداً فـــي حياتي مثلما أنا الآن ـــــ قال موديستو وهو يرفع رأسه من عمق الحوض، ما بين ساقي لوكريثيا، ثم يضيف قبل أن يغطس من جديد: ـــــ أرغب فـــي أن أغني صارخاً يا لوكري.

وتدخل دون ريغوبيرتو سامحاً لنفسه بعبارة مازحة:

ـــــ إنه يقول كل ما أشعر به بالضبط. ألم يكن ثمة مخاطرة فـــي هذه الطريقة الإيروتيك ـــــ مائية للتخلص من الإجهاد؟

ضحكَ، ولكنه ندم فوراً، متذكراً أن المزاح واللذة يتنافران مثل الماء والزيت. فقال معتذراً: «آسف لأني قاطعتكِ». ولكن الوقت كان قد فات. فقد بدأت دونيا لوكريثيا تتثاءب بطريقة دفعت المهندس المنهمك، فـــي جرأة مصطنعة، إلى التوقف ساكناً. استندت إلى ركبتيها وهي تقطر ماء، بينما رأسها مغطى، متظاهرة بالخضوع.

ـــــ ها أنت قد نعستِ يا لوكري.

ـــــ لقد حطّ عليَّ تعب النهار كله دفعة واحدة. لم أعد قادرة على المزيد.

خرجت من الحوض بقفزة سريعة، ولفت جسدها بالروب. ومن باب غرفتها تمنت له ليلة سعيدة بجملة جعلت قلب زوجها يقفز من مكانه:

ـــــ غداً سيكون يوماً آخر يا بلوتو.

ـــــ اليوم الأخير يا لوكري.

ـــــ والليلة الأخيرة أيضاً. قالت ذلك بتدلل وهي ترسل له قبلة.

بدأا صباح يوم السبت بتأخر نصف ساعة عن البرنامج، ولكنهما عوضاها فـي زيارتهما إلى مورانو، حيث شاهدا، تحت شمس جهنمية، صُنّاع الزجاج التقليدي بقمصان سجناء وهم ينفخون الزجاج ليحولوه إلى أشياء تزيينية أو استعمالية منزلية. أصر المهندس على لوكريثيا أن تبقى لتشتري المزيد، وقد قبلت شراء ثلاثة حيوانات شفافة: سنجاب، ولقلق، وفرس بحر. وفـي طريق العودة إلى فـينيسيا نوّرهما الدليل السياحي حول فـيلتين اثنتين للمعماري بالاديّو. وبدلاً من الغداء، تناولا شاياً مع بسكويت فـي كوادري، مستمتعين برؤية شفقٍ دامٍ يشعل سطوحاً، وجسوراً، ومياهاً، وأبراجاً، ووصلا مبكرين إلى سان جيورجيو من أجل الكونشيرتو الباروكي، فكان لديهما متسع من الوقت للتجوال فـي الجزيرة الصغيرة وتأمل البحيرة والمدينة من مواقع مختلفة.

علقت دونيا لوكريثيا:

ــــ اليوم الأخير يكون كئيباً دوماً. كل هذا سينتهي غداً وإلى الأبد.

ــــ أكان كل منكما يمسك بيد الآخر؟ ــــ أراد دون ريغوبيرتو أن يعرف.

واعترفت زوجته:

ــــ أجل، وكنا كذلك طوال الكونشيرتو.

ــــ هل ذرف المهندس دموعه؟

ــــ كان شاحباً. وكان يضغط على يدي بينما عيناه تلمعان.

«من الامتنان والرجاء»، هكذا فكر دون ريغوبيرتو. وارتدّت

لفظة الاستدراك «عيناه» فـــي نهاياته العصبية. ومنذ تلك اللحظة قرر أن يصمت. وبينما كانت دونيا لوكريثيا وبلوتو يتعشيان فـــي دانيللي، متأملين أضواء فـــينيسيا، احترم كآبتهما، ولم يقاطع حوارهما العادي، وعانى بصبر وهو يرى خلال العشاء أن الرعاية لم تعد تقتصر على ما يقدمه موديستو. فلوكريثيا كانت تقدم له أيضاً قطعاً من الخبز المحمص مطلية بالزبد، وتعرض عليه أن يتذوق، بشوكتها الخاصة، لقيمات من طبق معكرونتها، وتتنازل له راضية عن يدها كلما أراد أن يرفعها إلى فمه ويلصقها بشفتيه: مرة راحتها، وأخرى ظاهر يدها، وأخرى الأصابع، ثم كل ظفر من أظفارها. وراح ينتظر ما لا بد من حدوثه على أي حال بقلب منقبض وانتصاب ابتدائي.

وبالفعل، فما إن دخلا إلى الجناح فـــي فندق شيبرياني حتى أمسكت دونيا لوكريثيا بذراع موديستو وأحاطت به خصرها، ثم داعبت شفتيه بفم قبالة فم، ولسان فـــي مواجهة لسان، ودمدمت:

ـــــ سنقضي الليلة معاً على سبيل الوداع. وسأكون معك لطيفة، رقيقة، محبة، مثلما لم أكن إلا مع زوجي.

وابتلع دون ريغوبيرتو استركنين وعسلاً:

ـــــ هل قلتِ له هذا؟

فذعرتْ امرأَته:

ـــــ هل أسأتُ القول؟ أكان يجب عليّ أن أكذب؟

ونبح دون ريغوبيرتو:

ـــــ بل أحسنتِ صنعاً يا حبي.

فـــي حالة ملتبسة يُفسد فـــيها التهيجُ الغيرةَ ويتغذيان كلاهما بمؤثرات سابقة، رآهما يتعريان، وقدّر الطلاقة التي فعلت بها زوجته ذلك واستمتع ببلادة هذا الفاني المحظوظ المثقل بالسعادة التي كوفئ بها فـــي تلك الليلة الأخيرة، بحيائه وإذعانه. ستكون له، سيحبها: اليدان لا تستطيعان فك أزرار القميص، تضطربان عند زر البنطال، تتعثران لدى خلع الحذاء، وعندما يريد الصعود ـــ متجاوزاً الحدود ـــ إلى السرير المغلل بالعتمة حيث الظَهر فـــي وضع خامد ـــ وفكر دون ريغوبيرتو «**الجميلة العارية** لغويا، رغم أن الفخذين منفتحان أكثر» ـــ ظهر هذا الجسد العظيم، اصطدم كاحله بحد السرير وصرخ «آي ي ي**!**». واستمتع دون ريغوبيرتو بالبرودة الجليدية التي سببها الحادث للوكريثيا. وكان موديستو يضحك أيضاً وهو راكع فـــي الفراش: «إنه الانفعال يا لوكري، إنه الانفعال».

انطفأت جمرات لذته حين رأى زوجته، بعد خنق الضحكة، تتخلى عن عدم المبالاة الصنمية التي تلقت بها فـــي اليوم السابق مداعبات المهندس وتأخذ هي زمام المبادرة. عانقته، أجبرته على الاستلقاء بجوارها، فوقها، تحتها، وشابكت ساقيها بساقيه، وبحثت عن فمه، وغرست فـــيه لسانها و ـــ «آي آي» غاب دون ريغوبيرتو ـــ قرفصت باستعداد محب، واصطادت بين أصابعها الرقيقة العضو البارز ومرت به على ظهرها وعلى رأسها وحملته إلى شفتيها وقبلته قبل أن تواريه فـــي فمها. وعندئذ، راح المهندس يتواثب على السرير اللين وبدأ يغني ـــ يزمجر، يعوي ـــ

بصوت من حلقه **عد إلى سورينتو**.

نهض دون ريغوبيرتو بعنف:

ــــ هل بدأ يغني **عد إلى سورينتو**؟ أفـــي تلك اللحظة؟

ــــ هكذا بالضبط ــــ وعادت دونيا لوكريثيا تطلق القهقهة، وتكبحها وتعتذر ــــ. إنك تدهشني يا بلوتو. أتغني لأن هذا يعجبك أم لأنه لا يعجبك؟

ــــ أغني كي يعجبني ــــ أوضح لها مرتعشاً ومتورداً، ما بين صياح ديكة ونغمات سريعة.

ــــ أتريدني أن أتوقف؟

فابتهل موديستو بانبساط:

ــــ أريدك أن تواصلي يا لوكري. اضحكي، ليس مهماً. فأنا أغني كي تصبح سعادتي كاملة. أغلقي أذنيك إذا كان غنائي يُلهيك عما أنت فـــيه أو يسبب لك الضحك. ولكن لا تتوقفـــي بحق أعز ما لديك.

ــــ وهل واصل الغناء؟ ــــ صرخ دون ريغوبيرتو ثملاً، ومجنوناً بالمتعة.

وأكدت دونيا لوكريثيا بين نوبات فواق:

ــــ دون أن يتوقف ثانية واحدة. بينما أنا أقبله وبينما هو يجلسني فوقه أو هو فوقي، وبينما نحن نمارس الحب العادي والمغاير، كان يغني. كان لابد له من الغناء، لأنه إذا لم يغن، يُخفق.

ــــ وطوال الوقت كان يغني **عد إلى سورينتو**؟ قال دون ريغوبيرتو ذلك متلذذاً بمتعة الانتقام العذبة.

ـــ أي أغنية من أغنيات أيام شبابي ـــ ترنم المهندس قافزاً بكل ما فـي رئتيه من قوة، من إيطاليا إلى المكسيك ـــ. **سأغني وصلة كئيبة جداً...**

وحددت دونيا لوكريثيا:

ـــ غنى خليطاً من أغنيات متكلفة من الخمسينيات: **لي وحدي، درب صغير، خوان تشاراسكيادو، هناك فـي المزرعة الكبيرة.** وحتى أغنية **مدريد** لأغوسطين لارا. آي، كم هو مضحك**!**

ـــ ومن دون هذا الغناء المبتذل، هل كان سيُخفق حقاً؟ ـــ طلب دون ريغوبيرتو تأكيد ذلك وهو يحلق فـي السماء السابعة ـــ إنها أفضل الليالي يا حبي.

ـــ ليس الأفضل هو ما سمعتَه، فالأفضل كان فـي النهاية، ذروة التهريج ـــ قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تمسح دموعها ـــ. فقد بدأ النزلاء المجاورون بالدق على الجدران، واتصلوا بالاستعلامات طالبين منا أن نخفض صوت التلفاز، أو المسجلة، لأن أحداً لم يعد يستطيع النوم فـي الفندق.

وألمح دون ريغوبيرتو بأمل ضعيف:

ـــ أي أنك أنت وهو لم تنتهيا...

فأعادته دونيا لوكريثيا إلى الواقع:

ـــ أنا مرتان. وهو مرة واحدة على الأقل، إنني واثقة من ذلك. وعندما كان جاهزاً من أجل المرة الثانية، بدأت المشادة وقطعت إلهامه. وانتهى كل شيء بالضحك. يا لتلك الليلة.

ـــ ها أنت تعرفـين الآن سري أيضاً ـــ قال ذلك موديستو

بعد أن هدأ النزلاء والاستعلامات، وبعد أن انطفأت ضحكاتهما، وهدأت اندفاعاتهما، وبعد أن تدثرا بروبي حمام فندق شيبرياني وجلسا يتحدثان: ـــ ألا يهمك أن نتجاهل الحديث فـــي هذا الأمر؟ فهو كما تتصورين، يسبب لي الخجل... وأخيراً، دعيني أقول لك إنني لن أنسى هذا الأسبوع مطلقاً يا لوكري.

ـــ وأنا أيضاً يا بلوتو. سأتذكره دائماً. وليس بسبب الكونشرتو فقط، أقسم لك.

ناما مثل خادمتين أنجزتا واجبات الضمير، وكانا منذ الصباح الباكر فـــي المرسى ليركبا الزورق البخاري إلى المطار. وقد أحكمت أليطاليا مواعيدها أيضاً وخرجت طائرتها دون تأخير، وهكذا لحقا بالكونكورد الذاهبة من باريس إلى نيويورك. وهناك توادعا، مدركين أنهما لن يعودا إلى اللقاء فعلاً.

ـــ قولي لي إنه كان أسبوعاً فظيعاً، وإنك كرهتِه ـــ أنَّ فجأة دون ريغوبيرتو وهو يضغط خاصرة امرأته ويرفعها لتمتطيه ـــ ألم يكن كذلك يا لوكريثيا؟

ـــ لماذا لا تجرب أن تغني شيئاً، بصوت منتوف ـــ اقترحت عليه هي بصوتها المخملي الذي تحتفظ به لأفضل اللقاءات الليلية ـــ. غنِ شيئاً مبتذلاً يا حبي. **زهرة القرفة**، أو **أنتظرُ مدخناً**، أو **برازيل يا أرض قلبي**. ولننظر ما الذي سيحدث يا ريغوبيرتو.



III. لعبة اللوحات

ـــ كم يبدو الأمر مضحكاً يا خالتي ـــ قال فونتشيتو ـــ

جورباك الأخضران القاتمان يشبهان تماماً جوربي إحدى موديلات إيغون شيلي.

نظرت السيدة لوكريثيا إلى الجوربين الصوفـــيين السميكين اللذين يغطيان ساقيها إلى ما فوق الركبتين، وقالت وهي تلمسهما:

ـــ إنهما مناسبان جداً لرطوبة ليما. بفضلهما تبقى قدماي دافئتين.

فقال الطفل متذكراَ:

ـــ ***عارية متكئة بجوربين أخضرين***. إنها إحدى أكثر لوحاته شهرة. أتريدين رؤيتها؟

ـــ لا بأس. أرني إياها.

وبينما كان فونتشيتو يسرع لفتح حقيبته التي ألقاها، كعادته، على سجادة الصالة وغرفة الطعام، أحست السيدة لوكريثيا بالقلق الذي اعتاد الطفل أن يبعثه فـــيها بهذه الحركات المفاجئة التي تبدو لها دائماً كأنها تخفـــي شيئاً خطيراً تحت مظهرها البريء.

ـــ يا لهذا التطابق يا خالتي ـــ كان فونتشيتو يقول ذلك وهو يُقلّب الكتاب الذي يضم صوراً للوحات شيلي بعد أن أخرجه من الحقيبة ـــ. أنا أشبهه وأنت تشبهين إحدى موديلاته فـــي أشياء كثيرة.

ـــ فـــي ماذا، مثلاً؟

ـــ بهذين الجوربين الأخضرين، أو الأسودين أو البنيين اللذين تلبسينهما. وكذلك بملاءة سريرك ذات المربعات.

ـــ يا للعنة، كم أنت دقيق الملاحظة.

ــــ وأخيراً بالمهابة ــــ أضاف فونتشيتو ذلك دون أن يرفع بصره، مستغرقاً فـــي البحث عن ***عارية متكئة بجوربين أخضرين.***

ولم تعرف دونيا لوكريثيا إذا ما كان عليها أن تضحك أم تسخر. أهو مدرك للمغازلة المنتقاة أم أنها خرجت منه مصادفة؟ ــــ ألم يكن أبي يقول إن لك مهابة عظيمة؟ وإنك مهما فعلتِ لا يبدو فـــيك شيء مبتذل؟ وقد استطعتُ أن أفهم ما كان يعنيه بفضل شيلي. فموديلاته يرفعن تنانيرهن، ويكشفن كل شيء، ويظهرن فـــي أوضاع شديدة الغرابة، ولكن لا يبدو عليهن الابتذال أبداً. إنهن ملكات على الدوام. لماذا؟ لأن لهن مهابة. مثلك يا خالتي.

كانت دونيا لوكريثيا المرتبكة، المفتونة، المستثارة، المذعورة تريد ولا تريد أن تضع حداً لذلك التفسير. وعادت تشعر بعدم الأمان مرة أخرى:

ــــ يا للأشياء التي تقولها يا فونتشيتو.

ــــ ها هي! ــــ هتف الطفل بذلك وهو يقدم إليها الكتاب ــــ. أترين ما أقوله لك؟ أليست فـــي وضع سيبدو معه سيئاً اتخاذها أي وضع آخر؟ ولكن ليس الأمر فـــي الوضع يا خالتي. هذه هي المهابة.

ــــ دعني أرى ــــ تناولت السيدة لوكريثيا الكتاب، وبعد أن تأملت ملياً **العارية المتكئة بجوربين أخضرين**، قالت موافقة ــــ: صحيح، إنه نفس لون الجورب الذي ألبسه.

ــــ ألا تبدو لك جميلة؟

ــــ بلى، إنها جميلة جداً ــــ وأغلقت الكتاب وأعادته إليه

بخفة. وأثقلت عليها مرة أخرى فكرة أنها فقدت المبادرة، وأن الطفل قد بدأ يهزمها. ولكن، أي معركة هي هذه؟ وجدت عيني ألفونسو: لامعتين بضوء خاطئ مع ابتسامة متوعدة فـــي وجهه الطازج.

ـــ أأستطيع أن أطلب منك خدمة كبيرة جداً؟ أكبر خدمة فـــي الدنيا؟ هل ستحققينها لي؟

وخطر لها وهي مرتعبة: «سيطلب مني أن أتعرى. سأطرده ولن أراه مطلقاً». وكرهت فونتشيتو وكرهت نفسها.

ـــ أي خدمة هي؟ ـــ تلعثمت محاولة ألا تبدو ابتسامتها جنائزية.

وترنم الصوت النحيل العذب:

ـــ أن تقفـــي مثل السيدة التي فـــي لوحة **عارية متكئة بجوربين أخضرين**. لحظة واحدة فقط يا خالتي!

ـــ ماذا تقول؟

فطمأنها الطفل وهو يحرك عينيه ويديه ويجعد أنفه:

ـــ ولكن دون أن تتعري بالطبع. هذا البوز. إنني أموت رغبة فـــي ذلك. ألا تقدمين لي هذه الخدمة الكبيرة، الكبيرة؟ لا تكوني سيئة يا خالتي.

فقالت خوستينيانا وهي تُظهر وتبدي مزاجها اليومي الرائع:

ـــ لا تتوسلها كثيراً، أنت تعرف جيداً أنها ستقدم لك هذه الخدمة راضية. بما أن عيد ميلاد فونتشيتو غداً، فلتكن هذه هي هديتكِ إليه.

صفق الطفل:

ـــــ برافو يا خوستينيانا! فلنتعاون كلانا وسنتمكن من إقناعها. ألا تقدمين لي هذه الهدية يا خالتي؟ ولكن يجب أن تخلعي حذاءك.

ـــــ اعترفْ بأنك تريد رؤية قدمي السيدة لأنك تعرف أنهما جميلتان. ـــــ استحثته خوستينيانا وهي أكثر تهوراً مما فـــي المساءات الأخرى. وكانت تضع الكوكا كولا وكأس المياه المعدنية التي طلباها على المنضدة.

فأكد الطفل ببراءة:

ـــــ كل شيء فـــيها جميل. هيا يا خالتي، لا تخجلي منا. إذا أنت أردت فـــيمكننا أنا وخوستنيانا أن نلعب بعد ذلك لوحة أخرى لإيغون شيلي.

ودون أن تدري السيدة لوكريثيا بماذا تجيب، أو أي مزحة تقول، أو كيف تداري غضباً لا تشعر به، وجدت نفسها فجأة وهي تبتسم وتهز رأسها موافقة، متلعثمة «ستكون هذه هي هدية عيد ميلادك يا ذا النزوات»، وكانت فـــي أثناء ذلك تخلع من قدميها، وتنحني وتستلقي على الأريكة الطويلة. حاولت أن تقلد صورة اللوحة التي فتحها فونتشيتو وهو يشير إليها، مثل مخرج مسرحي يعطي تعليماته لنجمة الاستعراض. كان حضور خوستينيانا يُشعرها بالحماية، على الرغم من أن المجنونة قد وقعت الآن فـــي هوى الوقوف إلى جانب فونتشيتو. وفضلاً عن كونها شاهدة هناك، فإنها تضفـــي شيئاً من الزينة على المشهد الفريد. حاولت أن تنقل ما تقوم به إلى الاستهزاء، «أهكذا هو الوضع؟ لا، الظهر أعلى قليلاً، والعنق مثل الدجاجة، والرأس مستوٍ»، بينما هي تستند إلى مرفقيها،

تمد ساقاً وتثني الأخرى، محاكية وضع الموديل. كانت أعين خوستينيانا وفونتشيتو تنتقلان من النظر إليها إلى النظر للوحة، ومن اللوحة إليها، وكانت عينا الفتاة تضحكان بينما عينا الطفل تتحركان بتركيز عميق. وخطر لدونيا لوكريثيا أن تقول: «هذه اللعبة هي الأكثر جدية فـــي الدنيا».

ـــــ إنك مماثلة تماماُ يا سيدتي.

فانتزع فونتشيتو منها الكلام:

ـــــ ليس بعد. يجب أن ترفعي ركبتك أكثر يا خالتي. أنا سأساعدك.

وقبل أن يتاح لها الوقت لأن ترفض السماح له، كان الطفل قد سلّم الكتاب إلى خوستينيانا، واقترب من الأريكة ووضع يديه تحت ركبتها، حيث ينتهي الجورب الأخضر القاتم ويبدأ الفخذ. رفع ساقها وحركها وهو يدقق فـــي اللوحة. ملامسة الأنامل النحيلة لانحناءتها العارية أربكت دونيا لوكريثيا. وبدأ النصف السفلي من جسدها بالارتعاش. كانت تشعر بنبض، بدوار، بشيء متسلط وقاهر يجعلها تتألم متلذذة. وعند ذلك اكتشفت نظرة خوستينيانا. فحدقتا ذلك الوجه الأسمر الملتهبتان كانتا مفعمتين بالكلام. وفكرت دونيا لوكريثيا بخجل: «إنها تعرف حالتي». وجاءت صرخة الطفل لتنقذها:

ـــــ الآن يا خالتي! أليستْ مثلها بالضبط يا خوستيتا؟ ابقي هكذا لحظة من فضلك.

وجلس على السجادة مستغرقاً فـــي غيبوبة وهو يقاطع ساقيه مثل شرقي، نظرته مفتونة، وفمه مفتوح قليلاً، وعيناه قمران

مكتملان. ظلت دونيا لوكريثيا خمس ثوان، عشر، خمس عشرة ثانية ساكنة، مصابة بعدوى الوقار التي أخذ بها الطفل اللعبة. ثم حدث شيء. أهو توقف الزمن؟ أم هاجس المطلق؟ أم سر الكمال الفني؟ وداهمها الشك فجأة: «إنه مثل ريغوبيرتو. لقد ورث عنه مخيلته الملتوية، ونزواته، وقدرته على الإغواء. ولكن، لحسن الحظ أنه لم يرث كذلك وجهه المكتبي، ولا أذنيه الدومبويتين، ولا أنفه الذي مثل الجزرة». وقد تكلفتْ جهداً فـي كسر ذلك الجو السحري:

ـــ يكفـي. جاء دوركما الآن.

وسيطرت خيبة الأمل على الملاك. ولكنه استعاد رد فعله فـي الحال:

ـــ معك حق. فهذا ما اتفقنا عليه.

فحثتهما دونيا لوكريثيا:

ـــ إلى العمل. أي لوحة ستقدمان؟ أنا سأختار. أعطني الكتاب يا خوستينيانا.

فنبهها فونتشيتو:

ـــ هناك لوحتان فقط تنفعان لخوستيتا ولي. **أم وابن**، و**عري رجل وامرأة متكئين ومتقابلين**. أما اللوحات الأخرى فهي لرجال وحيدين أو نساء وحيدات أو لامرأتين معاً. اختاري أيهما تشائين يا خالتي.

ـــ يا للعارف بكل شيء! ـــ هتفت خوسينيانا مذهولة.

تفحصت دونيا لوكريثيا الصور، وبالفعل، كانت اللوحتان اللتان ذكرهما فونتشيتو هما الوحيدتان اللتان يمكن تقليدهما. فاستبعدت

الثانية، لأنه، أي شبه يمكن أن يوجد بين طفل أمرد وهذا الملتحي الأشقر الذي يحدد مؤلف الكتاب هويته بأنه الفنان فـيلكس ألبريخت هارتا، والذي ينظر إليها من صورة اللوحة الزيتية بملامح بلهاء، غير مبالٍ بالعارية مطموسة الوجه ذات الجوربين الأحمرين التي تزحف مثل حيّة غرامية تحت ساقه المنحنية؟ أما لوحة **الأم والطفل** ففـيها على الأقل تناسب فـي السن مماثل لتناسب عمري ألفونسو وخوستينيانا.

تصنعت الخادمة الذعر:

ـــ يا لوضع هذه الأم وهذا الابن. لا أظنك ستطلب مني خلع ثوبي يا قليل الحياء.

فأجابها الطفل دون مزاح:

ـــ البسي على الأقل جوربين أسودين. وأنا سأخلع حذائي وقميصي فقط.

لم تكن هناك بذاءة فـي صوته، ولا أي ظل لخلفـية خبيثة. أرهفت دونيا لوكريثيا سمعها، وتفحصت بارتياب الوجه الناضج قبل موعده: لا، ليس فـيه أي ظل. هل كان ممثلاً بالغ الكمال. أم أنه طفل نقي بينما هي بلهاء، وعجوز دنسة؟ ما الذي أصاب خوستينيانا، إنها لا تتذكر أنها رأتها متنكرة إلى هذا الحد طوال السنوات التي عاشتها معها.

ـــ أي جورب أسود سألبس، هل تراني أملك جورباً أسود؟

ـــ فلتعرك إياه خالتي.

وبدلاً من أن تُوقف اللعبة، مثلما كان يشير عليها عقلها، سمعت

نفسها تقول: «بالطبع». وذهبت إلى حجرتها ورجعت بالجوربين الأسودين اللذين تلبسهما فـــي ليالي البرد. وكان الطفل فـــي أثناء ذلك يخلع قميصه. لقد كان نحيلاً، متناسقاً، ما بين الأبيض والذهبي. رأت دونيا لوكريثيا صدره، ذراعيه الطويلتين، وكتفـــيه بعظامهما البارزة، فتذكرت. هل كان قد حدث كل ذلك إذن؟ كانت خوستينيانا قد توقفت عن الضحك متجنبة النظر إليه. إنها على الجمر أيضاً.

استعجلها الطفل:

ـــ البسي الجوربين يا خوستيتا. هل تريدين أن أساعدك؟

ـــ لا، شكراً جزيلاً.

كانت الفتاة قد فقدت كذلك التلقائية والثقة اللتين قلما تغادرانها. ارتبكت أصابعها، ولبست الجوربين مائلين. وبينما كانت تمسدهما وترفعهما، انحنت محاولة إخفاء ساقيها. وظلت مطرقة إلى جانب الطفل، على السجادة، وهي تحرك يديها دون أن تنبس بكلمة.

قال ألفونسو:

ـــ فلنبدأ. فمك إلى أسفل، الرأس على ذراعيك المتقاطعين كوسادة. يجب أن ألتصق بجانبك الأيمن. ركبتاي على ساقيك، ورأسي على خاصرتك. ولكن، بما أنني أكبر من طفل اللوحة، فسأصل حتى كتفك. هل نشبه اللوحة فـــي شيء يا خالتي؟

دونيا لوكريثيا التي كانت تمسك الكتاب بيدها، انحنت فوقهما وقد سيطر عليها هاجس الكمال. اليد الصغيرة اليسرى يجب أن تظهر تحت كتف خوستينيانا اليسرى، والوجه الصغير أقرب إلى هنا. «اسند يدك اليمنى إلى ظهرها يا فونتشو، ولتسترح هي. أجل،

الآن تشبهان اللوحة كثيراً».

جلست على المقعد وتأملتهما، دون أن تراهما، مستغرقة فـــي أفكارها، مذهولة مما يحدث. لقد كان هذا الطفل ريغوبيرتو آخر، مُصحَحاً ومزيداً. مزيداً ومصححاً. أحست بأنها قد ذهبت، تغيرت. ظلا هما ساكنين، يلعبان بكل جدية. لا أحد يبتسم. والعين الوحيدة التي أبقاها الوضع لخوستينيانا لم تعد تتدارى بخبث، بل بدأ يظهر فـــيها وسن متكاسل. أتكون متهيجة أيضاً؟ أجل، أجل، مثلها، بل أكثر منها. فونتشيتو وحده ـــ بعينيه المغمضتين لكي يبدو أقرب إلى طفل شيلي مطموس الوجه ـــ كان يبدو وكأنه يمارس اللعبة دون أي حيلة أو إضافة. كان الجو قد تكثف، وضجة بستان الزيتون قد انطفأت، والزمن قد انزلق، والبيت الصغير، وحي سان ايسيدرو بأسره قد تبخر.

وأخيراً قال فونتشيتو وهو ينهض:

ـــ لدينا متسع من الوقت لتمثيل لوحة أخرى. الآن، أنتما الاثنتان. ما رأيكما؟ هذه وحدها، اقلبي الصفحة يا خالتي، هذه اللوحة وحدها يمكن أن تكون مضبوطة تماماً. **فتاتان ترقدان متشابكتين**. لا تتحركي يا خوستيتا. انقلبي فقط. استلقي بجانبها يا خالتي، على ظهرك فوقها. يدك هكذا، فوق ردفها. أنتِ ذات الفستان الأصفر يا خوستينيانا. قلديها. هذه الذراع هنا، والذراع اليمنى مرريها تحت ساقي الخالة. وأنتِ عليك أن تنحني قليلاً، لتصطدم ركبتك بكتف خوستيتا. ارفعي هذه اليد، وضعيها على ساق خالتي، افتحي أصابعك. هكذا، هكذا، بالضبط!

كانتا صامتتين، مطيعتين، تلتحمان، تنفصلان، تحنيان أرجلهما، أذرعهما، رقبتيهما، أو تمدانها أو تقلصانها. أتنقادان بوداعة؟ أهما مسحورتان؟ مفتونتان؟ «بل مهزومتان»، أقرت بذلك دونيا لوكريثيا. وكان رأسها يستريح على فخذي الفتاة، ويدها اليمنى تمسك بخاصرتها. وبين حين وآخر، تضغط عليها لتحس بالرطوبة والحرارة المتصاعدة منها، ورداً على هذا الضغط، كانت أصابع خوستينيانا تغرق أيضاً فـــي فخذها الأيمن وتجعلها تحس بأنها تحس بها. لقد كانت حية. بالطبع كانت حية؛ فهذه الرائحة الزخمة، الكثيفة، والمقلقة التي تشمها، من أين ستأتي إلا من جسد خوستينيانا؟ أم أنها تصدر منها هي نفسها؟ كيف وصلتا إلى هذا الحد؟ ما الذي حدث دون أن تدركا ـــــ أو وهما مدركتان ـــــ حتى جعلهما هذا الطفل تمارسان هذه اللعبة؟ لا يهمها ذلك الآن. إنها تشعر بأنها على ما يرام ضمن اللوحة. إنها على ما يرام مع نفسها، مع جسدها، مع خوستينيانا، ومع الظروف التي تعيشها. وسمعت فونتشيتو يبتعد:

ـــــ مؤسف أنني مضطر للذهاب. مع أن اللعبة أصبحت حلوة. ولكن، يمكنكما أن تواصلا اللعب. شكراً لهديتك يا خالتي.

سمعته يفتح الباب، وسمعته يغلقه. لقد انصرف. لقد تركهما وحيدتين، متشابكتين، مهجورتين، تائهتين فـــي إحدى تخيلات رسامه المفضل.

أفهم يا سيدتي أن البدائل النسائية التي تمثلينها قد أعلنت الحرب على الأعضاء الجنسية الذكرية وأن فلسفة حركتك تستند إلى القناعة بأن البَظْر متفوق معنوياً وجسدياً وثقافــياً وإروتيكياً على القضيب، وأن المبيضات أنبل طبيعة من الخصيات.

أوافقك على أن طروحاتك يمكن الدفاع عنها. ولست أنوي أن أبدي أدنى معارضة لك. فتعاطفـــي مع الحركة النسوية عميق، وإن كان يأتي فـــي المرتبة التالية لحبي للحرية الشخصية وحقوق الإنسان، وهي ضمن حدود لا بد لي من تحديدها حتى يكون هناك مغزى لما سأقوله فــيما بعد. أبدأ بالتعميم، وبما هو أكثر جلاء، لأؤكد أنني مؤيد لإلغاء كل العقبات القانونية التي تحول دون وصول المرأة إلى المسؤوليات نفسها التي يصل إليها الذكر، ومؤيد للمعركة الفكرية والأخلاقية ضد الأحكام المسبقة التي يستند إليها انتقاص حقوق النساء، وأسارع لأضيف أن من ضمنها، بل وأكثرها أهمية برأيي، بالنسبة للذكور أيضاً، هو حق المتعة، والذي يبرز منه ـــــ وأنا متأكد من ذلك ـــــ خلافنا الأول.

ولكن الخلاف الأساسي، وأخشى أن يكون الخلاف الذي لا رجعة عنه، لأنه يفتح الهوة التي لا سبيل إلى ردمها فـــي ما بين حضرتك وبيني ـــــ أو بين قضيبي ومهبلك، لكي نبقى ضمن حدود الحيادية العلمية ـــــ هذا الخلاف الأساسي، يرتكز من وجهة نظري، إلى أن الحركة النسوية هي مقولة مفهوم جماعي، بمعنى أنها مغالطة سفسطائية، لأنها تسعى إلى أن تحيط فـــي مفهوم نوعي متجانس، تشكيلةً جماعية فسيحة من الفرديات غير المتجانسة،

الاختلافات والتفاوتات فـيها لا تقل أهمية (بل هي أكثر أهمية بالتأكيد) من القاسم المشترك البظري أو المَبيضي. وما أعنيه، دون أي قفزات بهلوانية مستهترة، أن كون المرء مزوداً بقضيب أو ببظر (وهي أجهزة ملتبسة الحدود، مثلما سأثبتُ لكِ فـيما بعد) هو فـي رأيي أقل شأناً فـي التفريق ما بين كائن وآخر من المواصفات الأخرى (العيوب، الفضائل، النقائص) الخاصة بكل فرد. وقد أدى تجاهل ذلك إلى تمكين الأيديولوجيات من خلق أشكال من التعسف فـي المساواة تكون أسوأ عموماً من تلك المظالم التي تسعين إلى أن تثوري ضدها. وأخشى أن الحركة النسوية، من النوع الذي تقودينه حضرتك، ستواصل المضي فـي هذا الطريق فـي حال انتصار طروحاتك، وهو أمر، من وجهةِ نظرٍ تنطلق من ظروف المرأة، لا يعني أي شيء آخر ـــ باللغة العامية ـــ سوى استبدال المخاط باللعاب.

هذه الأمور بالنسبة لي هي اعتبارات تنطلق من مبدأ أخلاقي وجمالي، لستِ حضرتك معنية بمشاطرتي إياها. ولكن لحسن الحظ أن العلم يقف إلى جانبي أيضاً. وستتأكدين من ذلك إذا ما ألقينا نظرة، مثلاً، على أعمال بروفسورة الوراثة والعلوم الطبية فـي جامعة براون، الدكتورة آن فاوستو ـــ ستيرلينغ التي تصرخ منذ سنوات عديدة للبرهنة، أمام حشود متبلدة بسبب التوافقات الاجتماعية والخرافات والعمى حيال الحقيقة، بأن الأجناس البشرية لا تقتصر على الجنسين اللذين جعلونا نؤمن بأنهما الجنسان الوحيدان ـــ مذكر ومؤنث ـــ بل هناك على الأقل خمسة أجناس، وربما أكثر.

ومع أنني أعترض لأسباب لغوية صوتية على الأسماء التي اختارتها الدكتورة فاوستو ـــ ستيرلينغ (*herms, merms, ferms*) للأجناس الثلاثة الوسيطة بين ما هو مذكر ومؤنث، وقد أملتها عليها علوم البيولوجيا والوراثة والجنس، إلا أنني أحيي في أبحاثها وأبحاث العلماء مثلها بعض الحلفاء الأقوياء لمن هم مثل هذا الجبان الذي يكتب لك، يؤمنون بأن التقسيم المانوي للبشرية إلى رجال ونساء هو وهم جماعي، وخثارة مؤامرة ضد الاستقلالية الفردية ـــ وبالتالي ضد الحرية ـــ، وتزوير علمي متوج بفضل السعي التقليدي للدول والأديان والأنظمة التشريعية إلى الحفاظ على هذا النظام الثنائي، ضد **طبيعة** تفنده وتدحضه في كل خطوة.

إن مخيلة التحرر الأقصى في الميثولوجيا الهيلينية كانت تعرف ذلك جيداً حين أذنت بهذه الصيغة التركيبية من هرمس وأفروديت، المتمثلة في *هرمافروديت* المراهق الذي ما إن أحب حورية حتى صهر جسده بها، متحولاً منذ ذلك الحين إلى رجل ـــ امرأة أو امرأة ـــ رجل (كل واحدة من هاتين الصيغتين تمثل، حسب قول الدكتورة فاوستو ستيرلينغ، في فرد واحد لوناً مختلفاً من التآلف في الغدد الجنسية، والهرمونات، وتركيب الصبغيات فينشأ، بناء على ذلك، جنس مختلف عما نعرفه من الرجل والمرأة، هو تلك التنافرات الصوتية *herms, merms, ferms*). ومن المهم أن نعرف أن هذا ليس ميثولوجيا وإنما هو واقع فاقع، ذلك أنه قبل وبعد هيرمافروديت الإغريقي، ولدت مثل هذه الكائنات الوسيطة (ليسوا ذكوراً ولا إناثاً في المفهوم الشائع للمصطلح)

المحكومة بسبب الغباء والجهل والتعصب والأحكام المسبقة بأن تعيش متنكرة، أو ـــ إذا ما اكتشف أمرها ـــ بأن تتعرض إلى الحرق، والشنق، والتعزيم باعتبارها من نسل الشيطان، أو ـــ فـــي العصر الحديث ـــ يجري «تطبيعهم» منذ المهد عن طريق الجراحة والمعالجة الجينية بعلم موضوع فـــي خدمة هذه التسميات المُضلِّلة التي لا تتقبل إلا الذكر أو الأنثى وتلقي إلى خارج المألوف، إلى جحيم الشذوذ، والمسوخية، والغرابة الجسدية، هؤلاء الأبطال الرقيقين من غير الجنسين ـــ كل تعاطفـــي معهم ـــ المزودين بخُصى ومبيضات، ببظر مثل القضيب أو بقضيب مثل البظر، وبإحليل ومهبل، وقد يفرزون أحياناً حيوانات منوية فـــي الوقت الذي يحيضون فـــيه. ولعلمك، فإن هذه الحالات النادرة ليست نادرة جداً؛ فالدكتور جون موني، من جامعة جون هوبكنز، يقدر عدد من هم من غير الجنسين بأربعة بالمئة من بني البشر (احسبي وسترين أنهم، وحدهم، يملؤون قارة بكاملها).

وجود هذه الإنسانية الواسعة المقرة علمياً (والتي علمتُ بأمرها من خلال قراءة هذه الأعمال التي هي، بالنسبة إلي، ذات أهمية إيروتيكية قبل أي شيء)، على هامش ما هو طبيعي، ومن أجل حريتها والاعتراف بها وتقبلها أناضل أيضاً بطريقتي التافهة (أعني، من ركني المنعزل كمتلذذ فوضي، محب للفن ومتع الجسد، مكبل وراء صورة مدير شركة تأمين فظ) لأصعق من يسعون، مثل حضرتك، إلى فصل الإنسانية فـــي حظائر راكدة حسب الجنس: القضبان هنا، البُظر فـــي الجانب الآخر، المهابل إلى اليمين

والخُصى إلى اليسار. هذا الابتسار الجماعي لا يتوافق مع الحقيقة. ففـــيما يتعلق بالجنس أيضاً، نمثل نحن البشر مروحة من التنوع، من الأسر، من الاستئناءات، ومن الأصول والألوان. ومن أجل إمساك الحقيقة الأخيرة غير القابلة للتحول لما هو بشري، لا بد من التخلي عن القطيع، وعن الرؤية الرعاعية والانسحاب نحو ما هو فردي.

وباختصار، أقول لكِ إن كل حركة تسعى إلى تجاوز المعركة من أجل السيادة الفردية (أو استبعادها إلى مستوى ثانوي)، مُقَدِّمة عليها مصالح جماعية ـــ لطبقة، أو عرق، أو سلالة، أو أمة، أو جنس، أو اثنية، أو كنيسة، أو مهنة ـــ تبدو لي مؤامرة تريد فرض مزيد من اللجم على الحرية البشرية المهانة. هذه الحرية التي لا تصل إلى مغزاها الواسع إلا فـــي مجال الفرد، موطنها الدافئ وغير القابل للتجزئة الذي تجسدينه حضرتك ببظرك المحارب وأجسده أنا بقضيبي المتخفـــي (لدي غُلْفة على عضوي، وكذلك ابني ألفونسو، لأنني ضد الختان الديني لحديثي الولادة ـــ ولستُ ضد الختان لمن يختارونه وهم فـــي سن الرشد ـــ وأدين للأسباب نفسها عمليات بتر البظر والشفرين العلويين التي يمارسها كثيرون من الإسلاميين الأفارقة) ويتوجب علينا أن ندافع عنها، خاصة فـــي مواجهة مزاعم من يريدون تذويبنا فـــي هذه التجمعات المشوهة والمخصية التي يتحكم بها المتعطشون إلى السلطة. وكل شيء يشير كما يبدو إلى أنك وأتباعك تشكلون جزءاً من هذا القطيع، ومن واجبي بالتالي، أن أنقل إليك خصومتي وعدائي عبر هذه الرسالة التي لا أفكر أيضاً

فـــي حملها إلى البريد.

ولكي أستبعد قليلاً طابع الجديّة المأتمية الذي يطغى على رسالتي وأنهيها بابتسامة، فإنني أتحمس لأن أشير إلى قضية إيمّا البرغماتية الثنائي الجنس[1] (هل يتوجب علي أن أقول ثنائية الجنس؟) والتي يذكرها طبيب الأمراض التناسلية هوغ هـــــ. يونغ (وكذلك جون هوبكنز) الذي عالجها/عالجه. لقد تربت إيمّا على أنها طفلة، على الرغم من امتلاكها بظراً بحجم القضيب، ومهبلاً مضيافاً، مما أتاح لها الاحتفال بتبادلات جنسية مع نساء ورجال. فـــي عزوبيتها كانت تمارس علاقاتها مع الفتيات بصورة خاصة، مؤدية دور الرجل. ثم تزوجت فـــيما بعد من ذكرٍ ومارست الحب كامرأة، دون أن تتلذذ بهذا الدور مثلما كانت تتلذذ بدورها الآخر؛ ولهذا كانت لها عشيقات من النساء تثقبهن ببظرها الذكري. وحين استشارت الدكتور يونغ عن حالتها، أوضح لها أنه من السهل القيام بمداخلة جراحية وتحويلها إلى رجل وحسب، لأن هذه هي حالتها كما يبدو. وكان رد إيمّا الذي يساوي مكتبات مما قيل حول تقشف العالم البشري: «سيكون عليكَ أن تستأصل مهبلي، أليس كذلك يا دكتور؟ لا أظن هذا الحل يناسبني، لأن رحمي هو الذي يوفر لي الطعام. فإذا ما أجريت لي العملية، سيكون علي أن أنفصل عن زوجي وأن أبحث عن عمل. ولهذا، أُفضّل أن أبقى مثلما أنا». تورد هذه القصة الدكتورة آنا فاوستو ــــ ستيرلينغ فـــي كتابها: **خرافة**

---

[1] ــ عمدنا إلى التذكير هنا، رغم فجاجته، حتى يتاح لنا إظهار التناقض المقصود فـي الجملة التالية.

الأجناس: نظريات بيولوجية حول المرأة والرجل، وهو كتاب أنصحك بقراءته.

وداعاً وقضباناً يا صديقتي.

سُــــكْـــــر وكـــــرمبـــــــــولا[1]

فـــي سكون ليل بارانكو، استوى دون ريغوبيرتو فـــي سريره بخفةٍ حَيّةٍ أيقظها الحاوي. وهناك كانت دونيا لوكريثيا جميلة جداً بفستانها الأسود الشفاف المفتوح حول عنقها، مكشوفة الكتفــين والذراعين، باسمة، وهي تحيط عشرة المدعوين برعايتها. كانت تُصدر الأوامر لكبير الخدم الذي يقدم المشروبات، ولخوستينيانا التي كانت، بزيها الأزرق ومنديل رأسها الأبيض المنشى، تُحضر صواني المقبلات ـــــ قطع من اليكة مع صلصا هوانكانية، وأصابع من الجبن، وقواقع معدّة على الطريقة البراميسية، وحبات زيتون محشوة ـــــ وتفعل ذلك بانطلاق وأريحية ربة بيت. ولكن قلب دون ريغوبيرتو قفز من مكانه. فمَنْ كان يسعى للهيمنة على كامل المشهد فـــي ذاكرته غير المباشرة لذلك الحدث (وكان هو نفسه الغائب الأكبر عن تلك الحفلة التي عرف بما جرى فـــيها من خلال لوكريثيا ومن خلال مخيلته نفسها) هو الصوت النشاز الصادر عن

---

[1] ـ كرمبولا carambola: تصادم كرتين دون قصد فـي لعبة البلياردو.

فــيتو ثيبويّا. هل كان سكراناً؟ إنه فـــي الطريق إلى السُكْر، فكؤوس الويسكي كانت تتوالى فـــي يديه مثلما تتوالى حبات مسبحة فـــي يدي متدين ورع.

دفنت دونيا لوكريثيا نفسها بين ذراعيه قائلة:

ـــــ لقد كان علينا أن نلغي حفلة الكوكتيل طالما أنك كنت مضطراً إلى السفر. لقد قلتُ لكَ ذلك.

ـــــ لماذا؟ سألها دون ريغوبيرتو وهو يلصق جسده بجسد زوجته: ـــــ هل حدث شيء؟

فضحكت دونيا لوكريثيا وفمها ملتصق بصدره:

ـــــ أشياء كثيرة. لن أخبرك بها. لا تحلم بذلك.

تحمس دون ريغوبيرتو:

ـــــ هل أساء أحدهم التصرف؟ هل تجاوز فــيتو ثيبويّا الحد مثلاً؟

وأرضته زوجته:

ـــــ ومن سواه. إنه هو بالطبع.

وفكر: «فــيتو، فــيتو ثيبويّا». هل هو يحبه أم يكرهه؟ لم يكن من السهل معرفة ذلك، فهو يوقظ فـــيه أحد هذه المشاعر المشوشة والمتناقضة التي هي من اختصاصه. لقد تعرف عليه عندما قرروا فـــي أحد اجتماعات مجلس الإدارة تعيينه مسؤول علاقات عامة للشركة. فلفــيتو أصدقاء فـــي كل مكان، وبالرغم من أنه كان فـــي مرحلة انحدار صريح ويهوي نحو أشد أشكال الإدمان على الخمر غباء، إلا أنه كان يعرف على أحسن وجه كيف ينجز ما يتطلبه

تعيينه فـي المنصب الرنان: مسؤول علاقات، وعامة أيضاً.

سألها متلهفاً:

ـــ أي فظاظة ارتكب؟

ـــ مدّ يده إليّ ـــ قالت دونيا لوكريثيا بحياء، ثم انسلت مضيفة: ـــ ولولا قليل لاغتصب خوستينيانا.

كان دون ريغوبيرتو يعرفه من خلال ما سمعه عنه، وكان واثقاً من أنه سيكرهه فور رؤيته قادماً إلى المكتب لتسلم منصبه. فما الذي يمكن أن يكونه سوى نذل لا يليق به التعرف عليه، شخص يعيش حياة موسومة بنشاطات رياضية ـــ اسمه نفسه يختلط فـي ذهن دون ريغوبيرتو بألواح التزلج على الماء، والتنس، والغولف، وبعروض الأزياء أو مسابقات ملكات الجمال التي اعتاد أن يكون مُحكّماً فـيها، أو صفحات التفاهة فـي الصحف، حيث تظهر بكثرة أسنانه الضارية وبشرته المحمصة على شواطئ الكوكب الأرضي، مرتدياً ملابس الايتكيت الرسمية، أو الملابس الرياضية، أو زي هاواي، فـي الليل، فـي المساء، فـي الفجر، فـي الغسق، حاملاً كأساً فـي يديه ومحاطاً بنساء باهرات الجمال. لقد كان ينتظر أن يجد فـيه الحماقة الكاملة، فـي نسختها الجلية من مجتمع ليما الراقي. وكانت مفاجأته عظيمة حين اكتشف أن فـيتو ثيبويّا، على الرغم من كونه ما يمكن انتظاره منه بالضبط ـــ طائش، متهتك على الراقي، مستهتر، سكير، طفـيلي، رياضي سابق، ونمر كوكتيل سابق ـــ إلا أنه كان فـي الوقت نفسه شخصاً أصيلاً، لا يمكن تجاهله، ومسلياً جداً، على الرغم من انحطاطه الكحولي. كان

قد قرأ شيئاً ما فــيما مضى، وهو يستخلص الفائدة من تلك القراءة، مستشهداً بفرناندو كاسوس ـــ «الرائع فـــي البيرو هو ما لا يحدث فـــيها». وببول غروساك وسط قهقهات منذرة: «فلورنسا هي المدينة ـــ الفنان، وليفربول هي المدينة ـــ التاجر، وليما هي المدينة ـــ المرأة». (ولكي يثبت تأكيده ذاك إحصائياً، كان يحمل معه دفتراً صغيراً يدون فـــيه النساء القبيحات والجميلات اللواتي يصادفهن فـــي طريقه). وبعد قليل من التعارف، وبينما هما يتناولان كأساً مع زميلين آخرين من المكتب فـــي نادي الاتحاد، تراهن الأربعة فــيما بينهم لرؤية من الذي يستطيع أن ينطق أشد العبارات حذلقة. وقد كسبت عبارة فــيتو ثيبويّا بالإجماع حين قال: «فـــي كل مرة أمر من بورت دوغلاس، فـــي استراليا، آكل شريحة تمساح وارمي امرأة وطنية»[1].

فـــي العزلة القاتمة، وقع دون ريغوبيرتو ضحية نوبة من الغيرة رفعت ضغطه. كانت مخيلته تشتغل مثل كاتبة اختزال. ها هي ذي دونيا لوكريثيا مرة أخرى. إنها رائعة، كتفاها مصقولتان وذراعاها ناعمان، وهي تقف فوق حذاء رفـــيع الكعب وقد أزالت شعر ساقيها المسبوكتين. إنها تتحدث إلى المدعوين، وتوضح لهم، لكل زوجين على حدة، اضطرار دون ريغوبيرتو الى السفر بصورة طارئة إلى ريو دي جانيرو بعد ظهر اليوم، من أجل عمل للشركة.

ـــ وماذا يهمنا غيابه ـــ قال فــيتو ثيبويّا مازحاً ومتأنقاً

[1] ــ طرافة العبارة تكمن فـي أنها مصاغة فـي الأصل من كلمات غريبة وغير شائعة فـي الاستعمال إلا فـي البيرو.

وهو يقبّل يد سيدة البيت بعد أن قبّل خدها: ــــ وما الذي نريده أكثر من هذا.

كان مترهلاً، على الرغم من مآثره الرياضية فــي سنوات شبابه، طويل القامة، مختالاً، له عينان ضفدعيتان، وفم متقلب يُدسِّم بالشبق كل ما ينطق به من كلام. لقد جاء إلى حفلة الكوكتيل من دون زوجته بالطبع. ألأنه كان يعرف أن دون ريغوبيرتو يطير فــي تلك اللحظة فوق غابات الأمازون؟ كان فــيتو ثيبويّا قد بدد الثروات المتواضعة لزوجاته الثلاث الشرعيات اللواتي كان يطلقهن بعد أن يعتصرهن فــي رحلات إلى أفضل منتجعات الاستجمام فــي العالم الفسيح. وحين جاء وقت الراحة، خضع لزوجته الرابعة، وهي الأخيرة دون ريب، التي لا يمكن لثروتها الضئيلة أن تضمن له الرفاهية والإفراط فــي السياحة والملبس والمأكل، ولكنها تؤمن له على الأقل بيتاً جيداً فــي حي بلانيثيه، ومؤونة معقولة وما يكفــي من الويسكي لكي يزيد تشمع كبده حتى اليوم الأخير من حياته، شريطة ألا يتجاوز السبعين من العمر. وقد كانت زوجته هشة، ضئيلة، أنيقة ومذهولة بالتقدير ذي الأثر الرجعي للأدونيس الذي كانه فــيتو ثيبويّا فــي زمن مضى.

إنه الآن ستيني منتفخ يمضي فــي الحياة مسلحاً بدفتر جيب صغير ومنظار يستخدمهما فــي جولاته فــي مركز المدينة وأمام ضوء إشارة المرور الأحمر، حين يقود سيارته الكاديلاك القديمة التي بلون ثمالة النبيذ، ليرى ويسجل، إضافة إلى إحصائه العام (للقبيحات والجميلات)، إحصاء آخر أكثر تخصصاً: المؤخرات

البارزة، والصدور الجامحة، وأفضل السيقان سبكاً، وأكثر الأعناق بجعية، وأشد الأفواه حسية، وأكثر العيون سحراً مما تقدمه حركة المرور. وهو في تقصيه الصارم والانتقائي إلى أقصى الحدود، يكرس في بعض الأحيان يوماً، وربما أسبوعاً بكامله، لجزء من التشريح الأنثوي العابر، بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة دون ريغوبيرتو في تنظيف أجزاء جسده: الاثنين للشرج؛ والثلاثاء للصدر؛ والأربعاء للساقين؛ والخميس للذراعين؛ والجمعة للرقبة؛ والسبت للفم؛ والأحد للعينين. وهو يضع كذلك متوسطاً للدرجات، ما بين صفر وعشرين درجة، في نهاية كل شهر.

منذ أن سمح له فيتو ثيبويّا بتصفح إحصائياته، بدأ دون ريغوبيرتو يهجس، في أقيانوس النزوات والأهواء الذي لا يُسبر له قرار، بتشابه مُقلِق معه، ويتساهل في تعاطف غير مقيد مع شخص يمكنه أن يستعرض شذوذاته بكل هذا التبجح. (لم تكن هذه هي حالة دون ريغوبيرتو، لأن شذوذاته كانت من النوع الخفي والزوجي). لقد أحس بطريقة ما، بعد أن استبعد جبنه وخجله، اللذين يخلو منهما فيتو ثيبويّا، بأن هذا الشخص هو قرينه. وبينما هو يغمض عينيه ــــ دون أي جدوى، لأن الظلام في حجرة النوم كان تاماً ــــ ويهدل له صوت البحر المجاور عند أقدام وهدة الساحل، لمح دون ريغوبيرتو اليد التي يغطي الشعر الخفيف مفاصلها، والمزينة بخاتم زواج وخاتم ذهبي في الخنصر، تمتد في حركة خيانة إلى مؤخرة زوجته. فجرحت حنجرته زمجرة بهيمية كان يمكن لها أن توقظ فونتشيتو: «يا ابن العاهرة!».

فقالت دونيا لوكريثيا وهي تلتصق به:

ـــ لم يجر الأمر على هذا النحو. كنا نتبادل الحديث فــي جماعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وكان فــيتو بينهم، وكان قد شرب كثيراً من الويسكي عندما مرت خوستينيانا وهي تحمل الصينية، فراح يغازلها بمنتهى الوقاحة.

ـــ يا للخادمة الجميلة ـــ هتف بعينين محتقنتين وشفتين تمتصان خيط لعابه، وبنبرة غير مازحة: ـــ إنها خلاسية على رمح وسيف. يا للجسد البديع!

فردت دونيا لوكريثيا:

ـــ كلمة خادمة قبيحة ومهينة وتنطوي على شيء من العنصرية. خوستينيانا موظفة لدينا يافــيتو، مثلك. وأنا وريغوبيرتو وألفونسيتو نحبها كثيراً.

وواصل فــيتو ثيبويّا وهو منجذب إلى الفتاة التي كانت تبتعد:

ـــ موظفة، تابعة، صديقة، محمية أو أي شيء آخر، فأنا لا أريد إغضاب أحد. يروقني أن أستخدم فــي بيتي خلاسية مثل هذه.

وفــي هذه اللحظة أحست دونيا لوكريثيا بيد مؤكدة، متسلطة، مضمخة ودافئة قليلاً على الجزء السفلي من إليتها اليسرى، فــي المكان الحساس الذي ينحدر التكور فــيه ببروز يلتقي بالفخذ. لم تستطع لعدة ثوانٍ الإتيان بأي رد فعل أو إبعاد اليد أو الابتعاد بنفسها أو إبداء الغضب. وقد استغل هو نبتة الزينة الكبيرة التي كانوا يتبادلون الحديث بجوارها ليقوم بعمليته دون أن ينتبه إليه الآخرون. وشدت انتباه دون ريغوبيرتو عبارة بالفرنسية *La main*

baladeuse . كيف يمكن ترجمتها؟ اليد الرحالة؟ اليد السارحة؟ اليد المتجولة؟ اليد المنزلقة؟ اليد العابرة؟ واستشاط غضباً من جديد دون أن يحلّ المعضلة اللغوية. لقد كان هناك فـيتو متمادٍ يتطلع إلى دونيا لوكريثيا بابتسامة تواطؤ بينما أصابعه تتحرك، وتطوي قماش فستانها. عندئذ ابتعدت عنه دونيا لوكريثيا بجفاء.

وأوضحت لريغوبيرتو:

ــــ كنتُ دائخة من الغضب، وذهبت إلى المطبخ لأشرب كأساً من الماء.

ــــ ماذا أصابك يا سيدتي؟ سألتها خوستينيانا.

ــــ هذا القذر وضع يده هنا. لست أدري كيف لم أصفعه.

اغتاظ ريغوبيرتو:

ــــ كان عليك أن تصفعيه، أن تكسري أصيص زهر على رأسه، أن تخمشيه، أن تطرديه من البيت.

ــــ لقد صفعته، وكسرتُ على رأسه، وخمشته، وطردته من البيت ــــ قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تفرك أنفها الأسكيمي بأنف زوجها، وأضافت: ــــ ولكنني فعلت ذلك فـيما بعد. وقبله حدثت أمور أخرى.

وفكر دون ريغوبيرتو: «ليل طويل». كان قد بدأ يهتم بفـيتو ثيبويّا كاهتمام عالم حشرات بحشرة نادرة جداً فـي مجموعته. كان يحسده على هذه الفظاظة البشرية التي يعرض بها باستهتار شديد مغامراته وتخيلاته، وكل ذلك من منطلق أخلاقي ليس هو منطلقه، يدعونه رذائل، نقائص، انحطاط. وبسبب إفراط أنانيته، دون أن

يدرك ذلك، كان الأحمق فـيتو ثيبويّا قد حقق لنفسه قدراً من الحرية أكبر منه هو الذي يعرف كل شيء ولكنه منافق، بل يمكن القول إنه تأميني («مثلما كان كافكا والشاعر والاس ستيفنس» قال ذلك معتذراً أمام نفسه، ولكن دون جدوى). وتذكر دون ريغوبيرتو بمرح تلك المحادثة فـي بار سيسرز، والمدونة فـي دفاتره، حين اعترف له فـيتو ثيبويّا بأن أعظم استثارة فـي حياته لم يبعثها فـيه الجسد المسبوك لأي واحدة من عشيقاته اللواتي لا حصر لهن، ولا فتيات استعراض الفولي بيرجير فـي باريس، وإنما لويزيانا الصارمة، جامعة باتون روج المتعففة، حيث سجله أبوه المغتر بأمل الحصول على شهادة الكيمياء الصناعية. هناك، عند حافة نافذة غرفة نومه، فـي مساء ربيعي، كان من نصيبه أن يشهد أعظم لقاء جنسي منذ أن تلاقحت الديناصورات.

ــــ أكانا عنكبوتين؟ ــــ انفتحت فتحتا أنف دون ريغوبيرتو وواصلتا التلمس بوحشية. وخفقت أذناه اللتان كأذني دومبو كذلك بتهيج بالغ.

ــــ عنكبوتان بهذا الحجم ــــ مثّل فـيتو ثيبويّا المشهد برفع يديه وضم أصابعه العشرة وتقريبها من بعضها البعض ببذاءة ــــ. رأى كل منهما الآخر، واشتهاه، وتقدم أحدهما نحو الآخر، مستعداً للحب أو الموت. أو بعبارة أدق: للحب حتى الموت. وحين قفز أحدهما فوق الآخر حدثت قرقعة زلزالية. وامتلأت النافذة والغرفة برائحة منوية.

فوجه إليه دون ريغوبيرتو الطعنة:

ـــــ وكيف عرفت أنهما كانا يتناكحان؟ لماذا لا يكون ما فعلاه صراعاً؟

ـــــ كانا يتصارعان ويتناكحان فـــي الوقت نفسه. مثلما يجب أن يكون، مثلما يتوجب أن يكون الأمر. ـــــ تراقص فــيتو ثيبويّا فـــي مقعده؛ وكانت يداه قد تقاطعتا متداخلتين. وبينما هو يفرك أصابعه العشرة فـــي قرقعة عظمية، واصل قائلاً: ـــــ كان كل منهما يجامع الآخر بكل قوائمه، بحلقاته، بزغبه، بعينيه، وبكل ما فـــي جسده. لم أرَ على الإطلاق ما هو أكثر إثارة، أقسم لك بأمي المقدسة التي فـــي السماء يا ريغو.

الإثارة التي سببتها المجامعة العنكبوتية استمرت، على حد قوله، إلى ما بعد استمناء باليد وعدة حمامات بالماء البارد. وبالرغم من انقضاء أربعة عقود على ذلك وعدد لا حصر له من المغامرات، مازالت ذكرى تلك الدويبات الوبرية المتشابكة تحت سماء باتون روج الزرقاء القاسية ترد إلى ذهنه أحياناً لتشوشه، وحتى الآن، حين تتصح سنوات العمر بالاعتدال، ما إن ترد تلك الصورة النائية إلى وعيه فجأة، حتى تسمو به وتهيجه أكثر من جرعة من منشط اليوبيمبينا.

ـــــ حدثنا عما كنت تفعله فـــي فولي بيرجير يا فــيتو ـــــ طلبت منه ذلك تيتي باريغا، وهي تعرف جيداً ما تطلبه ـــــ. إنه مسلٍ جداً، حتى ولو كان كذباً.

وقالت السيدة لوكريثيا لزوجها مطيلة أمد الحكاية:

ـــــ كان ذلك أشبه باستثارته، مثل مد اليد إلى النار. ولكن تيتي

تُفتن بشيّ نفسها.

تقلب فــيتو ثيبويّا فـــي المقعد الذي يجلس عليه وهو شبه منهار من الويسكي:

ـــ كيف يكون كذباً! لقد كان العمل اللطيف الوحيد الذي مارسته فـــي حياتي. على الرغم من أنهم كانوا يعاملونني معاملة سيئة مثلما يفعل زوجك الآن فـــي المكتب يا لوكري. تعالي، اجلسي معنا، اهتمي بضيوفك.

كانت عيناه زجاجيتين، وصوته مترنماً. وكان المدعوون قد بدؤوا ينظرون إلى ساعاتهم. تظاهرت دونيا لوكريثيا بالشجاعة، صانعة من أحشائها قلباً، وجلست بجانب الزوجين باريغا. وبدأ فــيتو ثيبويّا يتذكر ذلك الصيف. كان قد توقف فـــي باريس وليس معه سنتيم واحد، وبفضل مساعدة أحد الأصدقاء، حصل على وظيفة حلماتيّ فـــي «مسرح شارع ريشيت التاريخي».

ـــ حلماتيّ من حلمة، وليس من حلم ـــ أوضح ذلك وهو يُخرج طرف لسان داعر وردي ويطبق عينيه الشبقتين وكأنه يريد أن يرى ما يراه بصورة أفضل («وما كان يراه هو فتحة الفستان حول عنقي يا حبي». وكانت وحدة دون ريغوبيرتو قد بدأت تزدحم وتتهيج) وتابع فــيتو: ـــ ومع أنني كنت أقل العاملين مكانة وأسوأهم أجراً، إلا أن نجاح الاستعراض كان يعتمد عليّ. إنها مسؤولية كبيرة!

فاستعجلته تيتي باريغا:

ـــ وما هي تلك المسؤولية، ما هي؟

ـــــ أن أُصلّب حلمات نهود فتيات الاستعراض فـــي لحظة خروجهن إلى المنصة.

ومن أجل ذلك، كان لديه فـــي حيزه الصغير وراء الكواليس سطل مملوء بالثلج. وكانت الفتيات المتزينات بقنازع الريش وبالأزهار، وبتسريحاتهن الغريبة، ورموشهن الطويلة، وأظفارهن الاصطناعية، وشباكهن غير المرئية وذيولهن الطاووسية، وأردافهن وصدورهن المكشوفة، ينحنين أمام فـــيتو ثيبويّا لكي يدعك حلماتهن والتويج المحيط بها بمكعبات من الثلج. فـــيطلقن عندئذ صرخة خافتة، ويقفزن إلى المنصة وصدورهن منتصبة كالسيوف.

ـــــ أهي فعالة، أهي فعالة؟ ـــــ ألحت تيتي باريغا وهي تنظر مواربة إلى صدرها المتهدل، بينما زوجها يتثاءب ـــــ. أإذا دُعكا بالثلج يصبحان...؟

ـــــ يصبحان مشدودين، قاسيين، مستقيمين، شامخين، متكبرين، منتصبين، متباهيين، متنفذين، ساخطين ـــــ أسرف فـــيتو ثيبويّا فـــي لفه ودورانه حول المترادفات، ثم أضاف: ـــــ ويبقيان كذلك خمس عشرة دقيقة، وهو توقيت مجرب.

«أجل، إنها طريقة فعالة»، كرر دون ريغوبيرتو ذلك. وكان يظهر شعاع شاحب من خلال أباجور النافذة. إنه صباح آخر بعيداً عن لوكريثيا. هل حان موعد إيقاظ فونتشيتو للذهاب إلى المدرسة؟ ليس بعد. ولكن، أليست هي موجودة هنا؟ مثلما حدث يوم تحققا من صحة وصفة الفولي بيرجر بتجربتها على نهديها. وقد رأى كيف تصلبت الحلمتان القاتمتان وسط هالتيهما الذهبيتين، وعرضتا لشفتيه

وهما باردتان وصلبتان كالحجارة. لقد كلفت تلك التجربة لوكريثيا زكاماً ما لبثت عدواه أن انتقلت إليه.

سأل فــيتو ثيبويّا:

ــــ أين الحمام؟ لا تسيئوا الظن، فأنا أريد أن أغسل يدي.

قادته لوكريثيا حتى الممر محتفظة بمسافة حذرة. فقد كانت تخشى أن تشعر فــي أي لحظة بملامسة تلك الحجامة اليدوية.

وكان فــيتو يتلعثم وهو يتعثر فــي طريقه:

ــــ لقد أعجبتني خلاسيتك حقاً. أنا ديمقراطي، وأقبلهن زنجيات، بيضاوات، صفراوات ما دمن جيدات المظهر. ألا تهدينني إياها؟ أو تنازلي لي عنها إذا أنتِ شئت. سأدفع لك مقابلها ذكراً لطيفاً.

أوقفته دونيا لوكريثيا:

ــــ ها هو الحمام. واغسل لسانك أيضاً يا فــيتو.

ــــ رغباتك أوامر ــــ قال مُريّلاً، وقبل أن تتمكن من تفاديه، كانت اليد اللعينة تتجه مباشرة إلى نهديها. ولكنه أعادها على الفور، ودخل إلى الحمام قائلاً: ــــ اعذريني، اعذريني، لقد أخطأت بالباب.

رجعت دونيا لوكريثيا إلى الصالة. وكان المدعوون قد بدؤوا بالانصراف. كانت ترتعش من الغضب. سترمي به خارج البيت هذه المرة. كانت تتبادل آخر المجاملات مع الضيوف وتودعهم فــي الحديقة. «هذا لا يطاق، لقد تجاوز الحد.» وكانت الدقائق تمضي دون أن يظهر فــيتو ثيبويّا.

ـــــ أتعنين أنه كان قد انصرف؟

ـــــ هذا ما ظننته. فقد ظننت أنه قد انصرف خفية من باب الخدم بعد خروجه من الحمام. ولكن لا، لا. لقد بقي اللعين.

ذهب الضيوف، وكذلك الجرسون الذي تعاقدت معه للخدمة، وبعد أن ساعد كبير الخدم والطاهية خوستينيانا في جمع الكؤوس والأطباق، وفي إغلاق النوافذ، وإطفاء أنوار الحديقة، وتشغيل جهاز الإنذار، تمنيا ليلة سعيدة لدونيا لوكريثيا وانصرفا إلى غرفتي نومهما المنعزلتين، في الجناح المنفصل، في ما وراء المسبح. أما خوستينيانا التي تنام في الطابق العلوي، بجوار مكتب دون ريغوبيرتو، فكانت في المطبخ تُدخل أدوات المائدة إلى الجلاية الآلية.

ـــــ وهل بقي فيتو ثيبويّا مختبئاً في الداخل؟

ـــــ ربما في حجرة الساونا، أو ما بين شجيرات الحديقة. منتظراً أن يغادر الآخرون، وأن ينام كبير الخدم والطاهية، لكي يدخل إلى المطبخ. مثل لص!

كانت دونيا لوكريثيا على الأريكة في الصالة، متعبة، دون أن تكون قد استردت بعد هدوءها من الإساءة. لن تسمح للبذيء فيتو ثيبويّا بأن يضع قدميه في هذا البيت مرة أخرى. وكانت تتساءل إذا ما كان عليها أن تخبر ريغوبيرتو بما حدث، عندما انفجرت صرخة مدوية. كانت الصرخة آتية من المطبخ. نهضت مسرعة، وركضت. وعند الباب الأبيض ـــــ الجدران المغطاة بالبورسلان كانت تلمع تحت الضوء الصيدلاني ـــــ أوقفها المشهد مشلولة.

رمش دون ريغوبيرتو عدة مرات قبل أن يدقق النظر في الشعاع الشاحب الذي ينفذ من النافذة معلناً قدوم النهار. كان يراهم: خوستينيانا ملقاة على منضدة خشب الصنوبر التي طُرحت فوقها، تقاوم بيديها ورجليها ضد الكتلة المترهلة التي تسحقها، تتمتم وتغرغر مصدرة أصواتاً، يجب أن تكون شتائم بذيئة. وعند عتبة الباب كانت دونيا لوكريثيا مشوهة المظهر ومضطربة. ولكن شللها لم يدم طويلاً. لقد كانت هناك ـــ خفق قلب دون ريغوبيرتو باندفاع، مفعماً بالإعجاب بالجمال الديلاكراويّ لهذا الغضب الذي يمسك بأول ما يواجهه، بشوبك العجين، وينهال به على فيتو ثيبويا، مع سيل من الشتائم: «مستغِل، لعين، قذر، ماجن». كانت تضربه دون رحمة، حيثما يقع الشوبك، على الظهر، على الرقبة السمينة، على الرأس الرهباني، على المؤخرة، إلى أن أجبرته على إفلات ضحيته ليدافع عن نفسه. كان بإمكان دون ريغوبيرتو سماع الضربات التي تنهال على عظام وعضلات المغتصِب المُعطل الذي انهزم أخيراً بسبب الضرب وتأثير السكر في تثاقل حركاته، فاستدار ويداه مرفوعتان باتجاه ضاربته، ثم انقلب وتهاوى منسكباً على الأرض كأنه الهلام.

ـــ اضربيه، اضربيه أنت أيضاً، اضربيه ـــ كانت دونيا لوكريثيا تصرخ وهي تنهال بشوبك العجين على كتلة البدلة الزرقاء القذرة التي كانت تحاول النهوض وهي ترفع يديها لتتقي الضربات.

سألها دون ريغوبيرتو المبتهج:

ـــ ألم تكسر خوستينيانا المقعد على رأسه؟

لقد فعلت وتطاير فتات الخشب حتى السقف. فقد رفعته بكلتا يديها، ثم انهالت به بكل قوة على جسده. ورأى دون ريغوبيرتو القامة الممشوقة بزي الخادمة الأزرق ومنديلها الأبيض، وهي ترفع يديها لتهوي عليه. وسمع صرخة «آي ي ي!» المدوية التي أطلقها فــيتو ثيبويّا المطروح على الأرض مفرشخاً ساقيه، وهزت طبلتي أذنيه. (ولكنها لم توقظ الطاهية ولا كبير الخدم ولا فونتشيتو؟) كان يغطي وجهه، وكانت هناك بقع من الدم على يديه. بقي غائباً عن الوعي عدة ثوانٍ. وربما تكون قد أعادته إلى الوعي صرخات المرأتين اللتين واصلتا شتمه: «منحل، سكير، مستغِل، منيوك».

ضحكت دونيا لوكريثيا:

ـــــ يا للذة الانتقام. فتحنا الباب الخلفــي فهرب على الفور وهو يدب على أربع.. أقسم لك. وكان يبكي: «آي، يا رأسي؛ آي، لقد حطمتا رأسي».

وعندئذ، انفلت جرس الإنذار. يا للرعب. ولكن هذا كله لم يوقظ فونتشيتو وكبير الخدم والطاهية. هل هذا ممكن؟ لا. ولكنه مناسب جداً، هكذا فكر دون ريغوبيرتو.

وكانت دونيا لوكريثيا تضحك وهي تقول:

ـــــ لست أدري كيف أطفأنا صفارة الإنذار، ثم دخلنا، وأقفلنا الباب، وأعدنا ضبط جهاز الإنذار. وشيئاً فشيئاً بدأنا نستعيد هدوءنا.

عندئذ انتبهتْ إلى ما كان قد فعله ذلك المتوحش بالمسكينة خوستينيانا. فقد مزق ثوبها. وانفجرت الفتاة التي كانت ما تزال مرعوبة بالبكاء. يا للمسكينة. لو أن دونيا لوكريثيا كانت قد صعدت

إلى غرفة نومها لما سمعت صرخاتها، لأن كبير الخدم والطاهية والطفل لم يسمعوا شيئاً. ولكان ذلك النذل قد اغتصبها وهو سعيد. احتضنتها وقالت لها مواسية: «لقد انقضى الأمر، لقد انتهى كل شيء.. لا تبكي». جسد الفتاة الذي كان يستند إلى جسدها ـــ بدا أكثر فتوة عن قرب ـــ كان يرتعش من الرأس حتى القدمين. وكانت تشعر بطفرات قلبها وترى جهودها من أجل كبح شهقاتها.

همست دونيا لوكريثيا:

ـــ لقد أحزنني حالها. ففضلاً عن تمزيق ثوبها، كان قد ضربها أيضاً.

فأومأ دون ريغوبيرتو:

ـــ لقد نال ما يستحقه. ذهب مهاناً ونازفاً. أحسنتما صنعاً!

وأبعدت دونيا لوكريثيا خوستينيانا عنها «انظري ما الذي فعله بكِ هذا النذل». وتفحصت ثوبها الممزق، وداعبت بحنان وجهها الذي فارقه فيض المرح الذي يشع منه عادة، ولم يبق فيه سوى بضع دمعات تسيل على خديها، وتكشيرة تجمد شفتيها. لقد كانت عيناها منطفئتين.

ـــ وهل حدث شيء؟ ألمح دون ريغوبيرتو بكثير من الحذر.

وردت دونيا لوكريثيا بحذر مماثل:

ـــ ليس بعد. وأنا لم أنتبه على أي حال.

لم تنتبه. فقد كانت تظن أن سبب ذلك الهياج والعصبية والانفعال هو الحادث، وقد كان كذلك أيضاً دون ريب. وكانت تشعر بأنها طافحة بمشاعر الحنان والشفقة، متشوقة لعمل شيء، أي شيء،

لإخراج خوستينيانا من الحالة التي هي فــيها. أمسكتها من يدها، وقادتها نحو السلم: «تعالي لتنزعي عنك هذه الثياب، من الأفضل استدعاء طبيب». ولدى خروجهما من المطبخ أطفأت أنوار الطابق السفلي. صعدتا فــي الظلام، إحداهما تمسك بيد الأخرى، درجة درجة، اجتازتا السلم الحلزوني نحو المكتب وغرفة النوم. بينما كانتا فــي منتصف السلم، أحاطت دونيا لوكريثيا خصر الفتاة بذراعها الأخرى. «يا للرعب الذي مررتِ به.» «ظننت أنني سأموت يا سيدتي، ولكن الرعب بدأ يفارقني الآن.» ليس صحيحاً؛ فقد كانت يدها تعتصر يد سيدتها وأسنانها تصطك، مثلما من البرد. ودارتا وهما متماسكتا الأيدي والخصر حول الرفوف المترعة بكتب الفن، وفــي غرفة النوم استقبلتهما، منتشرة عبر النافذة، أضواء ميرافلوريس والذؤابات البيضاء للأمواج المتقدمة نحو وهدة الساحل. أضاءت دونيا لوكريثيا مصباح الثريا ذات العمود فغمر الضوء أريكة الشّيْزْلُنغ الفسيحة الحمراء المزينة بقائمتي صقر والمنضدة الصغيرة المغطاة بمجلات، والخزف الصيني، والوسائد والحشايا المبعثرة على السجادة. وبقي السرير الواسع غارقاً فــي الظلام، وكذلك الكوميدينو، والجدران المزينة بلوحات فارسية ويابانية. اتجهت دونيا لوكريثيا إلى خزانة الملابس. وناولت رداء إلى خوستينيانا التي ظلت واقفة، تغطي جسدها بذراعيها، وهي منحنية قليلاً.

ـــــ يجب رمي هذه الملابس إلى القمامة، أو حرقها. أجل، من الأفضل حرقها مثلما يفعل ريغوبيرتو بالكتب واللوحات التي لم تعد تروقه. البسي هذا، وسأرى ما الذي يمكنني أن أقدمه إليك.

وفـــي الحمام، بينما كانت تبلل منشفة بماء الكولونيا، رأت نفسها فـــي المرآة (وكافأها دون ريغوبيرتو «كنتِ جميلة جداً»). وكانت هي أيضاً تشعر برعب ربنا وأبينا. كانت شاحبة وتحيط بعينها زرقة قاتمة؛ وكانت الأصبغة قد سالت على وجهها، كما كان سحَّاب فستانها قد انشق دون أن تشعر به.

ــــ أنا أيضاً جريحة حرب يا خوستينيانا ــــ قالت لها ذلك عبر الباب ــــ فقد تمزق ثوبي بسبب فـــيتو القذر. سأرتدي روباً. تعالي، هنا الإضاءة أفضل.

عندما دخلت خوستينيانا إلى الحمام، رأتها دونيا لوكريثيا التي كانت تتخلص من ثوبها عند قدميها ــــ ولم تكن تضع حمالة صدر، وإنما سروالاً مثلثاً من الحرير الأسود وحسب ــــ رأتها فـــي مرآة المغسلة، ورأتها مكررة كذلك فـــي مرآة حوض الاستحمام. كانت الفتاة الملتفة بالروب الأبيض الذي يغطيها حتى الفخذين تبدو أكثر نحولاً وأشد سمرة. ولأنه لم يكن لديها حزام، فقد كانت تثبت الروب بيديها. تناولت دونيا لوكريثيا روب الخروج من الحمام الصيني ــــ «الروب الحريري الأحمر المزين بتنينين أصفرين متحدين بذيليهما على الظهر»، قال دون ريغوبيرتو مدققاً ــــ، وارتدته ونادتها:

ــــ اقتربي قليلاً. هل أنت مصابة بجراح؟

ــــ لا، لا أظن، هناك خدشان لا يستحقان الذكر ــــ وأخرجت خوستينيانا ساقها من بين ثنايا الروب ــــ هذه الرضوض بسبب ضربي إلى المنضدة.

انحنت دونيا لوكريثيا، أسندت إحدى يديها على الفخذ الصقيل

ودلكت برفق البشرة المرضوضة بمنشفة مبللة بالكولونيا.

ـــ ليس شيئاً مهماً، سيختفـــي بسرعة. والآخر؟

فـــي الكتف وأعلى العضد. فتحت خوستينيانا الروب وأرتها الرضة التي بدأت تتورم. ولاحظت دونيا لوكريثيا أن الفتاة لا تلبس كذلك حمالة صدر. وكان نهدها قريباً جداً من عينيها. فكانت ترى رأس الحلمة. إنه نهد فتيّ وصغير، مرسوم جيداً، مع حبيبات ناعمة فـــي التويج المحيط بالحلمة.

دمدمت:

ـــ هذا جرح سيء. هل يؤلمك؟

ـــ قليلاً ـــ قالت خوستينيانا ذلك دون أن تسحب ذراعها الذي كانت دونيا لوكريثيا تمسح عليه برفق، وهي متيقظة الآن إلى اضطرابها نفسه أكثر من جرح الخادمة المتورم.

وألح، توسل دون ريغوبيرتو:

ـــ يعني، لقد حدث هناك شيء.

ووافقت زوجته هذه المرة:

ـــ أجل. لست أدري ماذا، ولكن شيئاً قد حدث. لقد كنا قريبتين، وبروبي حمام. لم أصل من قبل على الإطلاق إلى مثل هذه الحميمية معها. أو ربما بسبب ما جرى فـــي المطبخ. أو لأي سبب آخر. ولكنني لم أعد أنا نفسي فجأة. وكنت أتأجج من رأسي حتى قدمي.

ـــ وهي؟

ـــ لست أدري، من يعرف ذلك.. أظنها لم تشعر بشيء ـــ

اختلطت الأمور على دونيا لوكريثيا ـــــ لقد تبدل كل شيء، هذا ما أنا متأكدة منه. هل تلاحظ يا ريغوبيرتو؟ بعد ذلك الرعب. ولاحظ ما الذي راح يحدث لي.

ـــــ هذه هي الحياة ـــــ دمدم دون ريغوبيرتو بصوت عال، مستمعاً إلى رنين كلماته فـــي وحدة حجرة النوم المضاءة بنور النهار ـــــ. هذا هو عالم الشهوة الفسيح، الرائع، الرهيب، الذي لا يوصف. لكم أنت قريبة مني الآن يازوجتي الحبيبة وأنت بعيدة عني.

ـــــ أتعرفـــين؟ ـــــ قالت دونيا لوكريثيا لخوستينيانا ـــــ ما نحتاجه أنا وأنت للتخلص من انفعالات هذه الليلة هو كأس من الشراب.

ـــــ حتى لا تأتينا كوابيس تلك اليد الطويلة ـــــ ضحكت الموظفة وهي تلحق بها إلى غرفة النوم. وكانت العبارة قد بعثت فـــيها النشاط: ـــــ فـــي الحقيقة، أظن أنني لن أتخلص من الحلم به هذه الليلة إلا إذا سكرت.

ـــــ فلنسكر إذن ـــــ قالت دونيا لوكريثيا وهي تتجه نحو البار الصغير فـــي غرفة المكتب ـــــ أتريدين كأساً من الويسكي؟ هل يعجبك الويسكي؟

ـــــ أي شيء، مما ستشربين أنت سأشرب. اتركي الأمر لي، أنا سأحضر الشراب لك.

فأوقفتها دونيا لوكريثيا، من المكتب:

ـــــ ابقي هنا. أنا سأقوم بالخدمة هذه الليلة.

ضحكتْ، وحذت الفتاة حذوها مبتهجة. وفــي المكتب، بينما كانت تشعر بأنها قد فقدت السيطرة على يديها ولم تعد تريد التفكير، ملأت دونيا لوكريثيا كأسين كبيرين بكمية كبيرة من الويسكي، وبقليل من المياه المعدنية ومكعبين من الثلج. ورجعت مثل قطة ما بين الوسائد المبعثرة على الأرض. وكانت خوستينيانا قد اتكأت على مسند الشيزلُنغ دون أن ترفع ساقيها. أرادت النهوض. فأوقفتها دونيا لوكريثيا مرة أخرى:

ـــ ابقي حيث أنت. أفسحي لي مكاناً، هناك متسع.

ترددت الفتاة وقد أحست بالحيرة لأول مرة؛ ولكنها استعادت السيطرة على نفسها فــي الحال. فخلعت حذاءها، ورفعت ساقيها وانزلقت باتجاه النافذة لتفسح لها مكاناً. جلست دونيا لوكريثيا إلى جانبها. رتبت الوسائد تحت رأسها. لقد اتسع لهما المكان، ولكن جسديهما تلامسا. كان الكتفان، الذراعان، الساقان، الردفان قريبة ومتلامسة أحياناً.

قالت دونيا لوكريثيا:

ـــ نخب من سنشرب؟ أنشرب نخب ضرب هذا الحيوان؟

ـــ نخب ضربة الكرسي التي وجهتها إليه ـــ استعادت خوستينيانا روحها المرحة ـــ. مع الغضب الذي تملكني، أقول لك إنني كنت قادرة على قتله. أتعتقدين أنني قد هشمت رأسه؟

شربت رشفة وداهمها الضحك من جديد. وانفجرت دونيا لوكريثيا كذلك فــي ضحكة هستيرية. «هشمتِه بالطبع، وأنا هشمت فــيه أشياء أخرى بشوبك العجين». أمضتا وقتاً لا بأس به وهما

على تلك الحال، كأنهما صديقتان تتبادلان أسراراً مفرحة وخشنة بعض الشيء، تهزهما القهقهات. «أؤكد لكِ أن فيتو ثيبويّا قد أصيب برضوض أكثر منك يا خوستينيانا»، «وما الحجة التي سيقدمها الآن لزوجته، لتفسير تلك الأورام والجراح؟»، «سيقول إن لصوصاً انقضوا عليه وأوسعوه ضرباً». وبينما هما في هذه التعليقات الساخرة، نفد كأسا الويسكي. فهدأتا. وشيئاً فشيئاً استعادتا أنفاسهما.

ــــ سأُعدّ كأسين أخريين. ــــ قالت دونيا لوكريثيا.

ــــ أنا سأفعل، دعيني أُعدهما أنا، أقسم لك أنني أعرف كيف أفعل ذلك.

ــــ لا بأس، هيا، وأنا سأضع موسيقى.

ولكنها بدل النهوض عن الشّيزْلُنغ لكي تتمكن الفتاة من المرور، أمسكتها دونيا لوكريثيا من خصرها بكلتا يديها وساعدتها على الانزلاق من فوقها، دون أن توقفها وإنما أخرتها في حركة أبقت جسديهما ملتصقين ــــ السيدة في الأسفل، والموظفة فوقها ــــ لدقيقة. وفي الظلمة الخفيفة، وبينما وجه خوستينيانا فوق وجهها ــــ وكانت أنفاسها تدفئ وجهها وتدخل إلى فمها ــــ رأت دونيا لوكريثا في كهرمان عينيها السوداوين بريقاً منذراً بالخطر.

ــــ وعندئذ انتبهتِ إلى أنها؟ ــــ توعدها دون ريغوبيرتو المزنوق، وهو يحس بدونيا لوكريثيا تتحرك بين ذراعيه بالتكاسل الحيواني الذي يغرق فيه جسدها وهما يمارسان الحب.

قالت وكأنها تشرف على الغرق:

ـــــ لم تستنكر؛ بل ربما تكون قد فزعتْ قليلاً فقط. لأنني تماديت إلى ذلك الحد فـــي الثقة معها، بالسماح لها بالمرور من فوقي وأنا أمسك خاصرتها. ربما تكون قد انتبهتْ. لست أدري، لم أكن أعرف شيئاً، ولم يكن يهمني أي شيء. فقد كنتُ أطير. ولكنني انتبهت بالفعل إلى أنها لم تغضب. لقد أخذت الأمر بمرح، بهذا الخبث اللطيف الذي تضفـــيه على كل شيء. لقد كان فـــيتو على حق، فهي جذابة. وأكثر جاذبية وهي نصف عارية. جسدها الذي مثل قهوة بالحليب بدا واضحاً على بياض الحرير...

ـــــ كنتُ مستعداً لإعطاء سنة من عمري مقابل رؤيتكما فـــي تلك اللحظة ـــــ ووجد دون ريغوبيرتو عندئذ السند الذي كان يبحث عنه منذ بعض الوقت: لوحة **تكاسل وشبق أو الحلم** لغوستاف كوربيه.

وسخرت دونيا لوكريثيا:

ـــــ ألست ترانا؟

بكل وضوح، على الرغم من اختلاف غرفة نومه النهارية عن تلك الغرفة الليلية، وهذا الجزء من الغرفة كان مظلماً لا يصله نور المصباح ذي العمود. كان الجو قد تكثف. وذلك العطر النفاذ الذي يسبب الدوار كان يخنق دون ريغوبيرتو. كان أنفه يشمه، ينفثه، ويعيد تنشقه. وفـــي العمق كان يُسمع حفـــيف البحر، وفـــي المكتب، صوت خوستينيانا وهي تعد كأسي الشراب. تمطت دونيا لوكريثيا وهي نصف مختفـــية وراء النبتة ذات الأوراق الرمحية، وشغَّلت الحاكي، فطفت فـــي الغرفة

موسيقى قيثارات باراغوائية وكورال يغني باللغة الغوارانية، وبينما دونيا لوكريثيا عائدة إلى مكانها على الشيزْلُنغ وعيناها مغمضتان، كانت تنتظر خوستينيانا بزخم شمه دون ريغوبيرتو وسمعه. كان الروب الصيني يكشف فخذها الأبيض وذراعيها العاريين. وكان شعرها مشعثاً وعيناها تومضان وراء الرموش الحريرية. وفكر دون ريغوبيرتو: «نمر يترصد فريسته». عندما ظهرت خوستينيانا حاملة الكأسين فـــي يديها، جاءت باسمة، تتحرك بطلاقة، وقد اعتادت على هذا التواطؤ، وعلى عدم الاحتفاظ بمسافة من الاحترام تجاه سيدتها.

دمدمت دونيا لوكريثيا:

ــــ هل تعجبك هذه الموسيقى الباراغوائية؟ لا أعرف ما اسمها.

ــــ تعجبني كثيراً، إنها جميلة، ولكنها ليست للرقص، أليس كذلك؟ ــــ علقت خوستينيانا وهي تجلس على حافة الشيزْلُنغ وتمد إليها الكأس ــــ هل الشراب جيد هكذا أم أنه بحاجة إلى ماء؟

لم تتجرأ على المرور من فوقها فابتعدت دونيا لوكريثيا باتجاه الركن الذي كانت فـــيه الفتاة من قبل. ثم شجعتها بحركة من يدها لتحتل مكانها. فعلت خوستينيانا ذلك، وحين استلقت بجانبها انزلق الروب كاشفاً عن ساقها اليمنى التي أصبحت على بعد مليمترات من ساق السيدة المكشوفة. فقالت هذه وهي تدق كأسها:

ــــ فـــي صحتك يا خوستينيانا.

ــــ فـــي صحتك يا سيدتي.

شـــربتـــا. وما إن أبعدتـــا الكأســـــين عن فميـــهـــما حتى قـــالت دونيـــا لوكريثيا مازحة:

ـــــ كم كان سيدفع فـــيتو ثيبويّا مقابل اللقاء بنا مثلما نحن الآن.

ضحكت، وضحكت معها خوستينيانا أيضاً. وراح ضحكهما يعلو، ويزداد. وتجرأت الفتاة على المزاح أيضاً:

ـــــ لو أنه كان شاباً ووسيماً على الأقل. ولكن من التي ستقبل مثل هذا الضفدع، وهو مخمور فوق ذلك.

ـــــ ولكنه صاحب ذوق على كل حال ويحسن الاختيار ـــــ داعبت يد دونيا لوكريثيا الطليقة شعر خوستينيانا ـــــ الحقيقة أنك جميلة جداً. لست أستغرب أنك تسببين الجنون للرجال. هل هو فـــيتو وحده؟ لا بد أنك دمرتِ الكثيرين.

وكانت طوال الوقت تمسد شعرها، ثم مدت ساقها حتى لامست ساق خوستينيانا. فلم تبعد هذه ساقها. ظلت هادئة، ونصف ابتسامة جامدة على وجهها. وبعد بضع ثوان، لاحظت دونيا لوكريثيا وقلبها يطفر من مكانه أن قدم خوستينيانا تنسل ببطء لتلامس قدمها. وراحت أصابع خجولة تتحرك فوق أصابعها فـــي خرمشة لا تكاد تكون محسوسة.

ـــــ أحبك كثيراً يا خوستيتا ـــــ قالت ذلك وهي تناديها للمرة الأولى مثلما يناديها فونتشيتو ـــــ لقد انتبهتُ إلى ذلك هذه الليلة. حين رأيتُ ما كان يفعله بكِ ذلك البدين. أحسستُ بالغضب! كما لو أنك أختي.

ـــــ وأنا أحبك أيضاً يا سيدتي ـــــ تمتمت خوستينيانا وهي تميل قليلاً، فتلامست الآن الأرداف والأذرع والأكتاف فضلاً عن الأقدام والسيقان ـــــ. لستُ أدري كيف أقول ذلك، ولكنني أشعر نحوك بالحسد. لأنك مثلما أنتِ.. لأنك متأنقة جداً. أفضل من كل من عرفتهن.

ـــــ أتسمحين لي بقبلة؟ ـــــ قالت السيدة لوكريثيا ذلك ومالت برأسها حتى لامس رأس خوستينيانا. فاختلط شعراهما. كانت ترى عينيها العميقتين، مفتوحتين جداً، تراقبانها دون أن ترمشا، ودون خوف، وإن كان ذلك بشيء من اللهفة: ـــــ هل يمكنني أن أقبّلك؟ أيمكننا؟ كصديقتين؟

أحست بالقلق، بالندم، خلال الثواني ـــــ أكانت ثانيتان، ثلاث، عشر ثوان؟ ـــــ التي تأخر فـــيها رد خوستينيانا. ثم عادت روحها إلى جسدها ـــــ كان قلبها ينبض بسرعة كبيرة لا تكاد تتيح لها التنفس ـــــ عندما تحرك، أخيراً، الرأس الذي كان تحت رأسها موافقاً، واقترب مقدماً شفتيه. وبينما هما تتبادلان القبلة باندفاع، تُشَابِكا لسانيهما، تنفصلان وتلتحمان، وجسداهما ينعقدان، كان دون ريغوبيرتو يُحلق خفـــيفاً. أكان فخوراً بزوجته؟ أكان مغرماً بها أكثر من أي وقت آخر؟ بالطبع. وتراجع لكي يتمكن من رؤيتهما وسماعهما.

وسمع خوستينيانا تهمس فـــي أذن دونيا لوكريثيا:

ـــــ سأقول لك شيئاً يا سيدتي. لدي حلم يتكرر منذ زمن. إنه يتكرر كثيراً، حتى وأنا مستيقظة. أحلم بأنه فـــي ليلة باردة، بينما

كان السيد مسافراً. أحسستِ حضرتك بالخوف من اللصوص وطلبتِ مني أن آتي لمرافقتك. عندئذ أردت أن أنام على هذا المقعد فقلتِ لي: «لا، لا، تعالي هنا، تعالي». وجعلتني أنام معك. وعندما أحلم هذا الحلم، هل أخبرك؟ أنهض مبللة. يا للخجل!

ــــ فلنحقق هذا الحلم ــــ نهضت السيدة لوكريثيا وهي تقود وراءها خوستينيانا ــــ سننام معاً، ولكن فـــي السرير، فهو أطرى من الشّيزْلُنغ. تعالي يا خوستيتا.

قبل أن تندسا تحت الملاءات، خلعتا الروبين اللذين بقيا عند نهاية الفرشة المقسومة إلى قسمين والمغطاة بشرشف سرير. وكان قد تلا موسيقى القيثارات لحن فالس من أزمنة أخرى، أنغام كمانات يتوافق إيقاعها مع مداعباتهما. وما أهمية أنهما قد أطفأتا النور وهما تلعبان وتتحابان، واختفــتا تحت الملاءات، وأن شرشف السرير يتغضن، يتجعد،ويتلوى؟ لم يكن دون ريغوبيرتو يضيع تفصيلاً واحداً من توعداتهما وهجماتهما، كان يتشابك وينفصل معهما، لقد كان مع اليد التي تمسك نهداً، وفـــي كل إصبع يلامس وركاً، ومع الشفاه التي تجرأت أخيراً، بعد عدة مناوشات، على الغوص فـــي تلك القتامة المدفونة بحثاً عن بركان اللذة، عن الثغرة الدافئة، عن الفم النابض، عن العضلة الصغيرة المتوترة. كان يرى كل شيء، يحس بكل شيء، يسمع كل شيء. أنفه يتضمخ بعطر تينك البشرتين وشفتاه ترشفان الرحيق الذي يسيل من المرأتين المندفعتين.

ــــ ألم تكن قد فعلتْ ذلك من قبل؟

فأكدت له دونيا لوكريثيا:

ـــــ ولا أنا أيضاً. لم تمارس أي منا ذلك من قبل على الإطلاق. كنا مستجدتين. نتعلم هناك بالذات. وقد استمتعت.. استمتعنا. ولم أشتق إليكَ مطلقاً فـــي تلك الليلة يا حبي. ألا يزعجكَ أن أقول لك هذا؟

فاحتضنها زوجها:

ـــــ يروقني أن تقوليه لي. وهي، ألم تشعر بالاستياء فـــيما بعد؟

أبداً. لقد أبدت طبيعية وتكتماً أدهشا دونيا لوكريثيا. اللهم إلا فـــي اليوم التالي، حين وصلت باقتي الزهر (المرسلة إلى السيدة عليها بطاقة تقول: «من بين أضمدته، يشكرك فـــيتو ثيبويّا من كل قلبه على الدرس الذي يستحقه، والذي تلقاه من صديقته العزيزة والمحترمة لوكريثيا»، وعلى باقة الخادمة: «فـــيتو ثيبويّا يحيي ويطلب الاعتذار من زهرة القرفة») فأرت كل منهما باقتها للأخرى، وبعدها لم تتطرق أي منهما إلى الموضوع. العلاقة بينهما لم تتبدل بالنسبة لمن يراقبهما من الخارج، ولا أسلوبهما، ولا تعاملهما. صحيح أن دونيا لوكريثيا كانت تقدم من حين لآخر بعض اللمسات الرقيقة إلى خوستينيانا، فتهدي إليها حذاء جديداً، أو ثوباً، أو تأخذها معها عندما تخرج، ولكن هذا كله لم يكن يفاجئ أحداً، وإن كان يثير غيرة كبير الخدم والطاهية، ذلك أن جميع من فـــي البيت، ابتداء من السائق وحتى فونتشيتو ودون ريغوبيرتو، كانوا قد لاحظوا منذ وقت طويل بأن خوستينيانا قد استحوذت على السيدة بحيويتها وتملقها.

عشـــقٌ للآذان الطيارة

عينان للرؤية، أنف للشم، أصابع للمس وآذان مثل قرون الوفرة لكي تُفرك برؤوس الأصابع، مثلما هي حدبة الحدباء أو كرش بوذا ـــ اللذان يجلبان حسن الطالع ـــ ثم تُلحس وتُقبّل.

تعجبني أنت يا ريغوبيرتو، وأنت، وأنت، ولكن قبل كل أشيائك، تعجبني أذنيك الطيارتين. أريد أن أجثو على ركبتي وأترصد هاتين الفتحتين اللتين تنظفهما كل صباح (من تعرف، تعرف) بعود قطني، وتنتزع الشعيرات عنهما بملقط ـــ شعرة آي بعد شعرة آي قبالة المرآة آي ـــ فـــي اليوم الذي يكون فـــيه دورهما بالتنظيف التخصصي. ما الذي أراه أنا فـــي هاتين الفجوتين العميقتين؟ أرى هوةً. وهكذا أكتشف أسرارك. أي سر مثلاً؟ أنك تحبني دون أن تعرف ذلك يا ريغوبيرتو. وهل أرى شيئاً آخر؟ فـــيلين صغيرين بخرطومين مرفوعين إلى أعلى. يا دومبو، يا صغيري دومبو، كم أحبك.

ما بين المتع والألوان لم يكتب المؤلفون. أنت بالنسبة إليّ الكائن الأكثر جاذبية، حتى ولو كان هناك من يقول إنك ستكسب بسبب أنفك وأذنيك مسابقة **الرجل الفـــيل** فـــي البيرو، ولكنك أفضل شاب رأيته. احزر يا ريغوبيرتو من سيختار قلبي إذا ما خيروني بينك وبين روبرت ريدفورد؟ أجل يا أذينتي، أجل يا أُنيفـــي، يا يا بينوكيو: أنت، أنت من سيختاره قلبي.

ما الذي سأراه إذا ما أطللت أترصد هوّتيك السمعيتين؟ حقل برسيم، كل نبتة فـــيه من أربع وريقات. وباقات ورد رُسم على بتلاتها بزغب أبيض رَسمُ وجه محب. أي وجه؟ إنه وجهي.

من أكون يا ريغوبيرتو؟ من هي المتسلقة الأنديزية التي تحبك وتعبدك وستتسلق فـــي يوم غير بعيد أذنيك مثلما يتسلق آخرون الهمالايا أو قمة هواسكاران؟

لك، لك، لك،

المجنونة بأذنيك



IV. فونتشيتو باكياً

ظل فونتشيتو مطرقاً وشاحباً منذ وصوله إلى البيت في سان ايسيدرو، وكانت دونيا لوكريثيا واثقة من أن الزرقة المحيطة بعينيه ونظراته المتهربة لها علاقة بإيغون شيلي، الموضوع المؤكد في كل مساء. لم يكد يفتح فمه في أثناء تناولهما الشاي، ونسي للمرة الأولى في هذه الأسابيع أن يطري على بسكويت خوستينيانا المحمص. أهي أخبار سيئة في المدرسة؟ هل اكتشف ريغوبيرتو أنه يتغيب عن معهد الرسم لكي يأتي ويزورها؟ كان يعض عقد أصابعه وهو حبيس الصمت الحزين. وفي بعض اللحظات كان يتمتم بشيء رهيب عن أدولف وماريا، أبويّ أو قريبي رسامه المفضل.

عرضت عليه دونيا لوكريثيا المساعدة:

ـــ عندما ينهش أحدنا شيء من الداخل، فمن الأفضل أن يرويه لأحد كي يشاطره إياه. ألا تثق بي؟ أخبرني بما جرى لك، فربما أستطيع مساعدتك.

نظر الطفل إلى عينيها مرتبكاً. كان يرمش بكثرة ويبدو كما لو أنه سينفجر بالبكاء. كان صدغاه يرتعشان، ولمحت دونيا لوكريثيا

الأوردة الزرقاء فـــي عنقه.

ـــــ لقد... لقد كنت أفكر ــــ قال ذلك أخيراً. ثم أخفض بصره وصمت، نادماً على ما سيقوله.

ـــــ بماذا كنت تفكر يا فونتشيتو؟ هيا، أخبرني. لماذا أنت مهتم كثيراً بهذين الشخصين؟ من هما أدولف وماريا؟

فقال الطفل وكأنه يتحدث إلى زميل فـــي الصف:

ـــــ أبوا إيغون شيلي. ولكن، ليس السيد أدولف هو من يهمني، وإنما أبي.

ـــــ ريغوبيرتو؟

ـــــ لا أريده أن ينتهي مثله ــــ وأصبح الوجه الصغير أكثر غماً وقامت يده بحركة غريبة، وكأنها تُبعد الأشباح ــــ إنني خائف ولا أعرف ماذا أفعل. لا أريد أن أسبب لك القلق. فأنت ما زلتِ تحبين أبي، أليس كذلك يا خالتي؟

فوافقت وهي حائرة:

ـــــ طبعاً ما زلتُ أحبه. إنك تشوشني يا فونتشيتو. ما علاقة ريغوبيرتو بوالد رسام مات فـــي الجانب الآخر من العالم، قبل نصف قرن؟

فـــي أول الأمر بدت لها مسلية، وخاصة به جداً، هذه اللعبة غير المألوفة بالانبهار برسوم وحياة إيغون شيلي، ودراستها، وفهمها، والتطابق معه إلى حد الاعتقاد، أو الادعاء بالاعتقاد أنه إيغون شيلي منبعثاً، وأنه سيموت بعد حياة لامعة قصيرة، ميتة تراجيدية حين يبلغ الثامنة والعشرين. ولكن هذه اللعبة راحت تتعكر.

تلعثم فونتشيتو وهو يبتلع لعابه:

ـــ مصير أبيه أيضاً بدأ يتكرر مع أبي. لا أريد لأبي أن يصبح مجنوناً أو أن يصاب بالزُهري مثل السيد أدولف يا خالتي.

فحاولت أن تهدئه:

ـــ ولكن، أي حماقة هذه. انظر، الحياة لا تورث ولا تتكرر. وما هذه الخواطر إلا هراء.

تحول وجه الطفل الذي لم يعد قادراً على كبح نفسه، إلى مرجل وانفجر بالبكاء، مرفقاً ذلك بشهقات تهز محياه الناعم. قفزت السيدة لوكريثيا من مقعدها، وسارعت إلى الجلوس إلى جانبه على سجادة صالة الطعام الصغيرة، عانقته، قبّلت شعره وجبهته، ومسحت دموعه بمنديلها، ونفّتْ له أنفه. التصق فونتشيتو بها. وكانت شهقات عميقة ترفع صدره وتُشعر دونيا لوكريثيا بقلبه يطفر من مكانه.

ـــ اهدأ، لقد انقضى الأمر، لا تبكِ، هذه الهواجس الخبيثة ليس لها أساس ولا رأس ـــ وكانت فـــي أثناء ذلك تمسد شعره وتقبّله ـــ. ريغوبيرتو هو أسلم الرجال صحة وله أفضل دماغ متزن.

هل كان أبو إيغون شيلي مصاباً بالسفلس ومات مجنوناً؟ دونيا لوكريثيا التي كان قد لسعها الفضول بسبب تلميحات فونتشيتو المتواصلة، ذهبت للبحث عن شيء حول شيلي فـــي مكتبة **البيت الأخضر**، على بعد خطوتين من بيتها، ولكنها لم تجد أي بحث أو كتاب عنه وحده، وإنما وجدت كتاباً حول تاريخ الانطباعية يخصص له جزءاً من فصل. وهي لا تذكر أن هناك فـــي الكتاب أي ذكر لأسرته. هز الطفل رأسه مؤكداً، بينما فمه مزموم وعيناه شبه

مغمضتين. وبين الحين والآخر كانت تهزه قشعريرة. ولكنه راح يهدأ، وبدأ يتكلم دون أن ينفصل عنها، وهو منكمش، بل وهو سعيد لإحساسه بأن ذراعي دونيا لوكريثيا يحميانه. ألا تعرف هي قصة السيد أدولف؟ لا، لم تكن تعرفها؛ فهي لم تستطع العثور على سيرة حياة هذا الرسام. ولكن فونتشيتو كان قد قرأ عدة روايات لسيرته فـــي مكتبة أبيه، وبحث عنه فـــي الموسوعة. إنها قصة رهيبة يا خالتي. كانوا يقولون إنه لا يمكن فهم إيغون دون معرفة ما جرى للسيد أدولف شيلي والسيدة ماريا سوكوب. لأن هذه القصة تخفـــي سر رسومه.

وحاولت دونيا لوكريثيا أن تجرد القضية من التشخيص:

ـــــ حسن، حسن. وما هو هذا السر فـــي رسومه؟

فرد الطفل دون تردد:

ـــــ إصابة أبيه بالسفلس. وجنون السيد أدولف شيلي المسكين.

عضت دونيا لوكريثيا شفتها لتكبح الضحكة كي لا تجرح مشاعر الطفل. وبدا لها كما لو أنها تستمع إلى الدكتور روبيو، وهو طبيب نفساني من معارف دون ريغوبيرتو، اشتهر جداً بين أصدقائه منذ بدأ يتعرى، مستشهداً بمثال ويلهلم رايخ، فـــي جلسات العلاج لكي يفسر أحلام مرضاه، وقد اعتاد الإقدام على أشياء من هذا النوع فـــي حفلات الكوكتيل، بالقناعة نفسها.

قالت له وهي تنفخ على جبهته اللامعة من العرق:

ـــــ ولكن، هل تعرف يا فونتشيتو ما هو السفلس؟

فاعترف الطفل بصراحة مذهلة:

ـــ مرض تناسلي، مشتق من اسم فـــينوس، وهي ربة لا أعرف من تكون. لم أجدها فـــي المعجم. ولكنني أعرف أنها نقلت عدوى الداء إلى السيد أدولف. هل أروي لك كيف حدث ذلك؟

ـــ شريطة أن تهدأ. وألا تعود إلى تعذيب نفسك بأوهام لا أساس لها. فأنت لست إيغون شيلي ولا ريغوبيرتو يشبه بأي حال ذلك السيد المجنون.

لم يعدها الطفل بأي شيء، ولكنه لم يرد عليها كذلك. ظل صامتاً هنيهة، بين الذراعين الحاميتين، ورأسه على كتف خالته. وعندما بدأ يروي القصة، فعل ذلك بإسهاب فـــي التواريخ والتفاصيل كما لو كان شاهد عيان على ما يرويه. أو أحد أبطال الحدث. فقد كان ينفعل كمن عاش الأحداث وعانى منها بنفسه. وكأنه، بدلاً من أن يكون قد ولد فـــي ليما فـــي أواخر القرن العشرين، كان هو نفسه إيغون شيلي، ذلك الفتى من الجيل الأخير من مواطني الدولة النمساوية ـــ الهنغارية التي سترى اختفاء ما سمي **الحقبة الجميلة** والإمبراطورية من الوجود فـــي كارثة الحرب العالمية الأولى، ذلك المجتمع اللامع، الكوسمبوليتي، الأدبي، الموسيقي، الفني الذي أحبه ريغوبيرتو كثيراً وقدم عنه إلى دونيا لوكريثيا دروساً شديدة الصبر فـــي سنوات زواجهما الأولى. (وها هو فونتشيتو يواصل الآن تقديم تلك الدروس). إنه مجتمع ماهلر، وشونبيرغ، وفرويد، وكليمت، وشيلي. فـــي الرواية القلقة، وبعد استبعاد التسلسل التاريخي والصبيانية، بدأت تتشكل قصة. هناك قرية صغيرة تدعى توللن، على ضفاف الدانوب، فـــي محيط مدينة

فـــيينا (على بعد 25 كيلومتر عنها، حسب قوله) ثم، فـــي تلك السنوات الأخيرة من القرن، تقام حفلة زفاف الموظف فـــي السكك الحديد الإمبراطورية أدولف إيغون شيلي، وهو بروتستانتي من أصل ألماني، كان قد أكمل للتو ستاً وعشرين سنة من عمره، والفتاة الكاثوليكية المراهقة، التشيكية الأصل، ذات السبعة عشر عاماً، ماريا سوكوب. إنه زواج ملعون، مخالف للتيار، بسبب معارضة أسرة الفتاة. («هل عارضت أسرتكِ زواجك من أبي؟» «بالعكس، كانت أسرتي مفتونة بريغوبيرتو.» لقد كانت تلك الحقبة بوريتانيّة جداً ومترعة بالأحكام المسبقة، أليس كذلك يا خالتي؟ أجل، بالتأكيد، ولكن لماذا هذا السؤال؟ لأن ماريا سوكوب لم تكن تعرف أي شيء عن الحياة؛ بل إنهم لم يكونوا قد علموها كيف يُصنع الأطفال، فكانت المسكينة تعتقد أن طيور اللقلق هي التي تأتي بهم من باريس. (لم تكن الخالة ساذجة إلى هذا الحد عندما تزوجت؟ لا، فدونيا لوكريثيا كانت تعرف كل ما تجب معرفته.) لقد كانت ماريا بريئة إلى حدّ لم تدرك معه أنها صارت حبلى، وخطر لها بأن السبب فـــي توعكها هو التفاح الذي كان يفتنها. ولكن فـــي هذا الكلام استباق للأمور. فلا بد من العودة قبل ذلك إلى رحلة العروسين. فهناك بدأ كل شيء.

ـــ وما الذي حدث فـــي شهر العسل ذاك؟

ـــ لا شيء ـــ قال الطفل وهو يعتدل فـــي جلسته ليتمخط. كانت عيناه منتفختين، ولكن الشحوب قد فارقه، وكان مندمجاً فـــي الحكاية بجسده وروحه ـــ. خافت ماريا. ولم تسمح فـــي الأيام

الثلاثة الأولى للسيد أدولف أن يلمسها. وهكذا لم يتكرس الزواج. ما الذي يُضحكك يا خالتي.

ـــ سماعك تتكلم مثل عجوز مسن، وأنت ما تزال شققة الرجل الذي أنت عليه. لا تغضب، القصة تعجبني كثيراً. حسن، فـــي الأيام الثلاثة الأولى من الزواج، لم يحدث أي شيء بين أدولف وماريا.

قال فونتشيتو مغموماً:

ـــ ليس بالأمر المضحك. إنه جدير بالبكاء. لقد مضى شهر العسل فـــي الحزن. ومن أجل تذكر رحلة الأبوين هذه، قام إيغون شيلي وأخته المفضلة جيرتي، بالرحلة نفسها فـــي عام 1906.

فـــي ذلك الحزن، خلال شهر العسل، بدأت المأساة. لأن السيد أدولف حين رأى أن زوجته لا تسمح له بلمسها ـــ كانت تبكي، وترفس، وتخدشه، وتثير ضجة هائلة كلما اقترب محاولاً تقبيلها ـــ، صار يخرج إلى الشارع. إلى أين؟ ليعزي نفسه مع النساء السيئات. وفـــي واحد من تلك الأماكن، نقلت إليه فـــينوس عدوى الزُهري. وبدأ هذا المرض يفتك به شيئاً فشيئاً منذ ذلك الحين. أفقده صوابه ونكب الأسرة كلها. وابتداء من ذلك الوقت حلّت اللعنة على آل شيلي. فقد نقل أدولف، دون أن يدري، العدوى إلى زوجته، حين استطاع تكريس الزواج، فـــي اليوم الرابع. ولهذا السبب أجهضت ماريا أجنتها الثلاثة الأولى؛ ولهذا السبب أيضاً ماتت إلفـــيرا، الابنة التي عاشت حوالي عشر سنوات. ولهذا السبب كان إيغون ضعيف البنية وعرضة للأمراض. حتى إنهم كانوا يعتقدون، فـــي طفولته، أنه سيموت لكثرة ما يأخذونه إلى الأطباء. وانتهت دونيا لوكريثيا

إلى رؤيته: طفل متوحد، يلعب بلعبة قطارات صغيرة، يرسم، ويرسم طوال الوقت على دفاتره المدرسية، وعلى هوامش الكتاب المقدس، وحتى على أوراق يستخرجها من القمامة.

ـــــ أترى، أنت لا تشبهه فـــي أي شيء. فقد كنت أفضل الأطفال صحة فـــي الدنيا كما يقول ريغوبيرتو. وكنت تحب اللعب بالطائرات وليس بالقطارات.

ـــــ هل ستسمحين لي بأن أكمل أم أنك مللتِ؟

لم تمل، وكانت مستمتعة؛ ولكن ما كان يمتعها أكثر من تقلبات الشخصيات النمساوية ـــــ هنغارية فـــي أواخر القرن، هو التأثر الذي يتحدث به فونتشيتو: متوتراً، محركاً عينيه ويديه، مع تبدلات ميلودرامية فـــي نبرة صوته. الرهيب فـــي هذا الداء هو أنه يأتي ببطء وغدر؛ وأنه يشين ضحيته. وهذا هو السبب الذي جعل السيد أدولف ينكر دوماً إصابته بالمرض ولا يعترف بها. فحين كان أقرباؤه ينصحونه باستشارة طبيب، كان يعترض محتجاً: «إنني سليم أكثر من أي شخص». وكيف يكون كذلك. لقد بدأ عقله يخونه. كان إيغون يحبه، فقد كانت علاقتهما جيدة، وكان يتألم وهو يرى أن أحواله تسوء. كان السيد أدولف يجلس ليلعب الورق وكأن أصدقاءه قد جاؤوا للعب معه، ولكنه يكون وحيداً. يوزع الورق، ويتحدث معهم، ويقدم لهم السجائر، دون أن يكون هناك أحد حول منضدة البيت فـــي توللن. وكانت ماري وميلان وجيرتي يحاولون جعله يرى الحقيقة، «ولكن، ليس هناك من تتحدث إليه، ولا وجود لمن يلعب معك، ألا ترى ذلك؟». فكان إيغون يتصدى لمعارضتهم: «ما

يقولونه غير صحيح يا أبي، لا تصدقهم، هاهم هنا أصدقاؤك: رئيس الحرس ومدير البريد وأستاذ المدرسة. أصدقاؤك معك يا أبي. أنا أيضاً أراهم مثلما تراهم». لم يكن يتقبل أن ما يظهر لأبيه هو رؤى. وفجأة يرتدي السيد أدولف زي المراسم، والقبعة ذات الواقية اللماعة، وجزمة كالمرآة، ويخرج ليقف بانتظام على رصيف المحطة. «ما الذي تفعله هنا يا أبي؟» «سأستقبل الإمبراطور والإمبراطورة يا بني.» وكان قد صار مجنوناً. لم يعد بإمكانه مواصلة العمل في السكة الحديد، وكان لا بد من إحالته على التقاعد. وقد دفع الإحساس بالخجل آل شيلي إلى الانتقال من توللن إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد: انتقلوا إلى كلوسترنبيرغ. وهذا يعني بالألمانية:«قرية الدير الجديدة». ساءت أحوال السيد، ونسي الكلام. فكان يقضي الأيام في غرفته، دون أن يفتح فمه. كان يرى؟ كان يرى؟ وهيمن على فونتشيتو فجأة اضطراب مغموم، ثم انفجر صارخاً:

ـــ مثلما يحدث لأبي. فهو أيضاً يرجع من المكتب ويحبس نفسه ولا يتكلم مع أحد. حتى ولا معي. وحتى في أيام السبت والأحد يفعل الشيء نفسه؛ يبقى في غرفة مكتبه طوال النهار. وعندما أريد محادثته، لا يخرج عن قول «نعم»، «لا»، «طيب».

أيكون مصاباً بالسفلس؟ أيكون قد بدأ بالجنون؟ إذا كان كذلك فالسبب هو دون شك مثلما كان لدى السيد أدولف. لأنه ظل وحيداً حين تركته السيدة لوكريثيا. لقد ذهب إلى بيتٍ مشبوه، ونقلت فينوس العدوى إليه. أنت لا تريدين أن يموت أبوه يا خالة!

انفجر بالبكاء من جديد، ولكن دون صخب هذه المرة، كان يبكي إلى الداخل، مغطياً وجهه، وقد تكلفت دونيا لوكريثيا مشقة أكبر من السابق فـــي تهدئته. واسته: ما هذه الهذيانات الحمقاء يا عزيزي. ريغوبيرتو لا يعاني من أي مرض. وهو أرجح عقلاً منها ومن فونتشيتو، بينما كانت تشعر بدموع ذلك الرأس الأشقر تبلل صدر ثوبها. وبعد كثير من التدليل، تمكنت من تهدئته. ريغوبيرتو يحب الانفراد مع لوحاته وكتبه، ومع دفاتره، ليقرأ، وليسمع موسيقى، وليكتب مقاطعه المنتقاة وتأملاته. ألا يعرف فونتشتيو ذلك؟ أولم يكن كذلك على الدوام؟

ـــــ لا، لم يكن كذلك دائماً ـــــ أنكر الطفل بقوة ـــــ كان يروي لي من قبل عن حياة الرسامين، وكان يشرح لي اللوحات. وكان يضحك معكِ، ويخرج، كان عادياً. ومنذ أن ذهبتِ، تغير. لقد صار كئيباً. لم يعد يهتم الآن حتى بالدرجات التي أحصل عليها فـــي المدرسة، إنه يوقع على سجل درجاتي دون أن ينظر إليه. الشيء الوحيد الذي يهمه هو مكتبه. يحبس نفسه فـــيه، ساعات وساعات. سيصير مجنوناً مثل السيد أدولف. وربما صار كذلك بالفعل.

كان الطفل قد ألقى بذراعيه حول عنقها وأسند رأسه على كتف الخالة. وكانت تسمع من بستان الزيتون صرخات الصبيان وجريهم، كما فـــي كل مساء، حين يتدفق تلاميذ الجوار، عند خروجهم من المدرسة، إلى الحديقة ليدخنوا فـــي أركانها سيجارة بالخفاء عن آبائهم، وليلعبوا الكرة أو ليحبوا بنات الحي. لماذا لا يفعل فونتشيتو مطلقاً هذه الأشياء؟

ـــــ أما زلتِ تحبين أبي يا خالتي؟ ـــــ عاد السؤال يتكرر مشحوناً بالخوف، كما لو أن الموت والحياة متعلقان بجوابها.

ـــــ لقد قلت لك يا فونتشيتو. لم أتوقف عن حبه قطّ. ما سبب هذا السؤال الآن؟

ـــــ إنه بهذه الحال لأنه يفتقدك. لأنه يحبك يا خالتي، ولا يجد العزاء لأنك ما عدتِ تعيشين معنا.

ـــــ لقد حدث ما حدث ـــــ قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تناضل ضد استياء متنامٍ.

وألمح الطفل بخوف:

ـــــ لستِ تفكرين فـــي الزواج مرة أخرى، أليس كذلك يا خالتي؟

ـــــ هذا آخر ما يمكن أن أفعله فـــي حياتي، الزواج مرة أخرى. مستحيل المستحيلات. ثم إننا لم نتطلق أنا وريغوبيرتو، إننا منفصلين فقط.

فهتف فونتشيتو بارتياح:

ـــــ يمكنكما أن تتصالحا إذن. من يتشاجرون يستطيعون التوصل إلى مصالحة. أنا أتشاجر وأتصالح كل يوم مع أولاد المدرسة. سترجعين إلى البيت، وكذلك خوستيتا. سيعود كل شيء مثلما كان من قبل.

«ونشفـــي البابا من جنونه»، فكرت دونيا لوكريثيا. كانت غاضبة. ولم تعد تستظرف تخيلات فونتشيتو. غضب أصم، مرير، حاقد، كان يطغى عليها كلما استعادت ذاكرتها الذكريات السيئة.

تأملته وجهاً لوجه، مستاءة من هاتين العينين الزرقاوين، المنتفختين، المحمرتين اللتين تواجهان بكل هذه البراءة نظراتها المشحونة بالتأنيب. أمن الممكن أن يكون معدوم الإحساس إلى هذا الحد؟ إنه لم يصل إلى سن المراهقة بعد. كيف يمكنه أن يتكلم عن القطيعة بينها وبين ريغوبيرتو وكأنها أمر غريب عنه، وكما لو أنه ليس هو نفسه السبب فـــيما حدث؟ أولم يكن هو من رتب كل شيء لجعل ريغوبيرتو يكتشف اللعبة كلها؟ لقد كان يقابلها ببراءة عذراء فـــي وجهه الذي جرفته الدموع، وملامحه المرسومة بالريشة، وشفتيه الورديتين، ورموشه المعقوفة، وذقنه الصغيرة الثابتة.

قالت له دونيا لوكريثيا من بين أسنانها، وهي تحاول ألا يفـــيض سخطها متحولاً إلى انفجار:

ـــــ أنت تعرف خيراً من أي شخص آخر ما الذي حدث. أنت تعرف جيداً لماذا انفصلنا. لا تأتِ الآن متظاهراً بأنك الطفل الطيب، الحزين لهذا الانفصال. لقد كنتَ مذنباً بقدر ما أنا مذنبة، بل ربما أكثر مني.

فقاطعها فونتشيتو:

ـــــ لهذا السبب بالذات يا خالتي . أنا تسببت فـــي شجاركما، ولذا أنا مسؤول عن مصالحتكما. ولكن، عليك أن تساعديني. ستفعلين، أليس كذلك؟ قولي نعم يا خالتي.

لم تدر دونيا لوكريثيا بماذا ترد؛ كانت تريد صفعه وتقبيله. أحست بخديها يسخنان. والأدهى أن هذا البارد فونتشيتو، وفـــي تحول مفاجئ فـــي مزاجه، بدأ يبدو الآن سعيداً. وها هو يطلق فجأة

قهقهة صاخبة.

ـــــ لقد احمر وجهكِ ـــــ قال وهو يطوقها بذراعيه من جديد ـــــ. الجواب إذاً هو نعم. إنني أحبك كثيراً يا خالتي!

وقالت خوستينيانا التي ظهرت فـــي الممر:

ـــــ فـــي البدء بكاء والآن ضحك. هل يمكنني أن أعرف ما الذي يحدث هنا؟

فرحب بها الطفل:

ـــــ لدينا خبر عظيم. هل نخبرها يا خالتي؟

فقالت دونيا لوكريثيا موارية استياءها:

ـــــ أنتَ من تراخت براغي دماغه وليس ريغوبيرتو.

ـــــ ستكون فـــينوس قد نقلت إليّ عدوى السفلس أيضاً ـــــ قال فونتشيتو ساخراً وهو يقلب عينيه، ثم أضاف باللهجة نفسها متوجهاً إلى الفتاة: ـــــ أبي وخالتي سيتصالحان يا خوستيتا! ما رأيك بهذا الخبر؟

مرافعة تشهير ضد الرياضي

أفهم أنك تمتطي لوح تزلج هاواي فوق أمواج الباسفـــيك الهائجة فـــي الصيف، وتتزلق فـــي الشتاء متزلجاً على الجليد فـــي مدرجات التزلج ببورتييو التشيلية وباريلوتشي الأرجنتينية (ذلك أن جبال الأنديز البيروية لا تتيح ممارسة مثل هذه النزوات الراقية)،

وأنك تتعرق كل صباح فـــي صالة التمارين الرياضية ممارساً الايروبيك، أو تجري فـــي مضمار ملعب رياضي أو فـــي الحدائق والشوارع وتحيط نفسك بمغطس حراري يغضن مؤخرتك وبطنك مثلما كانت مشدات الخصر القديمة تخنق جداتنا، ولا تضيع مباراة للفريق الوطني، ولا مباراة القمة بين فريق أليَنثا ليما والفريق الرياضي الجامعي، ولا بطولة الملاكمة على لقب أميركا الجنوبية، وأميركا اللاتينية، والولايات المتحدة، وأوربا، أو بطولة العالم، وهي مناسبات تتسمر فـــيها قبالة شاشة التلفزيون محتفلاً بالاستعراض بجرعات من البيرة والكوباليبري والويسكي مع الثلج، تزعق، تحتقن، توَعْوع، تومئ أو تغتم لانتصارات معبوديك وإخفاقاتهم، مثلما يليق بالمُشجع الجدير بهذا الاسم. إنها أسباب أكثر من وجيهة يا سيدي لكي أؤكد أسوأ شكوكي حول العالم الذي نعيش فـــيه، ولكي أعتبر حضرتك بلا عقل، متعفن الصدر بالبراز، ومتخلفاً ذهنياً. (وأنا أستخدم التعبيرين الأول والثالث على سبيل المجاز؛ أما التعبير الأوسط فأستخدمه بمعناه الحرفـــي).

أجل، بالفعل، لقد نفذ الضوء إلى ذكائك الضامر: إنني أرى فـــي ممارسة الرياضة عموماً، وفـــي عبادة ممارسة الرياضة بصورة خاصة، شكلاً من أشكال البلاهة التي تُقرِّب الكائن البشري إلى الكبش، وإلى الإوزة والنملة، وهي ثلاث درجات مهينة فـــي مملكة الحيوان. اكبح حضرتك تلهفك لسحقي، واسمع، فسنتحدث بعد قليل عن الإغريق وعن العبارة المنافقة mens sana in corpore

sano.[1] ولكن عليّ قبل ذلك أن أقول لك إن الرياضات الوحيدة التي أستبعدها من منصة التشهير هي رياضات الطاولة (مستثنياً البنغ ــــ بونغ) ورياضات الفراش (بما فــي ذلك الاستمناء بالطبع). أما الرياضات الأخرى، فقد حوّلتها الثقافة المعاصرة إلى عراقيل أمام انطلاق الروح والحساسية والمخيلة (وبالتالي المتعة). ولكنها تعرقل أولاً وقبل كل شيء الوعي والحرية الفردية. فليس هناك ما أسهم ــــ حتى أكثر من الأيديولوجيات والأديان ــــ فــي تشجيع مفهوم الإنسان ــــ الجمهور المزري، وربوت الشروط الانعكاسية، وانبعاث ثقافة تشريف الوشم ولباس إخفاء العورة المتخفــية وراء واجهة الحداثة، مثل تأليه التمارين والألعاب الرياضية فــي مجتمع أيامنا هذه.

والآن يمكننا أن نتحدث عن الإغريق، لكي لا تواصل إزعاجي بأفلاطون وأرسطو. ولكنني أنبهك مسبقا إلى أن مشهد الشبان الأثينيين وهم يطلون أنفسهم بالمراهم فــي الجيمناسيوم قبل أن يقيسوا براعتهم الجسدية، أو وهم يرمون القرص أو الرمح تحت زرقة السماء الإيجية النقية، لن تكون لصالحك وإنما ستُغرقك أكثر فأكثر فــي الخزي، يا مغفلاً مأخوذا بالعضلات الصلبة على حساب وفرة التَّستوسترون[2] واستلاب حاصل ذكائك. إن ضرب كرة القدم، أو لكمات الملاكمة أو عجلات دراجات السباق والجنون الشيخوخي

---

[1] ــ العبارة باللاتينية فـي الأصل، ومعناها: العقل السليم فـي الجسم السليم.

[2] ــ التستوسترون Testosterona: هرمون تفرزه الخصية.

المبكر (هل نضيف تقلص القدرة الجنسية والسلس والعجز؟) التي يستثيرونها عادة، هي وحدها التي تفسر المزاعم القائلة بوجود خط استمرارية ما بين اتحاديي أفلاطون المطليين وهم يدهنون أجسادهم بأنواع الراتينج بعد عروضهم الجسدية الحسية والفلسفـــية، والعصابات الثملة التي تزمجر على مدرجات الاستادات الحديثة (قبل أن تحرقها) فـــي مباريات كرة القدم المعاصرة، حيث يتراكض اثنان وعشرون مهرجاً منزوعي التفرد بالزي الموحد الملون، فـــي المستطيل العشبي وراء كرة، ليكونوا مبرراً لاستعراض الجنون الجماعي.

الرياضة فـــي زمن أفلاطون كانت وسيلة، ولم تكن غاية، مثلما تحولت فـــي هذه الأزمنة البلدية من الحياة. كانت تفـــيد فـــي إغناء متعة البشر (الذكور منهم، لأن النساء لم يكنّ يمارسنها)، وتنشيطها وإطالة أمدها بتقديم جسد بديع، مشدود، بلا شحوم، متناسب ومتناسق، وتحريضها برياضة عضلية جمالية ما قبل إيروتيكية عبر حركات، وأوضاع، واحتكاكات، وعروض جسدية، وتمارين، ورقصات، وملامسات تؤجج الشهوات إلى أن تقذف المشاركين والمشاهدين إلى حمى الاتصال. والقول بأن أولئك الرياضيين كانوا شاذين جنسياً لا يضيف ولا ينتقص ولو فاصلة واحدة من براهيني، مثلما لا يؤثر فـــي ذلك كون الداعي، فـــي مجال الجنس، سوياً إلى حد الملل ولا أحب سوى النساء ـــــ وبالأحرى امرأة **واحدة فقط** ـــــ، وليست لدي أي قابلية للواطة السلبية أو الإيجابية. وارجو أن تفهمني، فأنا لا أرمي بأي حال إلى معارضة جماعات **الغاي**. بل

أرجو لهم قضاء أوقات ممتعة وأدعمهم فـــي حملتهم ضد القوانين التي تتضمن تمييزاً ضدهم. ولا يمكنني أن أرافقهم إلى ما هو أبعد من ذلك لأسباب عملية. فليس هناك ما يجتذبني فـــي «عين فتحة الشرج» الكيفـــيدوية. ذلك أن الطبيعة، أو الرب إذا كان له وجود ويضيع وقته فـــي هذه الأمور، جعلت من هذه العين السرية الفتحة الأشد حساسية بين كل الثقوب التي منحتني إياها. فالتحميلة تجرحها وأنبوب الحقنة الشرجية يدميها (لقد أدخلوه لي مرة، فـــي فترة الإمساك اللجوج، وكانت النتيجة مريعة) بحيث أن فكرة وجود بشر يمتعهم إيلاج قضيب ذكري هناك يُشعرني بتقدير مرعب لهم. وأنا واثق، بالنسبة إليّ، أنه إضافة إلى الصراخ والزعاق، سأعاني صدمة نفسية إذا ما أُدخل عضو ذكري فـــي المستقيم الحساس المذكور، حتى ولو كان ذلك العضو هو قضيب قزم. وعملية الإيلاج الوحيدة التي عانيتها فـــي حياتي قام بها طبيب، لم يخبرني بذلك وتذرع بأنه يريد التأكد مما إذا كان لدي التهاب فـــي الزائدة الدودية، فجرب على شخصي تعذيباً مستتراً تحت يافطة علمية تسمى «الملامسة الشرجية». ومع ذلك، فإنني أؤيد ـــــ نظرياً ـــــ أن يمارس البشرُ الحبَ على الوجه والقفا، على انفراد أو بصورة ثنائية أو فـــي تواطؤ جماعي مختلط (إحمممم)، أو أن يجامع الرجل رجالاً والنساء نساء، وكلاهما مع البط، أو الكلاب، أو البطيخ، أو الموز، أو الشمام وكل القذارات التي تخطر على البال ما داموا يفعلون ذلك بالتوافق المشترك وبحثاً عن اللذة، وليس عن التناسل، هذا الحدث الذي ينتج عن الجنس ويجب الصبر عليه كشر صغير لا

بد منه، دون تقديسه بأي حال من الأحوال باعتباره تبريراً للاحتفال الجسدي (هذه الحماقة التي تدعو إليها الكنيسة تغيظني جداً مثل مباراة بكرة السلة). أعود إلى الإمساك بالخيط الضائع، وأقول إنني اهتز تأثراً لصورة الشيوخ الهيلينيين، والفلاسفة الحكماء، والمشرعين الجليلين، والجنرالات المجربين، أو مجرد الكهنة وهم يذهبون إلى الملاعب الرياضية لتنشيط شبقهم برؤية الشباب رماة القرص، والمصارعين، والماراثونيين أو رماة الرمح. ذلك النوع من الرياضة، المتعبِّد للشهوة، أتسامح معه ولا أتردد فـــي ممارسته، إذا ما سمحت لي بذلك صحتي، وسني، والوقت المتاح، وألا أكون مضحكاً.

هناك حالة أخرى، وهي أكثر بعداً عن وسطنا الثقافـــي (لست أدري لماذا أضمك إلى هذه الأخوية، خصوصاً وأنك قد استُبعدت منها بقوة ركلات وضربات الرأس الكروية، أو العَرق الدراجي أو خبطات الأرض الكراتيّة) حيث للرياضة بعض الانضباط أيضاً. حين يتجاوز الكائن البشري، وهو يمارسها، شرطه الحيواني ويلمس ما هو مقدس، ويسمو إلى مستوى كثيف الروحانية. وإذا كنت تسعى إلى أن نستخدم كلمة «صوفـــية»، فليكن. هذه الحالات كما هو واضح، صارت نادرة جداً، ومن بين أكثرها إثارة ذكرى مصارع **السومو** الياباني الأضحية، فهو يُعلف منذ طفولته بحساء خضري شرس يحوّله إلى فـــيل ويحكم عليه بالموت بتمزق القلب قبل بلوغ الأربعين، وبقضاء حياته محاولاً ألا يتمكن جبل لحمي آخر مثله من إخراجه خارج دائرة الحلبة السحرية الصغيرة التي تتحدد فـــيها حياته، وهؤلاء لا سبيل

إلى تشبيههم بمعبودي التفاهة الذين يطلق عليهم مجتمع ما بعد التصنيع اسم «شهداء الرياضة». فأين هي البطولة في التحول إلى عصيدة وراء مقود نيزك ذي محركات تقوم بالعمل بدل الإنسان، أو في الارتداد من كائن مفكر إلى ضعيف العقل في الدماغ ومقدام في الخصيتين يمنع أو يسجل أهدافاً بالقطعة، لكي تقوم حشود معتوهة بتفريغ شحنتها الجنسية في استمناءات جماعية لكل هدف يُسجل؟ إن التمارين والمنافسات الجسدية المسماة رياضية في هذه الأيام، لا تقرّب الإنسان المعاصر مما هو مقدس وديني، وإنما تبعده عن الروح وتجعله همجياً وتشبع أشد غرائزه انحطاطاً: الميل القبلي، والمازوشية، وإرادة الهيمنة، وتحلل الأنا الفردية في جماعية غير واضحة المعالم.

لست أعرف كذبة أكثر خسة من تلك العبارة التي تُلقن للأطفال: «العقل السليم في الجسم السليم». ومن قال إن **العقل السليم** هو النموذج المنشود؟ «سليم» تعني في هذه الحالة أبله، عادي، دون مخيلة ودون خبث، مختوم بخاتم الأخلاق السائدة والديانة الرسمية. أهذا عقل «سليم»؟ إنه عقل متوافق مع السائد، عقل طوباوي، عقل كاتب بالعدل، عقل موظف تأمين، عقل صبي الكنيسة، عقل عذراء وعقل صبي في الكشافة. وهذا ليس صحة، إنه خواء. فالحياة العقلية الغنية والخاصة تتطلب فضولاً، خبثاً، مخيلة، ورغبات غير مشبعة، وهذا يعني أنه عقل «قذر»، أفكار خبيثة، ازدهار تصورات محرمة، رغبات تقود إلى استكشاف المجهول وتجديد ما هو معروف، استخفاف منهجي بالأفكار الموروثة والمعارف المتداولة

والقيم الرائجة.

ومع ذلك، ليس صحيحاً كذلك أن ممارسة الرياضة في عصرنا تخلق عقولاً سليمة بالمعنى المبتذل للكلمة. فما يحدث هو العكس، وأنت تعرف هذا أكثر من الجميع، لأنك من أجل أن تكسب سباق المئة متر في يوم الأحد لا تتورع عن دس الزرنيخ والسيانور في حساء منافسك، وتبتلع كل أنواع المنشطات النباتية والكيميائية أو السحرية التي تضمن لك الفوز، وترشو الحكام أو تبتزهم، وتدبر مكايد طبية أو قانونية لتُفقد خصومك أهليتهم، وتعيش اختلالاً عصبياً من أجل تثبيت الفوز، والرقم القياسي، والميدالية، والمنصة، وهو أمر جعل منك أيها الرياضي المحترف، بهيمة توقيتية، عدواً للمجتمع، عصبياً، هستيرياً، مضطرب العقل، في القطب النقيض لهذا الكائن الأنيس، الكريم، الغَيريّ، «السليم»، الذي يحاول الإشارة إليه ذلك الأحمق الذي مازال يتجرأ على استخدام عبارة «روح رياضية» بمعنى الرياضي النبيل المعبأ بالفضائل التحضرية، في حين أن من يتوارى خلفها هو قاتل كامن مستعد لإبادة الحكام، وسحق كل متعصبي الفريق الآخر، وتدمير الاستادات والمدن التي تؤويهم، وإحداث القيامة، ليس على الأقل من أجل الهدف السامي الذي قاد الشاعر نيرون إلى إحراق روما، وإنما لمجرد أن ينال ناديه كأساً من فضة مزيفة أو من أجل أن يرى معبوديه الأحد عشر يصعدون إلى منصة، مزدهين بصورة مضحكة بسراويلهم وقمصانهم المخططة، أيديهم على صدورهم وعيونهم مبهورة. يغنون نشيداً وطنياً!

الأخـــوان الكورسيكيان

فـــي المساء الأخن لهذا الأحد الشتوي، وفـــي مكتبه قبالة السماء الغائمة والبحر الرمادي الجرذي، جمع دون ريغوبيرتو دفاتره بحنين بعد أفكار كانت تلهب مخيلته. الفكرة الأولى التي التقى بها كانت للشاعر فـــيليب لاركين، *Sex is too good to share with anyone else*[1] ، وقد ذكرته بنسخ تشكيلية كثيرة للشاب نرسيس يتلذذ بصورته المنعكسة فـــي ماء البئر، وبهرمافروديت المستلقي فـــي اللوفر. ولكن هذه الذكرى سببت له الغم دون أي تفسير. كان قد توافق فـــي مرات أخرى مع هذه الفلسفة التي تضع على كاهليه وحده مسؤولية لذته. أهي فلسفة صحيحة؟ وهل كانت صحيحة يوماً؟ الحقيقة أن وحدته، حتى فـــي أشد لحظاتها نقاء، كانت مكاشفة، وموعداً لم تتخلف عنه لوكريثيا قطّ. وجاء تيقظ الهمة الضعيف هذا لينعش الأمل فـــي نفسه: إنها لن تتخلف هذه المرة أيضاً. فنظرية لاركين تأتي مضبوطة مثل خاتم على إصبع القديس (وهذه صفحة أخرى من الدفتر) الذي يتحدث عنه ليتون ستراشي فـــي كتابه **انتصارات باهرة،** القديس كوبيرتو الذي كان يرتاب كثيراً بالنساء، حتى إنه عندما يتحدث إليهن، بمن فـــي ذلك القديسة المستقبلية إيبا، كان يقضي «الساعات التالية فـــي العتمة، مصلياً

[1] ـ بالانكليزية فـي الأصل: الجنس ألذ من أن يتقاسمه المرء مع أحد.

وغاطساً فـــي الماء حتى الرقبة». كم من الإصابات بالزكام والنزلات الصدرية من أجل إيمان يحكم على المؤمن بلذة الوحدة اللاركينية.

مرّ كما فوق الجمر على صفحات يتذكر فـــيها أثورين «نزوة تأتي من نعجة». وتوقف مبهوراً عند الوصف الذي يعرضه الدبلوماسي ألفونسو ديلا سيرنا لـــ**سمفونية الوداعات** لهايدن، «حيث ما إن ينهي كل موسيقي مقطوعته، حتى يطفئ الشمعة التي تضيء نونته وينصرف، إلى أن يبقى كمان منفرد يعزف لحنه النهائي المتوحد الكئيب». أليست مصادفة؟ ألا يتوافق كمان هايدن المنفرد بصورة سحرية، مثل مكاشفة من النوع السري، مع المتلذذ الأناني فـــيليب لاركين الذي كان يرى أن الجنس مهم إلى حد لا يمكن معه تقاسمه مع أحد؟

ومع ذلك، ومع أنه هو نفسه يضع الجنس فـــي المكانة العليا، إلا أنه قد تقاسمه على الدوام، حتى فـــي أشد مراحل توحده قسوة: وهي هذه المرحلة بالذات. وأوردت الذاكرة إلى ذهنه، دون مبرر أو سبب، الممثل دوغلاس فـــيربانكس مدبلجاً فـــي فـــيلمٍ أرّق طفولته: «**الأخوان الكورسيكيان**». إنه لم يتقاسم الجنس قطُّ بالطبع مع أحد بالطريقة الجوهرية التي يتقاسمه بها مع لوكريثيا. وقد تقاسمه كذلك فـــي طفولته ومراهقته وبلوغه مع أخيه الكورسيكي، أنسميه نرسيس؟ الذي كانت علاقته به حسنة على الدوام، بالرغم من اختلافة الشديد فـــي الروح. وبالرغم من أن تلك الألعاب وذلك المزاح اللاذع الذي كان يدبره ويستمتع به الأخوان لا ينتمي إلى

المعنى التهكمي الذي يستخدم به الشاعر ـــــ المكتبي لفظة تقاسم. وفــيما دون ريغوبيرتو يتصفح ويتصفح دفاتره وقع فـــي **تاجر البندقية** على:

The man that hath music in himself
Nor is not moved with concord of sweet sounds,
Is fit for treasons, stratagms, and spoils

(الفصل الخامس، المشهد الأول)

«الرجل الذي لا يحمل موسيقى فـــي نفسه/ ولا ينفعل بضفيرة الأصوات العذبة/ يكون ميالاً إلى الكيد، والغش والخيانة»، ترجم الأبيات ترجمة حرة. وفكر فـــي أن نرسيس لم يكن يحمل أي موسيقى فـــي داخله، لقد كان مغلق الجسد والروح حيال سحر ميلبومين[1]، وغير قادر على تمييز **سمفونية الوداعات** لهايدن من **المامبو رقم 5** لبيريث برادو. هل كان شكسبير محقاً وهو يُشّرع أن هذا الصمم عن أكثر الفنون تجريداً يجعل من المرء قوة كامنة فـــي الخبث والخداع والاحتيال؟ حسن، ربما كان ذلك صحيحاً. فنرسيس اللطيف لم يكن قدوة تحتذى فـــي الفضائل المدنية أو الخاصة أو اللاهوتية، وسيصل إلى سن الشيخوخة وهو يتبجح، مثل الأسقف هارولدو (لمن كان هذا الاستشهاد؟ الإشارة إلى صاحبها مطموسة بسبب رطوبة ليما أو بسبب جهد العثّ)، الذي كان يفاخر وهو على

---

[1] ـ ميلبومين Melpomene: إحدى ربات الموسيقى والشعر عند الإغريق.

فراش الموت بأنه مارس كل الرذائل الكبرى بمثابرة لا تقل عن انتظام نبضه أو انتظام قرع أجراس مطرانيته. ولو لم يكن نرسيس على هذا القدر من الفظاظة الخلقية لما تجرأ فـــي تلك الليلة أن يقترح على أخيه الكورسيكي ذلك التبادل الجريء ـــــ وأحس دون ريغوبيرتو فـــي قرارة نفسه باستيقاظ تلك الموسيقى الشكسبيرية التي يظن أنه يحملها فـــي داخله ـــــ. وارتسمت أمام عينيه صورة لوكريثيا وإيلسي، زوجة نرسيس الشقراء، وهما تجلسان فـــي ليلة المغامرة إحداهما إلى جانب الأخرى، فـــي تلك الصالة فـــي بيت حي بلانيثي المترعة بالابتذال والتجديف المثير لحفـــيظة جمعيات حماية الحيوان بما يبرز فـــيها من رؤوس نمور وجواميس بوفالو ودببة ووعول وغزلان محنطة. لقد كان شاعر المسرح على حق: فالصمم عن الموسيقى هو أحد أعراض (ألا يكون هو السبب؟) خسة الروح. لا، لا يمكن التعميم؛ وإلا توجب ضم خورخي لويس بورخيس وأندريه بريتون بسبب انعدام حساسيتهما الموسيقية، ليكونا يهوذا وقابيل، فـــي الوقت الذي كانا فـــيه معروفـــين كما هو معروف، لدى كتّاب، بأنهما شخصان طيبان جداً.

لم يكن أخوهُ نرسيس شيطاناً، وإنما مغامر وحسب. وهو مزود بمهارة شيطانية ليحصل من ميوله السارحة وفضوله نحو ما هو محظور وسري وغريب، على مكسب اقتصادي. ولكن، بسبب كونه مدعياً وميالاً إلى المفاخرة الكاذبة، فإنه لم يكن من السهل معرفة ما هو الصحيح وما هو الخيالي فـــي مغامراته التي يسحر بها مستمعيه، فـــي الموعد (المشؤوم) لحفلات العشاء الرسمية، وحفلات

الزفاف أو حفلات الكوكتيل، وهي المسرح المناسب لمآثره الحكائية الكبرى. فدون ريغوبيرتو لم يصدق تماما مثلاً الادعاء بأن جزءاً كبيراً من ثروته قد جمعه من بلدان آسيا المزدهرة التي كان يُهرِّب إليها قرون خراتيت، وخُصى نمور، وأعضاء ذكرية لعجول البحر والفقمات (جنسا الحيوانات الأولان يأتيان من أفريقيا، والأخيران من ألاسكا وغروينلاند وكندا). فهذه الأشياء يُدفع ثمنها ذهباً فـــي تايلند وهونغ كونغ وتايوان وكوريا وسنغافورة واليابان وماليزيا وحتى فـــي الصين الشيوعية، ذلك أن العارفـــين يعتبرونها مقوية للقدرة الجنسية وعلاجاً أكيداً للعجز. وفـــي تلك الليلة بالذات، بينما كان الأخوان الكورسيكيان وزوجتا الأخوين، إيلسي ولوكريثيا، يتناولون المقبلات قبل العشاء فـــي ذلك المطعم على الشاطئ الأخضر. أمتعهم نرسيس بقصة غير معقولة عن المقويات الجنسية كان هو نفسه بطلها وضحيتها، فـــي العربية السعودية، حيث أقسم ـــــ مع تفصيلات جغرافـــية وأسماء عربية تتضمن الكثير من الخاءات للتأكيد ـــــ بأنه كان على وشك أن يُقطع رأسه فـــي الساحة العامة فـــي الرياض بعد اكتشاف أمره وهو يُهرّب حقيبة من حبوب الكابتاغون، أي (هيدروكليرات الفـــينسلين) للحفاظ على القدرة الجنسية لعبد العزيز أبو آميد الذي أحست زوجاته الأربع الشرعيات ومحظياته الثماني والثمانون بأنه مرهق بعض الشيء. وكان يدفع له ثمن تلك المقويات ذهباً.

وتساءلت إيلسي مقاطعة حكاية زوجها فـــي اللحظة التي كان يمثل فـــيها أمام محكمة علماء معممين:

ـــــ وهذه اليوبيمبينا؟ هل مفعولها هذا الذي يتحدثون عنه، يؤثر على كل الأشخاص؟

ودون أن يضيع الوقت، بدأ أخوه ـــــ وتذكر دون ريغوبيرتو دون أدنى قدر من الحسد، بأنه بعد أن كان من غير الممكن التمييز بينهما فـــي سن الطفولة ومطلع الشباب، بدأ سن البلوغ يفرق بينهما، والآن صارت أذنا نرسيس تبدوان طبيعيتين بالمقارنة مع الأذنين الجناحيتين الاستعراضيتين اللتين تزينانه هو، ويبدو أنفه مستقيماً ومتواضعاً إذا ما قيس بمخطم أو خرطوم الدب آكل النمل الذي يشم به هو الحياة ـــــ الكلام فـــي محاضرة تعليمية مطولة حول اليوهيمبينا (وتسمى يوبيمبينا فـــي البيرو بسبب ميول الكسل الفونوتية لدى الوطنيين الذين يكلفهم نطق الهاء الحلقية جهداً فموياً أكبر من الباء). واستمرت خطبة نرسيس طوال فترة تناول المقبلات ـــــ الرجال تناولوا نبيذ بيسكو والسيدات نبيذاً أبيض مثلجاً ـــــ، وواصل الكلام طوال تناول وجبة الرز مع البحريات وخبز الكيك مع المانخاربلانكو، فكان له بالنسبة إليه المفعول المُدغدغ للهفة ما قبل الجنسية. فـــي هذه اللحظة، بنزوة من نزوات القدر، أمده الدفتر بالإشارة الشكسبيرية إلى أن حجارة الفـــيروز الكريمة تبدل لونها لكي تنبه من يحملها إلى خطرٍ وشيك (**تاجر البندقية** مرة أخرى). هل يتكلم أخوه بجد، وهل تراه يعرف أم أنه يختلق هذا العلم بهدف خلق الجو النفسي واللامبالاة المناسبة لهدفه الذي سيعلنه فـــيما بعد؟ لم يسأله عن ذلك ولن يسأله، فما أهمية كل ذلك بعد أن وصل الحال إلى ما هو عليه؟

انفجر دون ريغوبيرتو في الضحك وكانت رمادية المساء قد بدأت بالخمود. لقد كان المونسنيور تاستي دي فاليري يتبجح في هامش هذه الصفحة: «الحماقة ليست من خصالي». يا لسعادته؛ لأن دون ريغوبيرتو كان قد أمضى في شركة التأمين ربع قرن وهو محاط، وغارق، ومختنق بالحماقة، إلى أن تحول إلى متخصص فيها. هل كان نرسيس مجرد أحمق؟ مجرد واحد آخر من هذه البروتوبلازما الليمية (نسبة إلى مدينة ليما) التي تسمي نفسها الناس المحترمين؟ أجل. ولكن هذا لا يمنعه من أن يكون مسلياً حين ينوي ذلك. مثلما هو في هذه الليلة مثلاً. فها هو ذا الممل العظيم، بوجهه الحليق جيداً وسحنته البرونزية من التبطل، يوضح الخصائص القلوية لنبتة، تسمى أيضاً يوهيمبينا، ذات أصل نبيل في التقاليد العشبية والطب الطبيعي. فهي تزيد من توسع الأوعية الدموية وتنشط العقد التي تتحكم بالنسيج الانتصابي، وتحد من السيروتونين الذي تؤدي زيادته المفرطة إلى خمود الرغبة الجنسية. كان صوته الدافئ كغاوٍ عريق، وإيماءاته، تتوافق مع سترته الفضفاضة الزرقاء، وقميصه الرمادي ومنديل الحرير القاتم ذي النقط البيضاء المعقود حول عنقه. كان عرضه المترافق بابتسامات، يبقى عند الحد الخبيث ما بين الإخبار والتلميح، ما بين الطرفة والمخيلة، ما بين الحكمة والنكتة، ما بين الإمتاع والإثارة. وانتبه دون ريغوبيرتو فجأة إلى أن عيني إيلسي الخضراوين وعيني لوكريثيا الياقوتيتين كانت تتلألأ. هل تمكن أخوه الكورسيكي عميق المعرفة من استثارة السيدتين؟ إذا حكمنا من خلال ضحكاتهما، وتعليقاتهما المازحة،

وأسئلتهما، ومقاطعة كل منهما ساقيها ثم مباعدتهما من جديد، والسعادة التي تفرغان بها كؤوس النبيذ التشيلي كونتشا آي تورو، فـــيمكننا أن نقول نعم، لقد استثارهما. ولماذا لا تجربان هما أيضاً استرخاء اللذة مثله؟ أكان لدى نرسيس، فـــي هذا الوقت من الليل، خطة جاهزة؟ بالطبع، لقد كانت لديه، قرر ريغوبيرتو ذلك بحسم.

ولهذا السبب كان يتحكم بالحديث ببراعة، فلا يترك لهم مجالاً للتنفس ولا يسمح بتحول المحادثة عن الاتجاه الميكافـــيلي الذي خطه هو نفسه. فمن الحديث عن اليوبيمبينا انتقل إلى **الفوغو** الياباني، هذا السائل الخُصَوِيّ الذي يفرزه نوع من الأسماك الصغيرة، وهو فضلاً عن أنه مقوٍ جنسي عظيم، فانه سم يمكن أن يؤدي إلى الموت الزؤام ـــــ ويموت بهذه الطريقة مئات الشبقين اليابانيين كل عام ـــــ، ثم تحدث عن العرق البارد الذي سال منه حين جربه، فـــي تلك الليلة المضيئة فـــي كيوتو، على يد فتاة جيشا كانت ترتدي كيمونو شفافاً، ودون أن يعرف إذا ما كانت تنتظره بعد تلك اللقيمات العقدية حشرجات الموت أم المئة ارتعاشة لذة جنسية الموعودة (وكان ما أصابه هو الاحتمال الثاني، ولكن الرقم انخفض إلى الصفر). وكانت إيلسي، المنحوتة الشقراء، والمضيفة السابقة فـــي لوفتهانزا، والوالكيريا[1] المحلية تحتفل بقصص زوجها دون غيرة ذات أثر رجعي. وكانت هي التي اقترحت (هل كانت ضمن المخطط أيضاً)، بعد الحلوى الدقيقية، أن

---

[1] ـ الوالكيريا Walkiria أو Walquiria : جماعة من النساء اللواتي لهن صفات الألوهة فـي الميثولوجيا الاسكنديناڤية. وهن رسل الحقد والضغينة.

ينهوا الليلة فـــي تناول كأس فـــي بيتهما فـــي بلانيثي. وقال دون ريغوبيرتو «فكرة جيدة»، دون أن يفكر ملياً فـــي الاقتراح، إذ انتقلت إليه عدوى الحماس الذي تلقت به لوكريثيا الفكرة.

بعد نصف ساعة من ذلك كانوا يجلسون على المقاعد الوثيرة فـــي صالون التحف المبتذلة المرعب فـــي بيت نرسيس وإيلسي ـــــ ابتذال بيروي وتنظيم بروسي ـــــ محاطين بحيوانات محنطة تتفحصهم بثبات بعيونها الزجاجية المتجمدة وهم يشربون الويسكي، مستحمين بضوء غير مباشر، ومستمعين إلى ألحانٍ لنات كينغ كول وفرانك سيناترا، متأملين من خلال الزجاج الحديقة وبورسلان المسبح المضاء. وواصل نرسيس نشر ثقافته حول المقويات الجنسية بالسهولة نفسها التي كان ريشاردي العظيم ـــــ وتنهد دون ريغوبيرتو وهو يتذكر سيرك الطفولة ـــــ يسحب بها المناديل من قبعته. فقد كان يهز رأسه ليخلط علمه بكل شيء مع الغرابة مؤكداً أن كل رجل فـــي جنوبي إيطاليا يستهلك خلال حياته طناً من الحبق لأن التقاليد هناك تؤكد أن لهذه العشبة العطرة تأثيراً، فضلاً عن الطعم الطيب الذي تُكسبه للمعكرونة، على حجم القضيب، وأنهم فـــي الهند يبيعون فـــي الأسواق مرهماً ـــــ كان هو يهديه لأصدقائه الذين يبلغون الخمسين من عمرهم ـــــ مركّباً من الثوم وغَمَص القرود، إذا ما دُهن فـــي المكان المحدد، يؤدي إلى انتصابات متتالية، مثل العطس التحسسي. وأثقل عليهم بالإمعان فـــي فضائل الصدف البحري، والكرفس، والجنسنغ الكوري، وحشيشة المحمودية، وعرق السوس، وحساء دقيق الذرة، والكمأة،

والكافــيار، جاعلاً دون ريغوبيرتو يرتاب، بعد أن استمع إليه أكثر من ثلاث ساعات، بأن جميع المنتجات الحيوانية والنباتية فـــي العالم إنما صُممت من أجل إرضاء هذا الاضطراب فـــي الأجسام الذي يسمى الحب الجسدي، الجماع، الخطيئة، والذي يوليه البشر (وهو ليس ضمنهم) اهتماماً كبيراً.

فـــي هذه اللحظة انفرد به نرسيس بعيداً عن المرأتين، ممسكاً به من ذراعه، بحجة أنه سيريه آخر قطعة فـــي مجموعته من عصي العكاكيز (وأي شيء آخر يمكن لهذا البهيمة المتخصص بعبادة الذكر، هذا القضيب المتجول، أن يجمعه سوى العصي إضافة إلى الوحوش المحنطة؟). كانت خمرة البيسكو، والنبيذ والكونياك قد أدت مفعولها. وبدلاً من أن يمشي، كان دون ريغوبيرتو يُبحر باتجاه مكتب نرسيس، وكانت تقبع على الرفوف بالطبع، وهي جاهلة، مجلدات الموسوعة البريطانية، و**التقاليد البيروية** لريكاردو بالما و**قصة الحضارة** للزوجين ديورانت، إضافة إلى رواية جيب لستيفن كينغ. ودون أي مقدمات، سأله فـــي أذنه وهو يخفض صوته إذا ما كان يتذكر تلك الحيل الماكرة النائية مع الفتيات فـــي صالة سينما ليورو. أي حيل؟ ولكن قبل أن يجيب أخوه على السؤال، انتبه إلى الأمر. إنها المبادلات! محامي الشركة يطلق عليها اسم «خدعة استبدال الهوية». لقد كانا يستغلان التشابه بينهما ويزيدان منه بملابس وتسريحات متماثلة، ويتظاهر كل منهما بأنه الآخر. وهكذا يقبّل أحدهما ويداعب ـــــ «البرنامج»، كما كانوا يسمون ذلك فـــي الحي ـــــ محبوبة الآخر طوال الفـــيلم.

فابتسم دون ريغوبيرتو مستسلماً للحنين:

ــــ يا لتلك الأزمان يا أخي.

وتذكر نرسيس:

ــــ أنت كنت تظن أنهن كن يخطئن بنا ولا ينتبهن. ولم أستطع أن أقنعك مطلقاً بأنهن يفعلن ذلك لأن اللعبة تروقهن.

فأكد دون ريغوبيرتو:

ــــ لا، لم يكن ينتبهن. وإلا لما تركونا نفعل ذلك مطلقاً. فأخلاق ذلك الزمن لم تكن تسمح بهذه الأشياء. هل كانت لوثيريتو وتشينتشيّا مثلما تقول أنت؟ لقد كانتا رسميتين جداً، تذهبان إلى القداس وإلى المشاركة فـي الكنيسة بانتظام... مستحيل! وإلا لكانتا شكتانا إلى أبويهما.

أنبه نرسيس:

ــــ لديك مفهوم ملائكي جداً عن النساء.

ــــ هذا ما تظنه أنت. كل ما فـي الأمر هو أنني متكتم، ولستُ مثلك. ولكن، كل لحظة لا أستغلها فـي كسب ما يوفر لي الأكل، أستثمرها فـي اللذة.

(وأهداه الدفتر فـي هذه اللحظة استشهاداً مناسباً من بورخيس: «واجب كل الأشياء أن تكون سعادة؛ وما لم تكن سعادة فإنها غير نافعة وضارة». وخطرت لدون ريغوبيرتو حاشية مازوشية: «وماذا إذا وضعنا نساء بدل أشياء؟».)

ــــ لن تعيش إلا حياة واحدة يا أخي. ولن تكون لديك فرصة أخرى.

واستغرق دون ريغوبيرتو فـــي الحلم:

ــــ بعد تلك العروض السينمائية المسائية، كنا نهرع إلى قطاع هواتيكا، إلى مبنى الفرنسيات. لقد كانت أزمنة دون إيدز، أزمنة مغامرات غير مزعجة، ومغامرة لطيفة بين حين وآخر.

فأكد نرسيس:

ــــ لم تنقض بعد. وها هن هنا. نحن لم نمت ولن نموت. هذا قرار لا رجعة عنه.

كانت عيناه تتوقدان وكان فـــي صوته لزوجة. وأدرك دون ريغوبيرتو أن كل ما يسمعه ليس مرتجلاً؛ وأنه وراء هذه الذكريات الخبيثة ثمة مؤامرة. فسأل بفضول:

ــــ أتعني أنك قد أعددت أمراً؟

ــــ أنت تعرف ما أعنيه جيداً يا أخي الكورسيكي ــــ ثم قرّب الذئب الضاري فمه من أذن دون ريغوبيرتو المجنحة. ودون أي مقدمات أخرى، عرض عليه الاقتراح: ــــ المبادلة. مرة أخرى. ألا تعجبك إيلسي؟ أنا تعجبني لوكريثيا كثيراً. مثلما كنا نفعل مع لوثيريتو وتشينتشيبيا. وهل هناك غيرة بيني وبينك؟ فلنستعد الشباب يا أخي!

إنها وحدة يوم أحد، وقلب دون ريغوبيرتو أخذ يتسرّع. أهي المفاجأة، أم الانفعال، أم الفضول، أم الإثارة؟ ومثلما حدث فـــي تلك الليلة، أحس بضرورة قتل نرسيس.

ــــ لقد صرنا مسنين وأصبحنا مختلفـــين كثيراً بحيث لا يمكن لامرأتينا أن تخطئا بنا.ــــ صاغ العبارة وهو ثمل بالبلبلة.

فرد نرسيس وهو واثق من نفسه:

ـــ لا حاجة لأن تخطئا بنا. إنهما امرأتان حديثتان، لا تحتاجان إلى حجة. أنا سأتولى كل شيء أيها المتهتك.

«من مستحيل المستحيلات أن ألعب لعبة التبادل وأنا في هذه السن»، فكر دون ريغوبيرتو بذلك دون أن يفتح فمه. والسُكر الذي أطل قبل لحظة كان قد تلاشى. اللعنة! صحيح أن نرسيس هذا رجل قوي. كان قد أمسك به من ذراعه وعاد به مسرعاً إلى صالون الوحوش المحنطة، حيث كانت إيلسي ولوكريثيا، في حميمية النميمة، تجهزان على صديقة مشتركة تركها منشط جديد مفتوحة العينين إلى الأبد (أو على الأقل حتى القبر أو محرقة الجثث). وأعلن أنه قد حان الوقت لفتح زجاجة شمبانيا دوم بيرونيا وهي احتياطي خاص يحتفظ به للمناسبات الاستثنائية.

بعد دقائق من ذلك سمعوا صوت القذيفة الرغوية وراح الأربعة يتبادلون الأنخاب من شراب الآلهة ذاك. الفقاعات التي كانت تنزل في حلق دون ريغوبيرتو تساقطت في روحه مشاركة في الكلام المبتذل الذي احتكر به أخوه الكورسيكي الليلة كلها: هل تبل نرسيس هذه الشمبانيا التي يشربونها بأحد تلك المقويات الجنسية الكثيرة التي يقول إنه خبير بها وبتهريبها؟ لأن ضحك لوكريثيا وإيلسي وتراخيهما قد ازداد، مترافقاً مع مزيد من الجرأة، وحتى إنه هو نفسه، وبعد أن كان يشعر قبل خمس دقائق بالشلل والبلبلة والخوف والغضب من الاقتراح ـــ مع أنه لم يتجرأ على رفضه ـــ بدأ ينظر إليه الآن بقدر أقل من السخط، وعلى أنه واحد من

تلك الإغراءات التي كانت تدفعه فـــي شبابه الكاثوليكي إلى اقتراف خطايا، ثم يعمد إلى وصفها وهو نادم فـــي عتمة حجرة الاعتراف. ومن خلال سحب دخان ـــــ أكان أخوه هو الذي يدخن؟ ـــــ وما بين الأنياب الضارية لأسدٍ أمازوني رأى تقاطع ساقي زوجة أخيه الطويلتين البيضاوين المنتوفتين وبروزهما على السجادة المنقطة كجلد نمر فـــي صالة ـــــ حديقة الحيوان ـــــ المأتمية. وقد تبدت الاستثارة فـــي حكة شعر بها فـــي أعلى بطنه. ورأى كذلك ركبتيها المستديرتين والصقيلتين، من ذلك النمط الذي يطلق عليه التغزل الفرنسي *polies* ، تعلنان عن أعماق متماسكة، ورطبة دون ريب، تحت ثنايا هذه التنورة ذات اللون الصرصاري. اجتاحته الرغبة من أعلى إلى أسفل. وفكر مذهولاً من نفسه: «ولماذا لا، بعد كل هذا؟». كان نرسيس قد دعا لوكريثيا إلى الرقص، وقد بدأا يتمايلان ببطء متلاصقين إلى جانب الجدار المزين بقرون غزلان ورؤوس دببة. وجاءت الغيرة لتتبل أفكاره (لا لتبدلها أو تدمرها) بطعم حامض حلو. فانحنى دون تردد، وأخذ الكأس التي تحملها إيلسي فـــي يدها، فأبعدها وشدها إليه: «أنرقص يا زوجة أخي؟». وكان أخوه قد وضع بالطبع متوالية من ألحان البوليرو للرقص الملتصق.

أحس بوخزة فـــي القلب حين رأى من خلال شعر زوجة أخيه، أن أخاه الكورسيكي ولوكريثيا يرقصان وخداهما متلاصقان، بينما هو يطوق خصرها وهي تطوق عنقه. منذ متى هذه الثقة؟ خلال عشر سنوات من حياته الزوجية لا يذكر أنه حدث شيء مماثل. أجل، لا بد أن نرسيس الخبيث قد أضاف شيئاً إلى الشراب. وبينما

هو سارح فـــي التكهنات، راحت ذراعه اليمنى تقرّب جسد زوجة أخيه من جسده. وعندما أحس بملامسة فخذيها لفخذيه وبأن البطنين قد تلامسا، قال دون ريغوبيرتو لنفسه، ولكن ليس دون قلق، إنه لم يعد بإمكان أحد أو أي شيء أن يمنع الانتصاب الآتي. وقد أتى بالفعل، فـــي اللحظة التي أحس فـــيها بخد إيلسي على خده. وكان لانتهاء الموسيقى عليه تأثير أشبه بتأثير قرع الجرس فـــي مباراة ملاكمة قاسية. «شكراً يا بونجيلا الجميلة»، وقبّل يد زوجة أخيه. ثم تقدم متعثراً برؤوس ضوارٍ محشوة بمعجون المرمر أو عجينة الورق، إلى حيث كانت لوكريثيا ونرسيس ينفصلان أحدهما عن الآخر ـــــ باستياء؟ دون رغبة؟ ـــــ. ثم احتضن زوجته بين ذراعيه ودمدم بجفاء: «أتسمحين لي بهذه الرقصة يا زوجتي؟». اقتادها إلى الركن الأشد عتمة فـــي الصالة. ورأى بطرف عينه أن نرسيس وإيلسي قد تعانقا ليرقصا معاً، وأنهما بدأا يتبادلان القبلات فـــي حركة متوافقة.

حين شد بقوة جسد زوجته المسترخي بصورة مريبة، عاد الانتصاب يتجدد؛ فالتصق الآن دون تكلف بهذا الجسد المعروف، وبينما الشفتان على الشفتين، همس لها:

ـــــ أتعرفـــين ما الذي عرضه علي نرسيس؟

ـــــ يمكنني أن أتصور ذلك ـــــ ردت لوكريثيا بطبيعية أربكته بالقدر الذي أربكه سماعها تستخدم لفظة لم يكونا يحبان سماعها فـــي حميمية حياتهما الزوجية ـــــ أيريدك أن تضرب أنت إيلسي، بينما يضربني هو؟

أحس برغبة فـــي إلحاق الأذى بها. ولكنه بدل أن يفعل ذلك قبّلها، متأثراً بإحدى نوبات التدفق العاطفـــي التي كانت تداهمة فـــيستسلم لها. وبعد أن تجاوز تلك الحال، وأحس أنه صار قادراً على البكاء، همس لها بأنه يحبها، وأنه يشتهيها، وأنه لن يستطيع مطلقاً إيفاءها الشكر على السعادة التي يدين بها إليها. قال بصوت عالٍ: «أجل ، أجل، أحبك بكل أحلامي يا لوكريثيا.» رمادية يوم الأحد البارانكي كانت قد خفت، وعزلة مكتبه كانت قد همدت. وأحس دون ريغوبيرتو بدمعة تنزلق على خديه وتلطخ فقرة انتهازية من الفاليري (فاليرينا وفاليري، يا للزوجين السعيدين) مونسنيور تيستي: *Tout ce qui m'etait facile m'etait indifferent et presque ennemi.*[1].

وقبل أن يهيمن عليه الحزن ويغرقه تماماً الشعور الدافئ الذي انتابه قبل لحظة فـــي الكآبة الأكالة، بذل مجهوداً وهو يغمض عينيه ويركز انتباهه حتى رجع إلى صالة الوحوش المحنطة تلك، فـــي تلك الليلة التي زادها الدخان كثافة ـــــ هل الذي يدخن هو نرسيس، أم إيلسي؟ـــــ، والاختلاطات الخطرة، الشمبانيا، الكونياك، الويسكي، الموسيقى وجو الاسترخاء الذي يحيط بهم، بعد أن لم يعودوا منقسمين إلى ثنائيين مستقرين محددين، مثلما كانوا فـــي بداية الليل، قبل أن يذهبوا للعشاء فـــي مطعم الشاطئ الأخضر، وإنما ثنائيان مختلطان غير ثابتين ينفصلان ويتحدان بخفة تتناسب مع هذا الجو الهلامي، المتبدل مثل صور الكاليدوسكوب. هل أطفؤوا النور؟ منذ بعض

---

(1) ـ بالفرنسية فـي الأصل: كل ما كان سهلاً عليّ كان عديم الأهمية ومعادياً لي تقريباً.

الوقت. ومن سوى نرسيس. صالة الوحوش الميتة كانت مضاءة بنور خافت يأتي من أضواء المسبح، ولا يسمح إلا برؤية أشباح، ظلال، طيف أشياء بلا هوية. أخوه الكورسيكي يرتب جيداً كمائنه. كان جسد دون ريغوبيرتو وروحه قد انفصلا أحدهما عن الاخر؛ فبينما الروح تهيم محاولة أن تتقصى إذا ما كانت اللعبة التي اقترحها نرسيس ستصل إلى نهايتها المرسومة، كان جسده قد بدأ اللعب بتردد غير متوازن وانعتاق. من يداعبُ فـــي هذه اللحظة بينما هو يتظاهر بأنه يرقص بالإحساس الغامض الذي تُسكته الموسيقى ثم تجدده بين حين وآخر؟ أهي لوكريثيا أم إيلسي؟ لم يشأ معرفة ذلك. أي إحساس لطيف بهذا الشكل الأنثوي الملتحم به، والذي يشعر بعذوبة نهديه من خلال القميص، وهذا العنق الصقيل الذي تعضه شفتاه ببطء، متقدمتين نحو أذن بدأ طرف لسانه باستكشافها بشراهة. لا، هذا الغضروف، هذه العظيمة ليست للوكريثيا. رفع رأسه وحاول أن يخترق غلالة العتمة باتجاه الركن الذي ظن أنه رأى نرسيس يرقص فـــيه قبل لحظة.

ـــــ لقد صعدا منذ بعض الوقت ـــــ دوى صوت إيلسي فـــي مسمعه مبهماً ومملاً. بل واستطاع أن يلمس فـــيه نغمة ساخرة.

ـــــ أين؟ ـــــ سأل بحماقة، وأحس على الفور بالخجل من حماقته.

فردت إيلسي بضحكة خبيثة ومزاج ألماني:

ـــــ أين برأيك؟ لرؤية القمر؟ للتبول؟ إلى أين تظنهما صعدا يا صهري اللطيف؟

ـــــ القمر لا يظهر مطلقاً فـــي ليما ـــــ تلعثم دون ريغوبيرتو

وهو يفلت إيلسي ويبتعد عنها ـــ والشمس لا تكاد تظهر إلا قليلاً فـــي الصيف. بسبب الضباب اللعين.

وأعادته إيلسي إلى آلة التعذيب دون أن تتيح له التقاط أنفاسه، متكلمة وكأنها لا علاقة لها بالمسألة:

ـــ منذ زمن بعيد ونرسيس يرغب فـــي لوكري. لا تقل لي إنك لم تلاحظ ذلك، فأنت لست مغفلاً إلى هذا الحد.

انقشعت السكرة، وكذلك التهيج. وبدأ يتعرق، صامتاً، مذهولاً، وكان يتساءل كيف أمكن للوكريثيا أن تستجيب بمثل هذه السهولة لآلية أخيه الكورسيكي، عندما هزه ثانية صوت إيلسي الحريري الناعم:

ـــ هل تشعر بقليل من الغيرة يا ريغو؟

ـــ أجل ـــ قال معترفاً، ثم أضاف بصراحة أكبر: ـــ فـــي الحقيقة أنني أشعر بغيرة كبيرة.

فقالت هي وكأنها تتحدث عن تفاهة أخرى فـــي أثناء لعب البريدج:

ـــ وأنا أيضاً كنت أشعر بالغيرة فـــي البداية. ولكنك ستعتاد وسيصبح الأمر كما لو أنك ترى سقوط المطر.

فقال مشوشاً:

ـــ حسن، حسن. أي أنك، أنت ونرسيس تمارسان لعبة التبادل كثيراً؟

ـــ مرة كل ثلاثة أشهر ـــ ردّت إيلسي بدقة بروسية ـــ. ليس كثيراً. نرسيس يقول إن هذه المغامرات يجب أن تمارس فـــي

فترات متباعدة، حتى لا تفقد جاذبيتها. لأنها إذا ابتذلت بكثرة لا تبقى لها متعة.

وفكر: «سيكون قد عراها. سيكون قد ضمها بين ذراعيه.» أتكون لوكريثيا قد قبلته وداعبته أيضاً، بالجشع نفسه الذي يفعل به أخوه الكورسيكي ذلك؟ كان يرتجف مثل ممسوس سان فـيتو حين عاد يسمع صوت إيلسي، مثل شحنة كهربائية، يسأله:

ـــ أترغب فـي رؤيتهما؟

كانت قد قرّبت وجهها منه لتكلمه. فكان شعر زوجة أخيه الأشقر الطويل يدخل فـي فمه وعينيه.

تلعثم بذهول:

ـــ أتتكلمين بجد؟

ـــ هل ترغب فـي ذلك؟ ـــ ألحت وهي تبلل أذنه بشفتيها.

ـــ أجل، أجل ـــ قال موافقاً. وكان يشعر كما لو أنه يتحرر من عظامه ويتبخر.

أمسكته من يده اليمنى وأمرته: «ببطء، بصمت». جعلته يطفو باتجاه السلم الحلزوني الذي يصعد إلى غرف النوم. وقد كان مظلماً، ومثله الممر الأوسط الذي يصل إليه مع ذلك انعكاس أنوار الحديقة. وكان الموكيت يمتص وقع خطواتهما وهما يتقدمان على رؤوس أصابعهما. أحس دون ريغوبيرتو بقلبه يتسرع. ماذا ينتظره؟ ماذا سيرى؟ توقفت زوجة أخيه وأصدرت له أمراً آخر فـي أذنه: «اخلع حذاءك»، فـي الوقت الذي كانت تنحني فـيه لتخلع حذاءها أيضاً. انصاع لها دون ريغوبيرتو. أحس بأنه مضحك، ولص صغير، دون

حذاء وبالجورب، فـــي هذا الممر المظلم، تقوده إيلسي من يده وكأنه فونتشيتو. «لا تُحدث ضجة، ستدمر كل شيء»، قالت له ذلك بخفوت. فهز رأسه موافقاً مثل رجل آلي. عاودت إيلسي التقدم، وفتحت الباب، وتركته يتقدمها. كانا فـــي غرفة النوم، يفصلهما عن الفراش نصف جدار من الآجر يسمح من خلال فتحات فـــيه لها شكل المعين برؤية السرير. وكان سريراً فسيحاً ومسرحياً. فـــي مخروط الضوء النازل من المصباح المثبت فـــي السقف الأملس، رأى أخاه الكورسيكي ولوكري منصهرين، يتحركان بإيقاع واحد. وكان يصل إليه لهاثهما الخافت المتحاور.

أشارت له إيلسي:

ــــ يمكنك الجلوس. هنا على الأريكة.

وترك نفسه يفعل ذلك. تراجع خطوة، وهوى إلى جوار زوجة أخيه على ما يجب أن يكون أريكة طويلة ممتلئة بالوسائد، موضوعة بطريقة تتيح لمن يجلس عليها ألا يفقد أدنى تفصيل من المشهد. ما معنى هذا؟ وأُفلتتْ ضحكةٌ من دون ريغوبيرتو: «أخي الكورسيكي أكثر ميلاً إلى المبالغة فـــي التفاصيل مما كنت أتصور». وكان فمه قد جف.

كان يبدو وكأن ذلك الثنائي قد مارس الحب طوال الحياة، بسبب الوضع البارع والتلاحم التام. لم يكن التحام الجسدين ينفصل مطلقاً فـــي أي موقع؛ ففـــي كل وضع جديد تبدو الساق، المرفق، الكتف، الورك وكأنها تلتحم بصورة أفضل من السابق، وفـــي كل لحظة يعتصر كل منهما لذته من الآخر بعمق أشد. هناك كانت الأشكال

الجميلة الممتلئة، والشعر المتموج الكهرماني لحبيبته، والمؤخرة المرتفعة التي تدفع إلى التفكير في رابيةٍ باسلة تتحدى هجوم البحر الهائج. ثم قال: «لا». من الأفضل القول إنها تدفع إلى التفكير في المؤخرة البديعة للصورة الضوئية الباهرة **الصلاة** لمان راي (1930). بحث في دفاتره، وخلال دقائق قليلة كان يتأمل الصورة. انقبض قلبه وهو يتذكر المرات التي اتخذت فيها لوكريثيا هذا الوضع من أجله في لقاءاتهما الليلية الحميمة، جالسة على كعبيها، ويداها تمسكان فلقتي مؤخرتها. ولم تشذ عن المقارنة أيضاً الصورة الأخرى لمان راي التي عرضها عليه الدفتر بجوار الصورة السابقة، فالظهر الموسيقي لـــ **كيكي دي مونبارناس** (1925) كان يبدو بالضبط مثلما تعرضه لوكريثيا في هذه اللحظة بالذات وهي تميل وتتقلب. الليونة العميقة لإليتيها أغرقته للحظات في الغيبوبة، وبدا ذاهباً. ولكن الذراعين المكسوتين بالشعر اللتين تحيطان ذلك الجسد، والساقين اللتين تمسكان بذينك الفخذين وتفتحاهما ليست ذراعيه ولا ساقيه، ولا الوجه أيضاً ــــ لم يتوصل إلى تمييز ملامح نرسيس ــــ الذي كان يذرع الآن ظهر لوكريثيا، ويتفحصه ميلمتراً بعد آخر، وفمه المفتوح قليلاً، متردد أين يحط وماذا يُقبّل. ومرت في ذهن دون ريغوبيرتو المشوش صورة الثنائي البهلواني في السيرك، ثنائي «النسرين البشريين» اللذين يطيران ويلتقيان في الفضاء ــــ وكانا يقدمان فقرتهما دون شبكة ــــ بعد شقلبات خطرة على ارتفاع عشرة أمتار عن الأرض. هكذا كانت لوكريثيا ونرسيس في براعتهما، وتكاملهما، وتوافق أحدهما مع الآخر. وغمره شعور ثلاثي

(التقدير، والحسد، والغيرة) وتدحرجت الدموع العاطفـية مجدداً على خديه. ولاحظ أن يد إيلسي ترتاد سرواله باحتراف. وسمع أنها تقول، دون أن تُخفض صوتها:

ــــ ما هذا، لا شيء يستثيرك.

ولمح دون ريغوبيرتو حركة مباغتة، هناك فـي السرير. لقد سمعاها بالطبع؛ ولم يعد بإمكانهما مواصلة التظاهر بأنهما لا يعرفان أن هناك من يتلصص عليهما. بقيا جامدين؛ انقلب بروفـيل دونيا لوكريثيا نحو الجدار ذي الفتحات الذي يحميهما، ولكن نرسيس عاد يقبلها ويقلبها نحوه فـي الصراع الغرامي.

وهمس دون ريغوبيرتو:

ــــ متأسف يا إيلسي. إنني أخيب أملك، يا للأسف. المسألة هي أنني، أنني.. كيف أقول لك ذلك، أنني أؤمن بأحادية الزواج. لا يمكنني ممارسة الحب إلا مع زوجتي.

ــــ إنك كذلك بالطبع ــــ ضحكت إيلسي بعطف وبقوة إلى حد هرب معه وجه دونيا لوكريثيا المشعث، هناك فـي الضوء، من معانقة أخيه الكورسيكي، ورأى دون ريغوبيرتو عينيها الكبيرتين مفتوحتين على اتساعهما تنظران مرتعبتين إلى حيث يجلس هو وإيلسي التي تابعت قائلة: ــــ إنك مثل أخيك الكورسيكي إذن. فنرسيس لا يحب ممارسة الحب إلا معي. ولكنه يحتاج إلى مقبلات، مشهيات، مقدمات. إنه ليس بسيطاً مثلك.

عادت تضحك من جديد، وأحس دون ريغوبيرتو بأنها تبتعد عنه وأنها تقدم له بشعرها الناعم حركة ملاطفة كتلك التي تقدمها

المعلمات إلى الأطفال حسني السلوك. لم يصدق عينيه. متى تعرت إيلسي؟ وها هي هناك، رياضية، عارية من رأسها حتى قدميها، تشق الظلام باتجاه السرير مثلما كانت الوالكيرات من أسلافها القديمات يخترقن الغابات وهن يعتمرن خُوَذاً ذات قرنين، ليصطدن الدب والنمر والرجل. فــي هذه اللحظة بالذات ابتعد نرسيس عن لوكريثيا، وانزلق إلى منتصف السرير ليترك مجالاً ــــ وكان وجهه يكشف عن سعادة لا توصف ــــ وفتح ذراعيه ليتلقاها وهو يطلق زمجرة إعجاب بهيمية. وهناك كانت الآن، لوكريثيا المخذولة والمنبوذة، تنسحب نحو الجانب الآخر من السرير، وهي مدركة تماماً أنها صارت منذ الآن فائضة عن الحاجة هناك، وكانت تتلفت إلى اليمين وإلى اليسار بحثاً عمن يوضح لها ما يتوجب عليها عمله. أحس دون ريغوبيرتو بالشفقة. واستدعاها دون أن ينطق بكلمة. ورآها تنهض عن السرير على رؤوس أصابعها، كي لا تزعج الزوجين السعيدين؛ وتبحث عن ملابسها على الأرض؛ وتغطي جسدها قليلاً وتتقدم إلى حيث ينتظرها هو بذراعين مفتوحتين. وتكومت على صدره نابضة. وسمعها تقول له:

ــــ هل تفهم شيئاً يا ريغوبيرتو؟

فأجابها وهو يحتضنها:

ــــ أفهم أنني أحبك فقط. لم أرك قطُّ أجمل مما أنت عليه الآن. تعالي، تعالي.

ــــ يا للأخوين الكورسيكيين! ــــ سمع الوالكيريا تضحك، هناك بعيداً، بخلفــية زنخرة وحشية من خنزير بري ومن أبواق

فاغنرية[1].

آربيا[2] شقراء ومجنحة

أين أنت؟ فـــي صالة الحيوانات الخرافـــية فـــي متحف الباروك النمساوي، فـــي بيلفـــيدير السفلى بفـــيينا.

ماذا تفعلين هناك؟ تدرسين بتمعن إحدى مخلوقات جوناس درينتويت التي تمنح الخيال والمجد لكلماته.

أي مخلوق منها؟ الذي يمد عنقه الطويل جداً لكي يُبرز صدره بصورة أفضل ويُظهر الثدي الجميل اللجوج ذا البرعم المحمر الذي كانت جميع كائنات الرسوم المتحركة ستأتي لتمتصه لو لم تكوني قد احتفظت به لنفسكِ.

لأجل مَنْ؟ لأجل حبيبك عن بعد، باني هويتك، الرسام الذي يفككك ويركبك على هواه، مؤرَقك الحالم بك.

ماذا عليكِ أن تفعلي؟ التعلم من هذا المخلوق ذي الذاكرة ومنافسته فـــي تكتم مخدعك، بانتظار الليلة التي سآتيك فـــيها. ولا يقنطنك علمك بأنك دون ذيل، ودون مخالب طير جارح، وغير معتادة على المشي على أربع. لأنك إذا كنتِ تحبينني حقاً، فسيكون

---

[1] ـ فاغنرية: نسبة إلى ريكارد فاغنر الذي وضع دراما موسيقية من ثلاثة فصول بعنوان الوالكيريا مستوحاة من اسطورة الوالكيريا الاسكندنافية.

[2] ـ آربيا Arpia: طائر خرافـي له وجه امرأة وجسد طير جارح.

لك ذيل، ومخالب، وستتوقفــين عن أن تكوني لوكريثيا ساكنة بستان الزيتون لتصبحي **الخرافــية**، وتكوني لوكريثيا آربيا الشقراء والمجنحة، لوكريثيا الآتية إلى حبي ورغبتي من الأساطير والخرافات اليونانية (مع وقفة فــي المنمنمات الرومانية التي استنسخك منها جوناس درينتوت).

هل صرتِ مثلها؟ هل تراجعتْ المؤخرة، وشمخ الصدر، وانتصب الوجه؟ أتشعرين ببروز الذيل الهريّ، وبنمو جناحيك الرمحيين بلون الخدود المتوردة؟ ما زال ينقصكِ الإكليل على جبهتك، وعقد الزبرجد، وحزام الذهب والأحجار الكريمة حيث يستريح منتصفك، ستأتيك عربون محبة واحترام ممن يحبك أكثر من كل الكائنات الواقعية أو غير الموجودة

المغرم بالآربيات.



V. فونتشيتو والطفلات

مسحت دونيا لوكريثيا عينيها الباسمتين مرة أخرى، لتكسب مزيداً من الوقت. لم تكن تتجرأ على سؤال فونتشيتو عما إذا كان صحيحاً ما روته لها تيتي باريغا. لقد أوشكت أن تفعل ذلك مرتين

ولكنها تخاذلت فـــي المرتين.

ـــــ ما الذي يُضحك هكذا يا خالتي؟ ـــــ أراد الطفل المأخوذ أن يعرف. لأنه منذ وصوله إلى بيت بستان الزيتون فـــي سان إيسيدرو، لم تفعل السيدة لوكريثيا شيئاً سوى إطلاق هذه القهقهات الصاخبة وهي تأكله بعينيها.

تورد خدا دونيا لوكريثيا خجلاً:

ـــــ إنه أمر روته لي إحدى صديقاتي. وأنا خجلة حتى الموت من توجيه السؤال إليك، ولكنني أموت رغبة أيضاً لمعرفة إذا ما كان ذلك صحيحاً.

ـــــ لا بد أنها إحدى أقاويل أبي، لا شك فـــي ذلك.

وحسمت دونيا لوكريثيا أمرها:

ـــــ سأخبرك، مع أنه أمر بذيء جداً. ولكن فضولي أقوى من حسن تهذبي.

المسألة، حسب ما قالت لها تيتي، وقد كان زوجها هناك وأخبرها بذلك وهو بين المرح والسخط، أن الأمر حدث فـــي أثناء اجتماع يجري كل شهرين أو ثلاثة أشهر فـــي مكتب دون ريغوبيرتو. لقاء رجال فقط. خمسة أو ستة أصدقاء منذ أيام الشباب، زملاء من أيام المدرسة، أو الجامعة أو الحي، يحافظون على هذه اللقاءات لمجرد الروتين، ودون حماس، ولكنهم لا يتجرؤون على تحطيم هذه الطقوس، ربما بسبب الشكوك الخرافـــية بأنه إذا ما تخلف أحدهم عن الموعد، فإن سوء الطالع سينصب على المنشق وعلى الجماعة كلها. وقد واصلوا اللقاء بالرغم من أنهم، مثل دون ريغوبيرتو، لم يعودوا

يشعرون بمتعة من هذه اللقاءات كل شهرين أو ثلاثة أشهر، حيث يشربون الكونياك، ويأكلون فطائر الجبن ويستعرضون أسماء الموتى والوضع السياسي الراهن. وتتذكر دونيا لوكريثيا بأن دون ريغوبيرتو كان يشعر بألم فـــي الرأس بعد تلك الاجتماعات ويضطر إلى تناول بضع قطرات من الفالريانا. وقد حدث فـــي الاجتماع الأخير، فـــي الأسبوع السابق، أن أولئك الأصدقاء ــــ وهم خمسينيون أو ستينيون، بعضهم على عتبة التقاعد ــــ رأوا فونتشيتو يصل بشعره الأشقر المشعث. وفوجئت عيناه الزرقاوان الكبيرتان برؤيتهم هناك . والفوضى التي كان يرتدي بها زيه المدرسي أضافت لمسة من الحرية إلى هيئته الجميلة. ابتسم له الرجال، ومساء الخير يا فونتشيتو، كم كبرت، كم أصبحت طويلاً.

عاتبه دون ريغوبيرتو وهو يتنحنح:

ــــ ألا تُسلِّم؟

ورد صوت ابن زوجها البلّوري:

ــــ بلى، بالطبع. ولكن أرجوك يا أبي، إذا كان أصدقاؤك سيداعبونني تحبباً، فأرجو ألا يفعلوا ذلك بلمس طوطي.

وانفجرت السيدة لوكريثيا فـــي القهقهة الخامسة هذا المساء.

ــــ هل قلت لهم هذه الفظاعة يا فونتشيتو؟

فهز الطفل كتفـــيه دون أن يولي الأمر كبير اهتمام:

ــــ إنهم يلمسونني دائماً بحجة مداعبتي. لستُ أحب أن يلمسني أحد هناك حتى ولو على سبيل اللعب، لأني أشعر بلسعة بعد ذلك. وعندما أشعر بأي لسعة أبقى أحك إلى أن أُحدث قروحاً.

كانت دونيا لوكريثيا تنتقل من الضحك إلى الذهول ثم إلى الضحك من جديد:

ــــ كان الأمر صحيحاً إذن، لقد قلت لهم ذلك. لا يمكن لصديقتي تيتي بالطبع أن تختلق مثل هذه الحكاية. وماذا عن ريغوبيرتو؟ ماذا كان رد فعله؟

قال فونتشيتو:

ــــ ألهبني بنظراته وأمرني بالذهاب لكتابة واجباتي فــي غرفتي. وبعد ذلك، عندما انصرفوا، أنبني على هواه، وحرمني من مصروف يوم الأحد.

صاحت السيدة لوكريثيا بسخط مفاجئ:

ــــ يا لهؤلاء المسنين طويلي الأيدي. يا لقلة الحياء. لو أنني رأيتهم يوماً لطردتهم ركلاً إلى الشارع. وهل بقي أبوك ساكناً بعد أن عرف ذلك؟ ولكن، أقسم لي قبل ذلك. أكان ما قلته صحيحاً؟ هل كانوا يلمسون مؤخرتك؟ أليست هذه واحدة أخرى من الافتراءات الملتوية التي تخطر لك؟

ــــ طبعاً كانوا يلمسونني هنا ــــ وأشار الطفل بصفعة على إليته، ثم أضاف: ــــ مثلما يفعل رهبان المدرسة. لماذا يفعلون ذلك يا خالتي؟ ما الذي يوجد فــي طوطي حتى يريد الجميع لمسها؟

تفحصته السيدة لوكريثيا محاولة التأكد من أنه لا يكذب. ثم صرخت أخيراً وهي ما تزال متشككة:

ــــ إذا كان هذا صحيحاً فهم جماعة من عديمي الحياء، من المسيئين للصغار. أفــي المدرسة أيضاً؟ ألم تخبر ريغوبيرتو بذلك

كي يذهب ويثير فضيحة هناك؟

أبدى الطفل ملامح الملائكية:

ـــــ لا أريد أن أسبب مزيداً من القلق لأبي. وخصوصاً الآن، وأنا أراه حزيناً جداً.

خفضت دونيا لوكريثيا رأسها مشوشة. إن هذا الطفل معلم فـــي قول أشياء تُشعرها بالكدر. حسن، إذا كان ما يقوله صحيحاً، فمن المستحسن تلقين هؤلاء الباردين درساً. زوج تيتي باريغا أخبرها بأنه بقي هو وأصدقاؤه متيبسين لا يتجرؤون على النظر إلى ريغوبيرتو لوقت طويل. وبعد ذلك، تبادلوا بعض المزاح، وإن بقيت وجوههم متجهمة. ولكن يكفـــي حديثاً فـــي هذا الموضوع على أي حال. وانتقلتْ إلى أمر آخر. فسألت فونتشيتو عن أحواله فـــي المدرسة، وعما إذا كان لا يتضرر من مغادرة معهد الرسم قبل انتهاء الدروس، وإذا ما كان قد ذهب إلى السينما، إلى كرة القدم، إلى حفلة ما. ولكن خوستينيانا التي دخلت حاملة الشاي والبسكويت، عادت إلى الموضوع. فقد كانت قد سمعت كل شيء وراحت تبدي رأيها، بأقصى ما يمكن من الهذر. فهي متأكدة من أنه يكذب: «لا تصدقيه يا سيدتي. إنها لعبة شيطانية أخرى من ألعاب هذا الشقي، يريد بها أن يحرج أولئك السادة أمام دون ريغوبيرتو. ألا تعرفـــينه؟». «إذا لم يكن بسكويتك لذيذاً فسوف أغضب منك يا خوستينيتا.» أحست دونيا لوكريثيا بأنها قد تهورت، فباستسلامها للفضول المرضي، ربما تكون قد أيقظت الوحش الضاري ـــــ فلا أحد يعرف متى يحدث ذلك مع فونتشيتو ـــــ. وبالفعل، فبينما كانت خوستينيانا تجمع الفناجين والأطباق، نزل عليها

سؤال الطفل مثل طعنة:

ـــ لماذا يُعجب المسنون إلى هذا الحد بالأطفال يا خالتي؟

انسلت خوستينيانا هاربة وهي تطلق دوياً من حنجرتها أو من معدتها لا يمكن له أن يكون سوى ضحكة مكتومة. بحثت دونيا لوكريثيا عن عيني فونتشيتو. ووجدتهما هادئتين، ووراء شرارة نميمة أو نوايا خبيثة. لا. إنهما أقرب إلى سطوع سماء صافــية.

ـــ الجميع يحبون الأطفال ـــ قالت منافقة ـــ. من الطبيعي أن يلين المرء معهم. فهم صغار، حساسون، وشديدو الظرف أحياناً.

أحست أنها حمقاء، وأنها تتلمس بجزع سبيل الهروب من العينين الساكنتين الصافــيتين المسلطتين عليها.

وقال فونتشيتو موافقاً:

ـــ إيغون شيلي أيضاً كان يحبهم كثيراً. ففــي فــيينا، فــي بدايات القرن، كان هناك الكثير من الطفلات المتشردات، ممن يعشن فــي الشوارع. وكن يطلبن الصدقات فــي الكنائس وفــي المقاهي.

ـــ مثلما هو الحال فــي ليما ـــ قالت ذلك دون أن تعرف ما الذي تقوله. وغمرها مرة أخرى الإحساس بأنها ناموسة تنجذب، رغم جهودها، نحو مزرد عنكبوت.

وواصل فونتشيتو دون تراجع:

ـــ وكان يخرج إلى حديقة شونبون، حيث توجد الكثيرات منهن. فــيأخذهن إلى مرسمه. ويقدم لهن الطعام ويعطيهن النقود. والسيد بارِس فون غوتيرلاش، الصديق الذي رسمه شيلي، الآن سأريك صورته، يقول إنه كان يجد فــي مرسمه على الدوام طفلتين

أو ثلاث من طفلات الشوارع. يقمن هناك على نفقته. ينمن ويلعبن بينما شيلي يرسم. أتظنين أن هناك ما هو سيئ في هذا؟

ـــ إذا كان يقدم لهن الطعام ويساعدهن، فكيف سيكون سيئاً.

فأضاف الطفل:

ـــ ولكنه كان يعريهن ويرسمهن وهن في أوضاع ـــ وفكرت دونيا لوكريثيا: «لم يعد لي مهرب» ـــ. هل كان سيئاً أن يفعل شيلي ذلك.

ـــ حسن ـــ ابتلعت الخالة اللعاب ـــ، يخيل إليّ أن لا. فالفنان يحتاج إلى موديلات. لماذا نسمح بأن يتعفن تفكيرنا؟ ألم يكن ديغاس يحب أن يرسم **الفأرات**، الراقصات الصغيرات في أوبرا باريس؟ حسن، إيغون شيلي أيضاً كان يستمد الإلهام من الطفلات.

ـــ لماذا أدخلوه السجن إذن بتهمة اختطاف قاصر؟ ولماذا أُجبر على أن يحرق لوحة بذريعة أن الأطفال يرون في مرسمه أشياء فظة؟

هدأت هي حين رأت أنه أخذ يهتاج:

ـــ لست أدري لماذا، فأنا لا أعرف أي شيء عن شيلي يا فونتشيتو. أنت من يعرف كل شيء عنه. الفنانون أناس معقدون، فليشرح لك أبوك هذا الأمر. وليس من واجب الفنانين أن يكونوا قديسين. يجب عدم النظر إليهم على أنهم ملائكة أو شياطين. المهم أعمالهم وليس حيواتهم. فما بقي من شيلي هو كيف رسم أولئك الصغيرات، وليس ما كان يفعله معهن.

وأنهى فونتشيتو القصة:

ـــــ كان يجعلهن يلبسن تلك الجوارب التي تروقه كثيراً. ويستلقين على الأريكة، على الأرض. مجتمعات أو كل اثنتين على حدة. وعندئذ كان يصعد سلماً لينظر إليهن من أعلى. وفــيما هو هناك، فـــي الأعلى، يرسم اسكتشاً فـــي دفاتره التي نُشرت فــيما بعد. أبي يملك هذا الكتاب. ولكنه بالألمانية. أنا أستطيع رؤية الصور فقط، ولا أستطيع قراءة الكتاب.

ـــــ هل كان يصعد على سلم؟ هكذا كان يرسمهن؟

ها أنتِ فـــي شبكة العنكبوت يا لوكريثيا. دوماً يتوصل إلى ذلك هذا الصبي. لم تعد تحاول الآن إبعاده عن الموضوع؛ بل كانت تجاريه، وقد علِقت. إنها الحقيقة الخالصة يا خالتي. كان يقول إن حلمه هو التحول إلى طير جارح. وأن يرسم العالم من أعلى، أن يراه مثلما يراه كندور أو نسر. ولاحظي جيداً أن ذلك هو الحقيقة الخالصة. شأثبت لك ذلك الآن حالاً. قفز للبحث فـــي حقيبته المدرسية وبعد لحظة كانا يجلسان القرفصاء ــــ هي على الأريكة كالعادة، وهو على الأرض ــــ يقلبان صفحات كتاب جديد وضخم يضم صوراً لأعمال إيغون شيلي، وضعه على ركبتي الخالة. أيعرف فونتشيتو حقاً كل هذه الأشياء عن الرسام؟ كم منها صحيح؟ ولماذا أصابه هذا الهوس بشيلي؟ أهي أمور يسمعها من ريغوبيرتو؟ أيكون هذا الرسام هو آخر هوس متسلط على عقل زوجها السابق؟ ولكن الأدلة لا تنقص الطفل على أي حال. فهؤلاء الفتيات المستلقيات، وهؤلاء العشاق المتشابكون، وهذه المدن الشبحية، دون بشر ولا حيوانات ولا سيارات. ببيوتها المتراكمة كما لو أنها

متجمدة على ضفاف أنهار قاحلة، تبدو مرئية من أعلى، بعيني طائر ينقض عليها من علٍ بنظرة شاملة وغير رحيمة. أجل، إنه منظور طائر جارح. وابتسم لها وجه الملاك: «ألم أقل لك ذلك يا خالتي؟». فهزت رأسها موافقة بامتعاض. فوراء هذه الملامح الملائكية الطيبة، وراء هذه البراءة للوحة إعجازية، يعشش ذكاء ثاقب، ونضج مبكر، وسيكولوجية متقلبة مثل سيكولوجية ريغوبيرتو. وفـــي هذه اللحظة وعتْ ما تعرضه الصفحة. فاشتعلت مثل شعلة. لقد ترك فونتشيتو الكتاب مفتوحاً على لوحة مائية ذات خطوط حمراء وفراغات سكرية اللون، مع حزام خبّازي، لم تولها دونيا لوكريثيا اهتماماً إلا الآن: فالفنان نفسه يجلس بقامته الطويلة، وبين ساقيه المفتوحتين هناك فتاة عارية تدير ظهرها، وتمسك عالياً، مثل سارية علم، طرفه الذكري العملاق.

وأثار اضطرابها الصوت البلوري:

ـــ هذا الثنائي رُسم من أعلى أيضاً. ولكن، كيف أمكن له إعداد اسكتشه؟ لم يكن بإمكانه عمل ذلك وهو فوق السلم، لأن الجالس على الأرض هو الرسام نفسه. ألا ترين ذلك يا خالتي؟

فقالت دونيا لوكريثيا:

ـــ أرى أنها صورة ذاتية شديدة الفحش. من الأفضل أن تقلب الصفحة يا فونتشيتو.

فحاورها الطفل باقتناع كبير:

ـــ إنها تبدو لي كئيبة. دققي فـــي وجه شيلي. إنه متراخ وكأنه لا يستطيع تحمل الحزن الذي يشعر به. يبدو وكأنه سيبكي.

لقد كان عمره آنذاك إحدى وعشرين سنة فقط يا خالتي. لماذا تظنين أنه سمى هذه اللوحة **خبز القربان الأحمر؟**

بدأ وجه السيدة لوكريثيا يحمر:

ـــ من الأفضل ألا تتحرى ذلك أيها العارف. أهكذا تُسمى هذه اللوحة؟ إنها تدنس المقدسات إذن فضلاً عن كونها فاحشة. اقلب الصفحة وإلا سأمزقها.

فأنبها فونتشيتو:

ـــ ولكن، لا يمكن لك يا خالتي أن تكوني مثل ذلك القاضي الذي حكم على إيغون شيلي بتخريب لوحته. لا يمكن لك أن تكوني جائرة وصورية الأحكام.

كان سخطه يبدو حقيقياً. فحدقتاه تلمعان، وزعنفتا أنفه الرقيقتان ترتعشان، وحتى أذنيه كانتا قد شُحِذَتا. ندمت دونيا لوكريثيا على ما قالته.

ـــ حسن، أنت محق، فلا بد من إبداء قدر أكبر من التسامح مع الرسم، مع الفن ـــ ثم فركت يديها بعصبية ـــ ولكنك تُخرجني عن طوري يا فونتشيتو. ولست أدري مطلقاً إذا كنت تقول ما تقوله بعفوية أم بنوايا مسبقة. لست أدري مطلقاً إذا ما كنتُ مع طفل أم مع عجوز داعر وخبيث يختبئ وراء وجه الطفل يسوع.

كان الطفل ينظر إليها مشوشاً؛ وبدا كما لو أن المفاجأة تنبثق من أعمق أعماقه. كان يرمش دون أن يفهم شيئاً. أهي نفسها من تستثير استنكار هذا الطفل بشكوكها؟ غير ممكن بالطبع. ومع ذلك، فقد أحست بالذنب وهي ترى عيني فونتشيتو تتضمخان. فتلعثمت:

ـــــ حتى إنني لا أدري ما الذي أقوله. إنسَ، فأنا لم أقل شيئاً. تعال، دعني أقبلك، فلنتصالح.

نهض الطفل وألقى بذراعيه حول عنقها. وأحست دونيا لوكريثيا بخفقان البنية الهشة، العظام الصغيرة، هذا الجسد الضئيل الذي على حدود المراهقة، وهي السن التي يكون فـــيها الأطفال ما يزالون ملتبسين بالطفلات.

وسمعته يقول لها فـــي أذنها:

ـــــ لا تغضبي مني يا خالتي. صوبيني إذا ما أسأتُ، قدمي لي النصح. أنا أريد أن أكون مثلما تريدين لي أن أكون. ولكن، لا تغضبي.

ـــــ حسن ـــــ قالت ـــــ، لقد انتهى كل شيء. فلننسَ.

كان يحبسها من عنقها بذراعيه ويكلمها ببطء وخفوت إلى حدٍ لا يُمَكِّنها من فهم ما يقوله. ولكنها سجلت بكل أعصابها طرف لسان الطفل حين تسلل، مثل خنجر مرهف، فـــي تجويف أذنها وبلله باللعاب. قاومت الرغبة فـــي إبعاده عنها. وأحست بعد لحظة بالشفتين الرقيقتين تجوبان شحمة الأذن بقبلات متباعدة، رقيقة. أجل، لقد أبعدته الآن بنعومة ـــــ كانت هناك أفاعٍ تتسل فـــي جسدها بكل الاتجاهات ـــــ والتقت عيناها بوجهه الخبيث.

ـــــ هل دغدعتكِ؟ ـــــ بدا وكأنه يتباهى بمأثرة ـــــ لقد كنتِ ترتعشين بالكامل. هل سرتْ فـــيك رعشة كهربائية يا خالتي؟

لم تعد تدري ما تقول له. فابتسمت ابتسامة مغتصبة. وكان فونتشيتو هو الذي أخرجها من الموقف الحرج بعودته إلى مكانه

على الأرض عند أقدام الأريكة:

ـــــ نسيتُ أن أخبرك. لقد بدأت الشغل مع أبي.

ـــــ أي شغل؟

فأوضح لها الطفل مومئاً:

ـــــ المصالحة معك. أتعرفــين ما فعلتُ؟ قلت له إنني رأيتك تخرجين من كنيسة عذراء البيلار، متأنقة جداً، وممسكة بذراع سيد وجيه. وإنكما كنتما تبدوان مثل زوجين فــي شهر العسل.

ـــــ ولماذا كذبت عليه هكذا؟

ـــــ لكي أثير الغيرة فــي نفسه. وقد توصلتُ إلى ذلك. لقد صار عصبياً جداً يا خالتي!

وضحك ضحكة تعلن عن سعادة رائعة بالعيش. لقد شحب وجه باباه؛ جحظت عيناه، مع أنه لم يعلق بأي شيء فــي البدء. ولكن الفضول كان ينهشه، وكان يموت رغبة فــي معرفة المزيد. وفتح فونتشيتو النار ليسهّل عليه الأمر:

ـــــ أتظن أن خالتي تفكر بالزواج ثانية يا بابا؟

تمرمر وجه دون ريغوبيرتو، وقام بحركة حصانية غريبة قبل أن يجيب:

ـــــ لست أدري. كان عليك أن تسألها أنت ـــــ ثم أضاف بعد تردد، وهو يحاول أن يبدو طبيعياً: ـــــ من يدري. هل بدا لك أن السيد الذي كان معها هو أكثر من صديق؟

ـــــ حسن، لا أدري ـــــ أبدى فونتشيتو التردد وهو يحرك رأسه مثل "كوكو" الساعة: ـــــ كانت تتأبط ذراعه. وكان ذلك السيد

ينظر إليها كما فـــي الأفلام. وهي أيضاً كانت توجه إليه نظرات شديدة الغنج.

ـــــ سأقتلك لأنك شرير وكاذب ـــــ قالت له دونيا لوكريثيا وهي ترميه بإحدى الوسائد، فتلقاها فونتشيتو برأسه مُظهراً خوفاً مبالغاً فـــيه. وأضافت هي: ـــــ كيف ستصير عندما تكبر. فليحم الله الساذجة المسكينة التي ستقع فـــي حبك.

اتخذ الطفل مظهر الجد، فـــي واحدة من تبدلات المزاج هذه التي تشوش دونيا لوكريثيا. كان قد قاطع يديه على صدره، وجلس مثل بوذا، وراح يتفحصها بشيء من الخوف.

ـــــ أنت تمزحين فـــي كلامك هذا يا خالتي، أليس كذلك؟ أم أنك تظنين فعلاً أنني شرير؟

مدت يدها وداعبت شعره قائلة:

ـــــ لا، لستَ شريراً. أنتَ لاغنى عنك. إنك عارف صغير تتمتع بمخيلة واسعة. هكذا أنت.

فقاطعها فونتشيتو بحركة متحمسة:

ـــــ أريدكما أن تتصالحا. لهذا اخترعت له هذه الحكاية. ولدي خطة من أجل ذلك.

ـــــ بما إنني أنا المعنية، فأطلعني على الخطة لكي أمنحك موافقتي على الأقل.

لوى فونتشيتو يديه:

ـــــ المسألة... لم أستكمل الخطة بعد. يجب أن تثقي بي يا خالتي. أريد أن أعرف بعض الأشياء عنك. كيف تعارفتما أنت

وبابا مثلاً. وكيف تزوجتما.

شلال من الصور السوداوية تداعى إلى ذاكرة دونيا لوكريثيا، منذ ذلك اليوم ـــ قبل إحدى عشرة سنة ـــ فـــي تلك الحفلة الصاخبة والمملة للاحتفال باليوبيل الفضي لزواج عمين لها، يوم عرفوها على هذا السيد ذي الوجه الكئيب، والأذنين الكبيرتين والأنف الحربي، والسائر نحو الصلع. إنه خمسيني أطلعتها على معلومات عنه صديقةٌ ثيليستينا[1]، منهمكة فـــي تزويج الجميع: «إنه أرمل طري، له ابن، وهو مدير شركة بيريتشولي للتأمين، إنه غريب الأطوار بعض الشيء، ولكنه من أسرة محترمة، تملك أموالاً كثيرة». لم تحتفظ من ريغوبيرتو فـــي البدء إلا مظهره المأتمي، وسلوكه المتوحد، ومدى إهماله. ولكن شيئاً ما اجتذبها منذ تلك الليلة إلى هذا الرجل الذي لا يملك مفاتن جسدية، شيء تكهنت بأنه معقد وغامض فـــي حياتها. ودونيا لوكريثيا كانت تُفتن، منذ طفولتها، بالإطلال على الهاويات من أعلى الجروف، وأن تتوازن على حواف الجسور. وقد تأكد اهتمامها به حين وافقت على شرب الشاي معه فـــي صالة **تينديثيتا بلانكا**، وأن تحضر برفقته كونشيرتو الأكورديون فـــي معهد سانتا أورسولا، وخصوصاً حين دخلت بيته أول مرة. أراها ريغوبيرتو لوحاته وكتبه الفنية ودفاتره التي يحتفظ فـــيها بأسراره، وشرح لها كيف يجدد مجموعته، حاكماً بالحرق

---

[1] ـ ثيليستينا Celestina: الشخصية الرئيسية فـي الرواية التراجيكوميدية المشهورة بالعنوان نفسه، والتي يعتقد أنها لفرناندو روخاس (1499). وهي قصة قوادة تعمل على جمع شمل العشاق.

على الكتب والصور التي يستبدلها. وقد تأثرت وهي تسمع وتلاحظ التهذُّب الذي يعاملها به، ومراعاته الشكليات بصورة مهووسة. وكانت مفاجأة أسرتها وصديقاتها («ما الذي تنتظرينه لكي تتزوجي يا لوكري؟ أتنتظرين أميراً أزرق؟ لا يمكنك أن تواصلي رفض كل من يتقدمون إليك!»). وحين عرض عليها ريغوبيرتو الزواج («دون أن يكون قد قبلني قبلة واحدة») وافقت في الحال. ولم تندم على ذلك مطلقاً. لم تندم يوماً واحداً، ولا لحظة واحدة. لقد كان مسلياً، مثيراً، رائعاً، أن تمضي قدماً في اكتشاف عالم نزوات وطقوس وتخيلات زوجها، وأن تشاطره إياها، وأن تبني معه هذه الحياة المحجوزة لهما على امتداد عشر سنوات. إلى أن سمحت لنفسها بالانجرار في القصة السخيفة، المجنونة، الحمقاء مع ابن زوجها. مع طفل مخاطي يبدو الآن وكأنه لا يذكر شيئاً مما جرى. هي، هي! التي كان الجميع يعتقدون أنها حكيمة، حذرة، منظمة، من تحسب على الدوام كل الخطوات بكثير من الرصانة. كيف أمكن لها أن تخوض مغامرة مع طفل في المدرسة! مع ابن زوجها نفسه! لحسن الحظ أن ريغوبيرتو قد تصرف بوقار، متفادياً الفضيحة، فاكتفى بطلب الانفصال عنها وقدم لها الدعم الاقتصادي الذي يتيح لها أن تعيش الآن وحدها. لو أن شخصاً غيره لكان قتلها، لكان طردها بحقائب مشعثة ودون سنتيم واحد، ولكان علقها على المنصة الاجتماعية باعتبارها مُفسدة قاصرين. إن التفكير بإمكانية مصالحتها هي وريغوبيرتو ليس إلا حماقة. فهو سيبقى غاضباً غضباً قاتلاً مما حدث؛ ولن يسامحها مطلقاً. وأحست مرة أخرى بالذراعين تطوقان

عنقها.

وقال لها فونتشيتو مواسياً:

ـــ لماذا حزنتِ. هل فعلتُ شيئاً سيئاً؟

ـــ لقد تذكرت شيئاً فجأة، وبما إنني عاطفــية... لقد انقضى الأمر.

ـــ عندما رأيتكِ تتحولين هكذا، أحسستُ بالخوف!

عاد الطفل يقبلها من أذنها، القبلات الصغيرة جداً نفسها، ويجهز على مشاعر حبه بترطيب صوان أذنها مرة أخرى برأس لسانه. كانت دونيا لوكريثيا تشعر بالضيق الشديد إلى حد لم تجد معه الحماسة لإبعاده عنها. وبعد لحظة سمعته يقول لها بلهجة مختلفة:

ـــ حتى أنتِ يا خالتي؟

ـــ ماذا؟

ـــ إنك تلمسين طوطي، مثل أصدقاء أبي ورهبان المدرسة. ما الذي تجدونه جميعكم فـــي طوطي، يا للعنة!

رسالة إلى الروتاريّ

أعرفُ أنك غضبت يا صديقي لأنني رفضت الانضمام إلى نادي الروتاري كلوب، هذه المؤسسة التي تقودها حضرتك وتشجعها. وأظنك بقيت مرتاباً، وغير مقتنع بأن رفضي الانضمام

إلى الروتاري لا يعني بأي حال أنني سأتورط فـي نادي ليونز أو نادي كيوانات البيرو حديث النشوء، وهي جمعيات تتنافس مع جمعيتك دون هوادة من أجل الحصول على سعفات الخدمة العامة، والروح المدنية، والتضامن الإنساني، والمساعدة الاجتماعية وأشياء من هذا القبيل. اطمئن: فأنا لا أنتمي ولن أنتمي إلى أي واحد من هذه الأندية أو الجمعيات ولا إلى أي شيء يمكن له أن يشبهها (جمعيات الكشافة، جمعية الطلبة الجيزويت السابقين، الماسونية، الأوبوس- دي، إلى آخره). إنني معاد للجنس الجمعياتي إلى حد أنني كرهت كوني عضواً فـي التورينغ أوتومبيل كلوب، فما قولك فـي هذه الأندية الاجتماعية التي تقيس درجة الانتماء العرقي والثروة المادية لأهالي ليما. منذ سنوات عضويتي القديمة فـي جمعية العمل الكاثوليكي وبسببها ــ فقد كانت هذه هي التجربة التي فتحت عيني على وهم كل يوتوبيا اجتماعية ورمت بي إلى الدفاع عن مذهب اللذة وعن الفرد ــ، أصبتُ بعدوى القرف الأخلاقي، والنفسي، والأيديولوجي ضد أي شكل من أشكال العبودية الاجتماعية، إلى حد أن وقوفـي ــ وهذا ليس مزاحاً ــ فـي طابور الانتظار أمام السينما يجعلني أشعر بأنني مظلوم ومهان فـي حريتي (وأحياناً لا أجد بداً من الوقوف فـي الدور بالطبع)، ومرتد إلى حالة الإنسان-الجمهور. التنازل الوحيد الذي أقدمت عليه كما أذكر كان بسبب خوف من زيادة فـي الوزن (فأنا مقتنع مثل سيريل كونوللي، بأن «السمنة هي مرض عقلي») فحملني ذلك إلى التسجيل فـي ناد رياضي، حيث كان هناك طرزانٌ بلا دماغ يجعلنا نتعرق

نحن الخمسة عشر أحمق لمدة ساعة كل يوم، على إيقاع زمجراته، لنمارس حركات تشنجية كحركات القردة يدعوها هو إيروبيك. وقد جاء ذلك العقاب الرياضي ليؤكد كل أحكامي المسبقة ضد الإنسان ـــــ القطيع.

واسمح لي بالمناسبة أن أنقل إليك واحدة من المقتطفات التي تختزنها دفاتري، لأنها تلخص بصورة رائعة ما أفكر فـــيه. ومؤلفها هو أستوري جوّاب آفاق استقر فـــي غواتيمالا، ويدعى فرانثيسكو بيريث دي انطون: «القطيع مؤلف مثلما هو معروف من أناس صامتين ومنزوعي القدرة على الكلام وهم نوع من العضلات القابضة المرتخية تقريباً. هذا أمر مؤكد ومُثبت، إضافة إلى أن القطيع، فـــي أزمنة البلبلة، يفضل العبودية على الفوضى. ومن هنا فإن من يتصرفون كالنعاج لا يكون لهم زعماء وإنما تيوس. ولا بد أن شيئاً من طباع هذا الجنس من الحيوان قد انتقل إلينا، فمن المألوف جداً فـــي القطيع البشري وجود هذا الزعيم القادر على اقتياد الحشد إلى حافة الجرف البحري، وأن يجعلهم حين يصلون هناك، يرمون بأنفسهم إلى الماء. وإذا كان لا يخطر له أن يدمر حضارة، فإنه شيء موجود وبكثرة». ستقول أنه من الجنون أن أرى فـــي بعض الرجال اللطفاء الذين يجتمعون للغداء مرة كل أسبوع وليناقشوا فـــي أي قطاع جديد سيقيمون نصبهم الحجري الأبيض الجديد مع لوحته المعدنية التي تقول «نادي الروتاري يرحب بكم»، وهو نصب تُدفع قيمته بالمحاصصة، حطاً فظيعاً إلى هذا الحد من قيمة النوع البشري وتحويلاً له من الفرد ذي السيادة إلى الفرد–

الجمهور. ربما كنتُ أبالغ. ولكنني لا أستطيع التهاون. فبما أن العالم يتقدم بسرعة كبيرة نحو نزع الفردية تماماً، ونحو انقراض هذا المعلم التاريخي، المتمثل في مملكة الفرد الحر والسيد، وبما أن هناك مجموعة من المصادفات والظروف التي تجعل الاستعداد ممكناً (لعدد محدود من الأشخاص بالطبع، وفي عدد أكثر محدودية من البلدان)، فإنني أعبئ للمعركة حواسي الخمس وأربعاً وعشرين ساعة في اليوم، لكي أؤخر قدر المستطاع وضمن ما هو متعلق بي، وقوع هذه الهزيمة الوجودية. المعركة هي معركة حتى الموت وكلية؛ فكل شيء وكل شخص سيشارك فيها. وهذه الجمعيات التي تضم مهنيين بدينين، ومديرين وتنفيذيين وبيروقراطيين من أعلى مستوى، ممن يلتقون مرة كل أسبوع ليتناولوا وجبة حمية (أهي مؤلفة من حبة بطاطا محشوة، وشريحة لحم مع الرز وبعض الخبز مع المنخاربلانكو، وكل هذا مضمخ بنبيذ أحمر تاكاما ريسيرفا خاص؟) إنها معركة تم كسبها بفضل انتشار الروبوتية النهائي والتعتيم، وتقدُم ما هو مبرمج، ما هو منظم، ما هو إجباري، ما هو روتيني، ما هو جماعي، وجهل أكبر بما هو عفوي، ما هو ملهم، ما هو إبداعي، وما هو أصيل، وهي أمور لا يمكن تصور وجودها إلا في الإطار الفردي.

هل بدأتَ تشك بعد هذا الذي قرأته، بأن وراء مظهري الغائم كبرجوازي خمسيني، يختفي فظٌ معاد للنظام الاجتماعي ونصف فوضوي؟ ها قد أتيتك! لقد أصبتَ يا أخي (أردتُ أن أمزح فلم أوفق: فكلمة أخ توحي إلي بالتربيت على الكتف الذي لا بد أن

يرافقها والرؤيا المقرفة لرجلين ثملين بالبيرة وبالإفراط في تناول الأطعمة اللاذعة، مجتمعين، يشكلان جمعية، متنكرين للأطياف والأشباح التي في عروقهما ولـ **الأنا** التي فيهما.) صحيح: إنني معاد للنظام الاجتماعي، بالقدر الذي تسمح به قواي، وهي ضعيفة للأسف، وأقاوم الجماعية في كل ما لا يعرض للخطر وجودي ومستويات حياتي الفاخرة. تماماً مثلما تقرأ. فكون المرء فردياً يعني أنه أناني (آين راند، **فضائل الأنانية**)، ولكن ليس أحمق. وفيما عدا ذلك، فإن الحماقة تبدو لي محترمة إذا ما كانت جينية، وراثية، وليس إذا كانت اختيارية ومتبناة بصورة متعمدة. وأخشى أن كون المرء روتارياً، أو ليونزياً، أو كيوانياً، أو ماسونياً، أو كشفياً، يعني أنه (واعذرني) يراهن رهاناً رعديداً لمصلحة الحماقة.

من الأفضل أن أوضح لك هذه الشتيمة، لأنني إذا ما خفّفت من وقعها وشاءت أعمالنا التأمينية أن نلتقي، فلن تهشم رأسي بلكمة (أو بركلة على قصبة الساق، وهي الطريقة الأكثر شيوعاً بين أناس في سننا). لست أدري ما هي الطريقة الأكثر دقة لتحديد قوام الفضائل والمشاعر الحميدة التي تمثلها هذه المؤسسات، إلا في اعتبارها تنازلاً عن المسؤولية الشخصية وطريقة رخيصة لاكتساب وعي «اجتماعي» (وأنا أضع الكلمة بين قوسين لأؤكد على النفور الذي تسببه لي). وبكلمات عملية، فإن ما تفعله أنت وزملاؤك لا يساهم في رأيي في تقليص الشر (أو في زيادة الخير إذا أردت) بأي حال. فالمستفيدون الأوائل من هذا الكرم الجماعي هم أنتم أنفسكم، بدءاً من مِعَدكم التي تلتهم هذه المآدب الأسبوعية،

وعقولكم الخنزيرة التي تتقيأ سعادة فـــي سهرات التآخي (يا للتعبير المرعب!) وأنتم تتبادلون النمائم، والنكات البذيئة، وتتهالون على من هو غائب دون رحمة. وأنا لست ضد هذه التسليات، ولستُ ـــــ منذ البدء ـــــ ضد كل ما من شأنه أن يبعث المتعة؛ ولكنني ضد النفاق فـــي عدم المطالبة بهذا الحق بصورة سافرة، وفـــي البحث عن المتعة المتخفـــية تحت ذريعة العمل المدني الوقائية. ألم تقل لي، وأنت تبدي أذنين كأذني ساتور[1] وتقدم لي تلميحاً بورنوغرافـــياً، بأن هناك فائدة أخرى لكون المرء روتارياً تتمثل فـــي أن الجمعية توفر ذريعة أسبوعية من الدرجة الأولى للابتعاد عن البيت دون إثارة غضب الزوجة؟ وها أنا أضيف هنا اعتراضاً آخر. هل عدم وجود نساء فـــي صفوف الجمعيات هو جزء من أنظمتها أم أنه مجرد عادة شائعة لديها؟ ففـــي المآدب التي ورطتني بحضورها لم أر أي تنورة على الإطلاق. إنني واثق من أنكم لستم جميعكم مخنثين، مع أنه سبب معقول تقليدياً لتبرير شيوع البنطال الروتاري (الليونزي، الكيواني، الكشفـــي، إلى آخره). وهذه هي أطروحتي: كون المرء روتارياً هو ذريعة لقضاء لحظات ذكرية جيدة، بعيداً عن الحراسة، أو العبودية، أو الجدية التي تفرضها، حسب رأيكم، مساكنة المرأة. وهو ما يبدو لي غير حضاري مثله مثل بارانويا دعاة الحركة النسائية الجموحات اللواتي أعلنّ حرب الأجناس. إن فلسفتي فـــي الحالات التي لا بد فـــيها من الخضوع للجماعية ـــــ المدارس،

---

[1] ـ ساتور Satiro: شخصية أسطورية فـي الميثولوجيا الإغريقية، تمثل غرائز الكائنات، وهو من بطانة باخوس، ويصور على هيئة مسخ له أذنان طويلتان رفـيعتان.

العمل، التسليات ـــ ترى أن اختلاط الأجناس (والأعراق، واللغات، والعادات، والمعتقدات) هو طريقة للتخفـيف من البلاهة التي يتضمنها التعصب وإدخال عنصر لاذع، نوع من الخبث (أي الأفكار الخبيثة التي أنا من ممارسيها الحازمين) فـي العلاقات الإنسانية، وهو أمر ـــ من وجهة نظري ـــ يسمو بها جمالياً وأخلاقياً. ولن أقول لك إن الأمرين كليهما، بالنسبة إليّ ـــ هما شيء واحد، لأنك لن تفهم ذلك.

إن كل نشاط بشري لا يساهم، ولو بطريقة غير مباشرة، فـي الفوران الخصيوي المبيضي، وفـي لقاء الحيوانات المنوية مع البويضات، هو محط ازدراء. مثلما هو على سبيل المثال، بيع بوليصات التأمين الذي نمارسه أنا وأنت منذ قرابة ثلاثين سنة، أو مآدب الروتاريين الخالية من النساء. وكذلك كل ما يشغل الناس عن الهدف الجوهري حقاً للحياة الإنسانية، والمتمثل، برأيي، فـي إشباع الرغبات. ولست أجد سبباً آخر لوجودنا هنا، ندور مثل دوامات بطيئة فـي هذا الكون المجاني. يمكن لأحدنا أن يبيع بوليصات تأمين، مثلما نفعل أنا وأنت ـــ وبنجاح كبير، ذلك أننا توصلنا إلى مناصب رفـيعة فـي شركتينا ـــ لأنه لا بد من الأكل واللبس والاحتماء تحت سقف والحصول على شيء من الدخل الذي يتيح لنا امتلاك رغبات وتحقيقها. وليس هناك أي سبب آخر ينفع لتبرير بيع بوالص التأمين، أو لبناء السدود أو خصي الهررة أو كون المرء كاتب اختزال. إنني أسمعك تقول: وماذا إذا كان هناك رجل، على النقيض منك يا ريغوبيرتو المشوش، يجد تحقيق ذاته ومتعته فـي

بيع بوالص تأمين ضد الحريق أو السطو أو المرض؟ وإذا كان يجد فـــي حضور المآدب الروتارية وفـــي المساهمة بحصة مالية زهيدة لنصب لوحات على الطرق العامة تقول «ببطء تصل أبعد» أفضل تجسيد لرغباته ولسعادته، مثلما يحدث لك وأنت تقلّب مجموعة دفاترك وكتبك غير المناسبة للآنسات أو وأنت تمارس هذه الاستمناءات الذهنية التي هي مناجاة لدفاترك؟ أليس لكل واحد الحق فـــي اختيار رغباته؟ بلى، له الحق. ولكن، إذا كانت أعلى رغبات (وهذه هي أجمل كلمات المعجم) كائن بشري تتلخص فـــي بيع تأمينات والانضمام إلى نادي الروتاري (أو أضرابه) فإن ثنائي الأرجل هذا هو شخص متعفن الصدر بالبراز. وأنا أوافقك أن هذا هو حال تسعين بالمئة من بني البشر. أرى أنك بدأت تفهم أيها التأميني.

أتراك تُصلّب من أجل شيء تافه كهذا؟ إن رسمك إشارة الصليب يدفعني إلى التفكير فـــي موضوع آخر، هو الموضوع نفسه. أي دور يحتله الدين فـــي هذه المرافعة؟ هل يتلقى الصفعات أيضاً من هذا المرتد عن العمل الكاثوليكي، والقارئ السابق المحموم للقديس أغوسطين، والكاردينال نيومان، وسان خوان دي لا كروث وجان غيتون؟ أجل ولا. إذا كنتُ شيئاً فـــي هذه المواضيع، فإنني لا أدْريّ. فأنا أرتاب من الملحد ومن المؤمن، إنني مؤيد لأن يعتنق الناس ويمارسوا إيماناً ما، لأنهم دون ذلك سيكونون بدون حياة روحية وستزدادون وحشية وهمجية. فالثقافة ـــــ الفن، والفلسفة، وكل النشاطات الفكرية والفنية العلمانية ـــــ لا يمكنها أن تعوض

الفراغ الروحي الذي ينتج عن موت الرب، وعن غياب واختفاء الحياة الماورائية، إلا لدى أقلية ضئيلة جداً (وأنا أشكل جزءاً منها). هذا الفراغ يجعل الناس أشد تدميراً وبهيمية مما هم عليه عادة. وفـــي الوقت الذي أؤيد فـــيه الإيمان، فإن الأديان بصورة عامة تدفع بي إلى تغطية أنفـــي، لأنها جميعها تتطلب الموكبية القطيعية والتنازل عن الاستقلالية الروحية. جميعها تقيّد الحرية الإنسانية وتسعى إلى لجم الشهوات. وأنا أعترف، انطلاقاً من وجهة النظر الجمالية، بأن الأديان ـــــ وربما كانت الكاثوليكية أكثر من غيرها، بكاتدرائياتها البديعة، وطقوسها، وليتورجيّاتها، وأبهة أزيائها، وعروضها، وأيقوناتها، وموسيقاها ـــــ تكون عادة مصادر لذة عظيمة تفتن العين، والحساسية، وتحرض المخيلة وتحرقنا بأفكار خبيثة. ولكن، هناك فـــي كل منها على الدوام رقيب يكمن مترصداً، مفوض، متعصب ومشواة وكلابات قاضي التفتيش. ولكن من الصحيح أيضاً أنه لولا محظورات الأديان، وخطاياها، وروادعها الأخلاقية، لما كانت الرغبات ـــــ الجنسية منها خصوصاً ـــــ قد وصلت إلى الرقي الذي بلغته فـــي بعض العصور. وهذا ليس كلاماً نظرياً، وإنما هو واقع عملي، فبفضل استبيان شخصي متواضع ومحدود الآفاق، أؤكد أن ممارسة الحب تجري بصورة أفضل بكثير فـــي البلدان المتدينة منها فـــي البلدان الدنيوية (ففـــي ايرلندا أفضل من إنكلترا، وفـــي بولونيا أفضل من الدانمرك) وفـــي البلدان الكاثوليكية أفضل من البلدان البروتستانتية (إسبانية أو إيطاليا أفضل من ألمانيا أو السويد) والنساء اللواتي تعلمن فـــي مدارس للراهبات

هن أوسع مخيلة وأكثر جرأة ورقة بألف مرة من اللواتي تعلمن فـــي مدارس علمانية (وقد وضع روجر بايلان نظرية فـــي هذا الشأن فـــي كتابه **نظرة باردة**). وما كان للوكريثيا أن تكون لوكريثيا التي ملأتني بسعادة لا تقدر، ليلاً ونهاراً (ولكن فـــي الليل بصورة خاصة) على امتداد عشر سنوات، لو لم تتول مسؤولية تربيتها فـــي طفولتها وشبابها راهبات القلب المقدس الصارمات، واللواتي كان بين تعاليمهن للصغيرات، أن جلوس البنت متباعدة الركبتين يشكل خطيئة. هؤلاء الراهبات اللواتي قدمن أنفسهن قرابين عبودية للرب، بأحكامهن ومحظوراتهن المتشددة فـــي الموضوع الغرامي، رحن يربين على امتداد التاريخ سلالات متتالية من الميسالينات[1]. فلتحل عليهن البركة!

ثم ماذا؟ أين وصلنا؟ أنا لا أعرف ما الذي ستتوصل إليه أنت يا زميلي العزيز (لكي أستخدم تعبيراً آخر يدعو إلى التقيؤ). أما أنا فسوف أبقى فـــي تناقضي، وهو أيضاً، وعلى الرغم من كل شيء، مصدر للذة روح عاصية وغير قابلة للتصنيف مثل روحي. فأنا أعارض فرض قواعد مؤسساتية للمشاعر والإيمان، ولكنني أؤيد المشاعر والإيمان. وأبقى على هامش الكنيسة، ولكنني أشعر بفضول وحسد تجاهها. وأنا مستغل متيقظ لما يمكن أن يعرض لي من أجل إغناء عالم أوهامي. وأشير إليك بأنني أقدر دون حدود أحبار الكنيسة الذين استطاعوا أن يجمعوا على أعلى مستوى ما بين مسوح

---

[1] ـ ميسالينات، نسبة إلى ميسالينا Mesalina : الأميرة الرومانية التي تزوجت الإمبراطور كلاوديوس الأول. وقد اشتهرت بانحلالها وتهتكها.

الكهنوت والمني. أفتش فـي دفاتري وأجد مثالاً على ذلك فـي الكردينال الذي كتب عنه التقي أثورين: «ارتيابي مصفى، يضحك وحيداً من المهزلة التي يتحرك بها شخصه، ويستغرب أحياناً لعدم انتهاء البلاهة البشرية التي تتواصل بأموالها تلك الكوميديا البلهاء». أليست هذه هي، تقريباً، صورة مكبرة لكاردينال بارني الشهير، سفـير القرن الثامن عشر الفرنسي فـي إيطاليا، الذي تقاسم فـي فـينيسيا راهبتين سحاقيتين مع جيوفاني كازانوفا (راجع **مذكراته**) واستضاف فـي روما المركيز دي ساد دون أن يعرف من يكون، حين كان هذا الأخير، هارباً من فرنسا بسبب تماديه فـي التهتك، وكان يجوب إيطالياً متخفـياً تحت الاسم المزيف: الكونت دي مازان؟

ولكنني أرى أنك قد بدأت تتثاءب، لأن هذه الأسماء التي قصفتُكَ بها ـــ آين راند، فايلان، أثورين، كازانوفا، دي ساد، بيرني ـــ هي بالنسبة إليك قعقعة غير مفهومة، ولهذا فإنني سأتوقف وأضع نقطة النهاية لهذه الرسالة (التي لن أبعثها أيضاً، فاطمئن).

أتمنى لك الكثير من المآدب واليافطات أيها الروتاري.

رائحة الأرامل

فـي الليلة الرطبة، القلقة باضطراب البحر، استيقظ دون ريغوبيرتو فجأة وهو مستحم بالعرق: جرذان معبد كارنيجي التي لا

حصر لها تهرع لوجبة المساء، مدعوة بأجراس البراهمة السعيدة. الجفنات الضخمة والصواني المعدنية والطاسات الخشبية قد مُلئت بقطع اللحم أو بحساء حليبي، هو طعامها المفضل. آلاف القوارض الرمادية الشرهة كانت تخرج من أعشاشها، من كل فتحات جدران المرمر المثقوبة من أجلها، والمزودة بحزم صغيرة من القش يوفرها الرهبان الرحيمون من أجل راحتها. كانت تتصادم، يمر بعضها فوق بعض، متعجلة باتجاه الصواني. وكانت تغطس فـــيها لتلحس السائل، وتقضم قطع اللحم، وكان أكثرها استثارة ينتزع بقواطعه البيضاء لقيمات من جلود الأقدام الحافـــية الخشنة والغليظة. وكان الرهبان يتركونها تفعل ذلك وهم سعداء بتقديم هذه الزوائد من جلودهم للمساعدة فـــي لذة الجرذان التي هي تجسيد (تقمص) لرجال ونساء مختفـــين.

لقد بني المعبد خصيصاً من أجلها قبل خمسمئة سنة فـــي هذا الركن الشمالي من الراجيستنان الهندوسي، تكريماً للاكهان، ابن الربة كارنيجي، الفتى الوجيه الذي تحول إلى جرذ سمين. ومنذ ذلك الحين، وراء البناء العظيم ذي الأبواب الفضية، والأرضية الرخامية، والجدران والقباب المهيبة، يحدث هذا المشهد مرتين فـــي اليوم. ها هو هناك الآن البراهما الأكبر تشوتو ـــــ دان، مختفـــياً تحت عشرات الحيوانات الرمادية التي تصعد على كتفـــيه، ذراعيه، ساقيه، ظهره، متجهة إلى حوض الحساء الكبير الذي كان يجلس عند حافته. ولكن ما كان يقلب معدة دون ريغوبيرتو ويوصله إلى حافة التقيؤ هو الرائحة. لقد كانت زخمة، شاملة، وأكثر تجريحاً من

روث الدابة، من أنفاس المزبلة، أو الجيفة المتفسخة، وقد كانت نتانة تلك الحشود الرمادية فـــي داخله الآن. تجوب قفا جسده مع أوردته، مع إفرازات غدده، تغوص فـــي ثقوب غضاريفه وفـــي نخاع عظامه. لقد تحول جسده إلى معبد كارنيجي. وقال مذعوراً: «إنني محشو برائحة الجرذان».

قفز من السرير بالبيجاما، دون أن يرتدي الروب، مكتفـــياً بالخف وحده، وهرع إلى مكتبه، ليرى إذا ما كانت صور أخرى تأتي لتعزّمه من صور الكابوس المتبقية إذا ما تصفح كتاباً، أو تأمل لوحة، أو استمع إلى موسيقى أو خربش شيئاً فـــي دفاتره.

وقد حالفه الحظ. ففـــي الدفتر الأول الذي فتحه، واجهته فقرة علمية توضح أن السمة المميزة لبعض أصناف البعوض هي الإحساس برائحة إناثها من مسافات لا تُصدق. «إنني واحد منها»، فكر بذلك وهو يفتح أنفه ويشم. «يمكنني الآن بالذات إذا أردت، أن أشم لوكريثيا وهي نائمة فـــي بستان زيتون سان ايسيدرو، وأن أميز بوضوح إفرازات جلدها المغطى بالشعر، تحت إبطيها وفـــي عانتها». ولكنه التقى برائحة أخرى ـــــ رائحة لطيفة، أدبية، مُرْضية، متخيلة ـــــ راحت تبدد نتانة الحلم الجرذية، مثلما تبدد ريح الفجر الضباب الليلي. إنها رائحة صحية، لاهوتية، لطيفة جداً، تفوح من ***مدخل إلى الحياة الورعة***، لفرانسيسكو دي ساليس، بترجمةٍ لكيفـــيدو: «المصابيح التي تنشر رائحة عطرة يتضوع منها عبير خفـــيف حينما ينطفئ ضوؤها. وهكذا الأرامل، ممن كان حبهن نقياً خلال زواجهن، يتضوعن بأريج عابق ورائع من فضيلة

العفة، حين يتعرض ضوؤهن، أي الزوج، للانطفاء بالموت». لقد أقلقه أريج الأرامل العفــيفات هذا، تلك الكآبة غير الملموسة لأجسادهن المحكومة بالمناجاة الجسدية مع الذات، والتضوع النوستالجي لرغباتهن غير المشبعة. نبضت فتحتا أنفه بهمة، فــي محاولة إعادة بناء، التقاط، استخراج بعض أثر حضور تلك الرائحة فــي الجو. إن مجرد فكرة تلك الرائحة الأرملية قد أفقده الاستقرار. لقد بخّرت بقايا الكابوس حلمه وانتزعته، وأعادت إلى روحه طمأنينة صحية. ودفعته إلى التفكير ـــ لماذا؟ ـــ بأولئك السيدات الطافــيات ما بين أنهر من نجوم، فــي لوحة لكليمت، نساء ينضحن بالطيب، بوجوه خبيثة ـــ وهناك كانت سمكة غولد فش أنثى ـــ سمكة صغيرة ملونة، و**دانابيه** متظاهرة بالنوم وعارضة بسذاجة مؤخرة كأنها الجيتار. ليس هناك رسام استطاع أن يرسم روائح النساء مثلما فعل ذلك البيزنطي الفــييني: فنساؤه الجويات الرجراجات قد دخلن ذاكرته عبر العين والأنف فــي الوقت ذاته. (وبالمناسبة، ألم يحن الوقت للبدء بالقلق من التأثر البالغ الذي يمارسه الفــييني الآخر، إيغون شيلي، على فونتشيتو؟ ربما، ولكن ليس فــي هذه اللحظة.)

أيطلق جسد لوكريثيا هذه الرائحة الساليسية المقدسة منذ انفصلا؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنها ما تزال تحبه. لأن هذه الرائحة، على حد قول القديس فرانسيسكو دي ساليس، هي دليل إخلاص ووفاء فــي الحب يتجاوز القبر. إنها لم تستبدله إذن. أجل، فما زالت «أرملة». وكل الإشاعات، والخيانات، والاتهامات التي تصل

إليه ـــــ بما فـــي ذلك تقولات فونتشيتو ــــ حول عشاق لوكريثيا، ليست إلا افتراءات. وابتهج قلبه بينما هو يتشمم المحيط بشراهة. أهي هناك؟ هل التقطها؟ أهي رائحة لوكريثيا؟ لا. لقد كانت رائحة الليل، الرطوبة، الكتب، اللوحات الزيتية، وأخشاب وأقمشة وجلود المكتب.

حاول أن يلتقط من الماضي والعدم، وهو مغمض العينين، تلك الروائح الليلية التي استنشقها طوال عشر سنوات، روائح شذية كانت قد أمتعته كثيراً، عطور كانت تحميه من العفونة والنتانة السائدة. سيطر عليه الغم. وجاءت أبيات من شعر نيرودا لتعزيه حين قلب صفحة من الدفتر نفسه:

ورؤيتك تبولين، فـــي العتمة، فـــي أقصى البيت،
كأنك تسكبين عسلاً رقيقاً، رجراجاً، فضياً، لجوجاً،
كم من المرات سأسلم كورال الظلال هذا الذي يتملكنـي،
وجلبة السيوف غير المجدية التي تُسمع فـــي روحي...

أليس استثنائياً ورائعاً أن تُسمى القصيدة التي تتضمن هذه الأبيات **تانغو الأرمل**؟ ودون أي انتقال، رأى لوكريثيا، جالسة على مقعد المرحاض، وسمع ارتطام بولها المرح بقعر الوعاء الذي يستقبله مغرداً وشاكراً. وكان يقبع هناك أيضاً بالطبع، راكعاً فـــي الركن، مستغرقاً، مركِّزاً بتصوف، مستمعاً ومتشمماً، المستفـــيد السعيد من ذلك الإرسال وذلك الطقس السائل: مانويل الجراحة التجميلية! ولكن جليفر ما لبث أن ظهر عندئذ، وهو ينقذ إمبراطورة

ليليبوت فـــي قصرها المحترق برغوة بولية. ففكر بجوناثان سويفت الذي عاش مؤرقاً يهجس بالتناقض القائم بين جمالية الجسد وفظاظة الوظائف الجسدية. ويذكر الدفتر أن سويفت يبين، فـــي أشهر قصائده، كيف أن عاشقاً أوضح سبب هجره لمحبوبته بهذه الأبيات:

Nor Wonder how I lost wits;
Oh! Celia, Celia, Celia shits

وفكر: «يا لحماقته». فلوكريثيا أيضاً shited (تشخ) وهذا لا يحقّرها، بل يزيدها واقعية فـــي عينيه وأنفه. ولثوانٍ، مع ابتسامة الليل الأولى المطبوعة على وجهه، تنشقت ذاكرته الأبخرة المتخلفة من مرور زوجته السابقة من المرحاض. وها هو عالِمُ الجنس هافلوك إيليز يتدخل الآن، وقد كانت أكبر متعه الخفـــية، حسب ما هو وارد فـــي الدفتر، تتمثل فـــي سماع محبوبته تتبول، معلناً فـــي رسائله أن أسعد أيام حياته هو ذلك اليوم الذي عمدت فـــيه زوجته اللطيفة، محتمية بتنانيرها الفـــيكتورية الواسعة، إلى التبول من أجله ما بين مارة غير مبالين، بصورة وقحة، عند قدمي تمثال الأميرال نيلسون، وتحت أنظار الأسود الحجرية الضخمة فـــي ميدان الطرف الأغر.

ولكن مانويل لم يكن شاعراً مثل نيرودا، ولا أخلاقياً مثل سويفت، ولا عالماً تناسلياً مثل أيليز. بل مجرد خصي. أم من الأفضل القول، طواشي؟ الفارق عميق، ما بين هذين الممنوعين من الإخصاب. فأحدهما يملك القضيب والانتصاب والآخر فقد العُدّة والوظيفة التناسلية ويظهر له فـــي الموضع عانة ملساء ومنحنية

وأنثوية. ما الذي كانه مانويل؟ طواشي. وكيف أمكن للوكريثيا أن تقدم له ذلك؟ أهو الكرم، أم الفضول، أم الشفقة؟ أم الفجور والمرض؟ أم أنها كل هذه الأشياء مجتمعة؟ لقد تعرفتْ عليه قبل الحادث الشهير، حين كان مانويل يعتمر خوذة لامعة وقناعاً بلاستيكياً، ويمتطي جواداً ميكانيكيا مزوداً بأنابيب وذراع قيادة وعجلات ويحمل على الدوام اسماً يابانياً (هوندا، كاواساكي، سوزوكي أو ياماها) محيطاً نفسه بضجة ضراط يبعث على الصمم فـي ميدان سباق ـــ يسمونه **موتوكروس** ـــ وإن اعتاد المشاركة كذلك فـي منافسات ذات أسماء غامضة مثل **ترايل** و **إندورو**، وهذه المسابقة الأخيرة تذكر بصورة مريبة بالطائفة الألبيجنسية[1]ـــ حيث ينطلقون بسرعة مئتي أو ثلاثمئة كيلومتر فـي الساعة. وكان مانويل يفوز فـي تلك المنافسات وهو يجتاز المستنقعات طائراً فوقها، ويتسلق الجبال، ويعفر الرمال، ويقفز عن صخور أو أخاديد، وتظهر صوره فـي الصحف وهو يفتح زجاجات الشمبانيا مع فتيات جميلات يقبلن خديه. إلى أن حدث فـي إحدى تلك الحماقات الصرفة أن طار فـي الفضاء، بعد أن صعد مثل نيزك إلى رابية خاطئة، فكان ينتظره وراء قمتها، ليس ما كان هو الطواشي يظنه منحدراً رملياً ناعماً يمتص الصدمات، وإنما هاوية مليئة بالصخور. فسقط فـيها وهو يصرخ بكلمة قديمة ـــ

---

[1] ـ الألبيجنسية Albigenses أو الكاتارو Cataros: طائفة دينية انتشرت فـي القرن الثاني عشر فـي مناطق الألب الفرنسية، وقد شن البابا إنوسينسيو الثالث حرباً صليبية ضد أتباعها فـي عام 1209.

يا شرجي! ـــــ بينما كان يطير فوق حصانه المعدني باتجاه الهاوية التي وصل إلى قعرها بعد ثوان وصولاً مدوياً، فـــي جلبة انسحاقٍ وتهشمٍ وتفتتِ عظامٍ وحديد. معجزة! فقد بقي رأسه سليماً، وأسنانه تامة، وسمعه وبصره لم يلحق بهما أي أذى؛ أما استخدام أطرافه فقد تأثر بعض الشيء بسبب العظام المهشمة والعضلات الممزقة والمصابة بالرضوض. وقد تمركزت الإصابة بصورة تعويضية فـــي أجهزته التناسلية التي احتكرت الأضرار كلها. فالبراغي، والمسامير، والمخارز ثقبت خصيتيه على الرغم من الواقية المطاطية التي كانت تحميهما، وحولتهما إلى مادة هجينة، إلى خليط من المهلبية وصلصة البندورة، أما ذُنُيْب فحولته فقد بُتر من أصله بأداة حادة لم تأتِ ـــــ يا لسخريات الحياة ـــــ من دراجة حبه وانتصاراته. ما الذي خصاه إذن؟ إنه الصليب المدبب والحاد الذي كان يحمله لكي يستدعي الحماية الإلهية وهو يجترح مآثره على الدراجات النارية.

تمكن جراحو ميامي البارعون من لحم عظامه المكسورة، فمطوا العظام التي تقلصت، وقلصوا العظام التي تمددت، ورفوا ما كان ممزقاً من العضلات، ورمموا بقطعٍ لحم من إليته عضواً تناسلياً اصطناعياً، كان يبدو صلباً على الدوام، ولكن فـــي المظهر فقط، لأنه لم يكن إلا مجرد آلة من جلد فوق رقعة تجميلية بلاستيكية. وفكر دون ريغوبيرتو بقسوة:«كثير من الجعجعة وقليل من الجوز، أو دون أي جوزة إذا توخينا الدقة». لم يكن ذلك العضو ينفع إلا للتبول، وليس حسب إرادته، وإنما كلما شرب سائلاً. وبما أنه لم تكن

لمانويل المسكين أي سلطة تحول دون أن تتبلل ملابسه بهذا التسرب الدائم لسوائله، فقد صار يعلق كيساً من البلاستيك، مثل قبعة أو لازمة، تتجمع فــيه سوائله. وباستثناء هذا الإزعاج، كان الخصي يعيش حياة طبيعية جداً ـــ ولأن كل مجنون له هواه ـــ فقد بقي متعلقاً بالدراجات النارية.

هل ستذهبين لزيارته مرة أخرى؟ ـــ سأل دون ريغوبيرتو بشيء من الضيق.

فأوضحت له لوكريثيا:

ـــ لقد دعاني لتناول الشاي، وأنت تعرف أنه صديق طيب وأنني حزينة جداً من أجله. إذا كان ذهابي يضايقك فلن أذهب.

فاعتذر منها:

ـــ هيا، هيا اذهبي. وستروين لي كل شيء فــيما بعد؟

لقد تعارفا منذ صغرهما. كانا من الحي نفسه، وكانا حبيبين فــي أيام المدرسة، أي أنهما كانا يتمشيان وكل منهما يمسك بيد الآخر فــي أيام الآحاد بعد قداس الحادية عشرة فــي حديقة ميرافلوريس المركزية، أو فــي حديقة سالازار بعد مشاهدة عرض سينمائي مسائي تقاطعه بعض القبلات ومداعبة خجولة ومهذبة فــي الصالة. وكانا خطيبين حين كان مانويل يقترف مآثره العجلاتية على الدراجات النارية وتظهر صورته فــي الصفحات الرياضية، والفتيات الجميلات يمتن من أجله. ولكن تقلبه العاطفــي أضجر لوكريثيا، ففسخت الخطوبة. ولم يعودا إلى اللقاء حتى وقوع الحادث. فقد ذهبت هي لزيارته فــي المستشفى، وحملت إليه علبة

Cadbury. وجددا علاقة، هي حتى الآن علاقة صداقة ـــ هذا ما كان يظنه دون ريغوبيرتو، إلى أن اكتشف الحقيقة السائلة ـــ استمرت إلى ما بعد زواج لوكريثيا.

كان دون ريغوبيرتو قد لمحه مرة أو اثنتين، من وراء زجاج محل تجارته المزدهرة فـي شراء وبيع الدراجات النارية المستوردة من الولايات المتحدة واليابان (فقد أضاف إلى الماركات اليابانية ذات الأسماء الهيروغليفـية الماركات الأمريكية هارلي دافـيدسون وترونف، والماركة الألمانية بي. أم. دبل يو.) وكان المحل يقوم على ضفة السبخة ويصل حتى شارع خافـيير برادو. ومع أنه لم يعد إلى المشاركة فـي المنافسات كمتسابق، إلا أنه، وبسادية مازوشتية جلية، بقي مرتبطاً بهذه الرياضة كمشجع وراعٍ لهذه المجازر والمذابح الشرعية. وكان دون ريغوبيرتو يراه يظهر فـي نشرات أخبار التلفزيون وهو يرفع راية ذات مربعات ويُنزلها بمظهر جديّ وكأنه يعلن بدء الحرب العالمية الأولى: عند خط بداية أو نهاية المسابقات، أو وهو يسلّم للفائز كأساً مطلية بطبقة من الفضة المزيفة. وكان هذا الانتقال من مشارك إلى راعٍ للنشاطات، يهدئ ـــ حسب قول لوكريثيا ـــ ولع المخصي الإدماني بالدراجات النارية الصاخبة.

وماذا عن ذاك الشيء الآخر؟ ذلك النقص الآخر؟ هل يهدئه شيء؟ ففـي الأمسيات المتباعدة التي اعتادا اللقاء فـيها لتبادل الحديث، كان مانويل يحتفظ بتكتم كبير حول هذه المسألة التي لم تكن دونيا لوكريثيا تتهور بالإتيان على ذكرها بالطبع. كانت

أحاديثهما نوعاً من النميمة التذكرية لطفولة أمضياها في ميرافلوريس وشباب في سان ايسيدرو، ولرفاق الحي القدماء الذين يتزوجون، و ينفصلون، ويتزوجون ثانية، ويمرضون، وينجبون، ويموتون أحياناً، وكانت تلك الأحاديث تترافق بلطخات من التعليقات الراهنة حول الفيلم الأخير، أو الاسطوانة الأخيرة، أو الرقصة الدارجة، الزيجات أو الانفصالات الكارثية، أو عملية النصب والاحتيال المكتشفة حديثاً، أو فضائح المخدرات والقرون والإيدز الأخيرة. إلى أن جاء يوم ـــ يدا دون ريغوبيرتو تقلبان بسرعة صفحات الدفتر بحثاً عن فقرة مدونة تتوافق مع محصلة الصور التي تتحرك بوضوح في ذهنه المحموم ـــ اكتشفت فيه دونيا لوكريثيا سره. هل اكتشفته حقاً؟ أم أن مانويل رتب الأمر بحيث تعتقد أنها اكتشفته، بينما هي في الواقع لا تفعل أكثر من وضع قدمها في الفخ الذي كان ينصبه لها؟ ماحدث في ذلك اليوم، وبينما هما يشربان الشاي في بيته في حي بلانيثيي، محاطين بأشجار الاوكاليبتوس والغار، أدخل مانويل لوكريثيا إلى مخدعه. والذريعة؟ ليريها صورة من مباراة بالكرة الطائرة في مدرسة سان أنطونيو منذ سنوات طويلة. وهناك التقت هي بالمفاجأة الكبرى. خزانة كاملة من الكتب المخصصة لموضوع الخصاء والخصيان! مكتبة متخصصة! بكل اللغات، وخصوصاً تلك اللغات التي لا يفهمها مانويل الذي لا يعرف إلا الاسبانية بلهجتها البيروية، وبتحديد أكثر: لهجة حي ميرافلوريس وسان ايسيدرو. ومجموعة من الاسطوانات والأقراص المكثفة بمقاربات أو تشابهات مع صوت المغنين

الخصيان!

وقد قالت لدون ريغوبيرتو وهي منفعلة لهذا الاكتشاف:

ـــــ لقد تحول إلى خبير فـــي الموضوع.

واستنتج هو:

ـــــ الأسباب واضحة.

أكان ذلك جزءاً من استراتيجية مانويل؟ واهتز رأس دون ريغوبيرتو موافقاً فـــي الدائرة الصغيرة التي يشكلها ضوء المصباح. بالطبع. لكي يخلق حميمية وعرة، تواطؤاً فـــي المحرمات يتيح له، فـــيما بعد، طلب الخدمة المرهوبة. لقد اعترف لها ـــــ أيكون قد تظاهر وبالحياء أبدى تردد الخجول؟، أجل، هكذا بالضبط ـــــ بأنه منذ الجراحة الفظيعة، بدأ الموضوع يستحوذ على عقله، إلى أن تحول إلى همّ حياته المركزي. فصار عارفاً كبيراً، يمكنه التحاور لساعات حول الأمر، والإحاطة به من جوانبه التاريخية، والدينية، والجسدية، والسريرية، والنفسية. (هل سمع سائق الدراجات النارية السابق شيئاً عن فـــيينيّ المُتَّكأ؟ فـــي السابق لم يكن قد سمع، أما فـــيما بعد فنعم. بل وقرأ شيئاً له، مع أنه لم يفهم كلمة واحدة.) فـــي تلك المحادثات التي كانت تغرقهما كليهما أكثر فأكثر فـــي شراكة حميمة أثناء لقاءات شرب الشاي البريئة ظاهرياً، شرح مانويل للوكريثيا الفرق ما بين الطواشي، وهو نوع إسلامي فـــي الأساس كان يمارس منذ العصور الوسطى مع حراس السراري والحريم باستئصال عضوهم وخصياتهم دون رحمة لتحويلهم إلى متعففـــين، والخصاء بمعناه الغربي، لدى الكاثوليكية

الرسولية الرومانية، والذي يتلخص فـــي حرمان ضحية العملية من خصيتيه التوأمين ـــــ وترك ما سوى ذلك فـــي مكانه ـــــ لأنه لا يراد حرمانه من النكاح، وإنما ببساطة، الحيلولة دون تحول صوت الطفل، عند بلوغه، إلى طبقة صوتية أخرى. وروى مانويل للوكريثيا النادرة، التي احتفلا بها كلاهما، عن المنشد الخصي كورتونا الذي كتب إلى الحبر الأعظم إنوسينسيو الحادي عشر طالباً منه الإذن بالزواج. متذرعاً بأن الخصاء قد تركه سالماً للتسخن. فكتب قداسته، الذي لم يكن فـــيه شيء من البراءة[1]، بخط يده على الطلب: «فليتم خصيه بصورة أفضل». (وقال دون ريغوبيرتو بمرح: «هؤلاء كانوا باباوات»).

هو، هو، مانويل، بطل الدراجات النارية، من كان يتظاهر فـــي دعواته لشرب الشاي بأنه رجل حديث ينتقد الكنيسة، كان قد شرح للوكريثيا أن الخصاء دون دوافع حربية، ولأهداف جمالية، بدأت ممارسته فـــي إيطاليا منذ القرن السابع عشر، وذلك بسبب تحريم الكنيسة لقبول الأصوات النسائية فـــي الطقوس الدينية. وقد نشأت عن هذا الحظر الحاجة إلى التهجين، إلى الذكر ذي الصوت الأنثوي (وهو «صوت ماعزي» أو «زائف» «ما بين المتذبذب والمرتعش» مثلما يوضح الخبير كارلوس غوميث آمات فـــي ملاحظة مدونة فـــي الدفتر) وهو شيء يمكن تصنيعه بعملية جراحية عرضها مانويل بالوصف والتوثيق، ما بين فناجين الشاي والكعك. هناك

---

[1] ـ اسم البابا هو إنوسينسيو Inocencio أي البريء.

الطريقة البدائية، وتتم بتغطيس الأطفال ذوي الأصوات الجيدة في ماء جليدي للحيلولة دون حدوث نزف، ثم دق أعضائهم بحجارة العجن («آي، آي!» صرخ دون ريغوبيرتو، ناسياً الجرذان وبحر المتعة). وهناك الطريقة المتطورة، وهي كالتالي: كان الجراح ــــ الحلاق يخدر الطفل بلودانوم الأفيون، ثم يشق عند أصل الفخذ بسكينه المشحوذة للتو، وينتزع من هناك العدّة الطرية. ما هي التأثيرات التي تخلفها العملية على الأطفال المغنين الذين يبقون أحياء؟ السمنة، واتساع القفص الصدري، وصوت حاد وقوي جداً، وهذا يعني قدرة غير عادية في المد الصوتي دون أخذ نفس إلا لبرهة قصيرة؛ بعض هؤلاء الخصيان، مثل فارينللي، كانوا يستمرون في مد صوتي دون تنفس لأكثر من دقيقة. في سكون ظلمة المكتب، وبصوت البحر كخلفية، كان دون ريغوبيرتو يستمع بتسلية وفضول أكبر من المتعة، إلى تذبذب تلك الحبال الصوتية التي تتطاول في لحن مديد حاد لا ينتهي، مثل جرح طويل في ليل بارانكو. أجل، إنه يشم الآن رائحة لوكريثيا.

«مانويل العملية الجراحية التجميلية، المسمم بالموت»، فكر بذلك بعد قليل، سعيداً بهذه اللقية. ولكنه تذكر في الحال أنه يستذكر قولاً لأحدهم. مسمم بالموت؟ وبينما يداه تبحثان في الدفتر، كانت ذاكرته تعيد تكوين ذلك المحل الضبابي الضيق في النادي الكريولي، حيث أخذته لوكريثيا في تلك الليلة الفريدة. لقد كانت واحدة من ليالي الغرق التاريخية القليلة في عالم اللهو الليلي، في هذا البلد الغريب الذي يبيعه بوليصات تأمين، والذي هو بلده إدارياً،

هذا البلد الذي أقام فـــيه وضده مقاطعته المستقلة، والذي تمكن أن يعرف عنه القليل جداً بجهود متكتمة ولكنها هائلة. ها هي ذي أبيات فالس **الشمم**:

أسمو، مثل الآلهة
سأواصل النضال من أجل قدري
دون أن أصغي إلى الأصوات الهيابة،
أصوات المسممين بالموت.

من دون الجيتار وصوت المغني الذي يكاد يغمى عليه، يضيع شيء من الجرأة الكئيبة والنرجسية لمؤلف الكلمات الرمادي. ولكن الأبيات تحافظ، حتى دون الموسيقى، على العبقرية العامية والفلسفة السحرية. من الذي نظم كلمات هذا الفالس الكريولي «الكلاسيكي»، مثلما وصفته لوكريثيا حين أرادت تقصي ذلك؟ وقد تقصتْ ووجدت اسم ناظمه: إنه تيسكلاياني، واسمه ميغيل باث. تصورَ رجلاً بلدياً خشناً وليلياً، يضع لفاعاً حول رقبته ويعلق جيتاراً فـــي كتفه، ويعزف ألحان السيريناد، ويطلع عليه الفجر فـــي مغاور الفولكلور، ما بين نشارة الخشب والقيء، وتكون حنجرته مجرحة من الغناء طوال الليل. مرحى له على كل حال. فلا باييخو ولا نيرودا[1] مشتركين أنتجا شيئاً يمكن مقارنته بهذه الأبيات التي هي، فضلاً عن ذلك، تنفع للرقص. راودته ضحكة صغيرة ثم عاد يمسك بمانويل

---

[1] ـ أهم شاعرين فـي أميركا اللاتينية فـي العصر الحديث، الأول ثيسر باييخو من البيرو، والثاني بابلو نيرودا من تشيلي.

الجراحة التجميلية، الذي كان يتفلت منه.

بعد محادثات مسائية كثيرة مروية بالشاي، وبعد أن قلب على دونيا لوكريثيا موسوعته المعلوماتية حول الخصيان الأتراك والمصريين، والخصيان النابوليين والرومانيين، أقدم سائق الدراجات النارية السابق («مانويل عملية التجميل الجراحية، مانويل البول الدائم، المبلل، المنقط، مانويل كيس السوائل» ارتجل دون ريغوبيرتو بمزاج كان يتحسن لحظة بعد أخرى) نقول إنه أقدم على الخطوة الكبرى.

ــــ وماذا كان رد فعلك حين أخبركِ بذلك؟

كانا قد شاهدا للتو فـــي تلفزيون غرفة النوم فـــيلم **صدور**، وهو ميلودراما جميلة لفـــيسكونتي، وكان دون ريغوبيرتو يُجلس زوجته على ركبتيه، هي بقميص النوم وهو بالبيجاما.

وردت دونيا لوكريثيا:

ــــ أصبتُ بالبلادة. أتظن أن ما قاله ممكن؟

ــــ إذا كان قد قاله وهو يحطم يديه ويبكي، فلا بد أن يكون ممكناً. ولماذا سيكذب عليك؟

ــــ لم يكن هناك أي سبب بالطبع ــــ خرخرت وهي تتلوى ــــ إذا ما واصلت تقبيلي هكذا من العنق فسوف أصرخ. ما لا أفهمه هو لماذا أخبرني بذلك.

ــــ إنها الخطوة الأولى ــــ وكان فم دون ريغوبيرتو يتسلق الرقبة الدافئة حتى وصل إلى الأذن، فقبلها أيضاً، ثم أضاف: ــــ وفـــي الخطوة التالية، سيطلب منك أن تسمحي له بأن يراك، أو أن

يسمعك على الأقل.

ـــ لقد روى لي ذلك لأنه سيشعر بالتحسن إذا ما أخبر أحداً بسره ـــ حاولت دونيا لوكريثيا أن تبعده عنها فاضطرب نبض دون ريغوبيرتو، وأضافت هي: ـــ فمعرفته بأنني أصبحت أعرف، جعله يشعر بأنه أقل وحدة.

وألح زوجها على تقبيل أذنها ببطء:

ـــ أتراهنين بأنه سيعرض عليك ذلك فـي دعوة الشاي التالية؟

انتفضت دونيا لوكريثيا من بين ذراعيه، مقررة أن تقبله أيضاً:

ـــ عندئذ سأغادر بيته وأصفق الباب. ولن أعود لزيارته مطلقاً.

لم تفعل شيئاً من كل هذا. فقد طلب منها مانويل الجراحة التجميلية ذلك بكثير من المذلة والعبودية وبكاء الضحية، وبكثير من الاعتذار واللين، فلم تملك الشجاعة (ولا الرغبة أيضاً؟) فـي إغضابه. أقالت له «هل نسيت بأنني سيدة متزوجة ومحترمة؟» لا. وهل قالت «إنك تستغل صداقتنا وتحطم فكرتي الطيبة عنك»؟ أيضاً لا. لقد اكتفت بطمأنة مانويل الذي كان شاحباً، خجلاً، يتوسل إليها ألا تسيء به الظن، وألا تغضب، وألا تحرمه من صداقتها العزيزة على قلبه. إنها عملية عالية الاستراتيجية وناجحة، ذلك أن لوكريثيا المشفقة على كل هذه الدراما النفسية، عادت لتناول الشاي معه ـــ أحس دون ريغوبيرتو بإبر وخز صينية فـي صدغيه ـــ وانتهى بها الأمر إلى إرضائه. لقد سمع المسممُ بالموت تلك الموسيقى

الفضية، لقد تضمخ بإيقاع ذلك السائل المتدفق. هل سمع فقط؟ ألم يتفرج أيضاً؟

فاعترضت لوكريثيا وهي تلجأ إليه وتكلمه في صدره:

ـــ أقسم لك أن لا. لقد فعلت ذلك في الظلمة التامة. كان هذا هو شرطي. وقد نفذه. وسمع.

كانا قد شاهدا وهما في الوضع نفسه شريط فيديو لكارمينا بورانا في أوبرا برلين، من إخراج سيجي أوساوا وكورال بكين.

ـــ هذا ممكن ـــ رد عليها دون ريغوبيرتو، وكانت مخيلته تتخيل الكلمات اللاتينية تتعالى من أفراد الكورال (أهناك خصيان أيضاً بين هؤلاء الكوراليين ذوي العيون الضيقة؟) وأضاف: ـــ ومن الممكن أيضاً أن تكون قدرة مانويل البصرية قد تطورت بصورة استثنائية. ومن الممكن أنه كان يراكِ بينما أنت لا ترينه.

وواصلت دونيا لوكريثيا النقاش، ولكن دون قناعة كبيرة الآن:

ـــ إذا بدأنا بوضع التكهنات، فكل شيء يصير ممكناً. ولكن، حتى إذا كان قد رأى، فإن ما رآه لا يكاد يكون شيئاً يذكر.

كانت الرائحة هناك ولم يكن ثمة مجال للشك: مجيدة، حميمية، بحرية بعض الشيء مع ذكرى فاكهية. أغمض عينيه وتنشقها بشراهة بفتحتي أنفه الواسعتين. وفكر بحنان: «إنني أشم روح لوكريثيا». انسكاب ذلك التدفق المرح في مقعد المرحاض لم يكن يطغى على الرائحة، وكان لا يكاد يضفي إلا لمسة فسيولوجية خفيفة على ما كان شذى خفياً، رطوبة غددية، رشحاً غضروفياً، إفراز عضلات يتكاثف ويختلط في تضوع كثيف،

باسل، منزلي. فتذكر دون ريغوبيرتو أبعد لحظات طفولته ـــــ عالم من الحفاضات والبودرة، من القيء والبراز، من الكولونيا وقطع الإسفنج المبللة بماء دافئ، وثدي عجيب ــــ وليالي تشابكه مع لوكريثيا. آه، أجل، كم يفهمُ الآن جيداً سائقَ الدراجات النارية المبتور. ولكن، لم يكن بحاجة إلى أن يكون متنافساً فـــي سباق فارينيللي ولا أن يمر بمعاملة العملية الجراحية لكي يستوعب هذه الثقافة، ويتحول إلى هذه الديانة، وأن يشعر، مثل المتسمم مانويل، ومثل أرمل نيرودا، ومثل كثيرين من مجهولي السمع والشم والخيال (فكر برئيس وزراء الهند، التسعيني رارجي ديساي، الذي كان يقرأ خطاباته مع توقفات ليشرب رشفات من بوله؛ «آي، لو أنه كان بول زوجته!»)، وأن يشعر بأنه ينتقل إلى السماء وهو يرى ويسمع كائنه المحبوب يقدم إليه هذا الطقس مقرفصاً أو جالساً، بمظهر غير مبال، عملي، لتفريغ مثانتة، يسمو إلى استعراض، إلى رقصة غرامية، إلى مقدمة أو إلى ملحق (وبالنسبة إلى مقطوع الرأس مانويل، إلى مكافئ) لعملية ممارسة الحب. امتلأت عينا دون ريغوبيرتو بالدمع. فقد أعاد اكتشاف ليل بارانكو الصافـــي والوحدة التي هو فـــيها ما بين لوحات وكتب الانغلاق على الذات.

ــــ لوكريثيا الحبيبة، بحق أحب شيء إليك ــــ ترجى، توسل، مقبلاً شعر حبيبته المفلت ــــ بولي من أجلي أنا أيضاً.

ــــ أولاً، يجب أن أتأكد من أن الحمام سيكون مظلماً تماماً بعد إغلاق الأبواب والنوافذ ــــ قالت دونيا لوكريثيا ببراغماتية منفذ الوصايا ــــ. وعندما تحين اللحظة، أناديك. فتدخل دون ضجة،

حتى لا تقطعني. وتجلس فـــي الركن. لا تتحرك ولا تنطق بكلمة. فـــي أثناء ذلك تكون أربع كؤوس الماء قد بدأت مفعولها. لا أريد أي صوت، ولا أي نفس، ولا أي حركة يا مانويل. فإذا حدث غير ذلك سأذهب ولن أدوس هذا البيت بعدها. يمكنك أن تبقى فـــي ركنك ريثما أمسح وأرتب ثوبي. وفـــي لحظة الخروج، تستطيع أن تقترب، زاحفاً، وتقبل قدميّ شاكراً.

وهل فعل ذلك؟ بكل تأكيد. لقد زحف نحوها على الأرض المبلطة وقرّب فمه من حذائها بامتنان كلبي. بعد ذلك سيغسل يديه ووجهه، وعيناه مضمختان، ويذهب للقاء لوكريثيا فـــي الصالة، وسيقول لها، راشياً، إنه لا يجد كلمات الشكر المناسبة، وإن ما فعلته من أجله هو سعادة لا تقدر. وبعد أن يثقل عليها بالإطراء، سيخبرها بأنه كان فـــي الواقع هكذا منذ صغره، وليس منذ سقوطه فـــي الوهدة. وأن الحادث قد أتاح له أن يظهر أن مصدر متعته الوحيد هو ما كان يسبب له خجلاً كبيراً ويخفـــيه عن الآخرين وعن نفسه. لقد بدأ كل شيء وهو طفل صغير، حين كان ينام فـــي غرفة أخته الصغيرة، وكانت المربية تنهض فـــي منتصف الليل لتُفرغ سوائلها. لم تكن تزعج نفسها بإغلاق الباب، فكان يسمع بوضوح الدفق الهامس، البلوري، المتردد، الذي كان يهدل له ويُشعره بأنه ملاك فـــي السماء. لقد كان ذلك الصوت هو الأجمل، والأكثر موسيقى، والأشد نداوة بين ذكريات طفولته. إنها تفهمه، أليس كذلك؟ لوكريثيا العظيمة تفهم كل شيء. لا شيء يُفزعها فـــي لفافة متاهة النزوات البشرية المتشابكة. مانويل يعرف ذلك، ولهذا يقدرها، ولهذا تجرأ

أيضاً على الطلب منها. ولولا مأساة الدراجة النارية لما كان طلب شيئاً من ذلك على الإطلاق. لأن حياته كانت، حتى طيران دراجته نحو الهاوية الصخرية، مجرد كابوس فـيما يتعلق بالحب والجنس. فما كان يلهبه هو شيء لم يتجرأ يوماً على طلبه من الفتيات المحترمات، وإنما كان يقتصر على مفاوضة المومسات بشأنه. وكم من الإذلال كان يتحمل، رغم أنه كان يدفع المقابل، وكم من الضحك، والسخرية، والنظرات المزدرية أو المستهزئة التي كانت تربكه وتُشعره بأنه مجرد قمامة.

وكان هذا هو السبب الذي دفعه إلى قطع علاقته بعشيقات كثيرات. فجميعهن لم يتوصلن إلى منحه هذه الجائزة الاستثنائية التي منحته إياها دونيا لوكريثيا: دفقة البول. وهزت دون ريغوبيرتو قهقهة مشفقة. يا للتعيس البائس! من كانت تستطيع أن تتصور، بين الجميلات اللواتي يخرجن، ويضحكن، ويعشقن النجم الرياضي، بأن سائق الدراجة النارية المتألق، لا يريد مداعبتهن، أو تعريتهن، أو تقبيلهن، أو اختراقهن: وإنما يريد سماعهن وهن يتبولن وحسب. ولوكريثيا النبيلة العظيمة قد تبولت من أجل مانويل المنكوب! هذا التبول سيبقى مطبوعاً فـي ذاكرته مثل المآثر البطولية فـي كتب التاريخ، ومثل معجزات القديسين. لوكريثيا، الاسم الروماني الذي يعني المحظوظة! لوكريثيا؟ وقلبت يداه صفحات الدفتر بسرعة، ولم تتأخر الإشارة فـي الظهور:

«لوكريثيا، سيدة رومانية، مشهورة بجمالها وفضائلها. اغتصبها سيكستو تاركينو، ابن الملك تاركينو المتكبر. وبعد أن أخبرت أباها

وزوجها بالإهانة وحرضتهما على الثأر لها، قتلت نفسها أمامهما بغرس خنجر فـــي صدرها. وقد أدى انتحار لوكريثيا إلى طرد ملوك روما وإقامة الجمهورية فـــي العام 509 قبل الميلاد. وقد تحولت صورة لوكريثيا إلى رمز للحياء والشرف، وصارت رمزاً للزوجية الشريفة قبل كل شيء.»

«إنها هي، إنها هي نفسها»، فكر دون ريغوبيرتو. فزوجته يمكن لها أن تثير كوارث تاريخية وأن تُخَلَّد كرمز. أتكون رمزاً للزوجة الشريفة؟ أجل بالطبع، طالما لم نفهم الشرف بمعناه المسيحي. فأي زوجة كانت ستشاطر زوجها تخيلاته مثلما فعلت هي؟ ولا واحدة. وماذا عن مسألة فونتشيتو؟ حسن، من الأفضل الالتفاف حول هذه الرمال المتحركة. ثم، ألم يبق كل شيء ضمن الأسرة؟ وهل فعلت هي ما فعلته تلك المرأة الرومانية حين اغتصبها سيكستو تاركينو؟ واخترق جليد قلب دون ريغوبيرتو. وسعى بتكشيرة مرعبة إلى استبعاد صورة لوكريثيا ملقاة على الأرض وخنجر مغروس فـــي قلبها. ولكي يتجنب تلك الصورة، استعاد صورة سائق الدراجة النارية المبهور باستقطارات المثانات الأنثوية. أهي الأنثوية وحدها؟ أم الذكرية أيضاً؟ هل يتهيج بالطريقة نفسها لمشهد رجل يتبول؟

ــــ على الإطلاق ــــ اعترف مانويل فوراً، وقال ذلك بنبرة شديدة الصدق لم تجد لوكريثيا معها بداً من تصديقه.

حسن، ولا يمكن أن يكون صحيحاً كذلك أن حياته قد كانت مجرد كابوس بسبب تلك الحاجة (وكيف نسميها إذا لم نقل تلك

الرذيلة؟) فعلى الرغم من المشهد القاحل لعدم الرضا والخيبة، كانت هناك لحظات بلسمية جياشة، توفرها المصادفة على الدوام تقريباً، إنها تعويضات متواضعة لكربه. فمثلاً، تلك الغسالة التي يتذكر مانويل وجهها بالعاطفة التي يتذكر بها الخالات أو العرابات الأكثر ارتباطاً بدفء الطفولة. كانت تأتي لتغسل الملابس مرتين كل أسبوع. ولا بد أنها كانت مصابة بالتهاب المثانة، لأنها كانت تهرع طوال الوقت من وراء حوض الغسيل أو طاولة الكوي إلى مرحاض الخدم المجاور للمطبخ. وهناك يكون الطفل مانويل، مستعداً على الدوام، متسلقاً السقيفة، ووجهه ملتصق بالأرضية، وشاحذاً سمعه. ويأتي الكونشيرتو، الشلال المتدفق الغزير، الطوفان الحقيقي. لقد كانت تلك المرأة مثانة كروية، خزاناً حياً، بالنظر إلى حدة، وغزارة، وتعدد، ورنين تبولاتها. في إحدى المرات ـــ ورأت دونيا لوكريثيا حدقتي سائق الدراجة النارية الابتر تفضحان تلذذهما ـــ، رآها مانويل. أجل، رآها. حسن، لم يرها كلها. ففي عملية جريئة من خلال سياج الحديقة، تسلق حتى منور المرحاض، وبينما هو معلق في الهواء لثوان لذيدة، لمح كتلة الشعر، والكتفين، والساقين بجوربيها الصوفيين، والحذاء الذي دون كعب للمرأة الجالسة وهي تنزح سوائلها بصخب ودون مبالاة. آي، يا للسعادة!

وهناك أيضاً تلك الأمريكية الشقراء والبرونزية التي فيها شيء من الرجولة، فقد كانت تمضي على الدوام بجزمة وقبعة رعاة بقر، وقد جاءت للمشاركة في سباق الدوران حول جبال الأنديز. وكانت سائقة دراجة نارية جريئة كادت أن تكسب تلك البطولة.

ولكن مانويل لا يتذكر كثيراً مهارتها على الدراجة (وهي من ماركة هارلي دافـيسون بالطبع) وإنما يتذكر أساليبها غير الحذرة، وعدم تصنعها، مما كان يتيح لها بعد كل مرحلة فـي السباق، أن تشارك المتسابقين فـي غرف النوم، وأن تستحم أمامهم إذا لم يكن هناك سوى حمام واحد، بل وكانت تدخل إلى المرحاض لقضاء حاجتها دون ارتباك إذا كان هناك فـي الغرفة نفسها عدد من المتسابقين، يفصلهم عنها حاجز رقيق. يا لتلك الأيام! لقد عاش مانويل فرفرة مزمنة، وانتصاب مديد فـي العضو الذي ذهب، وهو يستمع إلى تلك الاستنزافات السائلة للمتحررة ساندي كانل التي حوّلت تلك المنافسة إلى حفلة متواصلة بالنسبة إليه. ولكن لم يكن هناك مجال لمقارنة الغسالة ولا ساندي كانل ولا أي واحدة أخرى من التجارب العرضية أو الارتزاقية لميثولوجياه بالمتعة الفائقة التي أحس بها الآن، وبالمَنّ البولي الذي أشعرته فـيه لوكريثيا بأنه إله.

ابتسم دون ريغوبيرتو راضياً. لم يكن هناك أي جرذ فـيما حوله. فمعبد كارنيجي، وبراهمته، وجيوش القوارض وصواني الحساء الحلو كانت كلها فـيما وراء محيطات وقارات وغابات. وهو هنا، وحيداً فـي الليل الذي بدأ ينتهي، فـي ملجئه ذي اللوحات والدفاتر. كانت تباشير الفجر قد بدأت تطل فـي الأفق. واليوم سيتثاءب أيضاً فـي المكتب. أهناك رائحة ما؟ رائحة الأرملة كانت قد تلاشت. ثمة رائحة؟ إنها الأمواج، وضاع بينها رنين سيدة تتبول.

وفكر باسماً:

«أنا رجل لا يغسل يديه بعد التبول، وإنما قبله».

قائمة طعام مصغرة

أعرف أنك تحب أن تأكل القُلَيِّل والصُحيحي، شرط أن يكون لُذَيِّذاً، وأنا جُويهزة لأن أرضيك أيضاً على الموبئدة.

سأذهب فـــي الصُبَيْحة إلى السوق وأشتري الحُليبات الأكثر طزاجة، والخُبيزات الناضجة للتو، والبُرتقيلات الأكثر رحيقاً. وسأوقظك وأنا أحمل طُبيقات الفطور، وزُهيرة عابقة ومعها قُبَيلة. «ها هو عصيرك دون بُذيرات، وخُبيزك المحمص مع مُريميلات الفريز وفُنيجان قهيوتك مع الحليب دون سُكيكرات يا سُيَيّدي.»

ومن أجل غدائك، سُليطة ولبن فقط، مثلما يروقك. سأغسل الخُسيسات حتى تلمع، وأقطع الطُيمطمات بفنية، مستلهمة لُويحات مكتبتك. وأتبلها بزُييت وخُلَيل وقُطيرات من لعابي، وبدلاً من المُليح سأكسب دُميعاتي.

وفـــي الليالي، سأعد كل يوم إحدى أُكيلاتك المفضلة (لدي قوائم وُجيبات لسُنيّة كاملة، دون أن أكرر ولو مُريرة واحدة). يوكيثيتو مع المُرَيقة، فاصولياء مصفاة، بيبانثيتو، سُلَيْطة بطاطا وبيض مسلوق مع الزيتون، خضار مشكلة، وشُريحات فـــيليه مع قُطيرات من نبيذ تشابيليتو، شُريحات على طريقة تشوريانا، سُميك كورفـــينا مطبوخ، سُليطة البطاطا المسلوقة مع القريدس، أو قريدس على طُريقة ليما،

رز مع البط، رز مغطى، تاكوتاكوثيتو، روكوتو محشو، ودجاج بالثوم. ولكن، من الأفضل أن أتوقف، حتى لا أفتح شهيتك. وسيكون هناك بالطبع كؤيس نبيذك أو بيرتك الباردة جيداً لتختار.

أما الحلوى، فستكون غوارغوريتو الجدة، تنهدات على طريقة ليما، فُطيرات مقلية بالعسل، وكعيكات بالعسل، وزلابية، وفصوص الراهبة، وعجينة اللوز بالسكر، وحلوى الجبن المجمد، والعسل المطبوخ والمجمد، وحلوى حبيبات اللوز على طريقة دونيا بيبا، والعصيدة وفطائر التين مع الكُعَيك.

هل تقبلني طاهية لديك؟ إنني نظيفة، فأنا أستحم مرتين في اليوم على الأقل. لا أمضغ عُليكات، ولا أدخن سُويجرات، ولا توجد شُعيرات تحت إبطي، ويداي وقدماي تامة مثل نهدي وطوطي. ومستعدة لأن أعمل كل الساعات اللازمة لأُسعد ذُويقك وبُطينك. وإذا اقتضى الأمر، فأنا مستعدة لأن أُلبسك، وأُصوبنك، وأحلق ذُقَنك، وأقلم أظفارك وأنظفك عندما تفعل يوم الاثنين. وفي الليالي، أغطيك بجُسيدي حتى لا تصيبك البردية في السرير. وفضلاً عن إعداد طعامك، سأكون حاميتك، ومدفأتك، وآلة حلاقتك، ومقصك، وورقتك الصحية.

هل تقبلني يا سيدي؟

لك، لك، لك،

الطاهية الكاملة.



VI. الرسالة المغفلة

بدل أن تغضب، مثلما حدث فـــي الليلة السابقة حين ذهبت إلى الفراش وهي تحمل الورقة المجعدة فـــي قبضتها، استيقظت دونيا لوكريثيا بمزاج طيب وراضية. كان يسري فـــيها إحساس شهواني خفـــيف. مدت يدها وتناولت الورقة الحُبيبية ذات اللون الأزرق الشاحب، ولطيفة الملمس.

«قبالة المرآة، فوق سرير أو أريكة...» لديها سرير، ليس من حرير الهند المنقوش يدوياً ولا من الباتيك الإندونيسي، وهكذا لن تنجز هذا المطلب الغرامي الذي دون وجه. أجل، يمكنها أن ترضيه بالاستلقاء على ظهرها، عارية، مفلتة الشعر، وتجذب ساقها، وتبعد

رأسها مفكرة أنها **دانابيه** لكلميت (وإن كانت لن تصدق ذلك) وتتظاهر بأنها نائمة. ويمكنها بكل تأكيد أن تنظر إلى نفسها فـــي المرآة وهي تقول : «إنني مثيرة متعة وتقدير، إنني محط حلم ومحبوبة». وبابتسامة ساخرة وعينين تلمعان كحشرتين مضيئتين تعكسهما مرآة خوان الزينة، أزاحت الملاءات ولعبت لعبة مواصلة تنفــيذ التعليمات. ولكن، بما أنها لم تكن ترى سوى نصف جسدها، فإنها لم تعرف إذا ما كانت ستتوصل إلى بعض التشابه فـــي محاكاة لوحة كليمت التي بعثها إليها المراسل الشبح فـــي صورة سيئة على بطاقة بريدية.

وبينما هي تتناول الفطور، وتتحدث ساهية مع خوستينيانا، ثم وهي تحت الدوش بعد ذلك، وفـــي أثناء ارتداء ثيابها رازت مرة أخرى الأسباب لإعطاء اسم ووجه لمرسل الرسالة. أهو دون ريغوبيرتو؟ فونتشيتو؟ وماذا إذا كان أمراً حاكاه كلاهما؟ يا لهذا الخاطر السخيف! لا، هذه فكرة لا رأس لها ولا أساس. المنطق يجعلها تميل إلى التفكير بريغوبيرتو. إنها طريقة لجعلها تعرف بأنها، على الرغم مما حدث ومن انفصالهما، ما تزال حاضرة على الدوام فـــي هذياناته. إنها طريقة لسبر إمكانية المصالحة. لا. فقد كان ما جرى شديد القسوة عليه. لن يستطيع أن يصالح مطلقاً المرأة التي خدعته مع ابنه بالذات، وفـــي بيته بالذات. فهذه الدودة الزنخة، هذا الاعتداد بالنفس، يمنعه من ذلك. إذا لم يكن زوجها السابق إذن هو مرسل الرسالة المغفلة، فإن مرسلها هو فونتشيتو. أليس مهووساً بالرسم مثل أبيه؟ أليس لديه العادة الجيدة والسيئة نفسها بخلط حياة

اللوحات مع الحياة الحقيقية؟ أجل، إنه هو. وقد كشف نفسه كذلك، بذكره كليمت. ستجعله يعرف أنها تعرف وتحرجه. هذا المساء بالذات.

بدت ساعات الانتظار طويلة جداً لدونيا لوكريثيا. كانت تجلس فـــي صالة الطعام، تنظر إلى الساعة، خائفة أن يتخلف عن المجيء فـــي هذا اليوم بالذات. «رباه، تبدين يا سيدتي وكأن حبيبك سيأتي لزيارتك أول مرة»، قالت خوستينيانا ذلك مازحة. فتوردت هي حياء بدل الاحتفال بالمزحة. ما إن ظهر بوجهه الجميل وجسده الرقيق المحشور فـــي الزي المدرسي المشعث، حتى رمى حقيبته على السجادة وحياها بقبلة على خدها، فوجهت إليه دونيا لوكريثيا هذا التحذير:

ـــــ علينا أن نتحدث فـــي أمر مهم أيها الرجل الصغير.

رأت الملامح المستسلمة والعينين الزرقاوين تنفتحان قلقتين. كان قد جلس قبالتها، مقاطعاً ساقيه. ولاحظت دونيا لوكريثيا أن رباط إحدى فردتي حذائه كان مفلتاً.

ـــــ عمَّ سنتحدث يا خالتي؟

ـــــ عن شيء قبيح جداً ـــــ رددت وهي تريه الرسالة والبطاقة البريدية ـــــ عن أكثر الأشياء خسة وقذارة فـــي الوجود: إرسال رسائل مغفلة.

لم يتلعثم الطفل ولم يحمر وجهه ولم يرمش. بقي ينظر إليها بفضول، دون أدنى تململ. فمدت إليه الرسالة والبطاقة البريدية ولم ترفع عينيها عنه، بينما كان فونتشيتو يكتسي بالجدية، وطرف لسانه

بين أسنانه، وهو يقرأ الرسالة المغفلة كمن يتهجى. وكانت عيناه المتيقظتان تعودان إلى السطور مرة بعد أخرى.

ـــ هناك كلمتان لا أفهمهما ـــ قال أخيراً، وهو يحيطها بنظرة شفافة ـــ. هيلينية و*باتيك*. هناك فتاة في معهد الرسم تدعى هيلينة. ولكن الكلمة مستخدمة هنا بمعنى آخر، أليس كذلك؟ وكلمة *باتيك* هذه لم أسمع بها مطلقاً من قبل. ما معناها يا خالتي؟

انزعجت دونيا لوكريثيا:

ـــ لا تتظاهر بالحماقة. لماذا كتبت لي هذه الرسالة؟ أكنت تظن أنني لن أنتبه إلى أنك أنت الفاعل؟

أحست بشيء من الضيق لحيرة فونتشيتو التي بدت واضحة الآن، فبعد أن حرك رأسه مرتين بحيرة، أعاد رفع الرسالة إلى عينيه ليقرأها، محركاً شفتيه بصمت. وأحست بالمفاجأة تماماً حين رفع الطفل رأسه، ورأت ابتسامته تمتد من إحدى أذنيه إلى الأخرى. فقد رفع ذراعيه بسعادة غامرة، وقفز نحوها وعانقها مطلقاً صرخات الانتصار:

ـــ لقد كسبنا يا خالتي! ألم تلاحظي ذلك؟

فأبعدته جانباً:

ـــ وما الذي سألاحظه أيها الجني الصغير.

كان ينظر إليها برقة، مشفقاً عليها:

ـــ ولكن، يا خالتي.. إنها خطتنا. إنها تنجح. ألم أقل لك إنه لا بد من جعله يحس بالغيرة؟ ابتهجي، إننا نتقدم جيداً. ألا تريدين المصالحة مع أبي؟

ترددت دونيا لوكريثيا:

ـــــ لست متأكدة بأي حال أن هذه الرسالة المغفلة هي من ريغوبيرتو. بل إنني كنت أشك بأنها منك أيها الذبابة الميتة.

صمتت، لأن الطفل كان يضحك وهو ينظر إليها بالأريحية الحانية التي يحتاج إليها فقراء الروح.

ـــــ ألا تعرفـــين أن كليمت كان أستاذ إيغون شيلي؟ ـــــ هتف فجأة، مستبقاً سؤالاً كان على شفتيها ـــــ وأن شيلي كان يقدره. وقد رسمه وهو على فراش الموت. لوحة جميلة بالفحم، **احتضار**، فـــي عام 1912. ورسم فـــي السنة نفسها لوحة «**النساك المتعبدون**»، حيث يظهر هو وكليمت بمسوح رهبان.

ـــــ إنني مقتنعة بأنك قد كتبتها أنت أيها الصبي العجوز الذي يعرف كثيراً ـــــ عادت دونيا لوكريثيا إلى ثورتها، وكانت تشعر بأنها موزعة بين تكهنات متناقضة وكان يستفزها وجه فونتشيتو المطمئن وهو يتحدث سعيداً جداً من نفسه.

ـــــ ولكن يجب أن تفرحي يا خالتي بدل أن تسيئي التفكير هكذا. هذه الرسالة أرسلها لك أبي لكي تعرفـــي أنه قد سامحك، وأنه يريد المصالحة. كيف لم تنتبهي إلى ذلك.

ـــــ هراء. هذه رسالة مغفلة سفـــيهة وقذرة بعض الشيء، وليست أكثر من هذا.

فاعترض الطفل بحرارة:

ـــــ لا تكوني جائرة إلى هذا الحد. إنه يقارنك بلوحة لكليمت، يقول إنه حين رسم هذه الفتاة كان يحزر كيف ستكونين. أين هي

القذارة؟ إنه غزل جميل. وهي طريقة بحث عنها أبي لإعادة الاتصال بك. هل ستردين عليه؟

ـــ لا يمكنني أن أرد عليه، فهو لا يشير بأي حال إلى أنه هو.

ـــ وكانت دونيا لوكريثيا الآن أقل ارتياباً. أيريد مصالحتي حقاً؟

وكرر الطفل بسعادة:

ـــ ها أنت ترين، جعله يشعر بالغيرة يؤدي الهدف بصورة رائعة. منذ أن قلت له إنني رأيتك تتأبطين ذراع رجل وهو يتصور أموراً. لقد ارتعب كثيراً إلى حد أنه كتب لك هذه الرسالة. الستُ تحرياً جيداً يا خالتي؟

قاطعت دونيا لوكريثيا ذراعيها مفكرة. فهي لم تكن تتطلع على الإطلاق بجدية إلى فكرة المصالحة مع ريغوبيرتو. لقد سايرت فونتشيتو فـــي خطته لتتسلى. وفجأة، وللمرة الأولى، لم تعد فكرة المصالحة تبدو لها وهماً بعيد المنال، وإنما شيء يمكن أن يحدث. أهذا ما تريده؟ أتعود إلى البيت فـــي بارانكو، مجددة الحياة السابقة؟

وألح الطفل:

ـــ ومن سوى أبي يمكنه مقارنتك بلوحة لكليمت. ألا ترين ذلك؟ إنه يذكرك بألعاب اللوحات التي كنتما تمارسانها فـــي الليالي.

أحست دونيا لوكريثيا بأنها تختنق.

ـــ ما الذي تقوله ـــ تلعثمت، دون أن تكون لديها القوة على تكذيبه.

فرد الطفل مومئاً:

ـــ ولكن، يا خالتي. تلك الألعاب. حين كان يقول لك: أنت

اليوم كليوباترا، واليوم فـــينوس، واليوم أفروديت. وتبدئين أنت بمحاكاة اللوحات لكي ترضيه.

ـــــ ولكن، ولكن ـــــ فـــي ذروة الخجل الخانق لم تكن دونيا لوكريثيا قادرة على إبداء الغضب، وكانت تشعر بأن كل ما تقوله يكشفها أكثر: ـــــ من أين تأتي بهذا الكلام، لديك مخيلة شديدة الانحراف، وشديدة.. شديدة...

فأجهز عليها الطفل:

ـــــ أنتِ نفسك أخبرتني بذلك. يا لعقلك يا خالتي. هل نسيتِ؟

أصابها البكم. هي التي قالت له ذلك؟ حكّت ذاكرتها، ولكن دون جدوى. لا تتذكر أنها تناولت هذا الموضوع مع فونتشيتو ولو بطريقة غير مباشرة. لم تفعل ذلك مطلقاً، طبعاً لم تفعل. ولكن، كيف عرف؟ أيكون ريغوبيرتو قد باح له بأسراره؟ مستحيل. فريغوبيرتو لا يحدث أحداً حول تخيلاته ورغباته. بل إنه لم يكن يتحدث معها هي نفسها فـــي ذلك، خلال النهار. لقد كانت قاعدة حافظا عليها طوال عشر سنوات من الحياة الزوجية؛ فليس هناك أي إشارة، لا بالمزاح ولا بالجد، خلال النهار لما يقولانه ويفعلانه فـــي الليل سراً فـــي مخدعهما. حتى لا يمتهنا الحب ويحافظا على هالته السحرية، المقدسة، كما كان يقول ريغوبيرتو. تذكرت دونيا لوكريثيا الأزمنة الأولى لزواجهما، حين بدأت تكتشف الجانب الآخر من حياة زوجها، وتلك المحادثة عن كتاب جوهان هوزينغا «**الإنسان الضاحك**»، أحد أول الكتب التي رجاها أن تقرأها، مؤكداً لها أن فـــي فكرة اتخاذ الحياة لعبة وفكرة الحيز المقدس يوجد مفتاح

سعادتها المستقبلية. وفكرت: «تبين أن الحيز المقدس هو الفراش». وقد كانا سعيدين، يلعبان هذه الألعاب الليلية التي كانت تذهلها فقط فـــي البدء، ولكنها راحت تسيطر عليها شيئاً فشيئاً وتبهّر أيامها ـــــ لياليها ـــــ بخيال متجدد على الدوام. إلى أن جاءت حماقتها مع هذا الطفل.

ـــــ من يضحك وحده، يكون قد تذكر شقاواته. ـــــ أخرجها من شرودها صوت خوستينيانا الطازج التي أحضرت صينية الشاي

ـــــ مرحباً يا فونتشيتو.

ـــــ لقد كتب أبي رسالة إلى الخالة وقريباً سيتصالحان. مثلما قلت لك يا خوستيتا. هل صنعتِ لي بسكويتاً؟

ـــــ بسكويت محمص مع الزبد ومربى الفريز ـــــ والتفتت خوستينيانا إلى دونيا لوكريثيا وهي تفتح عينيها: ـــــ هل ستتصالحين مع السيد؟ هل سنعود ثانية إلى بارانكو إذاً؟

ـــــ مجرد حماقات. ألا تعرفـــينه؟ ـــــ قالت السيدة لوكريثيا.

واحتج فونتشيتو وهو ينقض على البسكويت بينما دونيا لوكريثيا تسكب له الشاي:

ـــــ سنرى إذا كانت حماقات. هل تراهنين؟ ماذا ستعطينني إذا ما تصالحتِ مع أبي؟

فقالت السيدة لوكريثيا بخضوع:

ـــــ لقمة محروقة. وماذا ستعطيني أنت إذا خسرت؟

فضحك الطفل وهو يغمز بعينه:

ـــــ قبلة.

وأطلقت خوستينيانا قهقهة عالية:

ــــ من الأفضل أن أذهب وأترك العاشقين وحدهما.

ــــ اصمتي أيتها المجنونة. أنبتها دونيا لوكريثيا، حين لم يعد بإمكان الفتاة التي ابتعدت أن تسمعها.

شربا الشاي بصمت. كانت لوكريثيا مشبعة بذكريات حياتها مع ريغوبيرتو، متألمة لحدوث ما حدث. فهذه القطيعة لا سبيل إلى إصلاحها. لقد كان ما حدث فظيعاً، ولم يعد يحتمل التراجع. وهل ستكون حياة الثلاثة معاً فـــي البيت نفسه ممكنة؟ وفـــي هذه اللحظة خطر لها أن يسوع المسيح قد أذهل حكماء الهيكل وهو فـــي الثانية عشرة حين حاورهم محاورة الند للند فـــي شؤون لاهوتية. أجل، ولكن فونتشيتو ليس طفلاً معجزة مثل يسوع المسيح. إنه مثل إبليس، أمير الظلمات. ليست هي، وإنما هو، هو، الطفل المزعوم من يتحمل الذنب فـــي كل هذه القصة.

وأخرجها الطفل من خيالها:

ــــ أتعرفـــين أن هناك أشياء أخرى أتشابه فـــيها مع إيغون شيلي؟ فأنا وهو مصابان بالشيزوفرينيا.

لم تستطع كبح قهقهتها. ولكن الضحكة انقطعت فجأة، لأنها أحست كما فـــي المرات الأخرى، بأنه قد يضيف شيئاً غائماً وراء ما يبدو شبيهاً بعبارة طفولية.

ــــ وهل تعرف أنت ما هي الشيزوفرينيا؟

فبدأ فونتشيتو بترتيل درس محفوظ، بمبالغة:

ــــ هي أن تكوني شخصاً واحداً وتظنين نفسك شخصين

مختلفـــين أو أكثر. لقد شرح لي أبي ذلك الليلة.

فدمدمت دونيا لوكريثيا:

ـــــ حسن، يمكن أن تكون كذلك. لأن فـــيك عجوزاً وطفلاً. ملاكاً وشيطاناً. وما علاقة هذا بإيغون شيلي؟

وتمدد وجه فونتشيتو مرة أخرى بابتسامة راضية. وبعد أن تلعثم بسرعة «انتظري يا خالتي»، بحث فـــي حقيبته عن كتاب اللوحات الذي لا يغيب. أو بالأحرى الكتب، لأن السيدة لوكريثيا تتذكر بأنها رأت ثلاثة كتب على الأقل. هل يحمل واحداً منها على الدوام فـــي حقيبته؟ إنه يتجاوز الحد فـــي نزوته بالتطابق فـــي كل شيء وطوال الوقت مع هذا الرسام. لو كان لها اتصال بريغوبيرتو لاقترحت عليه أخذه إلى طبيب نفساني. ولكنها ضحكت على الفور من نفسها. يا للفكرة التي بلا رأس، أتقدم نصيحة لزوجها السابق حول تربية الطفل الذي سبب قطيعتها الزوجية. إنها أخذت تتحول إلى الحماقة مؤخراً.

ـــــ انظري يا خالتي. ما رأيك.

تناولت الكتاب على الصفحة التي أشار إليها فونتشيتو وتصفحته لبعض الوقت، محاولة أن تركز فـــي هذه الصور الحارة، المتناقضة، فـــي هذه الوجوه الرجولية التي تظهر أمامها فـــي مجموعات ثنائية أو ثلاثية، تنظر إليها بتصميم، بملابس عادية، وبعباءات، وعارية، وشبه عارية، بعضها تغطي عورتها وبعضها تكشف عن عضو منتصب، ضخم، بوقاحة تامة.

وقالت أخيراً لمجرد أن تقول شيئاً:

ـــــ طيب، إنها صور ذاتية. بعضها جيد. وأخرى ليس كثيراً.

فأوضح لها الطفل:

ـــــ لقد رسم أكثر من مئة صورة. فبعد رمبرانت، شيلي هو أكثر رسام رسم نفسه.

ـــــ هذا لا يعني أنه كان مصاباً بالشيزوفرينيا. بل هو أقرب إلى النرجسية. وهل أنت هكذا يا فونتشيتو؟

ـــــ أنتِ لم تنتبهي جيداً ـــــ قال الطفل وهو يفتح صفحة، ثم أخرى، ويوجهها مشيراً: ـــــ ألم تلاحظي؟ هناك صور ثنائية، وأحياناً ثلاثية. هذه مثلاً. **راؤو أنفسهم**، من عام 1911. من تظنين هذه الشخوص؟ إنها هو نفسه، مكرراً. و **النبيان** (صورة ذاتية مزدوجة) من عام 1911. دققي فــيها. إنه هو نفسه، عارياً وبالملابس. و**صورة ذاتية ثلاثية**، من عام 1913. هو، ثلاث مرات. وثلاث صور أخرى مصغرة، فـــي الجهة اليمنى. لقد كان يرى نفسه هكذا، كما لو أن هناك عدة إيغون شيلي فـــي داخلة. أليس هذا هو الشيزوفرينيا؟

وبما أنه كان يتلعثم وهو يتكلم وكانت عيناه تلمعان، فقد حاولت دونيا لوكريثيا أن تهدئه، فسايرته:

ـــــ حسن، هناك شيء من الشيزوفرينيا، مثل فنانين كثيرين. فالرسامون، والشعراء، والموسيقيون، توجد فـــي داخلهم أشياء كثيرة، وأحياناً لا يتسع لها شخص واحد. أما أنت، فإنك الطفل الأكثر طبيعية فـــي الدنيا.

غضب ألفونسو:

ـــــ لا تكلميني كما لو كنت غبياً يا خالتي. إنني مثلما كان هو وأنت تعرفـــين هذا جيداً، لأنك قلته للتو. قلتِ إنني عجوز وطفل. ملاك وشيطان. أي أنه لدي شيزوفرينيا.

داعبتْ رأسه بتحبب. وكانت خصل الشعر الشقراء المشعثة تنزلق من يدها، وقد كبحت دونيا لوكريثيا رغبتها فـــي احتضانه بين ذراعيها، وحمله على ركبتيها والهدهدة له.

ـــــ هل تشعر بافتقاد أمك؟ ـــــ أفلتت منها العبارة. وحاولت إصلاحها ـــــ أعني، هل تفكر فـــيها كثيراً؟

فقال فونتشيتو باطمئنان كبير:

ـــــ لا أكاد أتذكرها. بل إنني لا أكاد أتذكر وجهها، إلا من الصور. ما أحتاجه هو أنتِ يا خالتي. ولهذا أريدك أن تتصالحي من جديد مع أبي.

ـــــ لن يكون ذلك سهلاً. ألا تلاحظ ذلك؟ هناك جراح من الصعب اندمالها. وما حدث لريغوبيرتو هو واحد من هذه الجراح. لقد أحس بإساءة كبيرة، وهو محق. فقد اقترفتُ حماقة لا يمكن غفرانها. لا أدري، ولن أدري مطلقاً ما جرى لي. فكلما فكرت أكثر، بدا لي الأمر أبعد عن أن يُصدق. كما لو أنني لست أنا، وكما لو أن واحدة أخرى كانت تعمل فـــي داخلي، وتحل محلي.

فضحك الطفل مُظهراً مرة أخرى ملامح من أمسكها فـــي خطأ:

ـــــ أنت أيضاً لديك شيزوفرينيا إذاً يا خالتي.

ـــــ قليل منها، ليس كثيراً ـــــ وافقت هي ـــــ. من الأفضل ألا نتحدث فـــي أمور حزينة. حدثني عن نفسك. أو عن أبيك.

فأبدى فونتشيتو الوقار وبعض الأهمية:

ـــ وهو أيضاً يفتقدك. ولهذا كتبَ إليك هذه الرسالة المغفلة. لقد اندمل جرحه ويريد المصالحة.

لم تجد لديها الحماسة لمجادلته. فقد أحست الآن بأن الكآبة قد تغلبت عليها وبأنها حزينة بعض الشيء.

ـــ وكيف حال ريغوبيرتو؟ هل يعيش حياته كالمعتاد؟

فهز فونتشيتو رأسه موافقا:

ـــ من العمل إلى البيت ومن البيت إلى العمل، كل يوم. ويبقى فـــي مكتبه، يستمع إلى الموسيقى، ويتأمل لوحاته. ولكن هذا ليس إلا ذريعة. إنه لا يحبس نفسه هناك ليقرأ ولا لرؤية الرسوم أو سماع الموسيقى؟ وإنما ليفكر فـــيك.

ـــ وكيف تعرف ذلك؟

ـــ لأنه يتكلم معك ـــ أكد الطفل ذلك وهو يخفض صوته ويلقي نظرة نحو القسم الداخلي من البيت، لعل خوستينيانا تظهر، ثم أضاف: ـــ لقد سمعته. إنني أقترب ببطء وألصق أذني ببابه. وهو لا يتوقف عن ذلك مطلقاً. دائما يتكلم وحيداً. ويذكر اسمك فـــي كل لحظة. أقسم لك.

ـــ لست أصدقك أيها الكاذب.

ـــ أنت تعرفـــين أنني لن أخترع لك أمراً كهذا يا خالتي. أترين ما أقوله؟ إنه يريديك أن ترجعي.

كان يتكلم بثقة كبيرة بحيث وجدت صعوبة فـــي عدم الانجرار نحو عالمه هذا شديد الإغواء وشديد الزيف، عالم البراءة والخبث،

النقاء والقذارة، العفوية والحسابات. وفكرت دونيا لوكريثيا:«منذ وقعت تلك القصة لم أعد أشعر بالغم لأني لم أنجب ابناً». وبدا لها أنها تدرك السبب. وكان الطفل الجالس على الأرض، وكتاب اللوحات مفتوح عند قدميه، يتفحصها.

ـــ أتعرف أمراً يا فونتشيتو؟ ـــ قالت دون تروٍ تقريباً ـــ أنا أحبك كثيراً.

ـــ وأنا أيضاً أحبك يا خالتي.

ـــ لا تقاطعني. ولأنني أحبك، فإنني أشعر بالحزن لأنك لست مثل الأطفال الآخرين. إنك تضيع، بتصرفك مثل الكبار، شيئاً لا يعاش إلا فـــي مثل سنك. إن أروع ما يمكن أن يخطر لأي إنسان هو أن تكون له سنوات عمرك. وأنت تبدد هذه السنوات هباء.

فقال فونتشيتو متململاً:

ـــ لستُ أفهمك يا خالتي. ولكنك قبل لحظة كنتِ تقولين إنني أكثر الأطفال طبيعية فـــي العالم. هل قمت بتصرف سيئ؟

فقاطعته:

ـــ لا، لا. أعني أنني أحب أن أراك تلعب بالكرة، أن تذهب إلى الملعب، أن تخرج مع صبيان الحي وصبيان مدرستك. وأن يكون لك أصدقاء فـــي مثل سنك. وأن تنظم حفلات، ورقص، وأن تحب التلميذات. ألا تشعر برغبة فـــي عمل شيء من هذا؟

هز فونتشيتو كتفـــيه بازدراء، ودمدم دون أن يولي أي اهتمام لما سمعه:

ـــ يا للأمور المملة. إنني العب بالكرة فـــي الفسحة بين

الدروس وكفى. وأخرج أحياناً مع صبيان الحي. ولكنني أضجر من الحماقات التي تعجبهم. أما البنات، فهن أكثر حماقة. هل يخطر لك أنني أستطيع أن أحدثهن عن إيغون شيلي؟ حين أكون مع أصدقائي أحس بأنني أضيع وقتي. أما معك بالمقابل، فأنا أكسب الوقت. أفضل ألف مرة أن آتي للتحدث معك هنا، على أن أدخن مع الصبيان عند كورنيش بارانكو. وما حاجتي إلى البنات إذا كنت أنت موجودة يا خالتي.

لم تدرِ ما تقول له. والابتسامة التي حاولت إظهارها بدت في أكبر قدر ممكن من الزيف. لقد كان الطفل، وهي متأكدة من ذلك، مدركاً للضيق الذي تشعر به. وبينما هي تنظر إلى وجهه المتقدم، بملامحه المتهيجة من الانشراح، وعينيه اللتين تلتهمانها ببريق رجولي، بدا لها أنه سينقض عليها فجأة ويقبلها من فمها. وفي هذه اللحظة بالذات أحست بالراحة وهي تلمح شبح خوستينيانا. ولكن إحساسها بالراحة لم يعمر طويلاً، لأنها أدركت الأمر حين رأت مغلفاً أبيض في يد الفتاة.

ـــ لقد دسوا هذا المغلف من تحت الباب يا سيدتي.

فصفق فونتشيتو:

ـــ أراهن أنها رسالة مغفلة أخرى من أبي.

امتداح للرهاب ودفاع عنه

من هذا الركن المعزول من الكوكب يا صديقي بيتر سيمبلون ـــــ إذا كانت هذه هي كنيتك الحقيقية ولم يبدلها بخسة أحد مجتهدي الصحافة الأفعوانية للسخرية منك ـــــ، أنقل إليك تضامني مرفقاً بالتقدير. فمنذ أن سمعت، صباح اليوم، وأنا فـــي الطريق إلى مكتبي، من نشرة أخبار إذاعة صوت أميركا بأن محكمة سيراكوزا بولاية نيويورك، قد حكمت عليك بالسجن ثلاث سنوات لأنك تسلقت عدة مرات سطح بيت جارتك، بهدف التلصص عليها وهي تستحم، بدأت أعدّ الدقائق لكي أرجع إلى البيت بعد انتهاء العمل، وأكتب لك هذه السطور. وأسارع لأقول لك إن هذه العواطف المندفعة تجاهك قد انفجرت فـــي صدري (وهذا ليس مجازاً، فقد أحسست بأن رمانة صداقة تنفجر بين أضلعي)، ليس لدى سماعي الحكم، وإنما حين علمت بردك على القاضي (وهو رد اعتبره ذلك التعيس مهيناً): «فعلتُ ذلك لأنني لا أستطيع مقاومة جاذبية خصل الزغب التي تحت إبطي جارتي». (عند قراءة هذا الجزء من الخبر أظهر المذيع صوتاً عذباً مستهزئاً لكي يجعل مستمعيه يعرفون بأنه أكثر حماقة مما تستدعيه منه مهنته.)

يا صديقي المهووس: أنا لم أزر مطلقاً سيراكوزا، ولستُ أعرف شيئاً عن هذه المدينة إلا كونها تتعرض لعواصف ثلجية وبرد قطبي فـــي الشتاء، ولكن، لا بد أن فـــي أعماق تلك الأرض شيئاً خاصاً حتى تُنتج شخصاً له مثل رهافتك وخيالك، ويتمتع بالشجاعة التي أظهرتها فـــي تصديك لفقدان الاعتبار، ويمكنني أن أتصور ضيقك وسخريات أصدقائك ومعارفك فـــي الدفاع عن حركة شذوذك

الصغيرة (وأقول صغيرة وأنا أعني أنها غير مؤذية، وسليمة العاقبة، وصحية، ولطيفة بالطبع، فأنت وأنا نعرف أنه لا وجود لنزوة أو فوبيا خالية من العظمة، لأنها تشكل أصالة الكائن البشري، وأفضل تعبير عن سيادته).

بعد قولي هذا أجد نفسي مضطراً، من أجل تفادي سوء التفاهم، إلى أن أعلمك بأن ما يمثل لك لذة بالغة، هو بالنسبة لي مجرد نفاية، وأنه فـــي عالم الرغبات والأحلام الغني، فإن هذه التبرعمات الزغبية فـــي الإبطين الأنثويين التي توصلك رؤيتها (وطعمها، ورائحتها، وملمسها كما أعتقد) إلى النشوة القصوى، تسبب لي الكآبة والقرف وتقلص شهيتي الجنسية. (إن تأمل لوحة **المرأة الملتحية** لريبيرا يسبب لي عجزاً يستمر ثلاثة أسابيع.) ولهذا فإن محبوبتي لوكريثيا كانت ترتب الأمر دائماً بحيث لا يظهر فـــي إبطيها البضين أدنى أثر للزغب وتبدو بشرتها على الدوام لعيني ولساني وشفتي، ناعمة مثل مؤخرة ملاك. ففـــي موضوع الزغب الأنثوي، لا أجد لذة إلا فـــي العانة، شريطة أن تكون مقصوصة ومشذبة جيداً وألا تفرط فـــي كثافة خصلاتها أو مفارقها أو فتائلها مما يعرقل عملية الحب ويحول اللعق إلى عملية تنطوي على المجازفة بالاختناق.

وحيث إنني أباريك وأنافسك فـــي هذه المصارحة الحميمية، فإنني أضيف بأنه ليس الإبط المسود من الزغب (والشعر هنا كلمة تزيد الواقع سوءاً بإضافتها إليه مادة دهنية وقشرية) هو وحده ما يسبب لي هذا الرعب المحبط للجنس، والذي لا يمكن مقارنته إلا

بالمشهد المخجل لامرأة تمضغ اللبان أو تقف فـي بوز أو برؤية كائن بشري من أي جنس كان يقلب أسنانه باحثاً فـيها عن زوائد بهذا الشيء الدنيء الذي يسمونه كاشط الأسنان، أو رؤيته يقضم أظفاره، أو يأكل على مرأى العالم وسمعه دون وازع من خجل، ثمرة مانجا أو برتقالة أو رمانة، أو حبة دراقن، أو عنب أو أي ثمرة أخرى تتمتع بهذه الصلابة الفظيعة التي يسبب لي مجرد ذكرها (ولا أقول رؤيتها) قشعريرة وتتعفن روحي باحتدام وهياج الرغبة فـي إبادتها: عناقيد، أليافاً، بذوراً، قشوراً أو بقايا. ولستُ أبالغ بأي حال يا رفـيق التفاخر بتخيلاتنا، إذا ما قلت لك بأنني كلما رأيت أحداً يأكل ثمرة ويُخرج من فمه أو يبصق بقايا لا تؤكل، أشعر بالغثيان وأصل إلى حد تمني الموت للفاعل. ومن جهة أخرى، كنت أنظر على الدوام إلى أي آكل يعمد عند رفع الشوكة إلى فمه، إلى رفع مرفقه فـي الوقت نفسه، على أنه آكل لحم بشري متوحش.

هكذا نحن، ولا نخجل، ولست أقدر أحداً مثلما أقدر من هو قادر على الذهاب إلى السجن والتعرض للفضيحة من أجل نزواته. أنا شخصياً لستُ من هؤلاء. فقد نظمتُ حياتي بصورة سرية وضمن الأسرة لكي أصل إلى المستويات الأخلاقية التي وصلت أنت إليها فـي العلن. فكل شيء فـي حالتي يتم بتكتم وتحفظ، دون حماسة تبشيرية أو استعراضية، أي بطريقة ملتوية لا تستثير الوسط المحيط بي، والناس الذين أنا مضطر إلى التعايش معهم لأسباب تتعلق بالعمل، أو بسبب القرابة أو العبودية الاجتماعية، ولا تسبب لي كذلك السخرية والعداوات. وإذا كنت تفكر بأنني جبان جداً ـــ

خصوصاً بالمقارنة مع جرأتك فـــي الوقوف أمام العالم مثلما أنت ـــــ فإنك قد أصبت الهدف. إنني الآن أقل جبناً مما كنت عليه فـــي شبابي فـــيما يتعلق برهابي ونزواتي ـــــ ولستُ أحب أياً من هذه الصيغ بسبب الشحنة المهينة التي تتضمنها ولأنها تستدعي إلى الذهن الأطباء النفسانيين أو أسرّة التحليل النفسي، ولكن، كيف يمكنني أن أسميها دون أن أجرحها: أأقول غرابة أطوار؟، رغبات سرية؟ ويمكننا فـــي الوقت الراهن أن نقول إن العبارة الأخيرة هي أقلها سوءاً. لقد كنتُ فـــي شبابي كاثوليكياً جداً، وعضواً ثم مسؤولاً فـــي جمعية العمل الكاثوليكي، ومتأثراً بمفكرين من أمثال جاك مريتاي؛ أي أنني كنت من أتباع اليوتوبيات الاجتماعية، وكنت مقتنعاً بأنه، من خلال تبشير نشط يستوحي كلمة الإنجيل، سيكون بالإمكان انتزاع روح الشر ـــــ وكنا نسميها عندئذ الخطيئة ـــــ والسيطرة على التاريخ البشري وبناء مجتمع متجانس، يرتكز على قيم الروح. ومن أجل تحقيق الجمهورية المسيحية، هذه اليوتوبيا الروحية الجماعية، عملت خلال أفضل سنوات شبابي مقاوماً، بغيرة المرتد، التفنيدات الفظة التي كان يلاحقنا بها، لي ولرفاقي، دون هوادة واقع إنساني ثائر على هذه الخرافات المتمثلة بكل المساعي الموجهة إلى إقامة هندسة متماسكة ومتساوية من هذا الدوار الذي لا يمكن مقاومة تفرده، ألا وهو الخليط البشري. وكان أن اكتشفتُ فـــي تلك السنوات يا صديقي بيتر سيمبلون، من سيراكوزا، فـــي البدء بشيء من الظرافة، ثم بعد ذلك بخجل وحياء، النزوات التي تميزني عن الآخرين وتجعل مني نموذجاً متفرداً. (لا بد من مرور

السنوات والتعرض لتجارب لا حصر لها حتى نفهم بأن كل واحد منا نحن البشر هو حالة مختلفة وأن هذا يتيح لنا أن نكون مبدعين ويضفـــي معنى على حريتنا.) كم كنت أشعر بالغرابة وأنا ألاحظ أنه يكفـــي أن أرى من كان حتى ذلك الحين صديقاً جيداً، يقشر برتقالة بيديه ويدس أجزاء لبابها فـــي فمه، دون أن يهمه الفتات المثير للاشمئزاز الذي يبقى على شفتيه، ويبصق ذات اليمين وذات اليسار بذورها البيضاء التي لا تؤكل، لكي يتحول التعاطف إلى استياء طاغ، ثم أستغل أي ذريعة بعد وقت قصير لأنهي صداقتي له. وكان كاهن اعترافـــي، الأب دورانتي، وهو يسوعي دمث من المدرسة القديمة، يأخذ مخاوفـــي ووساوسي دون قلق، معتبراً أن هذه «النزوات الصغيرة» هي خطايا ضئيلة مغتفرة، ونزوات لا بد منها لدى كل ابن أسرة ثرية، يعامله أبواه بتدليل مبالغ فـــيه. وكان يقول لي ضاحكاً: «أنت ستكون ظاهرة يا ريغوبيرتو. وباستثناء أذنيك الهائلتين وأنفك الذي مثل مخطم الدب آكل النمل، فإنني لم أر من هو أكثر طبيعية منك. ولهذا، إذا ما رأيتَ أحدهم يأكل فاكهة لها لباب أو بذور، انظر إلى الجهة الأخرى ونم مطمئناً». ولكنني لم أكن أنام باطمئنان، وإنما فزع وقلق. وخصوصاً بعد أن قطعتُ علاقتي بأوتيلا، متذرعاً بحجة تافهة، أوتيلا ذات الضفائر، وحذاء التزلج والأنف الأفطس، التي كنتُ مغرماً بها جداً وكنت قد لاحقتها طويلا حتى تستجيب لي. لماذا تشاجرتُ معها؟ ما الجريمة التي اقترفتها أوتيلا الجميلة ذات الزي الأبيض الخاص بمدرسة بييا ماريا؟ لقد أكلتْ عنباً أمامي. كانت تُدخل العنب إلى فمها حبة بعد

حبة، متلذذة، مقلبة عينيها، ومتنهدة لتسخر من تكشيرات الرعب التي كانت تظهر على وجهي ـــ ذلك أنني أخبرتها برهابي. وكانت تفتح فمها وتكمل تلك القذارة بإخراج البذور المقززة بيدها وترمي بها إلى حديقة بيتها ـــ لقد كنا جالسين هناك، عند الحاجز الحديدي ـــ بحركة متحدية. لقد كرهتها! مقتها! وذاب حبي الطويل مثل كرة من البوظة تعرضت للشمس، وتمنيت خلال أيام عديدة أن تصدمها سيارة، وأمواج كاسحة، وتصيبها الحمى القرمزية. وكان الأب دورانتي يظن أنه يهدئني بالقول:«هذه ليست خطيئة يا فتى. هذا هياج جنوني. أنت لستَ بحاجة إلى كاهن اعتراف، وإنما إلى مُعالج مجانين.»

ولكن كل ذلك يا صديقي ومنافسي من سيراكوزا، كان يُشعرني بأنني غير طبيعي. وكانت هذه الفكرة تثُقل عليّ آنذاك، فقد كنت مثل كثيرين من البشر ـــ وأخشى أن يكون معظمهم ـــ لا أربط فكرة كوني مختلفاً باسترداد حريتي، وإنما فقط بالعقاب الاجتماعي الذي ينزل دائماً على النعجة السوداء فـي القطيع. فكون المرء موبوءاً، واستثناءً عن القاعدة، كان يبدو لي أنه أسوأ المصائب. إلى أن تبين لي أن ليس كل النزوات هي رهابات؛ فهناك بينها كذلك مصادر لذة سرية أيضاً. كما هي رُكب ومرافق الفتيات على سبيل المثال. كان رفاقي يبدون إعجابهم بالعيون الجميلة، والجسد الممشوق أو الممتلئ، بالخصر النحيل، وكان أكثرهم جرأة يعجبون بالمؤخرة البارزة أو السيقان المقوسة. وأنا وحدي كان يخطر لي تمييز تلك الالتحامات العظمية، والتي أعترف الآن دون خجل فـي حميمية دفاتري القبورية، بأنها

أثمن من كل الخصائص الجسدية الأخرى لدى أي فتاة. أقول هذا ولا أتراجع عنه. فركبة حسنة الليونة، مصقولة، دون نتوءات أوانحناءات؛ ومرافق مكورة، غير مخددة، ناعمة، لينة الملمس، مزودة بمواصفات الكيك الإسفنجية، تهيجني وتستثيرني. إنني أشعر بالسعادة لرؤيتها وملامستها؛ فإذا قبلتها أصعد إلى مرتبة الملائكة. لن تتاح لك الفرصة لعمل ذلك، ولكن إذا استدعى الأمر شهادة حبيبتي لوكريثيا، فسوف تقول لك كم من الساعات الطويلة قد أمضيتُ ـــ طويلة كتلك الساعات التي يمضيها طفل عند قدمي المصلوب ـــ متأملاً، فـــي صلاة من الفتنة والذهول، ركبتيها الهندسيتين ومرفقيها الرشيقين بنعومتهما الفريدة، وفـــي تقبيلهما، وعضعضتهما مثل شبل يلعب بعظمته، مستغرقاً فـــي النشوة، إلى أن أشعر بالخدر فـــي لساني أو إلى أن يعيدني تشنج شفوي إلى الواقع المبتذل. لوكريثيا الغالية! بين كل الفضائل التي تزينها، أشعر بأشد امتنان إلى تفهمها لنقاط ضعفـــي، وحكمتها فـــي مساعدتي على تجسيد تخيلاتي.

بسبب هذه النزوة وجدت نفسي خاضعاً لامتحان ضمير. فقد انتبه صديق من جمعية العمل الكاثوليكي كان يعرفني جيداً، إلى أكثر ما يجتذبني فـــي الفتيات ـــ أي ركبهن ومرافقهن ـــ، فحذرني من أن هناك شيئاً ليس على ما يرام فـــي داخلي. وكان هاوياً للتحليل النفسي، ومما زاد الأمور سوءاً، أن هذا المتزمت أراد أن يوفق التصرفات والدوافع الإنسانية مع تعاليم الكنيسة. تكلم عن انحرافات وتلفظ بكلمات الوثنية ووثن. وأنا أرى اليوم أنهما من أكثر الكلمات قبولاً فـــي المعجم (فهذا ما نحن عليه، أنا وأنت وكل

الكائنات الحساسة)، أما فـي ذلك الحين، فكان لها وقع فاسد، ومعنى الرذيلة الفاحشة.

أنت وأنا يا صديقي السيركوزي نعرف أن الوثنية ليست «عبادة الأوثان» مثلما يقول بصورة بائسة معجم مجمع اللغة، وإنما هي شكل امتيازي للتعبير عن الخصائص الإنسانية، ووسيلة يمتلكها الرجل والمرأة ليخطا مجالهما، لتحديد اختلافهما عن الآخرين، وتدريب مخيلتيهما وروحيهما المناهضة للقطيع، لكي يكونا حرين. يروقني أن أروي لك، ونحن جالسان فـي بيت ريفـي فـي ضواحي مدينتك التي أتصورها مليئة بالبحيرات، وغابات الصنوبر، وهضاب بيضاء بالثلج، بينما نحن نتناول كأساً من الويسكي ونسمع فرقعة الحطب فـي المدفأة، عن كيف أن اكتشاف الدور المركزي للوثنية فـي حياة الفرد، كان عاملاً حاسماً فـي خيبة أملي من اليوتوبيات الاجتماعية ـــ فكرة أنه يمكن للجماعية أن تبني السعادة والطيبة، أو أن تجسد أي قيمة أخلاقية أو جمالية ـــ، وفـي انتقالي من الإيمان إلى اللاأدرية، وفـي القناعة التي تشجعني الآن، والتي بمقتضاها، لا يمكن للرجل والمرأة أن يعيشا دون يوتوبيات، والطرق الواقعية الوحيدة لتجسيدها هي فـي نقلها من المستوى الاجتماعي إلى الفردي. فالجماعة لا يمكنها أن تنظم نفسها من أجل الوصول إلى أي شكل من الكمال دون أن تدمر حرية الكثيرين، ودون أن تكتسح الاختلافات الفردية الجميلة باسم التسميات المشتركة المرعبة. أما الفرد المتوحد فـيمكنه بالمقابل ـــ فـي ممارسة شهواته، نزواته، وثنياته، فوبياته أو أذواقه ـــ أن يقيم عالماً خاصاً يقترب (أو يصل

إلى التجسيد، مثلما يحدث للقديسين وللأبطال الأولمبيين) ذلك المثل الأعلى، حيث يتوافق المُعاش مع المرغوب. ومن الطبيعي أنه فـــي بعض الحالات الامتيازية، يتيح هذا التوافق السعيد ـــــ ولنقل توافق الحيوان المنوي مع البويضة الذي يُنتج التلقيح ـــــ لشخصين أن يحققا أحلامهما تماماً. وهذه هي حال الصحفـــي، والكوميدي، والناقد، ومنشط البرامج المحترف كينث يتنان (وقد قرأتها للتو فـــي سيرة حياته التي كتبتها أرملته) الذي كان مازوشياً مستتراً أوصله الحظ إلى التعرف على فتاة كانت سادية بالمصادفة، وكانت خجولة أيضاً، مما أتاح لكليهما التمتع بالسعادة مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع، فـــي قبوٍ فـــي كينسينغتون، فكان يتلقى الجلدات بالسوط وهي توجهها، فـــي لعبة من الجَلد تنقلهما إلى السماء. إنني أحترم ـــــ ولكنني لا أمارس ـــــ هذه الألعاب التي لا بد أن يليها المركوروكروم ودُخان الجبل[1].

وبما أننا دخلنا فـــي رواية الطرائف ـــــ وهناك منها فـــي هذا المجال ما يملأ محيطات ـــــ فإنني لا أستطيع مقاومة الرغبة فـــي أن أشير إلى لعبة التخيل التي كانت تهيج حتى الارتعاش المرضي شهوة كانتشيتو أرنيبيا، البطل فـــي مهنة بيع بوليصات التأمين التي تستدعي الهذر وكثرة الكلام، وهي تتلخص ـــــ وقد اعترف لي بها هو نفسه فـــي واحدة من حفلات الكوكتيل البغيضة التي تقام فـــي الأعياد الوطنية أو عيد الميلاد والتي لا أستطيع عدم حضورها ـــــ

[1] ـ دُخان الجبل: نبات يستخرج منه دواء تقليدي للرضوض.

فـــي رؤية امرأة عارية ولكنها تنتعل حذاء بكعب رفـــيع، وهي تدخن وتلعب البلياردو. هذه الصورة التي يظن أنه قد رآها فـــي طفولته فـــي إحدى المجلات، كانت ترافق انتصاباته الأولى، وقد أصبحت منذ ذلك الحين نجم قطب حياته الجنسية. يا لكاتشيتو اللطيف! وعندما تزوج من امرأة سمراء سريعة البديهة من قسم المحاسبة، قادرة ـــــ حسب اعتقادي الجازم ـــــ على مجاراته، أقدمتُ على مزحة وقحة بأن أهديت إليه باسم شركة بيريتشولي للتأمين ـــــ وأنا مديرها ـــــ طاولة بيلياردو نظامية، حملتها شاحنة أثاث إلى بيته فـــي يوم الزفاف. وقد بدت تلك الهدية للجميع حماقة جنونية؛ ولكنني حين رأيت نظرة كاتشيتو ولعابه المسبق وهو يشكرني، أدركت أنني قد أصبت الهدف تماماً.

ويا صديقي العزيز من سيراكوزا، يا من تحب المكانس الإبطية، إن استثارة الأهواء والفوبيات لا يمكن أن تكون غير محدودة. بل يجب الاعتراف بأن لها قيوداً وضوابط، من دونها تنفلت الجريمة وتكون العودة إلى بهيمية الغابة. أما فـــي المجال الخاص الذي هو ميدان هذه الأشباح، فكل شيء يجب أن يكون مسموحاً بين البالغين الذين يتوافقون فـــي اللعب وفـــي قواعد اللعب، من أجل متعتهم المتبادلة. وكون الكثير من هذه الألعاب، بالنسبة إلي، مفرطة فـــي الاشمئزاز (مثل تلك الحبوب المسببة للضراط التي كان مغرماً بها عصر الغزل الفرنسي، وبصورة خاصة المركيز دي ساد الذي لم يكتف بالإساءة إلى النساء، بل كان يطلب منهن كذلك أن يدوخنه بإطلاقات مدفعية من ريح بطونهن) هو أمر صحيح مثلما هي فـــي هذا العالم كل الاختلافات

التي تستحق التقدير والاحترام، إذ ليس هناك ما يعبر مثلها عن تعقيدات الشخصية الإنسانية التي لا يمكن الإحاطة بها.

هل تخرق حضرتك حقوق الإنسان وحريات جارتك ذات الشعر بتسلقك سطح بيتها لتعبر عن تقديرك لخصل شعر إبطيها؟ لا ريب في ذلك. وهل تستحق أن تُعاقب باسم التعايش الاجتماعي؟ آي، آي، أجل بالطبع. ولكنك كنت تعرف هذا كله وجازفت مع ذلك، مستعداً لدفع ثمن التلصص على إبطي جارتك الشعريين. وقد قلت لك إنني غير قادر على مجاراتك في هذه البطولات المتطرفة. فخشيتي من أن أكون مضحكاً وازدرائي للبطولة كبيران جداً، فضلاً عن بلادتي الجسدية، بحيث لا يمكنني أن أتجرأ على تسلق سطوح الغير لأرى في جسد دون شعر، الركبتين الأكثر استدارة والمرفقين الأكثر تكوراً في الجنس الأنثوي. إن جبني الطبيعي، الذي ربما يكون مجرد حالة مرضية تفرضها غريزة الشرعية، تقودني لأجد لنزواتي ورهابي موقعاً مناسباً ضمن ما هو متعارف على أنه مشروع. أيحرمني هذا من كنز من الشبق اللذيذ؟ هذا مؤكد. ولكن ما أملكه يكفيني، شريطة أن أستخلص منه المنفعة اللازمة، وهو ما أحاول عمله.

أرجو أن تكون شهور الحبس الثلاثة خفيفة عليك، وأن تخفف لياليك وراء القضبان أحلامٌ فيها غابات من زغب الإبطين، واتوسترادات من الشعر الحريري، والأسود، والأشقر، والأحمر تطارد فيها، وتسبح، وتركض مجنوناً من السعادة.

وداعاً يا مثيلي.

سروال الأستاذة الداخلي

فتح دون ريغوبيرتو عينيه: وهناك، ما بين الدرجتين الثالثة والرابعة من السلم، كان سروال الأستاذة الداخلي مرمياً، أزرق، لامعاً، بحواف مخرمة، مثيراً وشاعرياً. ارتعش مثل ممسوس. لم ينم، مع أنه كان قد أمضى وقتاً لا بأس به فـي الظلام، على السرير، يستمع إلى صخب البحر، غارقاً فـي تخيلات متسربة. إلى أن عاد ذلك الهاتف يرن ثانية، فـي تلك الليلة، ليُخرجه من أحلامه بعنف.

ـــ آلو، آلو؟

ـــ ريغوبيرتو؟ أهذا أنت؟

تعرف على صوت البرفسور العجوز، مع أنه كان يتكلم بصوت خافت، مغطياً السماعة بيده وخانقاً عباراته. أين كانا؟ فـي مدينة جامعية عريقة. فـي أي بلاد؟ فـي الولايات المتحدة. فـي أي ولاية؟ فـي فـيرجينيا. أي جامعة؟ جامعة الدولة، الجامعة الجميلة المشيدة على الطراز الكلاسيكي الجديد، ذات الأعمدة البيضاء، التي صممها توماس جيفرسون.

ـــ أهذا أنتَ يا برفسور؟

ـــ أجل، أجل يا ريغوبيرتو. ولكن، تكلم ببطء. اعذرني لأني أيقظتك.

ـــــ لا تقلق يا برفسور. كيف كان عشاؤك مع الأستاذة لوكريثيا؟ هل انتهى.

صوت الحقوقي والفـــيلسوف العجوز نيبوموثينو ريغا، انكسر فـــي دمدمة هيروغليفـــية. فأدرك ريغوبيرتو بأن شيئاً جدياً قد حدث لأستاذه فـــي مادة فلسفة القانون فـــي الجامعة الكاثوليكية فـــي ليما، والذي جاء لحضور ندوة فـــي جامعة فـــيرجينيا، حيث كان هو يتابع دراساته العليا (فـــي التشريع والتأمينات) وحيث أتيحت له فرصة تقديم خدماته للبرفسور كدليل وسائق: فقد أخذه إلى المونتيسللو لزيارة بيت ـــــ متحف جيفرسون، وإلى المواقع التاريخية لمعركة ماناساس.

ـــــ المسألة يا ريغوبيرتو، واعذرني لهذا الاستغلال، ولكنك الشخص الوحيد الذي أستطيع الثقة به هنا. ربما لأنك كنت تلميذي، ولأنني أعرف أسرتك وقد أبديتَ خلال هذا الأسبوع الكثير من الشهامة...

فقال له الشاب ريغوبيرتو مشجعاً:

ـــــ هذا أقل ما يمكن عمله. هل جرى لك شيء؟

جلس دون ريغوبيرتو فـــي السرير مهتزاً بالضحكة المغرضة. بدا له أن باب الحمام سيُفتح فـــي أي لحظة ويظهر مرسوماً على عتبته شبح دونيا لوكريثيا، لتفاجئه بواحد من هذه السراويل الداخلية الخيالية المحكمة، السوداء، البيضاء، مع تطريزات وتخريمات، وحواف حريرية مزركشة أو ملساء، المشدودة لكي تُبرز تكور قمة فـــينوس، والتي يطل من حوافها بعض زغب العانة. لقد كان واحداً

من هذه السراويل الداخلية ذاك الذي يقبع متوحداً، مثل أحد هذه الأشياء المثيرة فـــي اللوحات السوريالية للكتلاني جوان بونس أو الروماني فـــيكتور براونير، على السلم الذي سيصعد عليه إلى غرفة نومه ذلك العجوز الطيب، الروح البريئة، دون نيبوموثينو ريغا، والذي اعتاد أن يمسح اللوح بربطة عنقه، فـــي أثناء دروسه التاريخية، وهي الدروس الوحيدة الجديرة بأن تذكر طوال تلك السنوات السبع العجاف فـــي دراسة القانون.

ـــــ لست أدري ما الذي علي عمله يا ريغوبيرتو. إنني أجد نفسي فـــي ورطة. فأنا، على الرغم من سني، لا أملك أدنى خبرة فـــي هذه الشؤون.

ـــــ فـــي أية شؤون يا برفسور. قل لي، لا تخجل.

لماذا أنزلوا دون نيبوموثينو فـــي بيت أستاذة القانون الدولي، للسنة الثانية، بدل إنزاله فـــي فندق الهوليداي إن أو الهيلتون مثل بقية المشاركين فـــي الندوة؟ إنه تمييز يليق بسمعته دون ريب. أم لأنهما يرتبطان بصداقة تمتنت من خلال التقائهما فـــي كليات الحقوق فـــي العالم الواسع، وفـــي المؤتمرات، والمحاضرات، والموائد المستديرة، وربما لأنهما قد عملا معاً فـــي كتابة بحث مترع بمصطلحات لاتينية ونشراه مع فـــيض من الملاحظات والهوامش والمراجع الخانقة فـــي مجلة متخصصة فـــي بوينس آيرس أو توبينغن أو هلسنكي؟ ما حدث هو أن البرفسور اللامع دون نيبوموثينو، وبدلاً من أن ينزل فـــي المكعب غير الإنساني فـــي الهوليداي إن، أمضى الليالي فـــي بيت الأستاذة لوكريثيا المريح

الذي يجمع ما بين العراقة والحداثة. وقد كان ريغوبيرتو يعرف الأستاذة لوكريثيا جيداً، لأنه كان يُعدّ تحت إشرافها فـــي هذا الفصل الدراسي حلقة بحث القانون الدولي للسنة الثانية، وقد ذهب عدة مرات ليعيد إليها المراجع السميكة التي كانت تتلطف بإعارته إياها. أغمض دون ريغوبيرتو عينيه واقشعر جلده وهو يلمح، مرة أخرى، الردفـــين الموسيقيين للحقوقية ذات الجسد المتناسق وهي تبتعد.

ــــ هل أنت بخير يا برفسور؟

ــــ أجل، أجل يا ريغوبيرتو. الواقع أن ما يشغلني هو مجرد حماقة. سوف تضحك مني. ولكنني مثلما قلت لك، لا أملك أي خبرة. إنني حائر ومشوش يا فتى.

لم يكن بحاجة إلى قول ذلك؛ فقد كان صوته يرتعش وكأنه سيصاب بالبكم، وكانت الكلمات تخرج منه وكأنها مسحوبة بملقط. ولا بد أنه كان يتعرق عرقاً جليدياً. أتراه يتجرأ على إخباره بما جرى له؟

ــــ حسن، لاحظ أنت. الآن، بعد عودتنا من الكوكتيل الذي أقاموه لنا، أعدّت الدكتورة لوكريثيا هنا، فـــي بيتها، عشاء خفـــيفاً. لنا نحن الاثنين فقط، أجل، لقد كانت حركة لطيفة منها. عشاء لطيف جداً، تناولنا خلاله زجاجة من النبيذ. أنا لست معتاداً على الكحول، ولهذا ربما كان تشوشي بسبب هذه الأبخرة التي صعدت إلى رأسي. إنه نبيذ من كاليفورنيا كما يبدو. وهو جيد، مع أنه قوي بعض الشيء.

ــــ دعك من كل هذا اللف والدوران يا برفسور، وقل لي ما الذي

أصابك.

ـــ انتظر، انتظر. تصور أن الدكتورة أصرت بعد هذا العشاء وهذا النبيذ، على أن نتناول كأساً من الكونياك. لم أستطع أن أرفض بالطبع، إنها مسألة تهذب. ولكنني بدأت أرى نجوماً يا فتى. لقد كان الكونياك ناراً سائلة. وجاءني السعال وحسبت أنني سأصاب بالعمى. ولكن، يمكنني القول إنه لم يحدث شيء مضحك. لقد غفوتُ يا بني. أجل، أجل، هناك، على المقعد، فـــي الصالة التي هي غرفة مكتبة فـــي الوقت نفسه. وعندما استيقظتُ، لست أدري بعد مرور كم من الوقت، عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة، لم تكن الدكتورة موجودة. وفكرت فـــي أنها قد انسحبت لتنام. فتأهبت لأفعل ذلك أيضاً. عندما، عندما.. تصور أنني وأنا أصعد الدرج، زاك! سقطتُ على وجهي، ولن تتصور بماذا تعثرت. بسروال داخلي! سروال داخلي فـــي طريقي، أجل. لا تضحك يا فتى، فمع أن الأمر مضحك، إلا أنني أجد نفسي فـــي بحر من البلبلة. وأكرر لك بأنني لا أدري ماذا أفعل.

ـــ لستُ أضحك بالطبع يا دون نيبوموثينو. ألا تعتقد حضرتك أن وجود هذا اللباس الداخلي هناك، هو مجرد مصادفة؟

ـــ أي مصادفة وأي ثمانية أرباع يا فتى. ليست لدي خبرة، ولكنني لم أتحول إلى مترجرج بعد. لقد تركته الدكتورة هناك متعمدة، لكي أتعثر به. فليس هناك تحت هذا السقف سواي أنا وربة البيت. إنها هي من وضعته هناك.

ـــ إن ما يحدث لك يا برفسور فـــي هذه الحالة إذن هو أفضل

ما يمكن أن يحدث للضيف. فقد تلقيتَ دعوة من مضيفتك. الأمر واضح جداً.

وتكسر صوت البرفسور ثلاث مرات قبل أن ينطق بكلام مفهوم.

ـــ أتظن ذلك يا ريغوبيرتو؟ حسن، هذا ما بدا لي أنا أيضاً، حين بدأت أفكر، بعد هذه المفاجأة. أنت تقول إنها دعوة، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون الأمر مصادفة، فهذا البيت هو الترتيب مجسداً، مثلما هي الدكتورة. وقد وُضع هذا اللباس هناك مع سبق الإصرار. ثم إن الطريقة التي وضع بها على السلم ليست عرضية، إنه موضوع بطريقة مفخمة، استعراضية، أقسم لك.

ـــ لقد وُضع هناك بترصد، إذا كنت تسمح لي بهذه المزحة الصغيرة يا دون نيبوموثينو.

ـــ أنا أيضاً أضحك في داخلي يا ريغوبيرتو. أعني وسط كل هذه البلبلة التي أنا فيها. ولهذا أحتاج إلى نصيحتك. ما الذي علي عمله؟ فأنا لم أحلم يوماً بأن أجد نفسي في مثل هذا الموقف.

ـــ ما عليك عمله واضح جداً يا برفسور. ألا تعجبك الدكتورة لوكريثيا؟ إنها امرأة شديدة الجاذبية؛ وهذا ما أعتقده، وهو رأي زملائي أيضاً. إنها أجمل أستاذة جامعية في فرجينيا.

ـــ لا ريب في ذلك، ومن يمكنه أن يشكك في الأمر. إنها جميلة جداً.

ـــ لا تضيع الوقت إذن. اذهب واطرق باب حجرتها. ألا ترى أنها تنتظرك؟ اذهب إليها قبل أن تنام إذن.

ـــــ هل يمكنني أن أسمح لنفسي بذلك؟ أن أطرق باب حجرتها دون مقدمات؟

ـــــ أين أنت الآن؟

ـــــ وأين سأكون. إنني هنا، فـــي الصالة، عند أسفل الدرج. ولماذا تظنني أتكلم بصوت خافت. هل أذهب وأطرق باب غرفتها بأصابعي؟ دون أية مقدمات؟

ـــــ لا تضيع دقيقة واحدة. لقد تركتْ لك إشارة، ولا يمكنك إبداء التجاهل. وخصوصاً إذا كانت تعجبك. لأن الدكتورة تعجبك، أليس كذلك يا برفسور؟

ـــــ طبعاً تعجبني. وهذا ما يجب علي عمله، أجل، معك حق. ولكنني أشعر ببعض الارتباك. شكراً على كل حال يا فتى. لا أريد أن أوصيك بأكبر قدر من التكتم، أليس كذلك؟ من أجلي، ومن أجل سمعة الدكتورة بوجه خاص.

ـــــ سأكون قبراً للسر يا برفسور. لا تتردد. اصعد هذه الدرجات، التقط السروال الداخلي، واحمله.. اطرق الباب وابدأ معها بمزحة حول المفاجأة التي وجدتها فـــي طريقك. وكل شيء سيجري على ألف ما يرام، سترى. ستتذكر هذه الليلة إلى الأبد يا دون بيبوموثينو.

وقبل أن يغلق دون ريغوبيرتو سماعة الهاتف، تمكن من سماع دوي معوي، إنه تجشُّؤ مغموم لم يستطع الحقوقي العجوز أن يكبحه. كم سيكون عصبياً ومرتبكاً، فـــي عتمة الصالة المترعة بكتب الحقوق، فـــي الليلة الربيعية الفـــيرجينية القوية، وهو موزع ما بين

وهم هذه المغامرة ـــــ أهي الأولى، فـــي حياة من المجامعات الزوجية والتناسلية؟ ـــــ وجبنه المتخفـــي وراء صرامة بعض المبادئ الأخلاقية، والقناعات الدينية والأعراف الاجتماعية. أي القوى المتصارعة فـــي روحه ستنتصر؟ الرغبة أم الخوف؟

ودون أن ينتبه دون ريغوبيرتو إلى نفسه، وهو مستغرق فـــي هذه الصورة الطوطمية: السروال المهجور على درج الأستاذة، نهض من السرير وانتقل إلى مكتبه دون أن يشعل الضوء. كان جسده يتفادى العوائق التي فـــي طريقه ـــــ المقعد، المنحوتة النوبية، الطنافس، جهاز التلفزيون ـــــ بسهولة اكتسبها من الممارسة المتكررة، ذلك أنه منذ ذهاب زوجته، لم تمر ليلة إلا ودفعه الأرق فـــيها إلى النهوض فـــي الظلام، للبحث فـــي أوراق وكتابات مكتبه عن بلسم لحنينه ووحدته. كان رأسه ما يزال مثبتاً على شبح الحقوقي الموقر الذي طوحت به الظروف (مجسدة فـــي سروال داخلي نسائي معطر وحسي مطروح فـــي طريقه ما بين درجتين من سلم عالمة بالحقوق) إلى ارتياب هاملتي، ولكنه ما إن جلس وراء طاولة مكتبه الخشبية الطويلة وبدأ يتفحص دفاتره، حتى ارتعش دون ريغوبيرتو عندما كشف له مخروط ضوء المصباح الذهبي عن المثل الألماني الشائع الذي يتصدر هذه الصفحة: *Wer die Wahl hat, hat die Qual* («من يملك الخيار، يملك المعاناة») يا للروعة! ألا يجسد هذا المثل، الذي نسخه دون أن يدري من أين، الحالة المعنوية لدون نيبوموثينو ريغا البائس والمحظوظ، والدكتورة لوكريثيا؟

يداه اللتان كانتا تقلبان دفتراً آخر اختاره مصادفة، ليرى إذا ما

كان سيصيب للمرة الثانية أو يتوصل إلى علاقة ما، بين ما يجده وما يحلم به، لتكون وقوداً لمخيلته، توقفتا فجأة («مثلما تقذف يدا المشرف على اللعب الكرة الصغيرة على الروليت المتحركة») وانحنى بجشع. كانت الصفحة ملطخة بفكرة حول **يوميات إيديث**، لباتريسيا هايسميث.

رفع رأسه مرتبكاً. وسمع صوت أمواج البحر الصاخبة، عند أقدام هوة الشاطئ. باتريسيا هايسميث؟ هذه الروائية التي تكتب روايات جرائم مملة، يقترفها المجرم القاسي مستر ريبلي دون مبررات، لا تثير أدنى اهتمام لديه. لقد كان يرد دائما بتثاؤبات (يمكن مقارنتها بتلك التي سببها له **كتاب الأموات والأحياء التيبيتي** المشهور) على شعبية هذه الروائية الإجرامية التي (وأفلام ألفريد هتشكوك موجودة) أثارت منذ بضع سنوات حماس المئة قارئ الذين يشكلون الجمهور فـــي ليما. ما الذي تفعله هذه الكاتبة الثانوية لأتباع السينما فـــي دفاتره؟ إنه لا يتذكر متى أو لماذا كتب ذلك التعليق حول **يوميات إيديث**، وهو كتاب لا يتذكره أيضاً:

«رواية رائعة من أجل معرفة أن الوهم هو تسرب من المخيلة يعدّل الحياة. فالإحباطات الأسرية، والسياسية والشخصية لإيديث ليست مجانية؛ إنها تتجسد فـــي ذلك الواقع الذي يسبب لها أكبر ألم: ابنها كلايف. وبدلاً من أن يظهر فـــي الصحيفة مثلما هو ـــــ فتى ضعيف وفاشل، لم يُقبل فـــي الجامعة ولا يعرف كيف يعمل ـــــ كان كلايف، فـــي الصفحات التي تكتبها أمه، ينفصم عن الأصل ويظهر وهو يعيش الحياة التي تتمناها له إيديث: حياة صحفـــي لامع، متزوج من فتاة من أسرة راقية، له أبناء، ووظيفة محترمة،

وابن يملأ أمه بالاعتزاز.

«ولكن الوهم هو علاج آني فقط، ذلك أنه، وعلى الرغم من فائدته فـــي تعزية إيديث وشغلها عن المصاعب، يبدأ بتثبيط همتها فـــي النضال من أجل الحياة، عازلاً إياها فـــي عالم ذهني. فتفتر علاقاتها بأصدقائها وتسوء؛ وتفقد عملها وتنتهي إلى الخذلان. ومع أن موتها يبدو مبالغاً فـــيه، إلا أنه متماسك من الوجهة الرمزية؛ فإيديث تنتقل جسدياً إلى حيث كانت قد انتقلت وهي فـــي الحياة: إلى اللاواقع.

«الرواية مبنية ببساطة خادعة، يرتسم تحتها نص آخر دراماتيكي، هو الصراع المتنقل ما بين الشقيقات العدوات، وما بين الواقع والرغبة، والمسافات الفاصلة بينهما التي لا يمكن تجاوزها، إلا فـــي بهو معجزات الروح الإنسانية.»

أحس دون ريغوبيرتو بأن أسنانه تصطك ويديه تتعرقان. لقد تذكر الآن هذه الرواية العابرة وسبب فكرته التي كتبها. هل سينتهي مثلما انتهت إيديث، منزلقاً نحو الدمار بسبب إساءة استعماله للخيال؟ ولكن، على الرغم من ذلك، وتحت هذه الفرضية الكئيبة، كان السروال الداخلي، الوردة العابقة، ما يزال فـــي قلب وعيه. ما الذي حدث لدون نيبوموثينو؟ وما الذي كانت عليه حركاته ومعضلاته بعد محادثته الهاتفـــية مع الشاب ريغوبيرتو؟ هل عمل بنصيحة تلميذه؟

كان قد بدء صعود الدرج على رؤوس أصابعه، فـــي ظلمة نسبية، يمكن فـــيها تمييز خزائن الكتب وحواف الأثاث. وعند الدرجة الثانية توقف، وانحنى، وأمسكت أصابعه المتصلبة بذلك الشيء الثمين

ـــــ أهو من الحرير؟ من الكتان؟ــــ، رفعه إلى وجهه وشمه، مثل حيوان يتقصى إذا ما كان هذا الشيء المجهول صالحاً للأكل. ثم أغمض عينيه وقبله، شاعراً ببداية دوار جعله يرتجف، فأمسك بالدرابزين. لقد كان مصمماً، سيفعل ذلك. واصل صعود الدرج، وهو يحمل السروال الداخلي، وعلى رؤوس أصابعه، خوفاً من أن يفاجأ أو كما لو أن الضجة ــــ كانت الدرجات تئن بخفوت ــــ يمكن لها أن تُفسد السحر. كان قلبه ينبض بشدة إلى حد أنه فكر فـــي كم سيكون غير ملائم، وسخيف، أن يصاب بنوبة قلبية فـــي هذه اللحظة بالذات. لا لم تكن إغماءة، وإنما هو الفضول والإحساس (اللذين لا وجود لهما فـــي حياته) بأنه يتذوق ثمرة محرمة مما سرّع جريان الدم فـــي عروقه. كان قد وصل إلى الممر، ووقف أمام باب الحقوقية. ضغط على فكه بكلتا يديه لأن هذا الاصطكاك الفظ سيؤثر تأثيراً سيئاً على مضيفته. تسلح بالشجاعة («جعل من أحشائه قلباً»، تلعثم دون ريغوبيرتو الذي كان يتعرق بغزارة ويرتعش فـــي الوقت نفسه) وطرق بأصابعه، ببطء شديد. انفتح الباب الذي كان مغلقاً فقط بصرير مُرحب.

وما رآه أستاذ فلسفة القانون الموقر من تلك العتبة المغطاة بالسجاد، بدّل كل أفكاره عن العالم، والإنسان ــــ وعن القانون بالتأكيد ــــ وانتزع زفرة متعة من دون ريغوبيرتو اليائس. كان هناك ضوء ذهبي وأزرق نيلي (فان جوخ؟ بوتوشيلي؟ أحد التعبيريين من نوع إميل نولد؟) يرسله من سماء فـــيرجينيا المفعمة بالنجوم قمرٌ مستدير وأصفر، يسقط بالكامل، ربما بأمر من مصمم

مَشاهِد أو مهندس إضاءة بارع، على السرير، دون أي هدف آخر سوى إبراز جسد الدكتورة العاري. من كان يتصور أن تلك الملابس الصارمة التي تظهر فـيها على منبر دروسها، وتلك البدلات المخيطة يدوياً التي تعرض بها حججها واقتراحاتها فـي المؤتمرات، وتلك العباءات المطرية التي اعتادت أن تتدثر بها فـي الشتاء، تخفـي هذه التكورات التي يمكن لها أن تنازع براكسيتيليس[1] بتناسقها ورينوار بأشكالها اللحمية المسبوكة؟ كانت مستلقية، الرأس يستند إلى الذراعين المتقاطعين، بحيث كان الوضع يجعلها تبدو أطول قامة، ولكن لم يكن كتفاها ولا لحم ذراعيها البضين («بضين بالمعنى الإيطالي»، حدد ذلك دون ريغوبيرتو الذي لم يكن يميل بأي حال إلى ما له علاقة بالموت وإنما كان يميل بالمقابل إلى الليونة[2]) ولا هذا الظهر المنحني هو الذي شدّ نظرات دون نيبوموثينو الذاهلة ومغنطها. بل ولا الفخذان العريضان الحليبيان أو القدمان الصغيرتان بباطنهما الوردي. وإنما تلك الفلقتان المتماسكتان اللتان ترتفعان بسعادة وقحة وتلمعان مثل قمتي جبل ذي رأسين («من تلك القمم الجبلية التي تنطح السحاب فـي اللوحات اليابانية من عصر ميجي» شارك دون ريغوبيرتو برضا). ولكن، هناك أيضاً روبينز، وتيزيانو، وكوربيه، وإنجريه ونصف دزينة أخرى من الرسامين المعلمين فـي سبك المؤخرات الأنثوية ممن بدا كما لو أنهم قد شكلوا عصابة ليمنحوا

---

[1] ـ براكسيتيليس Praxiteles: نحات إغريقي اشتهر بتماثيل أفروديت التي كان ينحتها.

[2] ـ الكلمة التي يستخدمها هي morbido وتعني بالاسبانية البياض، بما فـي ذلك بياض الموت وشحوبه، بينما تعني الكلمة نفسها بالايطالية الليونة والنعومة.

الواقعية، والقوام، والوفرة، ثم في الوقت نفسه الرقة والنعومة والروح والتوتر الحسي لهذه المؤخرة التي يشع بياضها في العتمة. لم يعد دون بيومبوثينو قادراً على كبح نفسه، ودون أن يعرف ما الذي يفعله تقدم خطوتين إلى الأمام، وحين وصل إلى جانب السرير خر على ركبتيه. فأَنَّ خشبُ الأرضية العتيق.

ـــ اعذريني يا دكتورة، لقد وجدت شيئاً يخصك على الدرج ـــ تلعثم وهو يشعر أن أنهاراً من اللعاب تسيل من زاويتي شفتيه.

كان يتكلم بصوت خافت جداً لا يمكنه هو نفسه أن يسمعه، أو ربما أنه كان يحرك شفتيه دون أن يُصدر أي صوت. لأنه لم ينبه الحقوقية لا بصوته ولا بحضوره. كانت تتنفس بهدوء، بانتظام، مستغرقة في حلم بريء. ولكن، هذا الوضع الذي هي فيه، وعريها، وتركها باب مخدعها مغلقاً دون إحكام، وإفلاتها شعرها، هذا الشعر ـــ الأسود السبط الطويل ـــ الذي يكنس كتفيها وظهرها، في تضاد بين قامته المائلة إلى الزرقة وبياض بشرتها، أيمكن لكل هذا أن يكون بريئاً؟ «لا، لا»، أصدر دون ريغوبيرتو حكمه. «لا، لا»انقاد البرفسور المكروب وهو يمر بنظرته على هذا السطح المتموج الذي يغوص في الجانبين وينتصب مثل بحر مائج من اللحم الأنثوي، يمجده ضوء القمر (وصحح دون ريغوبيرتو: «من الأفضل القول: الضوء الزيتي في ظلال أجساد نيزانو»)، على بعد سنتمترات قليلة من وجهه المذهول: «ليست براءة ولا أي شيء من هذا القبيل. إنني هنا لأنها أرادت ذلك وخططت له».

ومع ذلك، لم يستخلص من هذه النتيجة النظرية القوة الكافية

للإقدام على ما كانت تطالبه به بعض الغرائز المستعادة: أن يمر برؤوس أصابعه على البشرة الملساء، وأن يضع شفتيه الزوجيتين فوق هذه الروابي والمنخفضات التي يشعر مسبقاً بدفئها، برائحتها، وبطعمها الذي يتجاور فـــيه الحلو والمالح دون أن يختلطا. ولكنه لم يكن يجرؤ على عمل أي شيء، متجمداً من السعادة، باستثناء النظر، والنظر. وبعد أن ذهب وجاء مرات كثيرة من رأس تلك المعجزة إلى قدميها، وبعد أن جابها مرة بعد أخرى، بقيت عيناه جامدتين، مثل الذواقة المتلذذ الذي لم يعد يحتاج إلى مواصلة التذوق لأنه حدد الـــ non plus ultra[1] فـــي قبو الخمر، فـــي المشهد الذي تشكله المؤخرة المكورة بحد ذاتها. فقد كانت تبرز فوق بقية الجسد مثل إمبراطور أمام بطانته، مثل زيوس أمام آلهة الأولمب الصغار. («تحالف سعيد ما بين رسام القرن التاسع عشر كوربيه والرسام المعاصر اوركولو»، شرّف دون ريغوبيرتو المشهد بإشارات فنية.) وكان المعلم النبيل، الخارج من مداره، يتأمل تلك المعجزة ويؤلهها بصمت. ما الذي كان يقوله؟ إنه يكرر قولاً لكيتس (*«Beauty is truth, truth is beauty»*) وبماذا كان يفكر؟ «هذه الأشياء موجودة إذن. ليس فقط فـــي الأفكار الخبيثة، وفـــي الفن وتخيلات الشعراء، وإنما هي موجودة كذلك فـــي الحياة الواقعية. إن مؤخرة مثل هذه ممكنة الوجود فـــي الواقع الذي من لحم وعظم، ولدى النساء اللواتي يملأن عالم الأحياء.» أيكون قد استمنى؟ هل أشرف على تلويث سرواله الداخلي؟ ليس بعد. مع أن الحقوقي

---

[1] ــ باللاتينية فـي الأصل، وتعني : الأفضل، أو ما لا يعلى عليه.

العجوز كان يشعر فـــي أسفل بطنه بأحاسيس جديدة، بعملية استيقاظ، ببروز أُسروع يتمطى ويتمدد بعد النوم. أيفكر بشيء آخر؟ بهذا: «وكل هذا ما بين ساقي وظهر صديقتي وزميلتي المحترمة، هذه الصديقة الطيبة التي طالما تراسلت وإياها حول موضوعات عويصة فـــي الفلسفة الحقوقية، والأخلاق التشريعية، والتاريخية المنهجية؟». كيف لم يخطر له قبل هذه الليلة رغم كثرة الندوات والمؤتمرات واللقاءات والمنتديات التي التقيا وتحدثا وتناقشا وتجادلا فـــيها، لم يخطر له أن تحت تلك البدلات الرسمية ذات المربعات، والمعاطف الفرائية، والعباءات المبطنة، والواقيات المطرية التي بلون النمل، تختبئ مثل هذه الروائع؟ من كان بإمكانه أن يتصور أن ذلك الدماغ المتيقظ، ذلك الذكاء الحقوقي، تلك الموسوعة القانونية، تمتلك كذلك جسداً مبهراً فـــي تنظيمه وتناسقه؟ وخُيل إليه للحظة ـــــ ألا يكون قد رأى؟ ـــــ أن جبلي اللحم الساكنين، دون مبالاة بوجوده ووجومه المخدر، قد أفلتا ريحاً أصم ومرحاً انفجر قبالة أنفه وملأه بشذى حاد. لم يسبب له ذلك الضحك، ولم يزعجه («ولم يهيجه أيضاً»، فكر دون ريغوبيرتو). أحس بالتعرف على نفسه، مثلما هو، فهذه الضرطة هي بطريقة ما ولسبب معقد وعصي على الشرح (وفكر مقارناً: «مثل نظريات كلسين Kelsen، التي لم يكن هو نفسه يشرحها جيداً») نوع من الموافقة يشاركه بها هذا الجسد المهيب، مُظهراً أمامه هذه الحميمية الأشد حميمية، الغازات عديمة النفع الخارجة من حَيّة معوية ذات تجاويف تَصَورَها وردية ورطبة ونظيفة وشديدة الحساسية والتشكل مثل هاتين الإليتين المتحررتين الرابضتين على بعد ميليمترات من أنفه.

وعندئذ، وبرعب، عرف أن دونيا لوكريثيا كانت مستيقظة، ذلك أنه، رغم عدم تحركها، سمعها تقول:

ـــ هل أنت هنا يا دكتور؟

لم يبد عليها الغضب، ولا الخوف كذلك. لقد كان صوتها بالطبع، ولكنه مشحون بحرارة إضافــية. كان فــيها شيء مماطل، إيحائي، وحسية موسيقية. وتمكن الحقوقي فـــي حيرته، من التساؤل كيف أمكن لزميلته القديمة أن تتعرض فـــي هذه الليلة إلى كل هذه التحولات السحرية.

ـــ أعذريني، أعذريني يا دكتورة. أرجوك ألا تفسري وجودي هنا تفسيراً خاطئاً. يمكنني أن أوضح لك الأمر.

فطمأنته هي. وكلمته دون أدنى قدر من الانزعاج:

ـــ هل ضايقك الطعام؟ أتريد كأساً من الماء مع البيكربونات؟

كانت قد أمالت رأسها قليلاً، وأسندت خدها على ذراعها كوسادة، وراحت تتأمله بعينيها الواسعتين اللامعتين ما بين خصلات شعرها الأسود.

ـــ لقد وجدت على السلّم شيئاً يخصك يا دكتورة، وجئت لأعطيك إياه ـــ تلعثم البرفسور. وكان ما يزال راكعاً، وقد بدأ يشعر الآن بألم شديد فـــي عظام ركبتيه ـــ طرقتُ الباب، ولكنك لم تردي عليّ. وبما إن الباب كان مغلقاً فقط، فقد تجرأت على الدخول. لم أشأ إيقاظك. أرجوك ألا تسيئي الظن بي.

هزت رأسها موافقة، صافحة عنه، متكاسلة، مشفقة على تعذبه.

ـــ لماذا تبكي أيها الصديق الطيب؟ ما الذي جرى لك؟

وانكسر دون نيبوموثينو الذي لم يستطع الصمود حيال هذا الاهتمام المؤثر، وسلسلة هذه الكلمات المداعبة، وحنان النظرة اللامعة فـــي العتمة. وما كان حتى ذلك الحين مجرد دمعات بكماء تنحدر على خديه، تحول إلى نشيج مدوٍ، وتنهدات مؤثرة، وشلال من اللعاب والمخاط كان يحاول وقفه بكلتا يديه ـــ ففـــي تشوشه الذهني لم يستطع العثور على المنديل، ولا الجيب الذي كان المنديل فـــيه ـــ وبينما هو يختنق ، توسع فـــي هذا الاعتراف:

ـــ آه، لوكريثيا، لوكريثيا، أعذريني، فلست أستطيع كبح نفسي. لا تنظري إلى الأمر على أنه إساءة، بل على العكس تماما. لم أكن أتصور على الإطلاق شيئاً مثل هذا، بهذا الجمال، بهذا الكمال، مثل جسدك. أنت تعرفـــين كم أحترمك وأقدرك فكرياً، وأكاديمياً، وحقوقياً. ولكن رؤيتك بهذا الوضع هذه الليلة هو أفضل ما حدث طوال حياتي. أقسم لك يا لوكريثيا. إنني مستعد، مقابل هذه اللحظة، أن ألقي إلى القمامة بكل ألقابي، وكل درجات دكتوراه الشرف التي كرموني بها، وبكل الأوسمة والشهادات. (وقرأ دون ريغوبيرتو فـــي دفتره قولاً للشاعر إنريكي دي بينيا : «*لولا هذه السن التي أنا فـــيها، لأحرقت كل كتبي ومضيت لأجلس مثل متسول أمام باب بيتك. أجل يا مخلوقتي، واسمعي هذا جيدا: مثل متسول، أما باب بيتك*».) لم أشعر مطلقاً بمثل هذه السعادة العظيمة يا لوكريثيا. رؤيتي لك هكذا، وأنت دون ملابس، مثلما رأى أوليسيس نوزيكا، هي الجائزة الكبرى، والمجد الذي لا أظنني أستحقه. لقد تأثرتُ، وأفرطتُ. وأنا أبكي من التأثر والامتنان الذي

أشعر به. فلا تزدريني يا لوكريثيا.

وبدلاً من أن يفضفض كلامه عنه، فقد زاد من تأثره وبدأ الآن يشرق بدموعه. ترك رأسه يهوي على حافة السرير وواصل البكاء، وهو راكع طوال الوقت، متنهداً، وشاعراً بالحزن والسعادة، وبأنه مغموم ومحظوظ. وكان يتلعثم: «اعذريني، اعذريني». إلى أن أحس بعد ثوانٍ أو ساعات بيد لوكريثيا على رأسه، فاقشعر بدنه مثل قط. وراحت يدها تداعب شعره الشائب، لتواسية، وترافقه. وجاء صوتها أيضاً ليهدئ جرح روحه المفتوح بمداعبة طازجة:

ـــ اهدأ يا ريغوبيرتو. لا تبكِ يا حبيبي، يا روحي. كفى، لقد انقضى الأمر، ولم يتغير أي شيء. ألم تفعل ما أردته؟ دخلت، ورأيتني، اقتربت مني، وبكيت، وسامحتك. أيمكنني أنا أن أغضب منك؟ امسح دموعك، اعطس، ونم. نيني يا صغيري نيني.

كان البحر يتلاطم هناك فـــي الأسفل صافعاً جروف بارانكو وميرافلوريس، ولم تكن طبقة الغيوم الكثيفة تتيح رؤية النجوم ولا القمر فـــي سماء ليما. ولكن الليل كان يشرف على الانتهاء. وكان يمكن للفجر أن يبزغ فـــي أي لحظة. يوم يمضي. يوم يجيء.

محظورات على الجمال

لن تري مطلقاً لوحة لآندي وارهول ولا لفريدا كاهلو، ولن تصفقي لخطاب سياسي، ولن تسمحي بتشقق بشرة مرفقيك وركبتيك،

ولا بتيبس باطن قدميك.

لن تسمعي أبداً موسيقى ليغي نونو ولا أغنية احتجاجية لميرثيدس سوسا ولن تري فـيلماً لأوليفر ستون ولن تأكلي مباشرة أوراق الخرشوف.

لن تحكّي ركبتيك أبداً ولن تقصي شعرك ولن تصابي ببثور، ولا بنخر ولا بالتهاب ملتحمة العين ولا (وهذا أبعد احتمالاً) بالبواسير.

لن تسيري أبداً حافـية على الإسفلت، على الحجارة، على الحصى، على البلاط، على المُشمَّع، على التوتياء، على الاردواز، أو على المعدن، ولن تركعي على سطح لا يلين مثل كعك التشانكاي (قبل تحميصه).

لن تستخدمي أبداً فـي معجمك كلمات أرضيّ، خلاسي، توعية، رؤيوية، تجميلية، بذور الثمار أو قشورها، أو اجتماعي.

لن تملكي أبداً هامستير[1]ولن تتغرغري ولن تتثاءبي ولن تلعبي البريدج أبداً ولن تضعي قبعة، أو بيريه أو ضفـيرة ملفوفة فوق رأسك.

لن تخزني أي غازات على الإطلاق ولن تتفوهي بكلمات نابية ولن ترقصي الروك أند رول.

لن تموتي أبداً.

---

(1) ـ هامستير Hamster: نوع من القوارض موطنها أميركا، وخصوصاً الاكوادور.



VII. إبهام إيغون شـــيلي

ـــ جميع فتيات إيغون شيلي نحيلات وبارزات العظام، وهن يبدون لي جميلات ـــ قال فونتشيتو ـــ. وأنتِ بالمقابل ممتلئة، ولكنك تبدين لي جميلة أيضاً. كيف أفسر هذا التناقض يا خالتي؟

شحب وجه دونيا لوكريثيا:

ـــ أتقول إنني بدينة؟

كانت ساهية، تسمع صوت الطفل مثل خلفــية هامسة، مركزة تفكيرها فـــي الرسائل المغفلة ـــ ست رسائل فـــي أقل من عشرة

أيام ـــــ وفـــي الرسالة التي كتبتها إلى ريغوبيرتو فـــي الليلة السابقة وهي تضعها الآن فـــي جيب روبها. إنها تتذكر فقط أن فونتشيتو كان يتكلم ويتكلم، عن إيغون شيلي كالعادة، إلى أن استرعت سمعها كلمة «ممتلئة».

فراح يعتذر مومئاً بيديه:

ـــــ لم أقل بدينة. قلت ممتلئة يا خالتي.

وقالت متذمرة وهي تتفحص نفسها:

ـــــ أبوك المسؤول عن تحولي هكذا. لقد كنت نحيلة جداً عندما تزوجنا. ولكن خطر لريغوبيرتو أن موضة النحافة تدمر الجسد الأنثوي، وأن تقاليد الجمال العظيمة هي فـــي الوفرة. هكذا كان يقول: «الشكل هو الوفرة». ولكي أرضيه، سمنتُ. ولم يعد بإمكاني أن أنحف من جديد.

ـــــ إنك رائعـــة هكـــذا، أقســـــم لك يا خـــالـــتي ـــــ واصـــل فونتشـــــيتو الاعتذار ـــــ. قلت لك ما قلته عن نحيلات إيغون شيلي لأنه، ألا يبدو لك غريباً أنهـــن يعجـــبنني، وأنت أيضـــاً تعـــجبينني، مـــع أنك ضعفهـــن حجمـــاً على الأقل؟

لا، لا يمكن أن يكون هو كاتب الرسائل المغفلة. لأن الرسائل تمتدح جسدها، بل إن إحداها تحمل عنوان «تمجيد جسد الحبيبة»، تشير إلى كل عضو من جسدها ـــــ الرأس، الكتفان، الخصر، النهدان، البطن، الفخذان، الساقان، الكاحلان، القدمان ـــــ وترفق ذلك باستشهاد من قصيدة أو من لوحة رمزية. المغرم الخفـــي بهيئتها الوافرة لا يمكن أن يكون إلا ريغوبيرتو. («هذا الرجل

مفتون بك حقاً»، هكذا قالت خوستينيانا بعد أن قرأت التمجيد، ثم أضافت: «كم يعرف جسدك يا سيدتي! لا بد أنه دون ريغوبيرتو. من أين سيأتي فونتشيتو بهذه الكلمات، مهما بدا أكبر من سنه. مع أنه هو أيضاً يعرف جسدك كله، أليس كذلك؟»)

ـــ لماذا أنتِ صامتة طوال الوقت، ولا تحدثينني؟ إنك تنظرين إلي وكأنك لا ترينني. أنت غريبة اليوم يا خالتي.

ـــ بسبب هذه الرسائل المغفلة. لا أستطيع أن أنتزعها من رأسي يا فونتشيتو. فمثلما يتسلط إيغون شيلي على ذهنك، لدي أنا الآن هذه الرسائل اللعينة. إنني أقضي النهار في انتظارها، وفي قراءتها، وتذكرها.

ـــ ولكن، لماذا تقولين إنها لعينة يا خالتي؟ أتراها تهينك أو تقول شيئاً قبيحاً؟

ـــ لأنها تأتي دون توقيع. ولأنني أشعر أحياناً بأن مرسلها هو شبح، وليس أباك.

ـــ أنت تعرفين جيداً أنها كلها منه. كل شيء يسير على ما يرام يا خالتي. لا تنزعجي. عما قريب ستأتي المصالحة، وسترين.

كانت مصالحة دونيا لوكريثيا ودون ريغوبيرتو قد تحولت إلى الهوس الثاني المتسلط على عقل الطفل. فهو يتحدث عنها بثقة كبيرة لا تملك الخالة معها الحماسة لدحض رأيه والقول له إنها مجرد أوهام لهذا الواهم المتمادي في الوهم الذي صار إليه. هل أحسنتْ صنعاً بعرض الرسائل المغفلة عليه؟ لقد كان بعضها جريئاً في الإشارة إلى حميمياتها لدرجة أنها كانت تعاهد نفسها بعد قراءتها:

«لن أريه هذه». وفـــي كل مرة كانت تنتهي إلى عرضها عليه، وترصد رد فعله، لعلها ترى إيماءة ما. ولكنه كان يبدي فـــي كل مرة مظهر المفاجأة والاستثارة نفسه، ويستخلص على الدوام النتيجة نفسها: إنها من أبيه، وإنها دليل آخر على أنه لم يعد يحقد عليها. ولاحظت الآن أن فونتشيو قد استغرق فـــي التفكير أيضاً، مبتعداً عن صالة بيتها فـــي غابة أشجار الزيتون، سارحاً فـــي ذكرى ما. كان ينظر إلى يديه، ويقربهما كثيراً من عينيه؛ يضمهما، يمدهما، يفتح أصابعهما، يخفـــي الإبهام، يقاطعهما ويفصلهما فـــي أوضاع غريبة، مثل من يعرضون أشكالاً على الجدار بظل أيديهم. ولكن فونتشيتو لم يكن يحاول تشكيل أية أشكال صينية فـــي المساء الربيعي؛ وإنما كان يتفحص أصابعه مثل عالم حشرات يتفحص نوعاً مجهولاً منها بعدسة التكبير.

ـــ أيمكنني أن أعرف ما الذي تفعله؟

لم يتوقف الطفل وواصل حركات يديه فـــي الوقت الذي كان يرد عليها بسؤال آخر:

ـــ أيبدو لك أن يديّ مشوهتان يا خالتي؟

ما الذي يأتي به اليوم هذا الشيطان الصغير؟

ولعبت دور الطبيب الأخصائي:

ـــ دعني أر. ضع يديك هنا.

لم يكن فونتشيتو يلعب. فقد نهض بجدية، واقترب منها ووضع يديه فوق راحتيها الممدودتين. ولدى ملامسة تلك النعومة الملساء وحساسية عظام أصابعه، أحست دونيا لوكريثيا بالاختلاج. لقد كانت

يداه هشتين، وأصابعه نحيلة، وأظفاره وردية قليلاً ومشذبة بإتقان. ولكن كان هناك على رؤوس الأصابع لطخات من الحبر أو الفحم. وتظاهرت بأنها تفحص اليدين بينما هي تداعبهما، وانتهت إلى القول:

ــــ ليس فــيهما أي تشويه. ولكنّ قليلاً من الماء والصابون لن يكون سيئاً لهما.

ــــ يا للأسف. قال الطفل ذلك دون أي أثر للمزاح وهو يسحب يديه من يدي دونيا لوكريثيا، ثم تابع: ــــ لأنني لا أشبهه فــي هذا الأمر.

«ها هي ذي البداية. لا بد أن يصل.» إنها لعبة كل يوم.

ــــ اشرح لي هذا.

واستعد الطفل لعمل ذلك. ألم تكن قد انتبهتْ إلى أن الأيدي هي نزوة إيغون شيلي؟ يداه، وكذلك أيدي الفتيات والرجال الذين كان يرسمهم. إذا لم تكن قد انتبهت من قبل، فلتلاحظ ذلك الآن. وخلال لحظة كان كتاب اللوحات على ركبتي دونيا لوكريثيا. أترين القرف الذي كان إيغون شيلي يشعر به على نحو الإبهام؟

وانفجرت دونيا لوكريثيا فــي الضحك:

ــــ الإصبع الإبهام؟

فألح الطفل بحماسة:

ــــ لاحظي ذلك فــي رسومه. رسم أرثر روسلر مثلاً. أو هذه اللوحة: *الصورة المزدوجة للمفتش العام هنريش بينش وابنه أوتو*؛ وصورة إنريش ليدرير؛ وصوره الذاتية. إنه لا يُظهر فــيها كلها إلا

أربعة أصابع. أما الإصبع الإبهام فـيخفـيه دائماً.

ما هو السبب؟ لماذا يخفـيه؟ هل لأن الإبهام هو أقبح أصابع اليد؟ ألأنه يحب الأرقام المزدوجة ويؤمن بأن الأرقام الفردية تجلب سوء الطالع؟ هل لأن إبهامه كان مشوهاً ويسبب له الخجل؟ لا بد أن هناك شيئاً فـي يديه، وإلا ما هو السبب الذي يجعله يلتقط صوراً ضوئية وهو يخفـي يديه فـي جيوبه، أو يُظهرها فـي هيئة مضحكة، بِلَيّ أصابعه مثل ساحرة، أو برفعها أمام الكاميرا مباشرة، أو بوضعها على رأسه وكأنه يريدها أن تفلت منه، وتمضي طائرة؟ إنه يفعل هذا بيديه، وبأيدي من يرسمهم من الرجال والفتيات. ألم تُلاحِظْ ذلك؟ هؤلاء الفتيات ذوات الأجساد جيدة التناسق، أليس غريباً أن تكون لهن مثل هذه الأصابع الرجولية، بمفاصلها العظمية الخشنة؟ فـي هذه اللوحة المرسومة عام 1910 مثلاً، *فتاة عارية واقفة بشعر أسود*، أليس هناك نشاز فـي هاتين اليدين الرجوليتين، بأظفارهما المربعة، والمماثلتين تماماً لليدين اللتين كان يرسمهما إيغون فـي صوره الذاتية؟ أولم يفعل الشيء نفسه فـي كل النساء اللواتي رسمهن؟ هذه اللوحة مثلاً، ***عارية واقفة***، من عام 1913.

وأخذ فونتشيتو نفساً:

ـــ أو أنه كان نرجسياً، مثلما قلتِ أنتِ، يرسم يديه بالذات، حتى ولو كان فـي اللوحة شخص آخر، رجل أو امرأة.

ـــ أأنت من اكتشفت هذا؟ أم أنك قرأته فـي مكان ما؟ ـــ كانت دونيا لوكريثيا مشوشة. فهي تتصفح الكتاب، وما تراه فـيه كان يؤكد أقوال فونتشيتو.

هز الطفل كتفــيه دون أن يولي المسألة أهمية:

ــــ أي شخص يتأمل لوحاته كثيراً يلاحظ ذلك. ألا يقول أبي إن الفنان لا يكون عبقرياً إلا إذا كان له منهج يحدد هويته؟ ولهذا فإنني أدقق دائما فــي نزوات الرسامين التي تنعكس فــي لوحاتهم. وإيغون شيلي لديه ثلاث نزوات: وضع اليدين غير المتناسقتين نفسيهما لكل شخوصه، منتزعاً منها الإبهام. وأن تُظهر البنات والآنسات أشياءهن، برفع تنانيرهن وفتح أرجلهن. والثالثة، أنه كان يرسم نفسه وهو يضع يديه فــي أوضاع غير تلقائية تشد الانتباه.

ــــ حسن، حسن. إذا كنت تريد أن تُدهشني، فقد توصلتَ إلى ذلك. أتعرف يا فونشيتو؟ أنت منهجي عظيم فعلاً. وإذا كانت نظرية أبيك صحيحة، فقد أصبح لديك أحد المتطلبات اللازمة للعبقرية.

ــــ لا ينقصني إلا أن أرسم اللوحات ــــ قال ذلك ضاحكاً. وعاد لينبطح على الأرض ويتفحص يديه. كان يحركهما وكأنه يقلد الأوضاع الشاذة التي تظهر بها الأيدي فــي لوحات وصور شيلي. وكانت دونيا لوكريثيا تراقب إيماءاته بمرح. وفجأة اتخذت قرارها: «سأقرأ له رسالتي وأرى ما الذي سيقوله عنها». ثم إنها إذا قرأتها بصوت عال، فستعرف إذا كان ما كتبته جيداً وتقرر إذا كانت ستبعث بها إلى ريغوبيرتو أم تمزقها. ولكنها حين كادت أن تقول ذلك، تذكرت. وفضلت أن تقول له:

ــــ إنني قلقة لأنك تفكر فــي شيلي ليلاً ونهاراً ــــ فتوقف الطفل عن اللعب بيديه ــــ. أقولُ لكَ هذا بكل الحب الذي أكنه لك. لقد كان يبدو لي جميلاً فــي أول الأمر أن تعجبك رسومه كثيراً،

وأن تتشبه به. ولكن محاولتك في التماثل معه في كل شيء، تجعلك تتخلى عن كونك أنت نفسك.

ـــ ذلك لأنني هو يا خالتي. وحتى لو اعتبرتِ الأمر مضحكاً، فإنه هكذا. أنا أشعر بأنني هو.

ابتسم لها ليطمئنها. «انتظري لحظة»، دمدم بذلك وهو ينهض ويتناول كتاب اللوحات، وراح يتفحصه باحثاً عن شيء ما، ثم أعاد وضعه على ركبتيها مفتوحاً. ورأت دونيا لوكريثيا لوحة ملونة؛ يمتد فيها، فوق خلفية باهتة، رسم لسيدة متلوية ترتدي ملابس تنكر كرنفالية، مع صفوف من خطوط متعرجة حمراء وصفراء وسوداء. وشعرها مغطى بضفيرة ملفوفة كالعمامة، وهي حافية القدمين، وتنظر نظرة حزن باهتة بعينيها الواسعتين، بينما يداها مرفوعتان فوق رأسها وكأنها تستعد للفرقعة بصنّاجات الأصابع.

وسمعتْ فونتشيتو يقول لها بجدية كاملة:

ـــ حين رأيتُ هذه اللوحة أدركتُ أنني هو.

حاولتْ أن تجد العلاقة، ولكنها لم تتوصل إلى ذلك. ما الذي يرمي إليه هذا الصبي؟ إخافتها؟ وفكرت: «إنه يلعب معي مثل قط صغير يداعب فأرة كبيرة».

ـــ هكذا إذن؟ وما الذي كشف لك في هذه اللوحة عن أنك إيغون شيلي مجسداً؟

فضحك فونتشيتو:

ـــ ألم تلاحظي يا خالتي. تأملي اللوحة من جديد، جزءاً فجزءاً. وسترين أنه على الرغم من أن شيلي قد رسمها في

مرسمه فـــي فـــيينا عام 1914، إلا أن البيرو تتكرر فـــي صورة هذه السيدة خمس مرات.

عادت السيدة لوكريثيا إلى تأمل الصورة. من أعلى إلى أسفل. ومن أسفل إلى أعلى. وأخيراً انتبهتْ إلى أنه فـــي لباس المهرج الملون الذي ترتديه الموديل الحافـــية، كانت هناك خمس صور صغيرة جداً عند مستوى الذراعين، وفـــي خاصرتها اليمنى، وعلى الساق، وعلى إطار تنورتها. قرّبت الكتاب إلى عينيها وتفحصت بتمعن. أجل، تلك الأشكال تبدو مثل هنديات صغيرات. وهن يرتدين مثل ملابس فلاحات كوسكو.

وقال فونتشيتو قارئاً أفكارها:

ـــــ أجل، إنهن كذلك، هنديات من الأنديز. أترين؟ البيرو موجودة فـــي لوحات إيغون شيلي. ولهذا انتبهت للأمر. لقد كان وجودهن بمثابة رسالة بالنسبة إليّ.

واصل التكلم محتفلاً بهذه المعلومة العجيبة حول حياة وأعمال الرسام إلى حد خيل معه لدونيا لوكريثيا بأنه عالم بكل شيء، وبدأت تشك بوجود مكيدة، أو كمين تحميّة. هناك تفسير لهذه الرسوم يا خالتي. فالآنسة التي فـــي اللوحة تدعى فريدريك ماريا بيير. وهي المرأة الوحيدة التي رسمها أعظم رسامَين فـــي فـــيينا فـــي عصرها: إيغون وكليمت. وكانت ابنة سيد ثري جداً، يملك كباريهات، وقد كانت سيدة عظيمة؛ تساعد الفنانين وتجد مشترين لأعمالهم. وقبل أن يرسمها شيلي بوقت قصير قامت برحلة إلى بوليفـــيا والبيرو وأخذت من هنا أولئك الهنديات المصنوعات من

القماش، اشترتهن من أحد الأسواق الشعبية فـي ليما أو لاباز. وقد خطر لإيغون شيلي أن يرسمهن على فستان السيدة. أي أنه ليست هناك أي معجزة فـي وجود خمس هنديات فـي اللوحة. ولكن، ولكن...

ـــ ولكن، ماذا؟ شجعته دونيا لوكريثيا المستغرقة فـي حكاية فونتشيتو، منتظرة أن يكشف عن شيء عظيم.

ـــ ولكن، لا شيء ـــ أضاف الصبي وهو يقوم بحركة تدل على التعب ـــ هؤلاء الهنديات وضعن هنا لكي أجدهن أنا فـي أحد الأيام. خمس بيرويات فـي لوحة لشيلي. ألا تلاحظين ذلك؟

ـــ وهل تحدثن إليك؟ هل قلن لك إنك أنت من رسمتهن قبل ثمانين سنة؟ وإنك تجسيد لشخص آخر؟

ـــ حسن، إذا كنت ستسخرين مني، فمن الأفضل أن نتحدث فـي موضوع آخر يا خالتي.

ـــ لا يعجبني أن أسمعك تردد حماقات ـــ قالت ـــ. ولا أن تفكر فـي حماقات، ولا أن تؤمن بحماقات. فأنت أنت وإيغون شيلي كان إيغون شيلي. أنت تعيش هنا فـي ليما، وهو عاش فـي فـيينا فـي بدايات القرن. والتقمص أمر لا وجود له. ولهذا دعك من هذه الترهات، إذا كنت لا تريدني أن أغضب منك. اتفقنا؟

هز الطفل رأسه موافقاً على مضض. وكان الأسف بادياً على وجهه، ولكنه لم يتجرأ على الرد عليها، لأنها كلمته بصرامة غير معتادة. وقد حاولت أن تصالحه، فدمدمت وهي تخرج مسودة الرسالة من جيبها:

ـــــ أريد أن أقرأ لك شيئاً كتبته.

ـــــ هل كتبتِ رداً لأبي؟ ـــــ قال الطفل بسعادة وهو يجلس على الأرض ويقرب رأسه منها.

أجل، فـــي الليل. ولكنها لا تعرف حتى الآن إذا ما كانت سترسلها. إن ست رسائل مغفلة هو عدد كبير. ومرسلها هو ريغوبيرتو. ومن سيكون سواه؟ من يمكنه أن يحدثها بهذه الطريقة العائلية والمثيرة؟ ومن الذي يعرفها بكل هذا التفصيل؟ لقد قررت وضع حد لهذه المسرحية. وتريد أن تعرف رأيه.

ـــــ هيا اقرئي يا خالتي.ـــــ قال الطفل بنفاد صبر. وكانت عيناه تلمعان ووجهه يكشف عن فضول عظيم، وعن شيء... شيء، وبحثت دونيا لوكريثيا عن الكلمة المناسبة، شيء من الابتهاج الخبيث؛ بل ومن الإثم. تنحنحت قبل أن تبدأ، وقرأت دون أن ترفع عينيها حتى النهاية:

حبيبي:

لقد قاومت إغراء الكتابة إليك مذ علمت أنك مرسل الرسائل الملتهبة التـي ملأت، منذ أسبوعين، هذا البيت باللهيب، بالسعادة، بالحنين والأمل، وملأت قلبي وجوانحي بالنار العذبة التـي تتوهج دون أن تحرق، وبالحب والرغبة متحدين فـــي زواج سعيد.

ولماذا عليك أن توقع رسائل لا يمكن لأحد سواك أن يكتبها؟ من الذي تفحصني، وشكلني، واخترعني مثلما فعلت أنت؟ من يمكنه أن يتحدث عن النقاط الحمراء الصغيرة تحت إبطي، وعن العروق

الوردية في التجاويف المخبأة بين أصابع قدمي، وعن هذا «الفم الصغير المزموم المحاط بدائرة منمنمة من تعرجات لحمية حية، ما بين الزرقاء والرصاصية، التي يجب الوصول إليها بالتسلق على أعمدة ساقيك المرمريتين المصقولتين»؟ أنت وحدك القادر على ذلك يا حبيبي.

*منذ السطور الأولى من الرسالة الأولى عرفتُ أنكَ أنت. ولهذا، وقبل أن أنتهي من قراءتها، نفذتُ تعليماتك. تعريتُ واتخذت ذلك الوضع من أجلك، قبالة المرآة، مقلدة لوحة **دانابيه** لكليمت. وعدت، كما في ليالي الشوق الكثيرة في عزلتي الحالية، إلى التحليق معك في ممالك الوهم هذه التي كنا نرتادها معا على امتداد سنواتنا المشتركة التي كانت بالنسبة إلي مصدر عزاء وحياة أعود لأنهل منها في الذاكرة، لكي أتحمل الروتين والفراغ اللذين تليا ما كان معك مغامرة وكمالاً.*

*وبقدر ما تسمح به قواي، نفذتُ مطالبك بحرفيتها ــــ ولست أقول اقتراحاتك وتوسلاتك ــــ في رسائلك السبع. لقد لبستُ وخلعت، تنكرت وتقنعت، انبطحت، تمددت، انكمشت، قرفصت وجسدت ــــ بجسدي وروحي ــــ كل نزوات رسائلك، فأي متعة أكبر بالنسبة لي من إرضائك؟ لك ومن أجلك كنتُ ميسالينا وليدا، مجدلية وسالومي، ديانا مع قوسها وسهامها، والجميلة العارية، وسوزان العفيفة حين فاجأها المسنون الشبقون، وكنتُ الجارية التي رسمها إنجري في **الحمام التركي**. ومارست الحب مع مارس، ونبوخذنصر، وساردانالو، ونابليون، ومع شعراء، وساتورات، وعبيد*

وعبدات، وبرزتُ من البحر مثل حورية، وأخمدت وأججت أشواق أوليسيس. لقد كنت مركيزة لدى وايو، وغادة عند تيزيان، وإحدى عذراوات مويللو، وسيدة عذراء عند بيير ديلافرانسيسكا، وفتاة جيشا عند فوجيتا وشقية عند تولوزـــــ لوتريك. وقد تكلفت جهداً فـــي الوقوف على رؤوس أصابعي مثل راقصة ديغاس، وصدقني أنني حاولت أيضاً، لكي لا أخذلك، ورغم التشنجات التي أصابتني، أن أتحول إلى ذاك الذي تسميه أنت التقلبات التكعيبية لخوان غريس.

اللعب معك مجدداً، ولو عن بعد، جعلني أفضل، جعلني أسوأ. أحسست من جديد بأنني لك وبأنك لي. وحين كنت أنهي اللعب، كانت وحدتي تزداد وأشعر بحزن أكبر. هل ضاع إلى الأبد ما قد ضاع؟

مذ تلقيت الرسالة الأولى عشت على انتظار التالية، تلتهمني الشكوك وأنا أحاول أن أحزر نواياك. أتريدني أن أرد عليك؟ أم أن إرسالك لها دون توقيع يعني أنك لا تريد إقامة حوار، وإنما تريدني أن أسمع مونولوجك وحسب؟ ولكنني هذه الليلة، وبعد أن أديت بوداعة دور السيدة البرجوازية النشيطة لدى فـــيرنر، قررت أن أكتب إليك الرد. ثمة شيء، من أعماق شخصي المظلمة التي لم يسبرها أحد سواك، أمرني بتناول القلم والورقة. هل أحسنتُ صنعاً؟ ألم أخالف هذا القانون غير المكتوب الذي يحظر على أي صورة الخروج من اللوحة والتحدث إلى رسامها؟

أنت يا محبوبي تعرف الجواب، فأطلعني عليه.

ــــ عجيبة هذه الرسالة ــــ قال فونتشيتو ذلك. وكانت حماسته تبدو طبيعية ــــ أنتِ تحبين بابا كثيراً يا خالتي!

كان متورداً من الحياء ومشعاً، وقد لاحظت دونيا لوكريثيا ــــ لأول مرة ــــ بأنه كان مضطرباً أيضاً.

ــــ لم أتوقف عن حبه مطلقاً. ولا حتى عندما حدث ما حدث.

أظهر فونتشيتو على الفور تلك النظرة البيضاء، نظرة فقدان الذاكرة، التي تُفرغ عينيه كلما أشارت دونيا لوكريثيا بطريقة ما إلى تلك المغامرة. ولكنها لاحظت أن تورد الحياء يختفــي من خديّ الطفل ويحل محله شحوب صدفــي.

ــــ ورغم أننا أنا وأنتَ نرغب فــي لو أن ذلك لم يكن قد حدث، وحتى لو كنا لا نتحدث عن ذلك مطلقاً، إلا أن ما حدث قد حدث. ولا يمكن محوه ــــ قالت دونيا لوكريثيا ذلك وهي تبحث عن عينيه ــــ وحتى لو كنتَ تنظر إليّ وكأنك لا تعرف عم أتحدث، إلا أنك تتذكر كل ما جرى جيداً مثلما أتذكره أنا. ولا بد أن تأسف لحدوثه مثلي أو أكثر مني.

لم تستطع مواصلة الكلام. فقد راح فونتشيتو يتأمل يديه من جديد، بينما هو يحركهما، مقلداً أوضاع شخوص شيلي المتكلفة: يجعلهما متيبستين ومتوازيتين على مستوى كتفــيه، مع إخفاء الإبهام وكأنه مقطوع، أو فوق رأسه، متقدمتين قليلاً، وكأنه انتهى من رمي رمح. فلم تجد دونيا لوكريثيا مناصاً من الضحك، وهتفت:

ــــ لستَ شيطاناً صغيراً، وإنما أنت مهرج. كان من الخير لك أن تتجه إلى العمل فــي المسرح.

ضحك الطفل أيضاً وهو يواصل التمطي والتحايل وتحريك يديه. ثم، دون أن يتوقف عن حركاته القردية، فاجأ دونيا لوكريثيا بهذا التعليق:

ـــ هل تعمدتِ كتابة الرسالة بأسلوب متحذلق؟ وهل تعتقدين مثل أبي أن الحذلقة لا تنفصل عن الحب؟

فقالت دونيا لوكريثيا:

ـــ لقد كتبتها محاكية أسلوب أبيك. فبالغتُ، محاولة أن أكون وقورة، انتقائية، قاسية. إنه يحب هذا. هل تراها شديدة التكلف؟

فأكد لها فونتشيتو وهو يهز رأسه عدة مرات:

ـــ ستعجبه كثيراً. سيقرؤها ويعيد قراءتها مرات عديدة وهو محبوس فـــي مكتبه. لن تفكري فـــي التوقيع عليها، أليس كذلك يا خالتي؟

الحقيقة أنها لم تكن قد فكرت بهذا الأمر.

ـــ هل علي أن أرسلها مغفلة؟

فقال الطفل مؤكداً:

ـــ بالطبع يا خالتي. يجب عليك أن تجاريه فـــي اللعبة.

ربما كان على حق. فإذا كان هو قد أرسل الرسائل دون توقيع، فلماذا توقع عليها هي. ودمدمت:

ـــ أنت تعرف كل الألاعيب أيها الصغير. أجل، إنها فكرة جيدة. سأرسلها دون توقيع. وهو على أي حال سيعرف جيداً من كتبتها.

تظاهر فونتشيتو بأنه يصفق. وكان قد نهض واقفاً وبدأ يرتب

ملابسه لينصرف. لم يكن هناك اليوم بسكويت محمص، لأن خوستينيانا كانت قد خرجت. وتناول كتابه الذي يتضمن اللوحات كالعادة وخبأه فـــي حقيبته، وزرر قميصه الرمادي وشد ربطة عنق زيه المدرسي، بينما كانت تراقبه لوكريثيا التي يبهجها أن تراه يكرر الحركات نفسها كل مساء، عند المجيء والانصراف. ولكنه فـــي هذه المرة، وعلى خلاف المرات الأخرى حيث يقتصر على القول لها «تشاو يا خالتي»، جلس على الأريكة قريباً جداً منها.

ـــــ أريد أن أسألك شيئاً قبل أن أنصرف. ولكنني أشعر بقليل من الحياء.

كان يتكلم بالصوت النحيل، العذب، والخجول الذي يلجأ إليه كلما أراد إيقاظ أريحيتها أو شفقتها. وبالرغم من أن دونيا لوكريثيا لم تكن تتردد فـــي اليقين من أن ذلك ليس إلا محض تهريج، فقد كان الأمر ينتهي على الدوام بإيقاظ أريحيتها أو شفقتها.

ـــــ أنت لا تخجل من أي شيء، فلا تأتي بهذه الحكايات أو التظاهر بالبراءة ـــــ قالت له ذلك، وكانت تُكذّب قسوة كلماتها بمداعبته وهي تشد أذنه، ثم أضافت: ـــــ اسأل ما تريد.

فمال الطفل عليها وأحاط عنقها بذراعيه.

ـــــ لا أجرؤ على قول ذلك وأنا أنظر إليك ـــــ همس وهو يخفض صوته إلى أن تحول إلى تمتمة لا تكاد تُسمع ـــــ هذا الفم المزموم، المحاط بتجعدات فـــي رسالتك، هو هذا الفم نفسه، أليس كذلك يا خالتي؟

وأحست دونيا لوكريثيا بالخد الذي التصق بخدها يتحرك،

وبشفتين نحيلتين تنزلان على وجهها وتلتصقان بشفتيها. كانتا باردتين فـــي البدء، ثم تحمستا على الفور. أحست أنهما تضغطان وتقبلانها. فأغمضت عينيها وفتحت فمها: فدخلت إليه أفعى رطبة، مرت على لثتها، وعلى سقف حلقها، ثم تشابكت مع لسانها. بقيت مبهورة لوقت دون وقت، متحولة إلى حس، متراخية، سعيدة، لا تفعل شيئاً ولا تفكر بشيء. ولكنها حين رفعت ذراعيها لتضم فونتشيتو، ابتعد الطفل عنها فـــي واحدة من تبدلات المزاج المفاجئة التي هي من ملامحه المميزة. وراح يبتعد ملوحاً لها بيده تلويحة الوداع. وكان يبدو فـــي أكثر الملامح طبيعية:

ـــــ إذا أردتِ، يمكنك تبييض الرسالة ووضعها فـــي مغلف ـــــ قال لها وهو عند الباب ـــــ. وغداً أعطني إياها لأضعها فـــي صندوق بريد البيت دون أن يراني أبي. تشاو يا خالتي.

لا حصان من قصب
ولا ثور من بوكارا

أفهم أن مشهد العلم المرفرف مع الريح يبعث فـــيك خفقة النشوة، وأن موسيقى وكلمات النشيد الوطني، تسبب لك تلك الدغدغة فـــي العروق والقشعريرة وانتصاب شعر البدن الذي يسمونه انفعالاً. وكلمة وطن (التي تبدأ حضرتك كتابتها بحرف كبير على الدوام) لا تتفق مع الأبيات الشعرية غير الوقورة لبابلو نيرودا

الشاب:

الوطن،
كلمة حزينة،
مثل كلمة ترمومتر أو مصعد

ولا تتفق كذلك مع حكم الدكتور جونسون القاتل: Patriotism is the last refuge of a scoundrel[1] وإنما تتوافق مع هجمات الفرسان البطولية، والسيوف التي تُغرس في صدور بدلات عسكرية معادية، ومع صوت الأبواق، وأزيز الرصاص ودوي المدافع الذي هو ليس دوي فتح زجاجات الشمبانيا. أنت تنتمي، حسب كل المظاهر، إلى خليط الذكور والإناث ممن ينظرون بإجلال إلى هؤلاء الأشخاص البارزين الذين يزينون الساحات العامة، ويتأسفون لأن الحمائم تشخ عليهم، وأنت مستعد لأن تستيقظ باكراً جداً وتنتظر لساعات كي لا تضيع مكاناً جيداً في معسكر مارتي من أجل مشاهدة العرض العسكري في الأيام التذكارية، وهو مشهد يثير فيك التقدير وتتطاير فيه الكلمات الحربية والوطنية والرجولية. سيدي، سيدتي: في أعماقك يقبع وحش ضارٍ يشكل خطراً على الإنسانية.

أنتَ ثقل زائد تجرجره الحضارة منذ زمن آكل اللحم البشري الموشوم ومثقوب الأذنين والشفتين الذي كان يحمل عضوه في قراب، والساحر ما قبل العقلاني الذي كان يتقافز ليجتذب المطر

---

[1] بالإنكليزية في الأصل «الوطنية هي ملاذ الأوغاد الأخير».

ويأكل قلب خصمه ليستولي على قوته. الحقيقة أنه وراء خطاباتكم الحماسية وبيارقكم في تمجيد هذه القطعة من الجغرافية المدنسة بعلامات وحدود تعسفية، والتي ترى فيها حضرتك تجسيداً لشكل أرقى من التاريخ والميتافيزيقيا الاجتماعية، لا يوجد سوى حالة أخرى من العصرنة الماكرة للوسيلة البدائية القديمة للاستقلال عن القبيلة، لتخلي المرء عن الكتلة، عن كونه جزءاً من كل، وتحوله إلى فرد، وهذه هي لهفة ذلك السلف الذي كان العالم بالنسبة إليه يبدأ وينتهي ضمن حدود ما هو معروف، ضمن البقعة المحدودة في الغابة، والكهف المظلم، والهضبة المائلة، تلك البقعة الصغيرة التي يتقاسم فيها مع الآخرين اللغة، والسحر، والصخب، والأعراف، وقبل كل ذلك جهل جماعته وخوفها، ليستمد الشجاعة ويشعر بأنه يجد الحماية من الرعد ومن الوحش ومن القبائل الأخرى على الكوكب. وبالرغم من أنه قد انقضت منذ تلك الأزمان البعيدة قرون وقرون، ومن أن حضرتك تعتقد، لأنك ترتدي البدلة وربطة العنق أو التنورة الضيقة وتجري عمليات شد البشرة في ميامي، قد أصبحت أرقى بكثير من ذلك السلف الذي كان يغطي عورته بلحاء الجذوع ويعلق مشابك في شفته وأنفه، إلا أنك هو، وهو أنت. الحبل السري الذي يصل بينكما عبر الأجيال يدعى الخوف من المجهول، أو مقت ما هو مختلف، أو رفض المغامرة، أو الهلع من الحرية ومن مسؤولية إبداع الذات كل يوم، أو ميل إلى عبودية الروتين، إلى الجماعية، ورفض أي فض للشراكة حتى لا يضطر إلى مواجهة القدر اليومي المتمثل بالسياسة الفردية. في تلك

الأزمان كان آكل اللحم البشري الأعزل غارقاً في جهلٍ ميتافيريقي وفيزيائي حيال ما يجري وما يحيط به، وكان له بعض التبرير لرفض تحوله إلى كائن مستقل ومبدع وحر؛ أما في هذه الأزمنة، حيث يعرف الإنسان كل ما يلزم معرفته وأكثر، فليس هناك ما يبرر مواصلتة السعي لأن يكون عبداً وغير عقلاني. قد يبدو لك هذا الحكم صارماً ومتشدداً حيال ما لا يعدو أن يكون بالنسبة إليك شعوراً فاضلاً ومثالياً من الحب والتضامن تجاه مسقط الرأس والذكريات (أي تجاه «الأرض والأموات»، حسب رأي الأنثروبولوجي الفرنسي السيد موريس باريه)، هذا الإطار من المرجعيات البيئية والثقافية التي يشعر الإنسان من دونها بالخواء. أنا أؤكد لك أن هذا هو أحد وجهي عملة الوطنية، أما الوجه الآخر، المعاكس لتمجيد ما هو خاص، فيتمثل في إهانة الآخر، وفي إرادة إذلال وهزيمة الآخرين، من هم مختلفوين عنك لأن لون بشرتهم مختلف، ولهم لغة أخرى، وإله آخر، بل وأزياء أخرى ونظام غذائي آخر.

الوطنية التي تبدو في الواقع شكلاً رحيماً من أشكال التعصب القومي ــــ ذلك أن «الوطن» يبدو أكثر قِدماً، وتجانساً واحتراماً من «الأمة» ــــ، هي أداة سياسية ــــ إدارية صغيرة ومضحكة صنّعها رجال الدولة الطامحون إلى السلطة والمثقفون الباحثون عن سيد لهم، أي عن راعٍ للأدب والفن، أي عن ضرعٍ مانحةٍ يمتصونها، وهي ذريعة فعالة للحروب التي عاثت دماراً بالكوكب لا أدري كم من المرات، في سبيل الدوافع الاستبدادية التي كرست

هيمنة القوي على الضعيف، وهي ستارة دخان من المساواة لا تكترث سحبُها السامة بالكائنات البشرية وتستعمرهم، فارضة عليهم الانتساب إلى أكثر التسميات صُدْفــية على أنها الأكثر جوهرية وثباتاً: مكان الميلاد. وراء الوطنية والتعصب القومي يتأجج على الدوام وهم الهوية الجماعي الخبيث، وهي أونطولوجيا مسيجة بالأسلاك ترمي إلى أن تدمج، فــي أخوية لا مفر منها ولا لبس فــيها، جميع «البيروبيين»، «الإسبان»، «الفرنسيين»، «الصينيين» الخ. أنت وأنا نعرف أن هذه المقولات هي أكاذيب دنيئة أخرى تلغي قروناً من التاريخ وتعيد الحضارة إلى تلك الأزمنة البربرية السابقة لخلق الوحدانية، أي العقلانية والحرية: وهي ثلاثة أمور لا يمكن الفصل بينها، فاعلم.

ولهذا عندما يتكلم أحد فــي محيطي عن «الصيني»، «الزنجي»، «البيروبيين»، «الفرنسيين»، «النساء» أو أي تعبير مشابه بنية تحديد كائن بشري من خلال انتمائه إلى جماعة من أي نوع وليس كحالة محتقرة، تراودني الرغبة فــي سحب المسدس و ـــــ بوم بوم ـــــ إطلاق النار. (وهذه مجرد صورة شعرية بالطبع، فأنا لم أحمل فــي يدي سلاحاً نارياً على الإطلاق، ولم أمارس أي نوع من الرماية باستثناء إطلاق المني، وهذا أمر أصرح به باعتزاز وطني). وليكن واضحاً أن فرديتي لا تقودني إلى الإطراء على مناجياتي الذاتية الجنسية باعتبارها الشكل الأكثر كمالاً للمتعة؛ فأنا أميل فــي هذا الميدان إلى الحوار بين شخصين أو بين ثلاثة أشخاص كحد أقصى، وأعتبر نفسي بالطبع عدواً لدوداً للاختلاطات

شبه الحزبية التي هي فـــي مجال السرير والجماع معادل للجماعية السياسية والاجتماعية. والاستثناء هو فـــي ممارسة الأحادية الجنسية مع رفقة ـــــ مثلما هو موضح فـــي لوحة مائية وفحمية صغيرة لبيكاسو (من عام 1903/1902) والتي يمكنك أن تستمتع برؤيتها فـــي متحف بيكاسو فـــي برشلونة، حيث يظهر فـــيها السيد المحترم آنخل فـــيرنانديث دي سوتو، وهو بملابسه ويدخن الغليون، وزوجته السامية عارية، ولكنها تلبس جورباً وحذاءً، وتمسك بكأس شمبانيا وهي جالسة على ركبتي زوجها، وكلاهما يمارس العادة السرية بالتبادل، وأقول بصورة عابرة، ودون نية فـــي استفزاز أحد (وخصوصاً بيكاسو) إنني أعتبر هذه اللوحة أرقى من **غيرنيكا** ومن **آنسات آفـــينيون**.

(إذا ما بدا لك أن هذه الرسالة بدأت تفتقد إلى نوع من التماسك، فتذكر المونسنيور تيست دي فاليري: «عدم التماسك فـــي أي خطاب يعتمد على من يسمعه. فالروح لا تبدو لي مفهومة بطريقة يمكنها فـــيها أن تكون غير متماسكة مع نفسها بالذات»)

أتريد أن تعرف من أين تأتي كل هذه الحملة الشعواء ضد الوطنية التي تتضمنها رسالتي؟ إنها آتية من خطبة حماسية ألقاها رئيس الجمهورية، وأبرزتها صحف هذا الصباح، وحسب قولها، فقد أكد فـــي افتتاح معرض الفنون التقليدية بأنه من واجبنا الوطني نحن جميع البيرويين أن نعتز بعمل الفنانين الحرفـــيين المجهولين الذين شكلوا تماثيل الخزف فـــي تشافـــين، ونسجوا ولونوا الأقمشة فـــي باراكاس، أو حاكوا العباءات من الريش فـــي ناسكا، حرفـــيي

كوسكو القدماء أو الصانعين المعاصرين لرسوم أياكوتشو التقليدية، وثيران بوكارا، وأطفال مانويليتوس، وسجاد سان بيدرو دي كاخاس، وخيول من قصب بحيرة تيتيكاكا، ومرايا كاخاماركا، لأن ـــ وأورد ما قاله الرئيس ـــ «الحِرف التقليدية هي الفن الشعبي بكل معنى الكلمة، والتعبير الأرقى لإبداع الشعب وبراعتة الفنية، وأحد أهم رموز الوطن، وإذا كان كل عمل منها لا يحمل توقيع الفرد الذي صنعه فلأنها كلها تحمل توقيع الجماعة، توقيع الأمة».

إذا ما كنت حضرتك ذكراً أو أنثى تتمتع بحسن الذوق ـــ أي أنك محب للتحديد ـــ، فلا بد لك من أن تكون قد ابتسمت حيال هذا الإسهال الفني–الوطني لرئيس دولتنا. أما أنا، ففضلاً عن أنه بدا لي، مثلما بدا لك، خاوياً ومتحذلقاً، فقد نورني. إذ إنني أعرف الآن لماذا أمقت كل أشكال المنتجات الحرفية التقليدية في العالم بصورة عامة، وفي «بلدي» (وأستخدم هذه الصيغة حتى نتمكن من التفاهم) بصورة خاصة. لقد فهمت الآن لماذا لم يدخل إلى بيتي ولن يدخل مطلقاً تمثال خزفي بيروي أو قناع فينيسي أو *ماتريوشكا* روسية أو دمية ذات ضفائر وقبقاب خشبي هولندية أو مصارع ثيران خشبي أو غجرية صغيرة ترقص فلامنكو أو دمية فتى متحرك المفاصل إندونيسية، أو دمية ساموراي أو لوحة اياكوتشية أو شيطان بوليفي أو أي صورة أو شكل من صلصال، أو خشب، أو خزف، أو حجر، أو قماش أو من لباب الخبز تصنع بالجملة وبصورة متماثلة وغُفْل من التوقيع، تستغل ـــ ولو بصورة منافقة من خلال تسميتها فن شعبي ـــ طبيعة الفن الذي هو حكر مطلق

على المجال الخاص، وتعبير عن التطرف الفردي وهو بالتالي دحض ورفض لكل ما هو تجريدي وتماثلي، وكل ما يتطلع بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى تبرير نفسه باسم سلالة «اجتماعية» مزعومة. ليس هناك فن غير ذاتي أيها السيد الوطني (ولا تحدثني من فضلك عن الكاتدرائيات القوطية). والحرف التقليدية هي مظهر بدائي، غير متبلور، وجنيني لما يمكن له أن يستحق أن يُقبل يوماً ـــ عندما يبدأ أفراد خاصين منفصلين عن الكل بوضع لمستهم الشخصية على هذه الأشياء ويسكبون فـيها حميمية غير قابلة للتحويل ـــ ضمن مرتبة الفن. وكونها تُحدث دوياً وتزدهر وتسود لدى «أمة» ما، يجب ألا يكون مصدر الفخر لأحد وخصوصاً للوطنيين المزعومين. لأن ازدهار الحرف التقليدية هو علامة تأخر وارتداد، وإرادة غير واعية بعدم التقدم فـي هذا الإعصار الكاسح من الحدود، ومن العادات الحالمة، ومن اللون المحلي، ومن الاختلافات الريفـية والروح الفلاحية، التي هي الحضارة. إنني أعرف يا سيدتي الوطنية ويا سيدي الوطني أنك تكره هذه الكلمة، أو مضمون هذه الكلمة الكاسحة. وهذا من حقك. مثلما من حقي أيضاً أن أحبها وأدافع عنها ضد العوائق حتى وأنا أعرف أن المعركة شاقة وأنه يمكن لي أن أكون ـــ والمؤشرات كثيرة ـــ ضمن فريق المهزومين. ولكن ليس مهماً. فهذا هو الشكل الوحيد من البطولة المتاح لنا أن نمارسه نحن أعداء البطولة الإجبارية: أن نموت ونحن نوقع باسمنا وكنيتنا، وأن نحصل على ميتة فردية.

واعلم دفعة واحدة ولترتعد هولاً: إن الوطن الوحيد الذي أوقره

هو الفراش الذي تتقلب عليه زوجتي لوكريثيا (**نوركِ، أيتها السيدة السامية/ يهزم ليلتي العمياء والكئيبة هذه**، يقول فراي لويس دي ليون) وجسدها الباهر هو رايتي أو رمزي الوطني الوحيد القادر على جَرّي إلى أشد المعارك هولاً، وأما النشيد الوحيد الذي يمكن له أن يبعث في التهيج إلى حد البكاء فهو الأصوات التي يصدرها لحم الحبيبة: كلامها، ضحكها، بكاؤها، زفراتها، وكذلك بالطبع (أغلق أذنيك وأنفك) فواقها، تجشؤها، ضراطها وعطاسها. أيمكنني بهذا أم لا يمكنني أن أكون وطنياً حقيقياً، *على طريقتي*؟

ملعون أونيتي! مبارك أونيتي!

استيقظ دون ريغوبيرتو باكياً (وهذا ما صار يحدث له بكثرة مؤخراً). كان قد انتقل من النعاس إلى الأرق، وكان وعيه يتعرف في العتمة على أشياء غرفته، ومسمعاه يتعرفان على رتابة البحر، وأنفه ومسامات جسمه على الرطوبة الأكالة. ولكن الصورة الرهيبة كانت ما تزال هناك، طافية في مخيلته، خارجة من مخبأ ناءٍ، تبعث فيه الغم مثلما فعلت قبل لحظات في لا وعي الكابوس. «دعك من البكاء أيها الأحمق» ولكن الدموع تسيل على خديه ويجهش وهو منكمش من الفزع. وماذا إذا كان ذلك تخاطراً؟ وماذا إذا كان قد تلقى إشعاراً؟ وإذا ما كانت هناك دودة في قلب التفاحة بالفعل، وقد كشفت لها أمس، أو هذا المساء، عن الكتلة المنذرة

بالكارثة فـــي صدرها، وفكرت لوكريثيا على الفور فـــيه، واثقة منه، ملتجئة إليه ليشاطرها غمها وقلقها؟ لقد كان نداء فـــي اللحظة الأخيرة. فموعد العملية الجراحية قد تحدد. لقد أصدر الطبيب حكمه: «ما زلنا ضمن الوقت المناسب، شريطة أن نستأصل هذا الثدي، وربما الثديين، فوراً. إنني تقريباً، تقريباً، أمد يدي إلى النار: الداء لم ينتشر بعد. وستنجين، شريطة أن تُجرى العملية خلال ساعات قليلة.» كان ذلك البائس قد بدأ بشحذ المبضع، وعلامات المتعة السادية تلمع فـــي عينيه. عندئذ، فـــي هذه اللحظة بالذات، فكرتْ لوكريثيا به، وتمنت بحرقة أن تتكلم معه، أن تخبره، أن يسمعها ويقدم لها المواساة والمرافقة. واختلج دون ريغوبيرتو: «رباه، سأذهب لأزحف مثل دودة عند قدميها وأطلب منها الصفح».

صورة لوكريثيا مستلقية على طاولة عمليات جراحية، خاضعة لعملية استئصال فظيعة، حملت إليه صدمة جديدة من ألم المحنة. أغمض عينيه، حابساً أنفاسه، وتذكر نهديها الصلبين، الممتلئين، المتماثلين، وتويجيهما القاتمين بحبيباتهما، والحلمتين اللتين تهدل لهما وترطبهما شفتاه، فتنتصبان برشاقة، متحديتين، عند ممارسة الحب. كم من الدقائق، ومن الساعات، أمضى فـــي تأملهما، وفـــي روزهما، تقبيلهما، فـــي لحسهما واللعب معهما ومداعبتهما، متخيلاً أنه تحول إلى مواطن من ليليبوت[1] يتسلق هاتين الرابيتين الورديتين للوصول إلى أعلى برج القمة، أو إلى طفل حديث الولادة يمتص

---

[1] ـ ليليبوت Liliputh: جزيرة الأقزام في رواية جوناثان سويفت الشهيرة «رحلات جلفر».

نسغ الحياة الأبيض، ويتلقى من هذين النهدين، فور خروجه من محبس الأمومة، أول دروسه فـــي اللذة؟ تذكر كيف اعتاد، فـــي بعض أيام الآحاد، الجلوس على المقعد الخشبي الصغير فـــي الحمام، ليتأمل لوكريثيا فـــي حوض البانيو، مغطاة بالرغوة. لقد كانت تضع على رأسها منشفة على شكل عمامة، وتواصل حمامها باستغراق شديد، مقدمة له بين حين وآخر ابتسامة رحيمة، بينما هي تفرك جسدها بقطع الإسفنج الصفراء الكبيرة المشبعة بالماء الرغوي، وتمر بها على كتفـــيها أو ظهرها أو ساقيها البديعتين اللتين كانت تخرجهما من أجل ذلك من الأعماق الرغوية لثوان قصيرة. فـــي تلك اللحظات، كان نهداها هما اللذان يجتذبان كل اهتمام دون ريغوبيرتو وحميته الدينية. فقد كانا يبرزان فوق سطح الماء، ويلمع تكورهما الأبيض وحلمتاهما المائلتان إلى الزرقة بين فقاعات رغوة الصابون، ومن أجل ملاطفته ومكافأته (وفكر دون ريغوبيرتو بهدوء أكبر: «مداعبات ساهية تقوم بها السيدة لكلبها الوديع المستلقي عند قدميها»)، كانت دونيا لوكريثيا تمسكهما بين حين وآخر، وتداعبهما بقطعة الإسفنج بحجة دلكهما بالصابون وتنظيفهما أكثر. كانا جميلين، كانا تامين. فقد كانت لهما الاستدارة والتماسك والحرارة التي تُفعم إلهاً ماجناً بالشهوات. «والآن ناولني المنشفة، كن خادمي، ـــــ تقول ذلك وهي تنهض وتشطف جسدها بالدوش اليدوي ـــــ. فربما أسمح لك بتنشيف ظهري إذا ما أحسنت التصرف.» لقد كان نهداها هناك، يلمعان فـــي عتمة الحجرة وكأنهما يضيئان وحدته. ولكن، أيكون ممكناً أن يقسو السرطان

الجائر على هذه المخلوقات التي تسمو بالشرط الأنثوي، وتبرر الألوهية الغزلية للمرأة، والعبادة المريمية؟ وأحس دون ريغوبيرتو بالغضب يلي اليأس الذي كان يعانيه قبل قليل، وبإحساس تمرد وحشي ضد المرض.

وعندئذ فقط تذكر. «ملعون أونيتي!» وانفجر في ضحكات مقهقهة. «ملعونة من رواية! اللعنة على سانتا ماريا! اللعنة على خيرترويديس!» (أهذا هو اسم الشخصية؟ خيرترويديس؟ أجل، هذا هو اسمها.) من هنا جاءه الكابوس، وليس هناك أي تخاطر. وكان ما يزال يضحك، متحرراً، منفعلاً، سعيداً. وقرر، للحظات، أن يؤمن بالرب (كان قد دون في أحد دفاتره عبارة كيفيدو في **النصاب**: «كان واحداً من هؤلاء الذين يؤمنون بالرب بدافع التهذب») لكي يتمكن من توجيه الحمد إلى أحد على أن نهدي لوكريثيا الحبيبين سليمان، معافيان من مكايد السرطان، وعلى أن هذا الكابوس لم يكن إلا تذكراً لتلك الرواية التي جعلته بدايتها الرهيبة يقفز من الذعر، ففي الشهور الأولى لزواجه من لوكريثيا، داهمه الاشمئزاز من أنه يمكن في يوم ما لنهدي زوجته الجديدة العذبين اللذيذين، أن يكونا ضحية إهانة جراحية (وحضرت العبارة في ذهنه بسلاستها القبيحة: «استئصال الثدي») مماثلة لتلك التي يصفها، أو بالأحرى يختلقها في الصفحات الأولى، براوسين، الراوي في هذه الرواية المقلقة للملعون أونيتي. وصلى: «الشكر لك يا ربي، لأن ذلك ليس صحيحاً، ولأن ثدييها سليمان». ودون أن ينتعل خفيه أو يرتدي الروب، خرج في الظلام متعثراً، ليتفحص الدفاتر في مكتبه. إنه

واثق من أنه ترك شهادة من تلك القراءة المقلقة التي ـــــ لماذا؟ ـــــ طفت فـــي هذه الليلة من لاوعيه لتفسد أحلامه.

الملعون أونيتي! أهو أرغوائي؟ أرجنتيني؟ إنه من منطقة ريوبلاتا على أي حال. يا للحظة العصيبة التي جعله يمر بها. كم هي غريبة توجهات الذاكرة، إنها منعطفات متقلبة الأهواء، وتعرجات باروكية، فجوة غامضة. لماذا تعود إلى الظهور الآن، فـــي هذه الليلة، تلك القصة المتخيلة، بعد عشر سنوات لم تخطر لباله خلالها يوماً واحداً أو مرة واحدة؟ وعلى ضوء مصباح طاولة المكتب الذي ينشر نوره الذهبي على السطح الخشبي، راح يراجع متعجلاً كومة الدفاتر التي قدّر أنها تتوافق مع الفترة التي قرأ فـــيها رواية **الحياة القصيرة**. وكان ما يزال يرى فـــي الوقت نفسه نهدي لوكريثيا، وهما يزدادان وضوحاً، بياضاً، نهوضاً، حرارة، فـــي الفراش الليلي، فـــي الحمام الصباحي، يطلان من بين ثنايا قميص النوم أو الرداء الحريري أو من فتحة صدر الفستان. وكان يعود، يرجع بالذكرى فـــي صفاء متزايد إلى الانطباع الرهيب الذي سببته له الصورة الأولية، القصة التي تشير إليها **الحياة القصيرة**، كما لو أن تلك القراءة طازجة وحديثة العهد. لماذا **الحياة القصيرة** بالتحديد؟ ولماذا فـــي هذه الليلة بالذات؟

وأخيراً وجد ضالته. فـــي أعلى الصفحة وفوق خط تشديد: **الحياة القصيرة**. وبعد ذلك: «هندسة شامخة، بناء دقيق وماكر: نثر وتقنية أكبر بكثير من شخصياته المسكينة وقصته التافهة». لم تكن العبارة شديدة الحماسة. لماذا إذن كل هذا الانفعال لدى تذكرها؟ هل لمجرد أن

تداعي الخواطر فـــي عقله الباطن قد ربط ما بين ثدي خيرترويديس المستأصل بالمبضع فـــي الرواية ونهدي لوكريثيا؟ لقد كان المشهد الأول واضحاً فـــي ذهنه، الصورة التي عادت تزعزعه. فالموظف المتوسط فـــي وكالة إعلانات فـــي بوينس آيرس، خوان ماريا براوسين، راوي القصة، يتعذب فـــي حجرته الضيقة بفكرة استئصال ثدي زوجته خيرترويديس فـــي اليوم السابق أو صباح اليوم، بينما هو يسمع فـــي الجانب الآخر من الجدار الخشبي الثرثرة السخيفة لجارة جديدة هي عاهرة سابقة أو حالية تدعى كيكا، وترسم مخيلته بغموض فكرة قصة سينمائية كان قد طلبها منه صديقه ورئيسه فـــي العمل خوليو ستين. وفـــي أثناء ذلك كان هذا الوصف المؤثر: «... فكرتُ فـــي كيفـــية النظر دون استياء إلى الندبة الجديدة فـــي صدر خيرترويديس، ندبة مستديرة ومعقدة، ذات بروزات حمراء أو وردية ربما يحوّلها الزمن إلى الشحوب، لتصبح فـــي مثل لون الندبة الأخرى الناعمة التي بدون حواف، والرشيقة مثل توقيع، الموجودة فـــي بطن خيرترويديس، والتي طالما تعرّفتُ عليها بطرف لساني». ثم الوصف الأكثر إيلاماً الذي يستبق الطريقة الوحيدة الواقعية التي يمكنه بها أن يقنع زوجته بأن ذلك الثدي المستأصل لم يكن مهماً: «لأن الدليل المقنع الوحيد، المصدر الوحيد المناسب الذي يمكنه أن يبعث فـــيها السعادة والثقة، هو أن أنهض وأخرّ فـــي الضوء الغامر على الثدي المُستأصَل، بوجه متجدد الشباب شبقاً، وأن أقبل موضعه بجنون».

وفكر دون ريغوبيرتو: «إن من يكتب مثل هذه الجمل التي تجعل شعر البدن ينتصب، وتملأ الجسم بالنوازل رغم مرور عشر

سنوات على قراءتها، هو مبدع دون شك». وتصور نفسه عاريا مع زوجته فـــي السرير، يتأمل الندبة غير المرئية تقريباً فـــي المكان الذي كانت تملؤه وتتوجه تلك القمة من اللحم الدافئ، ذلك التَقبُّب الحريري، ويبوّسها بجشع مبالغ فـــيه، متصنعاً اشتثارة وتهيجاً لا يشعر بهما ولن يعود إلى الشعور بهما، وأحس بيد حبيبته فـــي شعره ـــــ أهي شاكرة؟ راضية؟ ـــــ، تُشعره بأن هذا يكفـــي. وأنه لا حاجة إلى التصنع. ولماذا عليهما، هما اللذان عاشا فـــي كل ليلة حقيقةَ رغباتهما وأحلامهما حتى النخاع، أن يكذبا الآن ويقولا إن ما حدث غير مهم، مع أنهما يعلمان كلاهما بأنه مهم جداً، وأن ذلك الثدي الغائب سيُثقل على كل لياليهما المتبقية؟ اللعنة على أونيتي!

ـــــ ستكون مفاجأة حياتك ـــــ ضحكت دونيا لوكريثيا وهي تتنحنح مثل مغنية أوبرا تستعد للخروج إلى المنصة، وأضافت: ـــــ مثلما حدث لي عندما أخبرَتني بالأمر. بل إن مفاجأتي كانت أكبر عندما رأيتهما. وستكون مفاجأة حياتك!

فوجئ دون ريغوبيرتو:

ـــــ أتعنين نهدي السفـــيرة الجزائرية الشامخين؟ أهما تركيبيان؟

وصححت له دونيا لوكريثيا:

ـــــ بل هي زوجة سفـــير الجزائر. لا تتظاهر بالبلاهة، أنت تعرف جيداً ماذا أعني. لقد ظللتَ تنظر إليهما طوال الليل أثناء العشاء فـــي السفارة الفرنسية.

ـــــ صحيح. إنهما بديعان ـــــ قال دون ريغوبيرتو موافقاً،

وخجِلاً. وبينما هو يداعب، ويقبّل، وينظر بورع إلى نهدي دونيا لوكريثيا، صاغ حماسته فـي عبارة غزلية: ــ ولكنهما ليسا بجمال نهديك.

فقالت وهي تشعث شعره:

ــ هذا لا يهمني. إنهما أفضل من نهدي، وماذا فـي ذلك. أصغر قليلاً، ولكنهما أكثر كمالاً. وأشد صلابة.

وبدأ دون ريغوبيرتو بابتلاع لعابه:

ــ أكثر صلابة؟ وكأنكِ قد رأيتِها عارية. أو كأنكِ قد لمستِهما.

ساد صمت مترصد، كان يتعايش رغم ذلك مع دوي أمواج البحر التي تلطم الجرف هناك فـي الأسفل، تحت المكتب.

ــ لقد رأيتها عارية، ولمستُهما ــ قالت زوجته متهجية الكلمات ببطء شديد ــ. هذا لا يهمك، أليس كذلك؟ ولكن ليس هذا هو الموضوع، وإنما كونهما اصطناعيين. هذه هي الحقيقة.

وتذكر دون ريغوبيرتو الآن أن نساء رواية **الحياة القصيرة** ــ كيكا وخيرترويديس وإيلينا سالا ــ كن يستخدمن مشدات من الحرير، إضافة إلى السراويل الداخلية، لكي يثبّتن خصورهن ويُظهرن حسن قوامهن. ما هو زمن رواية أونيتي تلك؟ فليس هناك امرأة تستخدم مشداً الآن. وهو لم ير لوكريثيا تضع مشداً حريرياً على الإطلاق. ولم يرها كذلك متنكرة بزي قرصان، أو راهبة، أو جوكي، أو مهرج، ولا كفراشة أو كزهرة. ولكنه رآها متنكرة كغجرية، بمنديل على رأسها، وقرطين كبيرين فـي أذنيها، وبلوزة

منتفخة الأكمام وتنورة واسعة كثيرة الألوان، وحول عنقها وفـي ذراعيها سلاسل من الخرز. تذكر أنه وحيد، فـي فجر بارانكو الرطب، وأنه منفصل عن لوكريثيا منذ سنة تقريباً، وضمخه التشاؤم الروائي الفظيع لخوان ماريا براوسين. وأحس أيضاً بما كان يقرؤه فـي الدفتر: «اليقين الراسخ بأنه ليس هناك فـي أي مكان امرأة، أو صديق، أو بيت، أو كتاب، أو حتى رذيلة، يمكنها أن تجعلني سعيداً». لقد كانت هذه الوحدة الفظيعة، وليس مشهد صدر خيرترويديس السرطاني، هي التي نبشت عن هذه الرواية فـي لاوعيه؛ إنه مستغرق فـي وحدة فظة وفـي تشاؤم أسود مثلما كان براوسين.

ــــ ما الذي يعنيه نهدان تركيبيان؟ ــــ تجرأ على توجيه السؤال بعد فاصل من البلبلة.

فأخبرته دونيا لوكريثيا بفظاظة جراحية:

ــــ يعني أنها أصيبت بالسرطان واستأصلوا نهديها. وبعد ذلك، وشيئاً فشيئاً، أعادوا ترميمهما، فـي المستشفى الأكبر فـي نيويورك. ست مداخلات جراحية. هل تلاحظ؟ واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست. على امتداد ثلاث سنوات. ولكنهم جعلوهما أكثر اكتمالاً من السابق. بل إنهم أعادوا تصنيع حلمتيهما، مع التجعدات وكل شيء. وكانا مطابقين تماماً. وأستطيع أن أؤكد لك هذا لأني رايتهما. لأني لمستهما. هذا لا يضايقك، أليس كذلك يا حبي؟

وسارع دون ريغوبيرتو فـي الرد:

ــــ بالطبع لا ــــ ولكن تسرعه خانه، وكذلك تلون ورنين

وتورط صوته، فأضاف: ـــــ أيمكنك أن تخبريني متى حدث ذلك؟ وأين؟

فزنقته دونيا لوكريثيا بحكمة مهنية:

ـــــ أين رأيتهما؟ أين لمستهما؟

فتوسل متخلياً عن الشكليات:

ـــــ أجل، أجل. إذا أنتِ شئتِ. فقط ما تُقدّرين أنه يمكنك أن تخبريني به بالطبع.

«بالطبع!»، تنهد دون ريغوبيرتو. إنه يفهم ذلك. لم يكن ذلك الصدر الرمزي، ولا ذلك السواد الجوهري لدى راوي **الحياة القصيرة**؛ بل كانت الطريقة الماكرة التي وجدها خوان ماريا براوسين للنجاة، هي التي أثارت الانبعاث المفاجئ، عودة زورو أو طرزان أو دارتنيان، بعد عشر سنوات. بالطبع! مبارك أونيتي! وابتسم براحة، بل وبسعادة تقريباً. الذكرى لم تأت لإغراقه، بل لمساعدته، أو حتى لإنقاذه مثلما كان يقول براوسين وهو يقيّم خياله المحموم. ألم يكن يقول ذلك حين كان ينتقل من بوينس آيرس الواقعية إلى مدينة سانتا ماريا المبتدعة، متخيلاً أنه الطبيب الفاسد دياث غراي، الذي كان يحقن إيلينا سالا الغامضة بالمورفين مقابل الحصول على المال؟ ألم يكن يقول إن هذا الانتقال، هذا التقلب، هذا الانهماك، هذا المنهج في التخيل، **ينقذه**؟ وها هو هنا، مدون في دفتره: «إنها علبة صينية. ففي قصة أونيتي المتخيلة هناك شخصية، هي براوسين، يخترع قصة متخيلة فيها طبيب منسوخ عنه يدعى دياث غراي، وامرأة هي نسخة عن زوجته خيرترويديس

(ولكن نهديها ما يزالان كاملين) تدعى إيلينا سالا، وهذه الحالة المتخيلة هي أكثر من الفكرة السينمائية التي طلبها منه خوليو ستين: إنها وسيلة لحماية نفسه من الواقع بمواجهته بالحلم، وبإفناء حقيقة الحياة بكذبة الوهم المشرقة». كان مستمتعاً ومفتوناً باكتشافه. كان يشعر بأنه براوسين، يشعر بأنه منعتق، ناج، حين أقلقه استشهاد آخر في دفتره، وارد في هامش **الحياة القصيرة**. وقد كان بيتاً من أشعار كيبلينغ، من قصيدته *If* :

If you can dream-and not
make dreams your master

إنه تحذير مناسب. أما زال يتحكم بأحلامه، أم أن الأحلام هي التي صارت تتحكم به لكثرة ما أساء استعمالها منذ انفصاله عن لوكريثيا؟

ـــ لقد تصادقتُ وإياها منذ تلك المأدبة في السفارة الفرنسية ـــ كانت زوجته تروي له ـــ. دعتني إلى منزلها، إلى حمام بخاري. وهذه عادة شائعة جداً في البلدان العربية كما يبدو. حمامات البخار. إنها ليست مثل حمامات الساونا بالضبط، فهذه حمامات جافة. لقد شيدوا حماماً في أقصى حديقة المنزل في أورانيتا.

كان دون ريغوبيرتو ما يزال يتصفح بنزق صفحات دفتره، ولكنه لم يعد هناك بالكامل؛ فقد كان أيضاً في تلك الحديقة الوارفة بأشجار الفلوريبونديو وشجيرات غار ذات أزهار بيضاء ووردية، ورائحة زخمة من زهرة العسل التي تتسلق أعمدة تستند إليها

الشرفة. وكان يتجسس مبهوراً على المرأتين ـــــ لوكريثيا بثوبها الربيعي المزين برسوم أزهار، وصندل يكشف قدميها المرشوشتين بالبودرة، وزوجة السفـــير الجزائري بعباءة حريرية ذات ألوان لطيفة يجعلها الصباح المشرق براقة ـــــ وهما تتقدمان ما بين أزهار جرانيوم حمراء، وكروتو خضراء وصفراء، وعشب مقصوص بدقة، متوجهتين نحو بناء خشبي تغطي نصفه أغصان شجرة فـــيكو وارفة. «إنه حمام البخار»، قال ذلك لنفسه وهو يهجس بقلبه. كان يرى المرأتين من الخلف ويعجب لتشابه هيئتيهما، للحركة الإيقاعية لمؤخرتيهما العريضتين المتحررتين، وظهريهما المتباهيين، وحركة وركيهما اللذين يرسمان لدى المشي ثنيات فـــي ملابسهما. كانت كل منهما تتأبط ذراع الأخرى، مثل صديقتين حميمتين، وتحملان المناشف فـــي أيديهما. وفكر: «إنني هناك، أنقذ نفسي، وأنا هنا فـــي مكتبي، مثل خوان ماريا براوسين فـــي حجرته الضيقة فـــي بوينس آيرس يتحول إلى القواد آرسي الذي يستغل جارته كيكا، وينقذ نفسه بالتحول إلى الدكتور دياث غراي فـــي مدينة سانتا ماريا الوهمية.» ولكنه سها عن المرأتين. فما إن قلب صفحة من دفتره حتى وجد فقرة أخرى من **الحياة القصيرة:** «أنت سميت نهديك بالمفوضين».

«إنها ليلة الصدور»، فكر بتأثر. «ألا نكون أنا وبراوسين مجرد زوج من الشيزوفرينيين؟» لم يهمه ذلك على الإطلاق. كان قد أغمض عينيه وصار يرى الصديقتين وهما تتعريان دون تكلف، بانطلاق، وكأنهما قد مارستا هذا الطقس مرات كثيرة من قبل، فـــي

الردهة الخشبية الصغيرة قبل الدخول إلى حجرة البخار. علقتا الملابس على خطافات فـــي الجدار والتفتا بالمناشف الكبيرة، وهما تتحدثان بحماسة عن شيء لم يكن دون ريغوبيرتو يفهمه ولا يرغب فـــي أن يفهمه. ودفعتا الآن بوابة خشبية صغيرة دون مزلاج، وانتقلتا إلى الحجرة المشبعة بسحب من البخار. وأحس بلفحة حرارة رطبة فـــي وجهه، ضمخت بيجامته وألصقتها بجسده فـــي ظهره وصدره وساقيه. وراح البخار يدخل إلى جسمه من أنفه وفمه وعينيه، مثل عطر بدا وكأنه عطر الصنوبر، الصندل، النعناع. كان يرتعش خائفاً أن تكتشفه الصديقتان. ولكنهما كانتا لا توليانه أدنى اهتمام، كما لو أنه ليس موجوداً هناك أو أنه غير مرئي.

وأوضحت له دونيا لوكريثيا:

ـــــ لا تظن أنهم استخدموا فـــي الجراحة أي شيء اصطناعي مثل السليكون أو هذه القذارات. لا شيء من هذا. لقد استخرجوا قطعة من معدتها، وأخرى من إليتها، وأخرى من فخذها. دون أن يخلفوا أدنى أثر. إنها متقنة، متقنة، أقسم لك.

وكان ما تقوله صحيحاً، وكان يتأكد منه. فقد خلعتا عنهما المناشف وجلستا متقاربتين بسبب ضيق المكان، على مقعد من ألواح خشبية متصل بالجدار. تأمل دون ريغوبيرتو الجسدين العاريين من خلال الحركات المتموجة لسحب البخار الساخن. لقد كان المشهد أفضل من لوحة **الحمام التركي** لإنجري، ذلك أن تراكم العاريات فـــي تلك اللوحة يشتت الانتباه ـــــ وسبَّ قائلاً: «لعنة الجماعية» ـــــ أما هنا، فـــيمكن التركيز بتحديد، وإحاطة الصديقتين بنظرة

واحدة، وإعادة تركيبهما دون فقدان أدنى إيماءة من حركاتهما، وامتلاكهما في نظرة شاملة. ثم إن الأجساد في **الحمام التركي** جافة، بينما هنا، وخلال ثوانٍ قليلة، كانت بشرة دونيا لوكريثيا والسفيرة مغطاة بقطرات صغيرة ولامعة من العرق. وفكر منفعلاً: «كم هما جميلتان. وهما معاً أكثر جمالاً، كما لو أن جمال إحداهما يزيد من جمال الثانية.»

وكانت دونيا لوكريثيا تقول بإلحاح:

ـــ لم يتركوا ظلاً لأي ندبة. لا في البطن، ولا في الإلية، ولا في الفخذ. ولا في النهدين الاصطناعيين بالطبع. أمر لا يُصدق يا حبي.

ولكن دون ريغوبيرتو كان يصدق الأمر بحذافيره. وكيف لا يصدق وهو يرى هذين النهدين الكاملين قريبين جداً، إلى حد أنه يمكنه لمسهما إذا ما مدّ يده؟ (وقال مشفقاً: «آي، آي»). كان جسد زوجته أكثر بياضاً، وجسد السفيرة أكثر سمرة، كما لو أنه قد نما وتشكل في العراء؛ وكان شعر لوكريثيا أملس وأسود بينما شعر صديقتها مجعد ومائل إلى الحمرة، ولكن على الرغم من تلك الاختلافات، كانتا تتشابهان في ازدرائهما للموضة الحديثة في النحافة والأسلوب الرُمْحيّ، وفي أبهتهما المستمدة من عصر النهضة، وفي الوفرة البديعة لأثدائهما، وأفخاذهما، وأردافهما، وأذرعهما، وفي هذه التكورات التي كانت ـــ لم يكن بحاجة إلى مداعبتها ليعرف ـــ صلبة ومتماسكة ومشدودة، ومضغوطة وكأن هناك صُدَيْريّات ومشدات وأربطة غير مرئية تقولبها. واحتفل بذلك

مفكراً: «النموذج الكلاسيكي للتقاليد العظيمة».

وقالت دونيا لوكريثيا مشفقة:

ـــ لقد عانت كثيراً من كل تلك العمليات الجراحية، وكل تلك النقاهة الطويلة. ولكن تدلُّلها، وإرادتها بعدم الرضوخ، وإصرارها على هزيمة الطبيعة، وعلى البقاء جميلة ساعدتها على التحمل. وأخيراً كسبت الحرب. ألا يبدو لك هذا جميلاً؟

فرتل دون ريغوبيرتو:

ـــ وأنتِ أيضاً تبدين لي كذلك.

كان الحر والتعرق قد هيجاهما. وكلتاهما كانتا تتنفسان بعمق، بحركات بطيئة وعميقة ترفع وتُخفض صدريهما مثل تموجات البحر. وكان دون ريغوبيرتو مشدوهاً. ما الذي تقولانه؟ لماذا ظهر هذا الوميض الماكر فـــي زوجي العيون تلك؟ ارهف سمعه وسمعهما.

ـــ لا أستطيع أن أصدق ـــ كانت دونيا لوكريثيا تقول وهي تنظر إلى نهدي السفـــيرة، وتبالغ فـــي دهشتها: ـــ إنهما يسببان الجنون لأي شخص. ولكن، لا يمكن أن يكونا أكثر طبيعية.

ـــ هذا ما يقوله لي زوجي ـــ قالت السفـــيرة ذلك ضاحكة، وتعمدت رفع صدرها قليلاً بحيث يبرز النهدان. كانت تحرك يديها وهي تتكلم بلكنة فرنسية، ولكن الخاءات والراءات كانت عربية النبرة (وقرر دون ريغوبيرتو:«أبوها ولد فـــي وهران، ولعب كرة قدم مع ألبير كامو»)، ثم أضافت: ـــ وهو يقول أيضاً إنهم قد جعلوهما أفضل من السابق، وإنهما يعجبانه الآن أكثر. ولا تظني أن

الجراحة تُفقدهما الإحساس. أبداً، ولا بأي حال.

ضحكت متصنعة الحياء، وضحكت دونيا لوكريثيا كذلك وهي تربت لها برفق على فخذها بطريقة فاجأت دون ريغوبيرتو. ثم قالت بعد برهة:

ـــ آمل ألا تسيئي الظن بي وألا تفكري بأمور أخرى. هل يمكنني لمسهما؟ ألا يضايقك ذلك؟ إنني أموت لهفة لأعرف إذا ما كان ملمسهما حقيقياً مثل مظهرهما. قد أبدو لك مجنونة وأنا أطلب منك هذه. ألا تتضايقين؟

ـــ بالطبع لا يا لوكريثيا ـــ ردت السفـيرة بألفة. وكانت إيماءاتها قد ازدادت وأخذت تبتسم بفم مفتوح على مصراعيه، مظهرة باعتزاز مشروع أسنانها الناصعة ـــ أنت تلمسين نهديّ وأنا ألمس نهديك. نقارن. ليس هناك أي ضرر فـي مداعبة بين صديقتين.

ـــ أجل، أجل ـــ هتفت دونيا لوكريثيا بحماسة. ألقت نظرة بطرف عينها إلى حيث يوجد دون ريغوبيرتو (فتنهد هو: «لقد عرفتْ منذ البدء أنني هنا») ـــ لست أعرف ما رأي زوجك، ولكن زوجي تفتنه هذه الأشياء. فلنلعب، فلنلعب.

كانتا قد بدأتا الملامسة، فـي البدء بحذر شديد وبصورة سطحية؛ وبعد ذلك بجرأة أكبر؛ والآن صارتا تداعبان حلمات أثدائهما دون مواربة. راحتا تتقاربان. تعانقتا، واختلط شعراهما. وكان دون ريغوبيرتو لا يكاد يميزهما. فقد كانت قطرات العرق ـــ أو ربما الدموع ـــ تهيج حدقتيه بطريقة يضطر معها إلى أن

يرمش دون توقف وأن يغمض عينيه. «إنني سعيد، إنني حزين»، كان يفكر بذلك وهو مدرك للتناقض. أيمكن أن يكون ذلك محتملاً؟ ولم لا. مثلما يمكن للمرء أن يكون في بوينس آيرس وفي سانتا ماريا، أو أن يكون في هذا الصباح وحيداً في عزلة مكتبه، محاطاً بالدفاتر واللوحات، وفي تلك الحديقة الربيعية، ما بين سحب البخار، متعرقاً بغزارة.

وأوضحت له دونيا لوكريثيا:

ـــ بدأ ذلك على أنه لعب. لقضاء الوقت بينما نحن نطرح سموم العرق. وعلى الفور فكرتُ فيكَ. وفيما إذا كنتَ ستوافق. وإذا ما كان سيهيجك. إذا ما كنت ستتضايق. وإذا ما كنت ستؤنبني عندما أخبرك.

ووفياً لوعده بتخصيص الليلة كلها لعبادة نهدي زوجته واسعي الصلاحيات، جثا على الأرض، ما بين ساقي لوكريثيا المنفصلتين وهي جالسة على حافة السرير. وكان يمسك أحد النهدين في كل يدٍ من يديه بعناية محبة، متطرفاً في الحرص، وكأنهما من الزجاج الهش ويمكن لهما أن ينكسرا. كان يقبلهما بطرف شفتيه، مليمتر بعد آخر، وكأنه مزارع مُدقّق لا يترك بقعة من الأرض دون حرث.

ـــ أي أنني استُثرت عندما لمستهما لكي أعرف، باللمس، إذا ما كان نهداها مركبين. وفعلت هي مثلي على سبيل الملاطفة، وحتى لا تبقى ساكنة، بفتور. ولكن ذلك كان لعباً بالنار طبعاً.

ـــ بالطبع. وافق دون ريغوبيرتو الذي لم يمل البحث عن التشابه، قافزاً، بالعدل، من صدر إلى آخر ـــ. ألأنكما تهيجتما؟

ألأنكما انتقلتما من لمس النهود إلى تقبيلها؟ إلى مصها؟

وندم على الفور. لقد خرق ذلك الاتفاق الصارم الذي يُقر عدم جواز الجمع ما بين اللذة واستخدام الكلمات المبتذلة، وخصوصاً الأفعال (مص، رضع) التي تجرح أي وهم.

وقال معتذراً، ومحاولاً استعادة الماضي وتصحيحه:

ـــ لم أقل «مصها». فلنبق عند تقبيلها. أي واحدة هي التي بدأت؟ أكنتِ أنتِ يا حياتي؟

سمع صوتها الخافت جداً، ولكنه لم يتمكن من رؤيتها، لأنها كانت تتلاشى بسرعة كبيرة، مثلما يتلاشى البخار عن المرآة عند دلكها أو حين تتلقى جرعة من الهواء البارد: «أجل، أنا. ألم يكن هذا هو ما طلبتَ مني عمله، وما كنت تريده؟». وفكر دون ريغوبيرتو: «لا. ما أريده هو أن تكوني هنا من لحم وعظم، وليس شبحاً. لأنني أحبك.» كان الحزن قد انهال عليه مثل وابل، وجرفت مياه إعصاره العاتية تلك الحديقة، وذلك المنزل، ورائحة الصندل والصنوبر والنعناع، وحمام البخار والصديقتين المتلاطفتين. وكذلك الحر الرطب الذي كان قبل لحظة، وحلمه. كانت برودة الفجر تتغلغل فـــي عظامه. والبحر الرتيب يلطم الجروف بسخط.

وعندئذ تذكر أن كيكا والبدينة، فـــي الرواية ـــ ملعون أونيتي! مبارك أونيتي! ـــ تتبادلان القبلات والمداعبات خفـــية عن براوسين، وآرسي المزيف، وأن العاهرة أو العاهرة السابقة كيكا، التي يقتلونها، كانت تعتقد أن شقتها تغص بالمسوخ، بالعفاريت، بالمخلوقات والبهائم الخرافـــية الخفـــية التي تأتي لمضايقتها. وفكر:

«كيكا والبدينة، لوكريثيا والسفــيرة.» إنه شيزوفريني مثل براوسين. لم يعد بإمكان الأشباح أن تنقذه، بل إنها سوف تدفنه كل يوم فـــي عزلة أشد عمقاً، تاركة مكتبه مزروعاً بالوحوش الضارية، مثل شقة كيكا. هل عليه أن يحرق البيت؟ وهل يفعل ذلك وهو وفونتشيتو بداخله؟

ولمع فـــي الدفتر حلم ايروتيكي لخوان ماريا براوسين («مستقى من لوحات لبول ديلفو لم يكن بإمكان أونيتي أن يعرفها حين كتب **الحياة القصيرة**، لأن الفنان السوريالي البلجيكي لم يكن قد رسمها بعد»، هذا ما تقوله ملاحظة صغيرة بين قوسين) «أُسلم نفسي إلى مسند الكرسي، إلى كتف الفتاة، وأتخيل أنني أبتعد عن مدينة صغيرة مؤلفة من بيوت دعارة؛ عن قرية صامتة فــيها أزواج من الناس العراة يتجولون فـــي جنائن، وعلى أرصفة طحلبية، يحمون وجوههم بأكفهم المفتوحة عندما تضاء أنوار، عندما يمرون بصبيان لواطة...». هل سينتهي مثل براوسين؟ أيكون قد صار مثل براوسين؟ وسطي مفلس، فشل كمثالي كاثوليكي، وكمصلح اجتماعي إنجيلي، ثم فشل بعد ذلك أيضاً كماجن فردي ومتلذذ لاأدريّ، وصانع لمقاطعات فردية خاصة ذات مخيلة عالية وذوق فني رفــيع، فتهدم كل شيء وانهار: الزوجة التي يحبها، والابن الذي أنجبه، والأحلام التي أراد أن يُدخلها فـــي الواقع، وهو ينحدر كل يوم، كل ليلة، وراء القناع المقزز لمدير شركة تأمين ناجح، متحولاً إلى هذا «اليائس المحض» الذي تتحدث عنه رواية أونيتي، إلى شبيه مضحك للماسوشي فـــي **الحياة القصيرة**. ولكن

براوسين كان يرتب أمره مع ذلك ليهرب من بوينس آيرس، بركوب القطارات أو السيارات، أو السفن أو الحافلات، ويتمكن من الوصول إلى سانتا ماريا، المستوطنة الوهمية التي ابتدعها. ودون ريغوبيرتو ما يزال يتمتع بكثير من الصحو وصفاء الذهن بحيث لا يمكنه التوغل خلسة فـــي الخيال، أو القفز إلى الحلم. فهو لم يصبح براوسين بعد. هنالك متسع من الوقت، للقيام برد فعل، لعمل شيء. ولكن، ماذا، ماذا.

ألعاب الإخفاء

أدخلُ إلى بيتك من مدخنة المدفأة، مع أنني لستُ سانتا كلوز، وأطفو حتى أصل إلى غرفة نومك، وحين ألتصق بوجهك، ابدأ بتقليد طنين الناموسة. فتبدأ، وأنت نائم، بتوجيه صفعات فـــي الظلام إلى برغشة مسكينة لا وجود لها.

وعندما أتعب من لعبة البعوضة، ارفع الدثار عن قدميك، وأنفخ عليهما تيار هواء بارد يخدر عظامك. فتبدأ بالارتعاش، تتكمش على نفسك، تحرك الدثار، تصطك أسنانك، تغطي نفسك بالوسادة وتداهمك كذلك موجة عطاس ليست من النوع التحسسي.

وعندئذ أتحول إلى حر بيوراني، أمازوني، يبللك بالعرق من رأسك حتى قدميك. فتبدو مثل فروج صغير مبلل، تلبط الملاءات إلى الأرض، وتخلع قميص وسروال البيجاما. إلى أن تبقى عارياً،

متعرقاً، متعرقاً وتلهث مثل أكورديون.

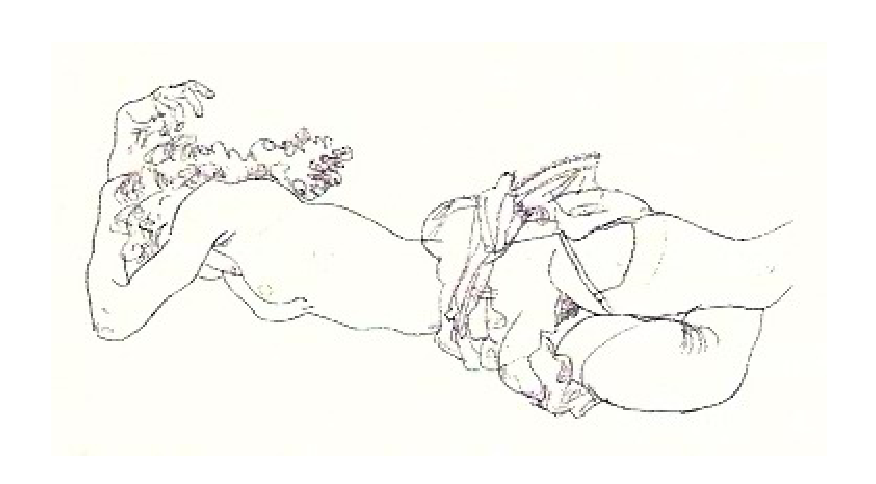
بعد ذلك أتحول إلى ريشة وأدغدغك، فـــي باطن قدميك، فـــي أذنك، تحت إبطيك. ها ها،ها ها، ها ها، تضحكُ دون أن تستيقظ، مكشراً وجهك بيأس ومتحركاً، إلى اليمين، إلى اليسار، لكي تتخلص من تشنجات القهقهة. إلى أن تستيقظ أخيراً، بخوف، دون أن تراني، ولكنك تشعر بأن هناك من يطوف فـــي الظلام.

وعندما تنهض لتذهب إلى مكتبك، لتتسلى بلوحاتك، أضع لك الشراك فـــي طريقك. أحرك كراسي وزينات وطاولات من أماكنها، لكي تصطدم بها وتصرخ «آي آي آي ي ي!» وأنت تفرك قصبتي ساقيك. وأحياناً أخبئ روبك البيتي، أو خفـــيك. وأحياناً أريق لك كأس الماء الذي تضعه على الكوميدينو لتشربه حين تستيقظ. وكم تغضب عندما تفتح عينيك وتتلمس باحثاً عنه وتكتشف أنه وسط بركة من الماء على الأرض!

هكذا نلعب نحن مع من نحب.

لك، لك، لك،

الشبحية العاشقة



VIII. وحـــش ضار فـــي المرآة

«لقد ذهبتُ هذه الليلة»، أفلتت العبارة من دونيا لوكريثيا. وقبل أن تتنبه تماماً لما قالته، سمعت فونتشيتو يسألها: «إلى أين يا خالتي؟» فاحمرتْ حياءً حتى جذور شعرها، ونهشها الخجل.

ــــ أعني أنني لم أستطع أن أغمض عيني ــــ قالت ذلك كاذبة، لأنها منذ زمن طويل لم تنم بمثل هذا العمق، وإن كان حلمها مشوشاً باضطرابات الرغبة وأشباح الحب، ثم أضافت: ــــ. لم أعد أعرف ما الذي أقوله من الإرهاق.

عاد الصبي إلى التمعن فـــي تلك الصفحة من الكتاب الذي

يتحدث عن رسام هواه، الصفحة التي تظهر فيها صورة لإيغون شيلي ينظر في مرآة مرسمه الكبيرة. كان يظهر بكامل قامته واضعاً يديه في جيبيه، وكان شعره القصير مشعثاً، وقامته الشابة محشورة في قميص أبيض بياقة مركبة، مع ربطة عنق، ولكن دون سترة، أما اليدان فمخبأتان بالطبع في جيبي بنطال يبدو مشمراً من أجل الخوض في نهر. منذ أن وصل فونتشيتو لم يفعل شيئاً سوى الحديث عن تلك المرآة، محاولاً مرة بعد أخرى فتح حديث حول هذه الصورة؛ ولكن دونيا لوكريثيا المستغرقة في أفكارها، لم توله أي اهتمام؛ فقد كانت ضحية التهيج المضطرب، والشكوك والآمال التي أغرقها فيها منذ الأمس التطور المفاجئ لمراسلاتها المغفلة. نظرت إلى رأس فونتشيتو ذي التجعيدات الذهبية، ورأت بروفيل وجهه، والتمعن الشديد الذي يُخضع إليه تلك الصورة، وكأنه يريد أن ينتزع منها سراً. وفكرتْ: «لم ينتبه، لم يفهم ما قلته.» بالرغم من أنه لا يمكن التأكد من أي شيء معه. ربما يكون قد فهم جيداً وأخفى ذلك، لكي لا يزيد من إحراجها.

أم أن كلمة «ذهبتُ» لا تعني الشيء نفسه عند الطفل؟ وتذكرت أنها في زمن سابق كانت قد دخلت هي وريغوبيرتو في واحدة من تلك المناقشات الشائكة التي لم يكن القانون الذي يحكم حياتيهما يبيحها إلا في الليل وفي السرير فقط. كان زوجها قد أكد لها أن أبناء الجيل الجديد لم يعودوا يقولون «ذهبت» وإنما يقولون «جئت»، مما يوضح تأثير اللغة الإنكليزية في المجال الغرامي أيضاً، ذلك أن الغرينغيين والغرينغيات حين يمارسون الحب «يأتون» (to come)

ولا يذهبون إلى أي مكان، مثلما هو الحال لدى اللاتينيين. مهما كان الأمر، فإن دونيا لوكريثيا قد ذهبت أو جاءت أو انتهت (وهذا هو الفعل الذي كانت تستخدمه هي وريغوبيرتو طوال عشر سنوات من الحياة الزوجية، بعد أن اتفقا على ألا يشيرا مطلقاً إلى النهاية الجميلة لالتقاء جسد بجسد ايروتيكياً بالكلمة الفظة والسريرية «رعشة» وأسوأ منها كلمة «قذف» الماطرة والحربية) فـــي الليلة الماضية، مستمتعة برحابة، بمتعة قصوى، تكاد تكون مؤلمة ـــــ استيقظت مستحمة بالعرق، وأسنانها تصطك، ويداها وقدماها ترتعش ـــــ حالمة بأنها قد ذهبت إلى الموعد السري الذي حدده العشيق، منفذة كل التعليمات الشاذة، وعلى أثر ذلك، وبعد تنقل عشوائي فـــي شوارع مركز وضواحي ليما المظلمة، أُدخلتْ ـــــ وهي معصوبة العينين بالطبع ـــــ إلى بيت رائحته معروفة، وأُصعدت على درج إلى طابق ثانٍ ـــــ أحستْ بيقين منذ اللحظة الأولى أنه بيت بارانكو ـــــ، وعُريت وأُخذت إلى سرير حددته كذلك بأنه سريرها المعهود، إلى أن أحست بأنها تُعانَق، تُحتضَن، تُداهَم، تُعتلى من جسد، هو بالطبع جسد ريغوبيرتو. وكانا قد انتهيا ـــــ ذهبا أو جاءا ـــــ معاً، وهو شيء لم يكن يحدث لهما بكثرة. وبدا ذلك لكليهما علامة طيبة، وفألاً سعيداً للمرحلة الجديدة التي ستفتح بعد المصالحة الجامحة. عندئذ استيقظت، مبللة، خامدة، مضطربة، وكان عليها أن تناضل لكي تتقبل أن تلك السعادة الزخمة لم تكن إلا حلماً.

ـــــ هذه المرآة أهدتها إلى شيلي أمه ـــــ أعادها صوت فونتشيتو إلى بيتها، إلى رمادية سان إيسيدرو، إلى صرخات

الصبيان الذين يتقاذفون كرة في بستان الزيتون؛ وكان الطفل يتوجه بوجهه نحوها: ـــ لقد توسل وتوسل إلى أمه لكي تهديه إياها. البعض يقولون إنه قد سرقها. وإنه كان يموت لهفة لامتلاكها، وفي أحد الأيام، ذهبَ إلى بيت أمه وأخذ المرآة سطواً. وقد رضخت الأم وتركتها في مرسمه. وكانت أول مرآة يملكها. وقد احتفظ بها دوماً، فانتقل إلى كل المراسم ومعه هذه المرآة، حتى موته.

وبذلت دونيا لوكريثيا جهداً لكي تبدي اهتمامها:

ـــ ولماذا كانت هذه المرآة على هذا القدر من الأهمية؟ لقد كان نرجسياً، وهذا أمر صرنا نعرفه. وفي هذه الصورة يظهر بكامل قامته، متأملاً نفسه، مغرماً بذاته، مبدياً على وجهه ملامح الضحية. من أجل أن يحبه الجميع ويقدرونه مثلما كان يحب نفسه ويقدرها.

صاح:

ـــ يا للمخيلة يا خالتي! لهذا السبب أحب التحدث إليك؛ فأنت تخطر لك أشياء، مثلما يحدث لي. إنك تستخلصين قصة من أي شيء. نحن متشابهان، أليس كذلك؟ عندما أكون معك لا أشعر بالملل على الإطلاق.

ـــ وأنا أيضاً لا أشعر بالملل معك ـــ وأرسلتْ له قبلة طائرة ـــ. ها أنا قد أبديت لك رأيي، فأعطني أنتَ الآن رأيك. لماذا هي مهمة جداً؟

ـــ إنني أحلم بهذه المرآة ـــ اعترف فونتشيتو، ثم أضاف

وهو يبتسم ابتسامة ميفــيستوفــيليسية: ـــ لقد كان إيغون مهتماً بها كثيراً جداً. كيف تظنينه رسم صوره الذاتية المئة؟ بالاستعانة بهذه المرآة. وقد استخدمها كذلك لرسم موديلاته، منعكسات فــيها. لم تكن نزوة، وإنما كانت، كانت...

كشر قليلاً باحثاً، ولكن دونيا لوكريثيا انتبهت إلى أنه لم يكن يبحث عن كلمات، وإنما كان يحاول تحديد فكرة ما تزال مبهمة لديه، فكرة ما زالت تجول فــي ذلك الرأس الناضج قبل أوانه. إنها واثقة الآن من أن ميل الطفل إلى هذا الرسام هو ميل مرضي. ولكن، ربما أمكن لهذا السبب نفسه أيضاً أن يخط لفونتشيتو مستقبلاً استثنائياً، بأن يكون مبدعاً متفرداً، وفناناً شاذاً. إذا ما ذهبتْ إلى الموعد وتقابلتْ مع ريغوبيرتو، فسوف تحدثه فــي هذا الأمر. «أتروقك فكرة أن يكون لك ابن عبقري ومختل؟» وستسأله عما إذا لم يكن هناك خطر على صحة الطفل النفسية فــي إحساسه بالتطابق بهذه الطريقة مع رسام ذي ميول غير سوية مثل إيغون شيلي. ولكن ريغوبيرتو سيرد عليها عندئذ: «ماذا؟ أكنتِ تقابلين فونتشيتو؟ تقابلينه ونحن منفصلان؟ بينما أنا أكتب لك رسائل حب، ناسياً ما حدث، متسامحاً مع ما حدث، كنتِ أنت تلتقين به خفــية؟ تلتقين بالطفل الذي أفسدتِه بإدخاله إلى سريرك؟». وفكرتْ لوكريثيا: «رباه، رباه، لقد جننتُ تماماً». إذا ما ذهبتْ إلى الموعد فلا يمكنها أن تذكر اسم ألفونسو إلا مرة واحدة.

ـــ أهلاً خوستيتا ـــ حيا الطفل الفتاة التي دخلت الصالة بملابس فاخرة، وبمريلة منشاة، حاملة صينية الشاي والبسكويت

المحمص مع الزبد والمربى ـــ. لا تذهبي، أريد أن أريك شيئاً. ماذا ترين هنا؟

ـــ وماذا سيكون سوى قذارة أخرى من القذارات التي تعجبك

ـــ أمعنت خوستينيانا النظر بعينيها المتحركتين في الكتاب: ـــ رجل متهتك يستمتع برؤية فتاتين عاريتين، بجوارب وقبعات، تعرضان نفسيهما من أجله.

ـــ هكذا تبدو، أليس كذلك؟ ـــ هتف فونتشيتو بمزاج ظافر. ثم مدّ الكتاب إلى دونيا لوكريثيا لكي تتفحص اللوحة التي تحتل صفحة كاملة وهو يقول: ـــ ليستا اثنتين، وإنما هي واحدة فقط. لماذا تبدو وكأنها اثنتان، أحدهما من الأمام والثانية مديرة ظهرها؟ بسبب المرآة! هل انتبهت يا خالتي؟ والعنوان يوضح كل شيء.

شيلي يرسم موديلاً عارية أمام المرآة (1910) (غرافيك شاملونغ ألبيرتينا، فيينا). قرأت دونيا لوكريثيا ذلك بينما هي تتأمل اللوحة مذهولة بشيء لا تعرف ما هو، اللهم إلا أنه ليس في اللوحة نفسها: حضور ما، أو بكلمة أدق غياب ما، وكانت تسمع بإحدى أذنيها فونتشيتو وهو في تلك الحالة الانفعالية المتصاعدة التي يتحول إليها كلما تكلم عن شيلي. كان يشرح لخوستينيانا أن المرآة «موجودة حيث نوجد نحن الذين نرى اللوحة». وأن فتاة الموديل التي يظهر وجهها ليست الفتاة التي من لحم وعظم، وإنما الصورة المطبوعة في المرآة، وبالمقابل فإن الرسام والموديل نفسها التي تدير ظهرها، هما حقيقيان وليسا صورة معكوسة. وهذا يعني أن شيلي كان قد بدأ برسم موا وهي تدير ظهرها، قبالة المرآة،

ولكنه انجذب فــيما بعد إلى الجزء الذي لا يراه منها مباشرة وإنما هو معكوس فــي المرآة، قرر أن يرسمها بتلك الصورة أيضاً. وهكذا فقد رسم، بفضل المرآة، موا مكررة هي فــي الواقع واحدة: إنها موا الكاملة، موا بنصفــيها، موا التي لا يمكن لأحد أن يراها فــي الواقع «لأننا لا نستطيع أن نرى إلا ما هو أمامنا، وليس الجزء الذي وراء هذا الأمام». هل فهمت لماذا كانت هذه المرآة مهمة جداً بالنسبة إلى شيلي؟

ـــ ألا ترين أن هناك خللاً فــي طبقته العليا يا سيدتي؟ ـــ قالت خوستينيانا ذلك بمبالغة وهي تلمس صدغها.

ـــ إنه كذلك منذ زمن بعيد ـــ وافقت دونيا لوكريثيا. ثم توجهت إلى فونتشيتو: ـــ ومن هي موا؟

تاهيتيه. جاءت إلى فــيينا واستقرت للعيش مع رسام، كان هو الآخر إيحائياً ومجنوناً: ايروين دومينيك أوسيه. وسارع الطفل إلى قلب الصفحات ليُري دونيا لوكريثيا وخوستينيانا عدة رسوم للتاهيتية موا، وهي ترقص، متلفعة بعباءة متعددة الألوان يبرز من خلال ثناياها نهداها بحلمتيهما المنتصبتين، والشعر الذي مثل عنكبوتين رابضين تحت إبطيها. لقد كانت ترقص فــي الكباريهات، وكانت ملهمة الشعراء والرسامين، وكانت عشيقة إيغون شيلي، فضلاً عن كونها موديله.

وعلقت خوستينيانا:

ـــ هذا ما فكرت فــيه منذ البداية. لقد كان اللعين يضاجع كل موديلاته بعد أن يرسمهن، هذا صرنا نعرفه.

ـــــ أحياناً قبل أن يرسمهن، وأحياناً فـــي أثناء رسمهن ـــــ أكد فونتشيتو بهدوء ـــــ مع أنه لم يكن يضاجعهن كلهن. ففـــي بطاقته لعام 1918، سنته الأخيرة فـــي الحياة، زارت مرسمه 117 فتاة موديل. هل كان بإمكانه مضاجعتهن كلهن فـــي ذلك الوقت القصير؟

فقالت خوستينيانا باحتفالية:

ـــــ لن يستطيع حتى ولو أصيب بالسل. هل مات بمرض رئوي؟

وأوضح لها فونتشيتو:

ـــــ مات بالأنفلونزا الإسبانية وهو فـــي الثامنة والعشرين من عمره. وهكذا سأموت أنا أيضاً إذا كنتِ لا تعرفـــين.

فأنبته الفتاة:

ـــــ لا تقل هذا الكلام ولو مازحاً، إنه يجلب سوء الطالع.

وقاطعتهما دونيا لوكريثيا:

ـــــ ولكن هناك شيء لا يتطابق هنا.

كانت قد انتزعت من الطفل كتاب اللوحات وراحت تتفحص باهتمام ذلك الرسم، بخطوطه النحيلة المحددة، على خلفـــية حَبّارية، حيث يظهر الرسام مع الموديل المزدوجة (أم من الأفضل القول الموديل المشطورة؟) بواسطة المرآة، وتبدو عينا الراقصة موا ذات الرموش الزرقاوية، الكئيبتان، الحريريتان، اللتان تطلقان شرراً وكأنهما تردان على عيني شيلي المركزتين، وشبه العدائيتين. لقد كان يقلق السيدة لوكريثيا شيء تمكنت من تحديده للتو. آه، أجل، إنها

القبعة المرئية من الخلف. باستثناء هذا التفصيل هناك توافق متقن فـــي كل شيء فـــي الصورة الدقيقة، المقسومة، الحسية للتاهيتية ذات الشعر الشبيه بالعناكب فـــي العانة والإبطين؛ وحين ينتبه الناظر إلى وجود المرآة، يتعرف على نصفـــي الشخصية نفسها فـــي الصورتين اللتين تتأملان الرسام. ولكن التوافق غير موجود فـــي القبعة. فالتي تدير ظهرها تضع على رأسها شيئاً لا يشبه القبعة من هذا المنظور، بل يشبه شيئاً غامضاً، مُقلقاً، نوعاً من القلنسوة، بل هو أشبه برأس حيوان ضار. أجل، ما يشبه النمر. وليست له أي علاقة بالقبعة النسائية اللطيفة التي تزين وجه موا فـــي الرسم الوجهي.

كررت الخالة:

ـــ يا للغرابة. هذه القبعة تتحول من الخلف إلى قناع. إلى رأس نمر.

ـــ أهو مثل ذلك القناع الذي كان أبي يطلب منكِ أن تضعيه أمام المرآة يا خالتي؟

تجمدت ابتسامة دونيا لوكريثيا. وأدركت فجأة سبب الكدر الغامض الذي سيطر عليها منذ عرض الطفل لوحة ***شيلي يرسم موديلاً عارية أمام المرآة***.

أعانتها خوستينيانا:

ـــ ماذا أصابك يا سيدتي؟ كم شحب لونك!

فتلعثمت دونيا لوكريثيا وهي تنظر إلى فونتشيتو غير مصدقة:

ـــ إنكَ أنتَ إذن. أنتَ من أرسلتَ لي الرسائل المغفلة يا شقفة

المهرج.

إنه هو، بالطبع هو. لقد كانت الإشارة في الرسالة ما قبل الأخيرة، أو في سابقتها. لم تكن بحاجة إلى الذهاب للبحث عنها، فالعبارة تتبعث بنقاطها وفواصلها في ذاكرتها: «ستتعرين أمام المرآة المجزأة وتبقين بجوربيك، تخفين رأسك البديع في قناع وحش ضار، من الأفضل أن يكون نمرة أو لبوة. تميلين بردفك الأيمن، وتمدين ساقك اليمنى، وتسندين يدك إلى الردف الآخر، في أشد الأوضاع اثارة. وعندئذ سأراك، وأنا جالس على كرسي، بالتوقير المعتاد». أليس هذا ما تراه في اللوحة؟ هذا الصغير المخاطي اللعين يلعب بها على هواه! تناولتْ كتاب اللوحات وقد أعماها الغضب، ورمته نحو فونتشيتو. لم يستطع الطفل تفاديه. فتلقى الكتاب في منتصف وجهه وهو يطلق صرخة، تلتها صرخة أخرى أطلقتها خوستينيانا المذعورة. وبسبب شدة الصدمة وقع الطفل على السجادة وهو يمسك وجهه، وبقي ينظر إليها من الأرض بذهول. لم تفكر دونيا لوكريثيا في أنها قد أساءت التصرف بسماحها للغضب بأن يسيطر عليها. فقد كانت هيمنة الغضب قد بلغت حداً لا مجال فيه للندم والتراجع. وبينما كانت الفتاة تساعده على النهوض، واصلت هي الصراخ خارجة عن طورها:

ــــ كاذب، منافق، ذبابة ميتة. أتظن أنه لك الحق باللعب معي هكذا، وأنا المرأة الكبيرة بينما أنت طفل مخاطي لم تكد تخرج من البيضة؟

ــــ ماذا أصابَكِ، ما الذي فعلتُه لكِ؟ ــــ قال فونتشيتو ذلك

متلعثماً وهو يحاول الإفلات من بين ذراعي خوستيتا.

وقالت خوستينيانا:

ــــ اهدئي يا سيدتي، لقد آذيتِه، انظري، إن أنفه ينزف. وأنتَ، ابق هادئاً يا فونتشيتو، دعني أر.

وعنفته دونيا لوكريثيا بغضب متزايد:

ــــ كيف تقول ما الذي فعلتَهُ لي أيها المهرج. أتظن ما فعلته قليلاً؟ كتابة الرسائل المغفلة؟ وجعلي أعتقد أنها من أبيك؟

ــــ ولكنني لم أبعث إليك بأي رسالة مغفلة ــــ اعترض الطفل، بينما الخادمة جاثية على ركبتيها تمسح الدم عن أنفه بمنديل ورقي: «لا تتحرك، لا تتحرك، إنكَ تلوث كل شيء».

وصرخت دونيا لوكريثيا بصوت أعلى:

ــــ لقد فضحتْكَ مرآتُك اللعينة، وفضحك إيغونك شيلي اللعين. تظن نفسك ذكياً جداً، أليس كذلك؟ لستَ كذلك أيها الأحمق. كيف تعرف أنه طلب مني أن أضع قناع وحش؟

ــــ أنتِ أخبرتني بذلك يا خالتي ــــ بدأ فونتشيتو يقول ذلك متلعثماً، ولكنه صمت حين رأى دونيا لوكريثيا تنهض واقفة. وأخفى وجهه بكلتا يديه وكأنها ستضربه.

وانفجرت الخالة الغاضبة:

ــــ لم أحدثك مطلقاً عن هذا القناع أيها الكاذب. سأحضر لك هذه الرسالة المغفلة، سأقرأها لك. وستبتلعها وتعتذر مني. ولن أسمح لك بدخول هذا البيت بعد اليوم. هل تسمعني؟ لن تدخل هذا البيت مطلقاً!

مرت مثل نيزك من أمام خوستينيانا وفونتشيتو، وقد سيطر عليها الغيظ. ولكنها قبل أن تذهب إلى خوان الزينة، حيث تخبئ الرسائل، دخلت إلى الحمام لتغسل وجهها بالماء البارد وتمسح صدغيها بالكولونيا. ولم تتمكن من استعادة هدوئها. هذا المخاطي، هذا المخاطي. إنه يلعب بها، أجل، لعبة القط الصغير مع الفأرة الكبيرة. يبعث لها رسائل مستهترة ومنتقاة ليجعلها تعتقد أنها من ريغوبيرتو، ويحيي فـيها الأمل بالمصالحة. ما الذي يريده؟ أي مكيدة يدبر؟ لماذا هذا التهريج؟ أيتسلى، يتسلى بالتلاعب بعواطفها وبحياتها؟ إنه شرير، سادي. يستمتع بإيهامها، وبرؤيتها تنهار بعد ذلك بخيبة الأمل.

عادت إلى غرفتها دون أن تكون قد هدأت تماماً، ولم تضطر إلى البحث طويلاً عن الرسالة فـي الصندوق الموجود فـي خوان زينتها. لقد كانت الرسالة السابعة. وفـيها كانت العبارة التي نبهتها، وهي مثلما تحفظها فـي ذاكرتها تقريباً: «... ستخفـين رأسك البديع تحت قناع وحش ضار، ومن الأفضل أن يكون الوحش هو النمرة الهائجة فـي ديوان **أزرق** لروبين داريو[1]... أو لبوة سودانية. وستميلين بردفك...» إلى آخره، إلى آخره. إنها صورة التاهيتية موا فـي لوحة شيلي دون زيادة ولا نقصان. يا للداهية المبكر، يا للماكر الدساس الصغير. لقد وصلت به الوقاحة إلى حد

---

(1) ـ روبين داريو شاعر نيكاراغوي (1867ـ1916) رائد الحداثة في الشعر الناطق بالإسبانية، وكان أول أمريكي لايتيني يمتد تأثيره إلى شعراء إسبانيا نفسها، وقد تبلور اتجاهه بصورة خاصة فـي ديوانه «أزرق» الصادر عام 1888.

إعداد مسرحية متكاملة عن مرآة شيلي، بل وأن يعرض عليها اللوحة التي فضحته. ليست نادمة لأنها رمته بالكتاب، حتى ولو نزف أنفه دماً. صنيع جيد! أولم يدمر حياتها هذا الشيطان الصغير؟ لأنها لم تكن المُفسِدة، بالرغم من أن فارق السن يدينها، وإنما كان هو نفسه المُفسِد. إنه ميفــيستوفليس، إبليس بشخصه، على الرغم من سنوات عمره القليلة، ومن وجهه الملائكي. ولكن هذا كله قد انتهى. ستجعله يبتلع هذه الرسالة، أجل، وستطرده من البيت. ولن يعود مطلقاً، لن تسمح له بالتدخل فــي حياتها مطلقاً بعد اليوم.

ولكنها لم تجد فــي الصالة سوى خوستينيانا التي عرضت عليها بتأثر المنديل الورقي المبلل بالدم.

ـــ لقد انصرف باكياً يا سيدي. لم يكن يبكي بسبب الضربة على أنفه. وإنما لأنك، وأنت تطردينه، مزقت كتاب ذلك الرسام الذي يحبه كثيراً. لقد كان حزيناً جداً.

انهارت السيدة لوكريثيا على الأريكة منهوكة:

ـــ أيوه. إنه يُحزنك الآن. ألا ترين ما الذي فعله بي؟ هذه الرسائل المغفلة هو الذي أرسلها، هو.

ـــ لقد أقسم لي بأنه لم يفعل ذلك يا سيدتي. أقسم بأقدس ما لديه، بأن السيد هو الذي يرسلها.

ـــ كاذب. كانت دونيا لوكريثيا تشعر بتعب قرون من الزمان. هل سيغمى عليها؟ كم هي راغبة فــي الذهاب إلى الفراش، فــي إغماض عينيها، فــي النوم أسبوعاً متواصلاً ـــ. لقد كشف نفسه بنفسه، بقصة القناع والمرآة.

اقتربت منها خوستينيانا وكلمتها بصورة سرية تقريباً:

ـــ أأنت متأكدة من أنك لم تقرئي له هذه الرسالة؟ وأنك لم تخبريه بأمر القناع؟ فونتشيتو مثل سنجاب فـــي معرفة كل شيء يا سيدتي. أتظنين أنه سيفضح نفسه بحماقة؟

ـــ لم أقرأ له الرسالة، ولم أحدثه أبداً عن القناع ـــ قالت دونيا لوكريثيا مؤكدة. ولكنها فـــي هذه اللحظة بالذات أحست بالريبة.

ألم تفعل ذلك؟ أمس، أو أول أمس؟ لقد كان رأسها مشوشاً جداً فـــي هذه الأيام. منذ بدأ شلال هذه الرسائل المغفلة وهي تمضي تائهة فـــي غابة من التكهنات، والشرود، والشكوك، والأشباح. ألا يمكن أن تكون قد فعلت؟ أن تكون قد أخبرته، أو ذكرت أمامه، أو حتى قرأت له هذه التعليمات الغريبة للوقوف وهي عارية، بجوربين وقناع وحش ضار، أمام مرآة؟ إذا كانت قد فعلت ذلك، فسيكون إقدامها على شتمه وضربه ظلماً كبيراً.

ـــ لقد مللت ـــ تلعثمت وهي تسعى لكبح دموعها ـــ. مللت يا خوستيتا، مللت. ربما أكون قد أخبرته ونسيت. لم أعد أعرف أين عقلي. ربما فعلت ذلك. أريد أن أغادر هذه المدينة، هذه البلاد. أن أذهب إلى حيث لا يعرفني أحد. بعيداً عن ريغوبيرتو وفونتشيتو. لقد وقعت بسببهما فـــي بئر ولن أتمكن من الخروج ثانية إلى الهواء الطلق.

وضعت خوستينيانا يدها على كتفها، وداعبت جبهتها:

ـــ لا تحزني يا سيدتي. لا تكتئبي. ثم إن الأمر غير مهم.

هناك طريقة بسيطة جداً لمعرفة ما إذا كان فونتشيتو أم دون ريغوبيرتو هو الذي كتب هذه الازعاجات.

رفعت دونيا لوكريثيا بصرها. وكانت عينا الخادمة مفعمتان بالشرر.

ـــ طبعاً يا سيدتي ـــ كانت تتكلم بيديها، بعينيها، بشفتيها، بأسنانها ـــ. ألم يحدد لك موعداً فـــي الرسالة الأخيرة؟ انتهى الأمر. اذهبي إلى المكان المذكور، وافعلي ما يطلبه منك.

تظاهرت دونيا لوكريثيا بالاستياء:

ـــ أتفكرين بأنني سأفعل هذا التهريج كما فـــي فـــيلم مكسيكي؟

فقالت خوستينيانا متممة كلامها السابق:

ـــ وهكذا ستعرفـــين من هو مرسل الرسائل المغفلة. وأنا سأرافقك إذا رغبتِ. لكي لا تشعري بأنك وحيدة. ولأن الفضول يقتلني كذلك. أهو الابن أم الأب؟ من منهما؟

ضحكت بوقاحة وظرف كعادتها، وانتهى الأمر بدونيا لوكريثيا إلى الابتسام أيضاً. ربما كانت هذه المجنونة على حق فـــي نهاية الأمر. إذا ما ذهبت إلى هذا الموعد القاسي، فستتمكن أخيراً من نزع هذا المسمار.

ـــ لن يحضر، وسيسخر مني مرة أخرى ـــ تذرعت دون حماسة وهي تعرف فـــي قرارة نفسها أنها قد حسمت أمرها. ستذهب، وستفعل كل التهريج الذي يطلبه الأب أو الابن. وستواصل لعب اللعبة التي تلعبها، راضية أو غير راضية، منذ بعض الوقت.

وكانت خوستينيانا متحمسة جداً:

ــــ أتريدين أن أُعدّ لك حماماً دافئاً مع أملاح، لكي تتخلصي من الغضب.

وافقت دونيا لوكريثيا. يا للعنة، إنها تشعر الآن بأنها قد تسرعت، وبأنها قد أجحفت كثيراً بحق فونتشيتو المسكين.

رسالة إلى قارئ «بلايبوي»
وأطروحة موجزة فـــي الجمال

بما أن الايروتيك هو الأنسنة الذكية والحساسة للحب الجسدي، والبورنوغرافــيا هي التي تُلحق به الرخص والمهانة، فإنني أتهمك يا قارئ **بلايبوي** أو **بيتهاوس**، يا من ترتاد الأوكار التي تعرض أفلام بورنو قاسية، ومحلات السكس شوب حيث تُقتنى وسائل ارتعاش كهربائية، وأدوات تسلية مطاطية، وواقيات ذكرية لها أعراف ديكة أو تيجان أسقفــية، بالمساهمة فـــي العودة السريعة نحو النكاح الحيواني المحض والتخلي عن السمة الأكثر فاعلية الموهوبة للرجل والمرأة ليتشابها مع الآلهة (وقد كانوا وثنيين بالطبع، ولم يكونوا عفــيفــين ولا متأنقين فـــي المسائل الجنسية مثلما نعرف)

إنك ترتكب جريمة سافرة كل شهر، بتخليك عن ممارسة تخيلك الخاص الذي تؤججه رغباتك، مستسلماً لخشبة النجاة البلدية فـــي

السماح بأن تكون أكثر نبضاتك فطنة، نبضات الشهوة الجنسية، ملجومة بمنتجات مصنعة بطريقة تهريجية، تقوم تحت دعوى إرضاء الحاجات الجنسية الملحة، باستعباد هذه الحاجات وإفسادها وتحويلها إلى ممارسة متماثلة بالجملة، وتحبسها ضمن الكاريكاتير الذي يبتذل الجنس، ويجرده من الأصالة والسحر والجمال، ويحوله إلى مهزلة، إذا لم يكن إلى إهانة دنيئة للذوق الجيد. ولكي تعرف أين يجب البحث، ربما يوضح لك تفكيري (وأنا أحادي الزواج، مع أنني أترفق بأمر الزنا) أن أشهى مصادر رغباتي الايروتيكية تأتيني من الحكومية الإسرائيلية المتوفاة غولدا مائير أو من سيدة المملكة المتحدة الصارمة مرغريت تاتشر التي لم تهتز لها شعرة حين كانت رئيسة للوزراء، أكثر مما تأتيني من تلك الدمى المضمخة بالكافور، ذوات النهود المنفوخة بالسيليكون، والعانات المغشوشة والمصبوغة التي تبدو قابلة للتبديل، واللواتي يشكلن الأكذوبة نفسها متعددة فـــي قالب وحيد، ويظهرن ـــــ لكي تصبح الحماقة مضحكة تماماً ـــــ فـــي هذه المجلة المعادية لإيروس المدعوة **بلايبوي** على صفحة مزدوجة بأذنين وذيل من وبر متباهٍ على أنهن «أرنبة الشهر».

إن كراهيتي **لبلايبوي** و **بينهاوس** ومثيلاتهما ليست مجانية. فهذه المجلات هي رمز للإسفاف فـــي الجنس ولاختفاء المحرمات التي اعتادت أن تحيط به، والنعم التي كان يمكن للروح الإنسانية أن تتمرد عليها لتمارس الحرية الفردية، وتؤكد الشخصية المتفردة لكل شخص، وتخلق الفرد ذا السيادة شيئاً فشيئاً فـــي خضم الممارسة السرية والخفـــية للطقوس والسلوك والتخيلات والعبادات والأوهام

والشعائر التي تسمو أخلاقياً بممارسة الحب وتمنحها مرتبة جمالية، وتنزع عنها البهيمية باطراد إلى أن تحولها إلى عمل إبداعي. وهو عمل، يمكن بفضله لرجل وامرأة فـــي المخدع (وأنا أكتفـــي بذكر الصيغتين الأصوليتين، مع أنه يمكن بالطبع أن يكون ذلك بين رجل وكف يد، أو بين امرأتين، أو بين رجلين أو ثلاثة بكل التوافقات التي يمكن تخيلها طالما لا تزيد القائمة على ثلاثة أشخاص، أو عن زوجين من الأفراد كحد أقصى من التسامح) أن ينافسا هوميروس، أو فـــيدياس، أو بوتيشللي أو بيتهوفن. أعرف أنك لا تفهمني، ولكن هذا غير مهم؛ وإذا كنت تفهمني، فلن تكون أحمق إلى حد توقيت انتصاباتك وارتعاشاتك وفق ساعة (وهي من الذهب الخالص المصمت بكل تأكيد؟) سيد يدعى هيوغ هيفنر.

المسألة جمالية قبل أن تكون أخلاقية أو فلسفـــية أو جنسية أو سيكولوجية أو سياسية، مع أن هذا الفصل غير مقبول بالنسبة إلي، لأن **كل** ما هو مهم هو جمالي على المدى القريب أو البعيد. إن البورنوغرافـــيا تجرد الايروتيكية من المضمون الجمالي، وتفضل ما هو عضوي على ما هو جمالي وذهني، كما لو أن البطولة فـــي الشهوة واللذة هي للقضبان والأرحام، وكما لو أن هذه الأجهزة ليست إلا مجرد خدم للأشباح التي تحكم أرواحنا، وتفصل الحب الجسدي عن بقية التجارب الإنسانية. أما الايروتيكية بالمقابل، فتضمه إلى كل ما نحن عليه وما نملكه. وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي يُحسب لديك، أيها البورنوغرافـــي، على أنه ممارسة للحب، مثلما لدى الكلب أو القرد أو الحصان، هو قذف المني. أما لوكريثيا

وأنا، ولك أن تحسدنا، فإننا نمارس الحب **أيضاً** ونحن نتناول الفطور، وحين نلبس، وحين نستمع إلى موسيقى ماهلر، وأثناء التحدث إلى الأصدقاء أو تأمل الغيوم أو البحر.

وعندما أقول جمالية، يمكن لحضرتك أن تفكر ـــ إذا كان بالإمكان الجمع ما بين البورنوغرافــية والتفكير ـــ بأنني، عبر هذا السبيل، أسقطُ فـــي شرك الجماعية، هكذا أصير أنا أقل «أنا» وأكثر «هم»، أي أنني أصير جزءاً من القبيلة. أعترف بأن الخطر قائم، ولكنني أقاومه دون هوادة، نهاراً وليلاً، مدافعاً عن حريتي فـــي مواجهة المصاعب المحدقة عن طريق الاستخدام الدائم لحريتي.

فاطلع واحكم إذا لم يكن الأمر كذلك، من خلال هذا النموذج الصغير لأطروحتي فـــي الجمالية الخاصة (وآمل ألا يشاطرني إياها أناس كثيرون لأنها مرنة وتتحلل وتتركب مثلما الصلصال بين يديّ خزّاف ماهر).

كل ما يلمع قبيح. هناك مدن لامعة، مثل فـــيينا وبوينس آيرس وباريس؛ وكتّاب لامعون، مثل أومبيرتو إيكو وكارلوس فوينتس وميلان كونديرا وجون أوبديك؛ ورسامون لامعون، مثل آندي وارهول وماتا وتابيه. ومع أن هذا كله يلمع، إلا أنه فـــي رأيي لا غنى عنه. وجميع المهندسين المعماريين المعاصرين دون استثناء لامعون، ولهذا أُقصيتْ هندسة العمارة من الفنون وتحولت إلى فرع من فروع الإعلان والعلاقات العامة، مما يجعل من المناسب الاستغناء عن المهندسين كلياً واللجوء فقط إلى البنائين ومعلمي

الورش وإلهام الدنيويين غير المتضلعين. وليس هناك موسيقيون لامعون كذلك. مع أن مؤلفــين موسيقيين من أمثال موريس رافــيل، وايريك ساتيه قد ناضلوا من أجل ذلك وتوصلوا إليه. أما السينما فإنها مسلية مثل لعبة البرجيس أو المصارعة الحرة، وهي ما بعد فنية ولا تستحق ضمها إلى تقديراتي حول الجمالية، على الرغم من بعض الحالات الاستثنائية الغربية (سأنقذ هذه الليلة فــيسكونتي، واورسون ويلز، وبونويل، وبيرلانغا، وجون فورد) وحالة يابانية واحدة (كيروساوا).

كل شخص يكتب كلمات: «نوورياتي»، «أطرح»، «توعياتي»، «تبصري»، «جمعيي»، أو كلمة «أرضيي» بصورة خاصة، هو ابن (أو ابنة) قحبة. ومثلهم كذلك من يستخدمون عيدان الأسنان فــي العلن، مسببين للغير هذا المشهد المُنفر الذي سيشوه مناظر الطبيعة. ومثلهم أولئك المقرفــين الذين يستخرجون لباب الخبز، ويعجنونه إلى أن يحولوه إلى كرات صغيرة فوق الطاولة. لا تسألني لماذا أرى أن من يُقدمون على هذه القباحات هم أبناء (أو بنات) قحبة؛ فهذه المعارف تُعرف بالبديهة وتُستوعب بالإلهام؛ إنها وحي ومن غير الممكن دراستها. والشعار نفسه ينطبق بالطبع على الفاني، من أي جنس كان، الذي يحاول أن يؤسبن كلمة ويسكي، فــيكتبها غويسكي أو ينيريل أو أوخايبول. وهؤلاء الأخيرون ، أو الأخيرات، يجب أن يموتوا أيضاً، لأنني أظن أن حيواتهم فائضة عن الحاجة.

إن واجب الفــيلم أو الكتاب هو تسليتي. فإذا ما سهوت فــي أثناء القراءة أو المشاهدة، أو نعست أو نمتُ، فإنهما لم ينجزا

واجبهما، وهما كتاب سيئ وفــيلم سيئ. والأمثلة البارزة على ذلك نجدها فـــي كتاب **الإنسان الخالي من الصفات** لموسيل، وكل أفلام هؤلاء المحتالين المدعوين أوليفر ستون أو كينتين تارانتينو.

أما فــيما يتعلق بالرسم والنحت، فإن تقييمي الفني بسيط جداً: كل ما أستطيع عمله فـــي موضوع الرسم أو النحت هو براز. وبالتالي فإن الفنانين الوحيدين الجديرين بهذه الصفة هم أولئك الذين تكون أعمالهم بعيدة عن متناول قدراتي الإبداعية العادية، أولئك الذين لا أستطيع استنساخهم. وقد أتاحت لي هذه الرؤية أن أعتبر، منذ النظرة الأولى، أن أعمال «فنانين» مثل آندي وارهول أو فريدا كاهلو هي مجرد نفاية، وبالمقابل، فإن أي خطوط لجورج غروس أو تشيللدا أو بالتوس هي أعمال عبقرية. وإضافة إلى هذه القواعد العامة، فإن واجب أي لوحة هو أن تهيجني (وهذا تعبير لا يعجبني، ولكنني أستخدمه لأن إعجابي أقل بالعبارة المجازية المحلية «توصلني إلى شفا الكراميلا»، لأنها تُدخل عنصراً باسماً إلى أمر شديد الجديّة). وإذا ما أعجبتني، فإنها تسبب لي البرود، ما لم تستثر تخيلات تسيطر عليها الرغبات المسرحية-النكاحية وهذه الدغدغة التي تسري فـــي الخصيتين قبل الانتصابات الناعمة، وستكون لوحة غير مهمة، حتى ولو كانت الموناليزا، أو الرجل ذا اليد على الصدر، أو غيرنيكا أو الجوقة الليلية. وهكذا، سيفاجئك أن تعرف أن الشيء الوحيد الذي يعجبني فـــي غويا، وهو مسخ آخر مقدس، هو الأحذية ذات الأربطة المذهبة والكعوب الرفــيعة، مع الجوارب البيضاء المطرزة، التي كان يُلبسها لمركيزاته فـــي لوحاته الزيتية،

ولست أنظر برفق (بمتعة أحياناً) فـــي لوحات رينوار إلا إلى المؤخرات الوردية لفلاحاته، وأتجنب بقية أجسادهن، وخصوصاً وجوههن التنانيرية وعيونهن المشعة كالحشرات المضيئة، والتي أعتبرها سابقة ـــــ *vade retro!* [1]ـــــ لأُرينبات بلايبوي. أما فـــي أعمال كوربيه فتعجبني السحاقيات وتلك المؤخرة الضخمة التي سببت الحياء للإمبراطورة أوجينيا المقطبة.

وواجب الموسيقى بالنسبة إليّ هو أن تغرقني فـــي دوامة من الأحاسيس الصافـــية التي تجعلني أنسى الجزء الأكثر إضجاراً فـــي، أي الجزء المتحضر والبلدي، وتنقيني من القلق، وتعزلني فـــي محمية لا رابط يربطها بالواقع المحيط القذر، وهكذا تتيح لي أن أفكر بوضوح فـــي التخيلات (وهي تخيلات ايروتيكية على العموم ودور النجومية فـــيها على الدوام لزوجتي) التي تجعل الحياة محتملة. أقدر أنه إذا كانت الموسيقى شديدة الحضور، وإذا شغلتني عن أفكاري واستدعت انتباهي وفرضت نفسها عليّ، لأنها بدأت تعجبني كثيراً أو لأنها صاخبة جداً ـــــ وأذكر هنا كل أعمال غارديل، وبيريث برادو، وماهلر، وكل موسيقى الميرينغي وأربعة أخماس الأوبرات ـــــ فهي موسيقى سيئة ومستبعدة من مكتبي. وهذا المبدأ يستدعي بالطبع أن أحب فاغنر، على الرغم من الترومبيتات والأبواق المزعجة، وأن أحترم شوينبرغ.

وآمل أن تكون هذه الأمثلة السريعة، التي لا أتطلع بكل تأكيد

---

[1] ـ باللاتينية فـي الأصل، وهي اختصار لعبارة vade retro, Satana! وتعني : تراجع أيها الشيطان، ويستخدمها المؤمنون عادة لاستبعاد غواية الشيطان.

(ولا أرغب بالطبع) إلى أن تشاطرني إياها، كافـية لأن تُطلعك على ما أعنيه عندما أؤكد أن الايروتيكية هي لعبة (بالمدلول العالي الذي يمنحه جوهان هويزينغا العظيم للكلمة) خاصة، لا يمكن أن يشارك فـيها سوى الأنا والأشباح واللاعبين، ويعتمد نجاحها على طابعها السري، والمتكتم حيال الفضول العام، ورغم نفوري من الشعر فـي الإبط الأنثوي، إلا أنني أحترم العاشق الذي يقنع رفـيقه أو رفـيقته بريّ ذلك الشعر ورعايته لكي يلعب به بشفتيه وأسنانه حتى الوصول إلى الغيبوبة والعواء بصوت مثل صوت مغني الدو. ولكنني لا أكن أي احترام على الإطلاق، وإنما تأخذني الشفقة على ذلك البائس متعفن الصدر الذي يزيف ميول خياله، بأن يشتري ـــ من دكاكين أدوات البورنو، مثلاً، التي زرعتها الطيارة السابقة بياتي أوهيس فـي كل أنحاء ألمانيا ـــ شعور إبطين وعانة اصطناعية (وهي من «الشعر الطبيعي»، كما يفاخر أغلاها ثمناً)، من تلك التي تباع هناك بأشكال وأحجام وطعوم وألوان مختلفة.

إن إضفاء الشرعية على الايروتيكا والاعتراف العام بها، يجعلها بلدية ويلغيها ويحولها إلى سلوك وغد، وإلى بورنوغرافـيا، مما يجعلني أرى فـيها إيروتيكا محزنة لفقراء الجيب والروح. فالبورنوغرافـيا سلبية وجماعية، بينما الإيروتيكا خلاقة وفردية، حتى عندما تُمارس بين شخصين أو ثلاثة أشخاص (وأكرر لك بأنني معاد لزيادة عدد المشاركين حتى لا تفقد هذه المهمات توجهها لأن تكون حفلات فردية، وتمارين على السيادة، ولا تتلوث بمظهر الاجتماعات السياسية أو الرياضية أو السيرك). ولهذا، لا أجد سوى

القهقهات الضبعية للرد على حجج الشاعر **الهامشي** آلان غينيسبيرغ (انظر مقابلته مع آلان يونغ فـــي مجلة **قناصل سدوم)** ودفاعه عن المجامعات الجماعية فـــي عتمة المسابح، بذريعة أن هذه الظلمة هي ديمقراطية وعدالة، لأنه بفضل ظلام المساواة، يتاح للقبيحة والجميلة، للنحيفة والبدينة، للشابة والمسنة، أن تنال الفرصة نفسها من المتعة. يا للتبرير السخيف الذي يسوقة هذا المفوض الناظم! إن الديمقراطية هي أمر لا علاقة له إلا فـــي البعد المدني للشخص، بينما الحب ـــ الشهوة واللذة ـــ ينتمي، مثل الدين، إلى البعد الخاص، حيث المهم هو الاختلافات بصورة خاصة، وليس التوافقات مع الآخرين. لا يمكن للجنس أن يكون ديمقراطياً، إنه نخبوي وأرستقراطي، ووجود جرعة من الطغيان (المتبادل بالتعادل) هو أمر لا بد منه عادة. أما الجماعية البلدية فـــي الحمامات المظلمة التي يدعو إليها الشاعر **الهامشي** كنمط إيروتيكي تشبه إلى حد بعيد معاشرة الأحصنة والأفراس فـــي المراعي، أو وطء الديوك العشوائي لدجاجات المداجن الصاخبة، ولا يمكن مقارنتها بهذا الإبداع الجميل من الأخيلة المتحركة، من التخيلات الجسدية التي يشارك فـــيها على السواء كل من الجسد والروح، المخيلة والهرمونات، السامي والمنحط فـــي الشرط الإنساني، أي الايروتيكية مثلما يفهمها هذا الشهواني المتواضع والفوضوي المتخفـــي فـــي الجسد المواطني لموظف تأمين على الممتلكات.

إن الجنس الذي يمارس على طريقة بلايبوي (وأعود وسأعود إلى هذا الموضوع إلى أن يمنعني من ذلك موتي أو موتك) يلغي

حسب فهمي، عنصرين جوهريين من الإيروس: المجازفة والحياء. فلنتفاهم. الرجل الصغير الذي يتغلب على خجله وعلى خوفه في الحافلة، فيفتح معطفه، ويعرض عضوه المنتصب لأربع ثوانٍ على السيدة خالية الذهن التي اختارها القدر لتجلس قبالته، هو مستهتر جسور. يفعل ما يفعله وهو يعلم أن ثمن نزوته العابرة يمكن أن يكون تلقيه الضرب، أو اللنشينغ، أو السجن والفضيحة بنشره أمام الرأي العام سراً كان يريد حمله معه إلى القبر، وإدانته على أنه فظيع، ومضطرب عقلياً، وخطر اجتماعياً. ولكنه يجازف بالإقدام على ذلك لأن المتعة التي توفرها له هذه الاستعراضية الصغيرة لا يمكن فصلها عن الخوف وعن مخالفتة للحياء. يا للمسافة الكوكبية التي تفصل بينه ــــ إنها المسافة ما بين الايروتيكية والبورنوغرافيا تحديداً ــــ وبين الإداري المترع بالعطور الفرنسية ذي المعصم المقيد بساعة رولكس (وماذا يمكن أن تكون سوى ذلك؟)، الذي يسهر في بار رائج على موسيقى البلوز، يفتح العدد الأخير من **بلايبوي** ويستعرض نفسه به، ويعرضه مقتنعاً بأنه يعرض عضوه أمام العالم، مظهراً أنه رجل دنيوي، غير متوهم، حديث، مستمتع. يا للأحمق البائس! إنه لا يعرف أن ما يعرضه هو سر خضوعه إلى المكان المشترك، إلى الإعلان، إلى موضة إلغاء التفرد، وتنازله عن الحرية، وتخليه عن الانعتاق، وعن نِعم أطيافه الشخصية، وخضوعه للعبودية الجمعية السلفية.

ولهذا، فإنني أتوجه إليك وإلى المجلة المذكورة ومثيلاتها، وإلى كل من يقرؤونها ــــ أو حتى يتصفحونها ــــ ممن يريدون تغذية

ـــــ أعني قتل ـــــ الليبدو لديهم بهذا الغذاء مسبق الصنع، وأتهمكم بأنكم رأس الحربة فـــي هذه العملية الضخمة لتسفـــيه وتتفـــيه الجنس التي تتبدى فـــيها البربرية المعاصرة. فالحضارة تخفـــي الجنس وتبالغ فـــي التبصر فـــيه من أجل أفضل إفادة منه، وتحوله إلى طقوس وقوانين تغنيه إلى حدود لا يمكن للرجل والمرأة ما قبل الايروتيكيين، النكاحيين، أن يتصوراها. فبعد أن اجتزنا طريقاً طويلاً جداً، كان التقطير المتزايد للعبة الايروتكية هو عمودها الفقري بطريقة ما، نرتد الآن عبر طريق غريب ـــــ مجتمع الإباحية، ثقافة الإباحة ـــــ إلى نقطة البداية السلفـــية: فممارسة الحب عادت لتكون رياضة جسدية وشبه علنية، تمارس دون أي طقوس على إيقاع المهيجات المصنّعة، ليس باللاوعي وبالروح، وإنما على يد محللي السوق، وهي مهيجات بلهاء مثل رحم البقرة ذاك الذي يمرون به فـــي الإسطبلات أمام أنوف الثيران لتهييجها والحصول بهذه الطريقة على منيها وتخزينه لاستخدامه فـــي التلقيح الصناعي.

هيا اذهب، واشتر واقرأ عددك الأخير من **بلايبوي** أيها المنتحر الحي، ضع حبة رمل أخرى فـــي خلق عالم المخصيين والمخصيات المتناحكين الذي ستختفـــي منه ركائز الحب المتمثلة فـــي المخيلة والأشباح السرية. أما أنا من ناحيتي، فإنني سأمارس الآن بالذات الحب مع ملكة سبأ وكيليوبترا معاً، فـــي مشهد لا أفكر فـــي أن أشاطر أحداً فـــي سيناريوهاته، وخصوصاً أنت.

قدم صغيرة

«إنها الرابعة فجراً يا لوكريثيا العزيزة»، فكر دون ريغوبيرتو. وكان قد استيقظ فـــي رطوبة الفجر الكئيبة، مثل كل يوم تقريباً، لكي يحيي الطقس الذي يكرره بصورة نشاز مذ غادرته دونيا لوكريثيا لتعيش فـــي بستان الزيتون فـــي سان ايسيدرو: أن يحلم مستيقظاً، وأن يبدع ويعيد إبداع زوجته مستعيناً بهذه اللوحات التي تشتّي فـــيها أوهامه. «وحيث أنت ملكة ومعلمة منذ اليوم الذي عرفتُكِ فـــيه».

ومع ذلك، وعلى خلاف صباحاتٍ كئيبة أو متأججة أخرى، لم يكتف اليوم بتصورها واشتهائها، وبالتحدث مع غيابها، وممارسة الحب معها بمخيلته وبقلبه اللذين لم تبتعد عنهما مطلقاً؛ فقد كان يحتاج اليوم إلى تواصل أكثر مادية وتأكيداً، تواصل ملموس بصورة أوضح. وفكر دون غم: «اليوم يمكنني أن انتحر». وماذا إذا كتب إليها؟ وماذا إذا رد أخيراً على رسائلها المغفلة اللاذعة؟ سقط القلم من يده فور أن أمسك به. لن يستطيع الكتابة، وهو لن يستطيع على أي حال أن يبعث الرسالة.

ومن الدفتر الأول الذي فتحه، قفزت إليه وعضته عبارة مناسبة تماماً: «استيقاظاتي الشرسة فـــي الفجر يكون محرضها على الدوام صورة من صورك، واقعية أو متخيلة، تضخم رغباتي، وتبعث الجنون فـــي حنيني، وتُنهضني مؤرقاً وتجرني إلى هذه الطاولة

لأحمي نفسي من التلاشي فـي كنف ترياق دفاتري ولوحاتي وكتبي. فهذه الأشياء وحدها هي دوائي». صحيح. ولكن الدواء المعتاد لا مفعول له اليوم كما فـي صباحات أخرى. إنه يشعر بالاضطراب والقلق. لقد أيقظته مشاعر مختلطة يمتزج فـيها تمرد شامل شبيه بذاك الذي قاده، وهو فـي الثامنة عشرة، إلى جمعية العمل الكاثوليكي وملأ روحه باندفاعات تبشيرية وبرغبة عارمة فـي تجديد العالم بسلاح الأناجيل، وحنين إلى قدم صغيرة لامرأة آسيوية رآها لدى مروره، من فوق كتف رجل عابر توقف إلى جانبه لبضع ثوان عند ضوء إشارة المرور الحمراء فـي أحد شوارع مركز المدينة، واستحضار ذاكرته لكاتب فرنسي من القرن الثامن عشر يدعى نيكولا إيدميه ريستيف دي لا بريتون، يملك فـي مكتبته كتاباً واحداً له ــــ سيبحث عنه ويجده قبل أن يطلع الصباح ــــ، وهو من طبعة أولى اشتراه منذ سنوات طويلة من محل عاديات فـي باريس، وكان قد كلفه مبلغاً باهظاً. «يا لهذا الخليط».

لم تكن لأي شيء من هذا كله، فـي الظاهر، علاقة بلوكريثيا. لماذا إذن هذا التسرع فـي التواصل معها، وإخبارها بصوت عالٍ، وبأدق التفاصيل، بكل ما يجيش فـي ذهنه؟ وفكر: «إنني أكذب يا حبيبتي. فأنتِ لك علاقة بكل هذا بالطبع.» فكل ما يفعله، بما فـي ذلك الإدارة السخيفة التي يمارسها من الاثنين إلى الخميس وتبقيه ثماني ساعات فـي شركة تأمين فـي مركز ليما، لها علاقة عميقة بلوكريثيا وليس بأحد سواها. ولكن قبل ذلك كله، وبطريقة أكثر خضوعاً، فإن لياليه، والتهيجات والتخيلات والعواطف التي تملؤها،

مكرسة لها بكل الإخلاص النبيل. وهناك كان الدليل حميماً، راسخاً، مؤلماً، فـــي كل صفحة من الدفاتر التي يتصفحها الآن.

لماذا فكر إذن فـــي التمرد؟ إن ما أيقظه قبل لحظات قليلة هو تضخم هذا السخط والذعر اللذين أحس بهما فـــي الصباح حين قرأ فـــي الجريرة الخبر الذي لا بد أن لوكريثيا قد قرأته أيضاً، والذي راح ينسخه على الصفحة البيضاء الأولى التي وجدها:

ويلنغتون (رويتر). حكم قاض فـــي هذه المدينة على معلمة مدرسة نيوزيلندية، فـــي الرابعة والعشرين من عمرها، بالسجن أربع سنوات بتهمة الاغتصاب الجنسي، وذلك بعد أن ثبت أن المعلمة كانت تقيم علاقة جسدية مع طفل عمره عشر سنوات، هو صديق ابنها وزميله فـــي المدرسة. وقد أكد القاضي بأنه قد أصدر بحقها الحكم نفسه الذي كان سيصدره على رجل يغتصب طفلة قاصر.»

«حبيبتي، لوكريثيا العزيزة، لا تري فـــي هذا أي ظل تأنيب لما حدث بيننا» هكذا فكر. «ولا أي إشارة إلى الاستياء، ولا أي شيء يمكن أن يكون له علاقة بالماضي، أو بالغضب التافه.» لا. يجب أن ترى ما هو نقيض ذلك تماماً. لأنه عندما ارتسمت سطور هذه البرقية القليلة أمام عينيه هذا الصباح، بينما هو يتناول قهوة الفطور المرة (ليس لأنه يتناولها دون سكر، وإنما لأن لوكريثيا غير موجودة بجانبه ليتحدث معها حول أخبار الصحيفة) لم يشعر دون ريغوبيرتو بالغم أو الألم، وأقل من ذلك كان إحساسه بالامتنان والحماسة لحكم القاضي. ولكنه أحس بالمقابل بتضامن مندفع وجامح مع هذه المعلمة

النيوزلندية المسكينة التي عوقبت بقسوة لأنها عرّفت ذلك الطفل المحظوظ على لذائذ الفردوس.... (وهو الأكثر حسية بين الفراديس المعروضة فـــي سوق الأديان حسب علمه).

«أجل، أجل أيتها الحبيبة لوكريثيا.» إنه لا يتجاوز الحد، لا يكذب، لا يبالغ. لقد أغاظه طوال اليوم سخط الصباح نفسه من غباوة ذلك القاضي، المُضيّع فـــي آلية التماثلات الحيوية لدى بعض الأيديولوجيات النسائية. فكيف يمكن أن يكون إقدام رجل ناضج على اغتصاب طفلة قاصر فـــي العاشرة، وهي جريمة تستوجب العقاب، مماثلاً لإقدام سيدة فـــي الرابعة والعشرين على كشف السعادة الجسدية ومعجزات الجنس لفتى فـــي العاشرة بدأ انتصاباته الخجولة وإفرازاته المذوية المقتضبة؟ فإذا كان افتراض لجوء الجاني فـــي الحالة الأولى إلى استخدام العنف مع الضحية هو أمر حتمي (حتى ولو كانت الطفلة على قدر من الوعي يتيح لها أن تعطي موافقتها، فإنها تعتبر ضحية اعتداء جسدي ضد بكارتها)، إلا أنه فـــي الحالة الثانية أمر غير مفهوم، لأنه إذا كان هناك نكاح، فلا يمكن له أن يتم إلا بموافقة الطفل وحماسته، ودون تلك الموافقة والحماسة ما كان يمكن للعملية الجسدية أن تتحقق. تناول دون ريغوبيرتو القلم وكتب وهو محموم من الغضب: «مع أنني أكره اليوتوبيات وأعرف أنها كارثية على الحياة البشرية، إلا أنني آمل الآن أن تتحقق هذه اليوتوبيا: أن يجري تجريد كل أطفال المدينة من حيائهم عند بلوغهم العاشرة على يد سيدات متزوجات فـــي العقد الثالث من أعمارهن، ويفضل أن يكن عمات أو معلمات أو خالات». وتنفس بشيء من الراحة.

لقد عذبه طوال النهار مصير تلك المعلمة التي من ويلنغتون، وآلمه الاستهزاء العام الذي تعرضت له، والسخريات المهينة التي تعانيها، فضلاً عن فقدانها عملها، ومعاملتها كمنحطة ومفسدة قاصرين من قبل هذا الدنس غير المكتوب والإلكتروني، والرقمي الآن، فـــي الصحافة المسماة وسائل اتصال. لم تكن تكذب، ولم تقم بتهريج ماسوشتي. «لا يا لوكريثيا الحبيبة، أقسم لك أن لا.» خلال ذلك النهار وتلك الليلة بدا له عدة مرات وجه المعلمة المتجسد فـــي زوجته السابقة. والآن، الآن، يشعر بالضرورة الملحة لجعلها تعرف («جعلك تعرفـــين يا حبي») ندمه وخجله. لأنه كان عديم الإحساس، وفظاً، وغير إنساني، وشديد القسوة مثل هذا القاضي من ويلنغتون، المدينة التي لن يزورها إلا ليغمر بأزهار حمراء شذية قدمي هذه المعلمة المحترمة والجديرة التي تدفع ثمن كرمها وعظمتها بالحبس مع قاتلات أبناء، وسارقات، ومحتالات، ونشالات (إنكليزيات ونيوزيلنديات).

كيف هما قدما هذه المعلمة النيوزلندية؟ وفكر: «إذا ما وصلتْ إلى يديه صورة لها فلن يتوانى عن إشعال الشموع وإحراق البخور لها». تمنى ورغب فـــي أن تكونا جميلتين ورقيقتين مثل قدمي دونيا لوكريثيا، ومثل القدم التي رآها ظهر اليوم على ورق صفحة صقيلة فـــي مجلة **تايم**، من فوق كتف أحد المارة، عندما أوقفته إشارة المرور الضوئية عند ناصية كولمينا، وهو متوجه إلى صالون ميغيل غراو فـــي النادي الوطني، حيث ضرب له موعداً أحد هؤلاء الحمقى ذوي ربطات العنق الذين يضربون المواعيد فـــي النادي الوطني، والذين يعتاش عليهم أمثاله الحمقى ممن يكسبون لقمة

عيشهم من التأمين على البيوت والعقارات. لقد كانت رؤية لثوان وحسب، ولكنها لامعة ومتلألئة، راعشة وجبهية مثلما كانت دون شك رؤية تلك الفتاة الجليلية للملاك جبرائيل وهو يخبرها بالحدث الذي سبب الكثير من الآلام للبشرية.

لقد كانت قدماً واحدة فقط، مأخوذة بصورة جانبية، لها كعب مكور وظاهر ناعم، مرفوع بكبرياء فوق باطن دقيق الحواف، ينتهي بأصابع صغيرة مرسومة بإتقان، إنها قدم أنثوية لا تشوبها ثآليل ولا تصلبات ولا بثور أو نتوءات عظيمة قبيحة، ولا يبدو فـــيها أي نقص أو زيادة على الكمال فـــي الكل والجزء، قدم مرفوعة قد فوجئت كما يبدو بالمصور المتأهب قبل لحظات من استرخائها على السجادة الوثيرة. لماذا هي قدم آسيوية؟ ربما لأن الإعلان الذي تزينه هو لشركة طيران من تلك المنطقة من العالم ـــــ سنغابور آيرلاينز ـــــ أو ربما لأن دون ريغوبيرتو، فـــي تجربته الزوجية المبتورة، كان يظن أنه قادر على التأكيد بأن نساء آسيا يملكن أجمل أقدام فـــي الكوكب. هزه التأثر وهو يتذكر المرات التي كان يقبل فـــيها قدمي حبيبته اللذيذتين قائلاً «قدمين فـــيليبينيتين»، «كعبين ماليزيين»، «كاحلين يابانيين».

وما جرى طوال اليوم، فضلاً عن انشغاله بتعاسة هذه الصديقة الجديدة من ويلنغتون، هو أن قدم الإعلان الأنثوية فـــي **التايم** قد شوشت وعيه، ونبشت من أعماق ذاكرته ذكرى ساندريلا، هذه القصة التي عندما رُويت له فـــي طفولته، وخصوصاً حذاء البطلة الرمزي الذي لا يتسع إلا لقدمها الصغيرة، قد أيقظت فـــيه أول تخيلاته

الايروتيكية («أي أول السيلانات الرطبة والانتصابات المتوسطة إذا كان لا بد من التحديد»، قال ذلك بصوت عالٍ مع أول تحسن في مزاجه هذا الفجر). هل تناقش يوماً مع لوكريثيا في نظريته بأن ما أضافته الجميلة ساندريلا في تكوين فرقٍ من الذكور المهووسين هو أكبر، دون شك، مما أضافته جماعة البورنوغرافيا المتعفنة المناهضة للايروتيكية في القرن العشرين؟ لا يذكر ذلك. إنها فجوة في علاقته الزوجية عليه أن يستدركها يوماً. كانت حالته قد تحسنت كثيراً منذ أن أستيقظ قانطاً ومتشوقاً، يكاد يموت من الغضب والوحدة والحزن. بل إنه سمح منذ عدة ثوانٍ ـــ وكانت هذه هي طريقته لتجنب السقوط في يأس كل يوم ـــ ببعض التخيلات التي ليست لها علاقة بعيني لوكريثيا، ولا بشعرها، ولا بنهديها أو فخذيها أو وركيها، وإنما بقدميها وحسب. لقد صارت بجانبه ـــ بعد أن وجد مشقة في العثور عليها في خزائن المكتبة ـــ تلك الطبعة الأولى، في ثلاث مجلدات، من رواية نيكولا إيدميه ريستيف دي لا بريتون (وبخط يده كان قد سجل تاريخ ميلاد الكاتب ووفاته: 1734ـــ1806)، الرواية الوحيدة بين عشرات وعشرات الروايات التي خطها ذلك القلم: **قدم فرانشيت أو اليتيمة الفرنسية. قصة طريفة وأخلاقية** (باريس، همبلوت كيللاو، 1769، جزآن في ثلاثة مجلدات، 160ـــ148ـــ192 صفحة) وفكر: «الآن أتصفحه. الآن ستُطلين أنتِ يا لوكريثيا، حافية أو منتعلة، في كل فصل، في كل صفحة، في كل كلمة».

لم يكن هناك سوى شيء واحد في هذا الكاتب المكثر، ريسيف دي لا بريتون، يستحق التعاطف معه والربط بينه وبين لوكريثيا في

هذا الفجر ذي الرذاذ المطري، مقابل آلاف الأشياء (حسن، ربما أقل) التي تجعله منسياً، عابراً، وربما منفراً. هل حدث وتكلم عنه معها يوماً؟ هل أطل اسمه مرة فـــي حفلاتهما الزوجية الليلية؟ دون ريغوبيرتو لا يتذكر ذلك. «ولكن، حتى لو كان الوقت قد فات يا غاليتي، فإنني سأعرفك عليه، وأقدمه وأضعه عند قدميك (لم يكن التعبير مناسباً على الإطلاق أفضل مما هو الآن).» لقد ولد وعاش فـــي مرحلة توترات ضخمة، فـــي القرن الثامن عشر الفرنسي، ولكن من غير المحتمل أن يكون نيكولا إيدميه الطيب قد انتبه إلى أن العالم بأسره كان يتفكك ويتركب من حوله فـــي التوترات الثورية، لأنه كان مستغرقاً فـــي ثورته الخاصة، وليس فـــي ثورة المجتمع أو الاقتصاد أو النظام السياسي ــــ «هذه التي تتمتع عموماً بتناول واسع فـــي الصحافة» ــــ وإنما الثورة التي تخصه شخصياً: ثورة الشهوة الجسدية. هذا هو ما يجعله لطيفاً، وهو ما دفع دون ريغوبيرتو إلى شراء الطبعة القديمة من **قدم فرانشيت**، الرواية ذات المصادفات القاسية والمظالم المضحكة، والتشابكات العبثية والحوارات السخيفة التي يمكن لأي ناقد معتبر أو أي قارئ حسن الذوق أن يجدها بعيدة عن التصديق، ولكنها بالنسبة إلى دون ريغوبيرتو تتمتع بالمزية العليا فـــي إبراز حق الكائن البشري إلى حد قتل الآلهة، فـــي التمرد ضد ما هو سائد بناء على رغباته، وفـــي تغيير العالم مستفـــيداً من الخيال، حتى ولو لم يستمر ذلك إلا خلال فترة القراءة أو الحلم العابرة.

قرأ بصوت عال ما كان قد دونه فـــي الدفتر عن ريستيف بعد أن قرأ **قدم فرانشيت:** «لست أظن أن هذا الريفـــي، ابن الفلاحين، الذي

تثقف ذاتياً رغم مروره بمدرسة جانسينية الدينية، وعلّم نفسه بنفسه لغات ومعتقدات، وكلها بصورة سيئة، وكسب لقمة عيشه من العمل كطابع وصانع كتب (بالمعنى الحرفـــي للكلمة، ذلك أنه كان يكتب الكتب ويصنّعها، مع أنه كان ينجز العمل الثاني بفنية أكبر من الأول) لست أظن أنه كان يشك فـــي الأهمية العابرة لكتاباته (وهي أهمية رمزية وأخلاقية، وليست جمالية)، عندما كان يكتبها، وسط استكشافاته الدائمة للأحياء العمالية والحِرفـــية فـــي باريس التي كانت تبهره، أو لفرنسا الريفـــية والقروية التي وثّقها كسوسيولوجي، مختلساً الوقت من مخالطاته الغرامية ـــــ خيانات زوجية، زنا محارم، أو غراميات ارتزاقية مأجورة، ولكنها سوية على الدوام، لأن الشذوذ الجنسي كان يبعث فـــيه رعباً كرملياً ـــــ فقد كان يكتبها بسرعة يقوده فـــيها الإلهام، يا لهول الأهوال، دون أن ينقحها، فـــي نثرٍ يخرج متدفقاً وعامياً، محملاً بكل فتات اللغة الفرنسية، مشوشاً، مكروراً، تيهياً، عادياً، مسطحاً، عاقراً من الأفكار، دون حساسية، وبكلمة أخرى يمكن لها أن تحدده خيراً من أي كلمة أخرى: **نثر متخلف**».

لماذا إذن، بعد ذلك الحكم القضائي القاسي، ضاع فـــي فجر هذا اليوم فـــي استذكار أسلوب أدبي فج، وكاتب ظريف وصل به الأمر إلى ممارسة مهنة الوشاية؟ إن الدفتر يتضمن معلومات مسهبة عنه. فقد أنتج ما يقارب المئتي كتاب، جميعها غير مقروءة أدبياً. لماذا إذن يسعى إلى مقاربته من نقيضته دونيا لوكريثيا، التي هي الكمال مجسداً فـــي امرأة؟ ورد على التساؤل بأنه يفعل ذلك لأنه لم يكن هناك أحد، مثل هذا المثقف البري، قادراً على فهم تأثره فـــي

الظهيرة حين رأى بصورة عابرة، فـــي إعلان إحدى المجلات، قدم الفتاة الآسيوية الصغيرة المجنحة التي استدعت إلى ذهنه فـــي هذه الليلة الذكرى والرغبة فـــي قدمي لوكريثيا الملكيتين. لا، ليس هناك من هو قادر مثل ريتسيف الغزلي، العارف الأعلى لهذه العبادة التي تطلق عليها السلالة البغيضة من علماء النفس والمحللين النفسيين اسم الوثنية، على فهمه ومرافقته ومساعدته فـــي هذا التكريم والحمد للقدمين المعبودتين. ورتل بورع: «شكراً يا لوكريثياي على ساعات المتعة التي أدين لك بها، منذ تلك المرة التي اكتشفتهما فـــيها على شاطئ بوكوسانا، وقبلتهما تحت الماء والأمواج.» وعاد دون ريغوبيرتو المنهوك إلى الإحساس بطعم الأصابع الصغيرة المالحة الرشيقة وهي تتحرك فـــي مغارة فمه، وبالماء البحري الذي ابتلعه.

أجل، هذه هي فضيلة السيد نيكولا إيدميه ريستيف دي لا بريتون: القدم الأنثوية. ويمكننا أن نضيف كذلك، مع بعض التوسع و**التعاطف** ـــ مثلما كان يمكن لخيميائي أن يقول ـــ كل ما يحيط بالقدم ويغطيها: الجورب، الحذاء، الصندل، الجزمة. وبالعفوية والبراءة التي كان عليهما، كمهاجر ريفـــي إلى المدينة، مارس وأعلن إيثاره لهذا الطرف الحساس ولما يغطيه دون حياء. وبتعصب المرتدين استبدل فـــي كتاباته المتناظرة العالم الحقيقي بعالم لا يقل خيالية ورتابة وتوقّعاً وتشوشاً وحماقة عن ذلك، والفارق الوحيد هو أن ما كان يلمع فـــي العالم المعجون بنثره السيئ وتفرد موضوعه الأحادي الجانب، وما كان يبرز ويستثير عواطف الرجال لم يكن وجوه السيدات الجميلة، ولا شعورهن الشلالية، ولا خصورهن

النحيلة، وأعناقهن العاجية أو رؤوسهن الشامخة، وإنما جمال أقدامهن وحده ولا شيء سواه. (وخطر له: لو أن الصديق ريستيف ما يزال موجوداً لكان أخذه، بعد موافقة لوكريثيا بكل تأكيد، إلى بيتها فـــي بستان الزيتون، ولكان أخفى كل جسدها، وأظهر له قدميها فقط، محبوستين فـــي جزمة بديعة من طراز جزمات الجدات، ولكان سمح له كذلك بأن يخلع عنها ذلك الحذاء. كيف سيكون رد فعل ذلك السلف؟ هل سيخر فاقداً الوعي؟ هل سيرتعش ويصرخ؟ هل سيسارع مثل كلب صيد سعيد، لسانه متدلٍ وأنفه متوسع، ليشم ويلحس هذه اللذائذ؟)

ألم يكن محترماً، رغم سوء كتابته، من يترافع بهذه الطريقة عن اللذة ويدافع بهذه القناعة والتماسك عن تخيله؟ أولم يكن ريستيف الطيب، رغم نثره عسير الهضم، «واحداً من جماعتنا»؟ لقد كان كذلك بكل تأكيد. ولهذا تمثل له هذه الليلة فـــي الحلم، منجذباً إلى تلك القدم الاضطرارية البورمية أو السنغافورية، لكي يرافقه فـــي هذا الفجر. وهزت دون ريغوبيرتو لفحة إحباط مفاجئة. لقد نفذ البرد إلى عظامه. ولكم رغب فـــي تلك اللحظة فـــي أن تعرف لوكريثيا كل الندم والألم اللذين يعذبانه، بسبب حماقته وسوء فهمه الفظ الذي دفعه قبل سنة إلى التصرف معها مثلما تصرف ذلك القاضي المنحط فـــي ويلنغتون ما وراء البحار حين حكم بالسجن أربع سنوات على هذه المعلمة، هذه الصديقة («واحدة أخرى من جماعتنا») لأنها أرت ذلك الطفل المحظوظ ـــــ ولم تُسكنه ـــــ الفردوس السماوي، ذلك الطفل، ذلك الفونتشيتو النيوزلندي. «بدل المعاناة وتأنيبكِ، كان علي

أن أشكرك أيتها المربية المعبودة.». وسيفعل ذلك الآن، فـــي هذا الفجر ذي الأمواج الصاخبة والمزبدة والرذاذ غير المرئي، مثنياً على رأي ريستيف المفضال وروايته ذات العنوان اللذيذ: **قدم فرانشيت**، والعنوان الفرعي الرائع: **أو اليتيمة الفرنسية. قصة طريفة وأخلاقية** (فهي تستحق بعد كل شيء أن تسمى أخلاقية) وقد كانت الرواية على ركبتيه، يداعبها بكلتا يديه وكأنها زوجة بديعة القدمين.

عندما كتب كيتس Beauty is truth, truth is beauty[1] (وهذه العبارة ترد فـــي كل دفتر يفتحه دون استثناء) هل كان يفكر بقدمي دونيا لوكريثيا؟ أجل، حتى ولو كان ذلك البائس لا يعرف ذلك. وعندما كتب ريستيف دي لابريتون وطبع (ربما بالسرعة نفسها) رواية **قدم فرانشيت** فـــي عام 1769، وهو فـــي الخامسة والثلاثين من عمره، فعل ذلك أيضاً مستلهماً، من المستقبل، امرأة ستأتي إلى العالم بعد حوالي قرنين من ذلك، فـــي جهة بربرية من أميركا المسماة (أهذا جدي؟) اللاتينية. وبفضل ملاحظات الدفتر راح دون ريغوبيرتو يتذكر قصة الرواية. إنها عادية ومُتوقَّعة إلى أبعد الحدود، مكتوبة بالأقدام (لا، هذا أمر يجب عدم التفكير فـــيه أو قوله)، والبطل الرئيسي فـــيها ليس المراهقة اليتيمة الجميلة فرانشيت فلورانجي، وإنما قدما فرانشيت فلورانجي الصغيرتان المقلقتان، فهما ترفعان الرواية وتمنحانها التفرد والحيوية والقدرة على الإقناع التي تميز أي عمل فني. ليس بالإمكان تصور التقلبات التي تسببها قدما الشابة فرانشيت العاجيتان، ولا

[1] ــ بالانكليزية فـي الأصل: الجمال حقيقة، الحقيقة جمال.

العواطف التي تتأجج حولهما. فالعجوز الوصي عليها، المونسنيور اباتيون، كان يتلذذ فـــي أن يشتري لهما أحذية متقنة وينتهز أي ذريعة لكي يداعبهما، وهما تلهبانه إلى حد الإقدام على محاولة اغتصاب ربيبته، ابنة صديقه العزيز جداً. أما الرسام دولسان، وهو شاب طيب، فقد فتنتاه مذ رآهما فـــي حذاء أخضر مزين بزهرة مذهبة، وجعلتاه مجنوناً ساخطاً يطفح بمشاريع إجرامية تؤدي به إلى فقدان حياته. والشاب الثري المحظوظ لوسانفـــيل، وقبل أن يمتلك بين ذراعيه وفمه فتاة أحلامه الجميلة، كان يسعد بفردة من أحذيتها الصغيرة كان، هو الهاوي أيضاً، قد سرقها. فكل بنطال حي يراهما ـــــ متمولون، تجار، ذوو إيرادات، مركيزات، أوغاد ـــــ يخضع لسحرهما، ويصيبه سهم الحب الجسدي ويكون مستعداً لعمل أي شيء مقابل امتلاكهما. ولهذا فإن الراوي محق فـــي التأكيد على العبارة التي استنسخها دون ريغوبيرتو من الرواية: «Le joli pied les rendait tous criminels»[1]. أجل، أجل، يمكن لهاتين القدمين أن تحولا الجميع إلى مجرمين. وقد كانت صنادل وأخفاف وأحذية وجزمات فرانشيت الجميلة أشياء سحرية، تتجول فـــي القصة فتضيئها بنور مني مبهر.

ومع أن الحمقى يعتبرونها حالة من الشذوذ، إلا أنه هو، ولوكريثيا بالطبع، يمكنهما أن يفهما ريستيف، أن يحتفلا بامتلاكه الجرأة والوقاحة ليعرض أمام الآخرين حقه فـــي أن يكون مختلفاً، وفـــي أن يعيد تشكيل العالم على صورته وهيئته. أولم يفعل ذلك هو ولوكريثيا فـــي كل ليلة، طوال عشر سنوات؟ أولم يفككا ويركّبا

---

[1] ـ بالفرنسية فـي الأصل، ومعناها: «كانت القدم الجميلة تجعلهم جميعهم مجرمين».

الحياة وفق رغباتهما؟ هل سيعودان إلى عمل ذلك يوماً؟ أم أن كل شيء سيبقى محتجزاً فـي الذكرى، مع الصور التي تختزنها الذاكرة كي لا تنهزم أمام يأس الواقع، هذا اليأس الذي هو يأس حقيقي؟

فـي هذه الليلة ـــ الفجر، أحس دون ريغوبيرتو بأنه واحد من الذكور الذين أربكتهم قدم فرانشيت. إنه يعيش خاوياً، مستعيضاً كل ليلة، كل فجر، عن غياب لوكريثيا بأشباح لا تكفـي لمنحه العزاء والسلوى. وهل هناك حل؟ أيكون قد فات أوان التراجع وإصلاح الخطأ؟ ألا يمكن لمحكمة عليا، لمحكمة دستورية أن تعيد النظر، فـي نيوزيلندا، بحكم قاضي ويلنغتون الفظ، وتبرئ المعلمة؟ ألا يمكن لحاكم نيوزلندي غير متعصب أن يعفو عنها، بل وأن يقلدها أوسمة البطولة المدنية لتفانيها المجرب فـي سبيل الطفولة؟ ألا يمكنه هو نفسه أن يذهب إلى بيت بستان الزيتون فـي سان ايسيدرو ليقول للوكريثيا إن العدالة البشرية الحمقاء قد أخطأت بإدانتها دون أن يكون لها الحق بذلك، وأنه سيعيد إليها الشرف والحرية من أجل... من أجل؟ من أجل ماذا؟ تردد، ولكنه واصل كيفما اتفق له.

أكانت هذه يوتوبيا؟ أهي يوتوبيا مثل تلك اليوتوبيات التي تخيلها أيضاً **المهووس** ريستيف دي لابريتون؟ نعم، مع أنها ليست كذلك، فـيوتوبيا دون ريغوبيرتو، عندما تحمله عذوبة الخمول أحياناً للشرود فـيها، هي يوتوبيات خاصة، لا يمكن إدخالها فـي كتب الآخرين. أليست هذه اليوتوبيات مشروعة، ومختلفة جداً عن اليوتوبيات الجماعية المعادية بتطرف للحرية، والتي تحمل معها على الدوام بذور الكارثة؟

لقد كان هذا أيضاً هو الجانب الضعيف والخطر لدى نيكولا إيدميه؛ وداء العصر الذي أذعن له، مثل جزء كبير من معاصريه. لأن الشهية لليوتوبيات الاجتماعية، هذا الوقف الأكبر لعصر الأنوار، إلى جانب آفاق جديدة وجريئة للمطالبة بالحق في اللذة، قد حمل معه الكوارث التاريخية. دون ريغوبيرتو لا يتذكر شيئاً من هذا، أما دفاتره فتتذكر. وفيها كانت المعطيات الاتهامية والصواعق المدوية.

ففي المعجب الرقيق بالأقدام الصغيرة والأحذية الأنثوية الذي كانه ريستيف ــــ «فليباركة الرب على ذلك، إذا كان موجوداً» ــــ كان هناك أيضاً مفكر خطير، مبشر، مصلح مؤسسات، ومنقذ النواقص الاجتماعية، خصص بين جبال الورق التي كتبها بعض الهضاب والتلال لبناء تلك السجون، اليوتوبيات العامة، لتنظيم الدعارة وفرض السعادة على الومسات (هذا المسعى المريع ظهر في كتاب خادع ذي عنوان جميل : **البورنوغرافيا**)، وضبط عمل المسارح وعادات الممثلين (**الميموغرافيا**)، ومن أجل تنظيم حياة النساء، بفرض واجبات عليهن وتثبيت حدودهن، بحيث يكون هناك انسجام بين الجنسين (وكان المسخ المرهوب يحمل كذلك عنواناً يبدو وكأنه يبشر بالمتع ــــ Les Gynogrphes ــــ بينما هو يفرض في الحقيقة أصفاداً وأغلالاً على الحرية). وقد كان أكثر طموحاً وتهديداً بالطبع، مسعاه من أجل تنظيم ــــ والواقع من أجل خنق ــــ سلوك (L'Andrographe) الجنس البشري بإدخال شرعية دخيلة ومعتدية على الحميمية، كان يمكن لها أن تضع حداً للمبادرة الحرة ولاستعداد

البشر الحر فـــي رغباتهم: Le Thermographe. وحيال هذه التدخلات المفرطة لتوركيمادا العلماني[1]، يمكن النظر إلى وصول ريستيف فـــي هوسه التنظيمي إلى حد اقتراح إصلاح شامل لقواعد الكتابة والإملاء (Glossographe) على أنه مجرد شقاوة طفولية. وقد جمع هو نفسه هذه اليوتوبيات فـــي كتاب أسماه: **أفكار فريدة** *Idees singulieres* (1769)، وقد كانت كذلك دون شك، ولكن بالمعنى المشؤوم والإجرامي لفكرة التفرد.

الحكم المدون فـــي الدفتر لم يكن يقبل الاستئناف ووافق عليه دون ريغوبيرتو: «ليس هناك من ريب فـــي أنه لو قيض لهذا الطابع، والموثق، والمولع المهذب بالأطراف الأنثوية أن يصل إلى امتلاك سلطة سياسية، لكان حوّل فرنسا، وربما أوربا كلها، إلى معسكر اعتقال منضبط تماماً، حيث يمكن لشبكة ناعمة الثقوب من المحظورات والواجبات أن تقتنص أصغر ذرة من الحرية. ولحسن الحظ أنه كان شديد الأنانية إلى حد لا يطمع معه بالسلطة وهو مستغرق فـــي عملية إعادة البناء الروائية للواقع البشري، وتركيبها حسب منفعته، بحيث لا تكون القيمة العليا، مثلما فـــي **قدم فرانشيت**، والرغبة القصوى للذكر ذي الساقين هي اجتراح مآثر بطولية فـــي الغزوات العسكرية، ولا فـــي بلوغ القداسة، ولا فـــي اكتشاف أسرار المادة والحياة، وإنما فـــي تلك القدم الأنثوية اللذيذة، الشهية مثل طعام الآلهة الذي كان يتغذى عليه أرباب الأولمب». إنها قدم مثل تلك التي

---

[1] ــ توركيمادا Tomas de Torquemada: رجل دين إسباني(1420–1498). اشتهر بسعة علمه وورعه. ولكنه عندما عُيّن في منصب قاضي التفتيش الأول عام 1482، سن قوانين محاكم التفتيش الصارمة، وتولى منصبه بقسوة وتعصب لا مثيل لهما.

رآها دون ريغوبيرتو في إعلان **التايم** وذكرته بقدمي لوكريثيا، وأبقته هنا حيث بدأت تفاجئه أول أنوار الصباح، ليرسل إلى محبوبته هذه القارورة التي سيقذف بها إلى البحر، وهو يعلم جيداً أنها لن تصلها، إذ، كيف يمكن أن يصلها ما هو غير موجود، ما هو مصاغ بقلم أحلامه الخفي؟

انتهى دون ريغوبيرتو من توجيه هذا السؤال اليائس، وهو مغمض العينين، وبينما شفتاه تهمسان بالنداء المحبب «آه يا لوكريثيا!»، أوقعت ذراعه اليسرى أحد الدفاتر على الأرض. التقطه وألقى نظرة على الصفحة التي انفتحت لدى السقوط. وارتعش جسده: إن للمصادفة تفصيلات رائعة، وهو ما أتيح له ولزوجته فرص للتأكد منه، في هذياناتهما في الغالب. ماذا وجد؟ لقد وجد ملاحظتين مكتوبتين منذ سنوات بعيدة. الأولى إشارة منسية إلى لوحة صغيرة مجهولة الرسام يأمر فيها ميركور الحورية كاليبسو بأن تطلق سراح أوديسيوس ـــ وكانت قد وقعت في غرامه واحتجزته في جزيرتها ـــ وأن تتركه يواصل رحلته إلى بينيلوبي. والملاحظة الثانية، يا للروعة، تأملات مؤثرة عن: «التميمية الرقيقة لدى جوهانس فيرمير الذي، في لوحته **ديانا ورفيقاتها**، يزجي التكريم التشكيلي إلى هذا العضو التافه من الجسد الأنثوي، مظهراً حورية مستغرقة في المهمة المحببة بغسل ـــ مداعبة بكلمة أصح ـــ قدم ديانا باسفنجة، بينما حورية ثانية مستغرقة في شرود عذب، تداعب قدمها. كل شيء رقيق وشهواني، بحسية لطيفة تداري اكتمال الأشكال والضباب الخفيف

جداً الذي يغطي المشهد بتزويد الأشخاص بذلك الوضوح السحري الذي تمتلكينه أنت، يا لوكريثيا، بلحمك وعظمك، وكذلك فـــي أشباحك عندما تزورين أحلامي». كم هو صحيح هذا الكلام، وكم هو راهن، وكم هو ساري المفعول.

وماذا إذا ما رد على رسائلها المغفلة؟ وماذا إذا كتب إليها حقاً؟ وإذا ذهب ليطرق بابها، هذا المساء بالذات، فور انتهاء الدورة الأخيرة لناعورة امتهانه التأميني والإداري؟ وماذا إذا ما خر لدى رؤيتها على ركبتيه وتذلل لكي يقبّل الأرض التي تدوسها، طالباً منها الصفح، ومنادياً إياها إلى أن يجعلها تضحك، «يا مربيتي الحبيبة»، «معلمتي النيوزلندية»، «فرانشيتتي»، «دياناي»؟ هل ستضحك؟ هل ستلقي بنفسها بين ذراعيه وتقدم له شفتيها، وتُشعره بجسدها، وبأنهما قد خلّفا كل شيء وراءهما، وأنه يمكنهما البدء من جديد، وحدهما، فـــي بناء يوتوبياهما السرية

زينة نمـــر

معكِ أمارسُ غراميات هاوايية ترقصين لي فـــيها رقصة **أوكيليلي** فـــي ليالٍ مكتملة القمر، مع جلاجل على الردفـــين والكاحلين، مقلدة دوروثي لامور.

وغراميات أزتيكية، أقدمك فـــيها قرباناً لآلهة نحاسية وشرهة، لأفاع ومجنحات، على قمة هرم أحجار صدئة، تحيط بها الأدغال

المتشابكة المغلقة.

غراميات اسكيمالية، فـــي بيوت باردة من الجليد، مضاءة بمشاعل من شحم الحوت، وغراميات نرويجية نمارس الحب فـــيها ونحن مثبتان على ألواح التزلج، ننزلق بسرعة مئة كيلومتر فـــي الساعة على سفوح جبل أبيض ذي بثور طوطمية عليها كتابات عامية.

نزوتي فـــي هذه الليلة يا حبيبتي حداثية ودامية وأفريقية.

ستتعرين أمام المرآة المجزأة، مستبقية الجوربين الأسودين والأربطة الحمراء، وستخفـــين رأسك البديع تحت قناع وحش ضار، من الأفضل أن يكون الوحش هو النمرة الهائجة فـــي ديوان **أزرق** لروبين داريو... أو لبوة سودانية.

ستميلين بردفك الأيمن، وتثنين ساقك اليسرى، وتسندين يدك إلى الردف الآخر، فـــي أشد الأوضاع وحشية وإثارة.

وعندئذ سأراك بخضوعي المعتاد وأنا جالس على كرسيّ، مستنداً بظهري إلى المسند.

لن أحرك جفناً واحداً، ولن أصرخ بينما أنت تُنشبين مخالبك فـــي عيني، وأنيابك البيضاء تنتزع حنجرتي، وتلتهمين لحمي، وترويين ظمأك بدمي العاشق.

إنني الآن فـــي جوفك، إنني الآن أنتِ أيضاً، أيتها الحبيبة المختلطة بي.



IX. موعد فـــي الشيراتون

ـــــ لكـــي أتجـــرأ، ولكـــي أمتلك الشـــجاعـــة، تتـــاولت كأســـــين مـــن الويسكي الصافـــي ـــــ قالت دونيا لوكريثيا ـــــ. أعني، قبل أن أبدأ التنكر.

فعلقت خوستينيانا بمرح:

ـــ لا بد أنك قد سكرتِ تماماً. فرأسك فـــي تحمّل الشراب مثل رأس الدجاجة.

أنبتها دونيا لوكريثيا:

ـــ ولكنك كنتِ هناك يا قليلة الحياء. متهيجة لما يمكن أن يحصل. كنت تقدمين الشراب، وتساعدينني فـــي التنكر وتضحكين على هواك بينما أنا أتحول إلى واحدة من أولئك.

ـــ واحدة من أولئك الفتيات ـــ أعادت الخادمة كالصدى وهي تضبط لها أحمر الشفاه.

«إنه أسوأ جنون أقدمت عليه فـــي حياتي ـــ فكرت دونيا لوكريثيا ـــ. أسوأ مما فعلته مع فونتشيتو، وأسوأ من زواجي من المجنون ريغوبيرتو. إذا ما أقدمت على ذلك فسوف أندم حتى مماتي.» ولكنها ستُقدم عليه. باروكة الشعر الحمراء كانت مناسبة لها تماماً ـــ لقد جربتها فـــي المحل الذي أوصته عليها ـــ وتسريحتها العالية والباروكية ذات الخصل والتجعيدات بدت وكأنها ألسنة لهيب. ولم تكد تتعرف على هذه المرأة المتوهجة ذات الرموش الاصطناعية المعقوفة والقرطين التروبيكاليين المستديرين، والطلاء الأحمر المتوقد الذي يضاعف الحجم الطبيعي للشفتين، وشامات وازرقاق عيني امرأة مشؤومة، من طراز نساء الأفلام المكسيكية فـــي الخمسينيات.

هتفت خوستينيانا مذهولة وهي تغطي فمها:

ـــ يا للعجب! لا يمكن لأحد أن يقول إنك أنت نفسك. لست أدري من تشبهين يا سيدتي.

فأكدت دونيا لوكريثيا:

ـــــ أشبه واحدة من هؤلاء.

كان الويسكي قد بدأ مفعوله. والتردد الذي كان قبل لحظة راح يتلاشى، وصارت الآن تتأمل تحولها فـــي مرآة الحجرة بذهول ومتعة. وكانت خوستينيانا المفتونة أكثر فأكثر تقدم لها الملابس الموضوعة فوق السرير: التنورة القصيرة الضيقة جداً بحيث تجد صعوبة فـــي التنفس، والجوربين الأسودين اللذين ينتهيان متصلين بأربطة حمراء مع زركشات مذهبة، والبلوزة الخيالية التي تعرض نهديها حتى حافة الحلمتين. وساعدتها كذلك فـــي انتعال الحذاء الفضي ذي الكعب الرفـــيع. ابتعدت عنها بعد أن تأملتها من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، ثم عادت تهتف مبهورة:

ـــــ لستِ أنت نفسك يا سيدتي. إنك أخرى، أخرى. هل ستخرجين هكذا حقاً؟

فأكدت دونيا لوكريثيا:

ـــــ بالطبع. إذا أنا لم أرجع حتى الغد، اتصلي بالشرطة.

ودون أي شيء آخر، طلبت سيارة أجرة إلى محطة عذراء البيلار وأمرت السائق بتسلط: «إلى فندق الشيراتون». أول أمس، وأمس، واليوم، بينما كانت تهيئ ملابسها التنكرية، أحست ببعض التردد. وكانت قد قالت إنها لن تذهب، وإنها لن تُقدم على مثل هذا التهريج الذي لن يكون بكل تأكيد سوى مزحة قاسية؛ ولكنها ما إن صارت فـــي التاكسي حتى أحست بالثقة وبالعزم على خوض المغامرة حتى نهايتها. مهما كان ما سـيحدث. نظرت إلى

الســـاعة. التعليمات تقول إن الموعد ســيكــون مـــا بين الحادية عشـــرة والنصف والثانيـــة عشـــرة ليلاً، وكانت الســـاعة لا تـــزال الحادية عشـــرة، ولهذا ســـتصل مبكرة. وبهدوء، ومتحولة بعيداً عن شـــخصيتها المعتادة بفضل الكحول، بينما سيارة التاكسي تتقدم عبر الثانخون شـــبه المقفـــر باتجاه مركـــز المـــدينـــة، تســـاءلت عمـــا ســـتفعلـــه فـــي الشـــيراتون إذا ما تعرف عليها أحدهـــم بالرغم من تنكرها. ستتنكر ذلك مغيّرة صـــوتها، مستخدمة نبرة التغنـــج المســـتهترة التي تســـتخدمها أولئـــك الفتيات المعروفات: «أتقول لوكريثيا؟ لا، أنا اســـمي عايدة. هل أشـــبهها؟ ربما تكون إحدى قريباتي البعيدات». ســـتكذب بكـــل وقاحـــة. لقد تلاشى خوفها تماماً. وفكرت وهي سعيدة بنفسها: «إنكِ مفتونة بأداء دور العاهرة لليـــلة واحدة». ولاحظت أن سائق التاكسي يرفع بصره كل لحظة ليتفحصها فـــي المرآة العاكسة.

قبل أن تدخل إلى الشيراتون، وضعت النظارة القاتمة ذات الإطار الصدفـــي المنتهي بثلاثة رؤوس وكانت قد اشترتها مساء اليوم بالذات من أحد المحلات فـــي شارع لاباز. وقد اختارتها لمظهرها الفج ولأنها، بسبب حجمها، تبدو مثل قناع. اجتازت البهو بخطوات سريعة نحو البار، خائفة أن يقترب منها أحد البوابين ذوي الزي الموحد الذين يراقبونها، ويسألها من تكون، وماذا تريد، أو يرمي بها خارجاً دون أسئلة بسبب مظهرها الصاخب. ولكن أحداً لم يقترب منها. صعدت الدرج نحو البار دون تسرع. وقد أعادت لها العتمة الخفـــيفة الطمأنينة التي أوشكت أن تفقدها تحت أنوار المدخل

الساطعة، تلك الصالة التي تنتصب فوقها ناطحة السحاب التعسفــية بطوابقها وجدرانها وممراتها ودرابزيناتها وغرفها التي تشكل الفندق. وعلى الضوء الخافت، ما بين سحب الدخان، رأت أن الطاولات المشغولة كانت قليلة. وكانت تُعزف موسيقى إيطالية، مع مغن مما قبل التاريخ ـــ دومينيكو مودوغنو ـــ ذكرها بفــيلم قديم لكلوديا كاردينالي وفــيتــوريو غاســمان. وكانت هنــاك ظــلال مطموســة تــصطف علــى الكونتوار، علــى خلفــيــة زرقــاء صفــراويــة تشــكلها الكــؤوس وصفــوف قوارير المشروبات. ومــن إحــدى المــوائد كان يتعالى صــراخ ســكرة فـــي بدايتها.

استعادت حماسها من جديد، واجتازت المحل وهي واثقة من قدرتها على مواجهة أي طارئ، واتخذت مجلساً على أحد مقاعد الكونتوار المرتفعة. وأظهرت لها المرآة المقابلة صورة مخلوق قبيح، رأت أنه يستحق العطف وليس القرف أو الضحك. وكان استغرابها دون حدود حين سمعت النادل، وهو خلاسي له شعر دهني قاس، يرتدي صدرية واسعة وربطة عنق تبدو وكأنها تشنقه، يكلمها بخشونة وفظاظة:

ـــ إما أن تشربي شيئاً أو تنصرفـــي.

كانت على وشك أن تثير له فضيحة، ولكنها تروت وكافأت نفسها بالقول إن هذه الإهانة هي دليل على نجاح تنكرها. ودشنت صوتها الجديد المتصنع والمُحلى بأن طلبت منه:

ـــــ بطاقة سوداء[1] مع الثلج من فضلك.

بقي الرجل يتأملها مرتاباً ومفكراً إذا كان ما يسمعه جدياً. واختار أن يدمدم «مع الثلج، مفهوم»، وابتعد عنها. وفكرت فـــي أن تنكرها كان سيبدو أكثر كمالاً لو أنها أضافت إليه مبسم تدخين طويل. لأنها كانت ستطلب عندئذ سجائر منعنعة من ماركة كول ذات الطول الفاخر، وتدخن منها مطلقة دوائر من الدخان نحو السماء الصافــية ذات النجوم التي تغمز لها.

أحضر لها النادل كأس الويسكي مع الحساب، فلم تهتم أيضاً لهذا الدليل على عدم الثقة؛ فدفعت الثمن دون أن تترك إكرامية. وما إن شربت الرشفة الأولى حتى أحست بأن هناك من جلس بجانبها. أحست برعشة خفــيفة. لقد بدأت اللعبة تصبح جدية. ولكن لا، لم يكن القادم الجديد رجلاً، وإنما امرأة فتية جداً، ترتدي بنطالاً وكنزة قاتمة ذات ياقة عالية ودون أكمام. وكان شعرها مفلتاً، متهدلاً، ووجهها طازجاً، له مظهر الرذيلة، مثل فتيات إيغون شيلي.

وبدا لها الصوت الناعم الذي يحمل رنة حي ميرافلوريس مألوفاً حين سمعته يقول:

ـــــ مرحباً. نحن نعرف بعضنا، أليس كذلك؟

فردت دونيا لوكريثيا:

ـــــ لا أعتقد.

وقالت الفتاة:

---

[1] ــ المقصود هو ويسكي من نوع جوني ويكر ذي البطاقة السوداء

ـــ ظننت ذلك، المعذرة. الحقيقة أن ذاكرتي سيئة جداً. هل تأتين كثيراً إلى هنا؟

ـــ بين حين وآخر ـــ ترددت دونيا لوكريثيا. هل تعرفها؟

ـــ لم يعد الشيراتون مأموناً كالسابق ـــ قالت الفتاة بأسف. ثم أشعلت سيجارة وأطلقت نفثة من الدخان تأخرت في التلاشي، وأضافت: ـــ يوم الجمعة كانت هناك مداهمة كما قيل لي.

وتصورت دونيا لوكريثيا نفسها تصعد دفعاً إلى شاحنة الشرطة، وتقتاد إلى المخفر، ويدرج اسمها في ملفات المومسات.

ـــ إما أن تشربي شيئاً أو تنصرفي ـــ قال النادل محذراً جارتها، ومهدداً إياها برفع إصبعه عالياً.

فقالت الفتاة حتى دون أن تتنازل بالنظر إليه:

ـــ هيا، انصرف إلى الخراء أيها الخلاسي النتن.

فابتسم النادل مظهراً أسناناً أيقنت دونيا لوكريثيا من أنها مخضرة بالقَلَح، وقال:

ـــ إنكِ جارحة دائماً يا آديليتا. ابقي وحسب. إنكِ في بيتك. يحق لك أن تتعسفي، فأنت نقطة ضعفي.

في هذه اللحظة تعرفت دونيا لوكريثيا عليها. إنها آديليتا بالطبع! ابنة إستيرثيتا! ياه، ياه، ليست إلا ابنة التقية إستير.

وقهقهت خوستينيانا وهي تتحني على نفسها:

ـــ أهي ابنة السيدة إستيرثيتا؟ أكانت آديليتا؟ أكانت الصغيرة آديليتا؟ أهي ابنة عرابة فونتشيتو؟ وكانت تلتقط الزبائن في

الشيراتون؟ لا أستطيع أن أبتلع هذا يا سيدتي. لا يمكنني أن ابتلعه مع كوكا كولا ولا حتى مع شمبانيا.

فأكدت لها دونيا لوكريثيا:

ـــ بل هي نفسها، ولن تصدقي كيف كانت تفعل ذلك. بكل تهتك. مطلقة البذاءات، ومتحركة مثل السمكة فـي الماء، هناك، فـي البار. وكأنها المومس الأوسع خبرة فـي ليما كلها.

ـــ أولم تتعرف هي عليكِ؟

ـــ لا، لحسن الحظ. ولكنك لم تسمعي شيئاً بعد. فبينما كنا نتحدث هناك، لست أدري كيف نزل علينا ذلك الرجل. وقد كانت آديليتا تعرفه كما يبدو.

كان طويلاً، قوياً، بديناً بعض الشيء، ومخموراً بعض الشيء، وفـيه بعض الشيء من كل ما هو ضروري للإحساس بأنه مرهوب وآمر. يرتدي بدلة وربطة عنق براقة مزركشة بأشكال هندسية وخطوط متعرجة، ويتنفس مثل كير. لا بد أنه فـي الخمسين من عمره. دس نفسه بين الاثنتين، ووضع ذراعيه على كتفـيهما، وقال على سبيل التحية وكأنما يعرفهما منذ الأزل:

ـــ هل تأتيان إلى جناحي فـي الفندق؟ هنالك مشروب فاخر و*something for the nose*[1]. وكذلك مبلغ من الدولارات للفتيات اللواتي يحسنّ التصرف.

---

[1] ـ العبارة بالانكليزية في الأصل، وتعني: وهناك شيء للأنف. والمقصود مخدرات الشم بالطبع.

أحست دونيا لوكريثيا بالدوار. كانت أنفاس الرجل تصفع وجهها. فقد كان قريباً منها إلى حد يمكنه معه بحركة صغيرة أن يقبّلها.

سألته الفتاة بغنج:

ـــ هل أنت وحيد يا ابن العم؟

ـــ وما حاجتي إلى أشخاص آخرين ـــ قال الرجل ذلك وهو يمص شفتيه، ثم أضاف ملامساً جيبه الذي لا بد أنه يحمل المحفظة فــيه: ـــ مئة خضراء للرأس، أوكي؟ وسأدفع سلفاً.

فقالت آديلايتا على الفور:

ـــ إذا كنت لا تملك أوراقاً من فئة العشرة أو الخمسين دولاراً فإنني أفضل السولات[2]. فأوراق المئة دولار مزيفة على الدوام.

ووعدها الرجل:

ـــ أوكي، أوكي، لدي أوراق من فئة الخمسين. هيا يا بنات.

ـــ إنني أنتظر شخصاً. آسفة ـــ اعتذرت دونيا لوكريثيا.

فقال الرجل بقنوط:

ـــ ألا يمكنه أن ينتظر؟

ـــ لا يمكنني، حقاً.

فتدخلت آديليتا وهي تتأبط ذراعه:

ـــ إذا أردتَ يمكننا أن نصعد أنا وأنتَ. سأمتعك يا ابن العم.

ولكن الرجل أبعدها وقد خاب أمله:

---

[2] ـ السول sol: وحدة النقد الأساسية فـي البيرو.

ـــــ أنت وحدك لا. إنني أكافئ نفسي هذه الليلة. لقد كسبتْ حميري ثلاثة أشواط والشوط المزدوج. هل أخبركما؟ إنني سأحقق نزوة تراودني منذ أيام. أأقول لكما ما هي؟ ـــــ نظر إليهما بجدية كبيرة، وأرخى ربطة عنقه، ثم تابع دون أن ينتظر ردهما: ـــــ أن أخوزق واحدة بينما أنا آكل الأخرى. وأراقبهما فـــي المرآة وهما تتبادلان المداعبة والقبلات، جالستين على العرش، وهذا العرش هو أنا.

«مرآة إيغون شيلي»، فكرت السيدة لوكريثيا. وكانت تشعر بتناقص استيائها من فجاجة الرجل ومن بريق عينيه القاسيتين وهو يشرح نزوته.

وضحكت آديليتا وهي توجه إليه لكمة مزيفة:

ـــــ ستحتاج إلى مرآة تحيط بك من كل الجهات لكي ترى كل هذه الأشياء دفعة واحدة يا ابن العم.

ـــــ إنها نزوتي. وبفضل الحمير سأتمكن من تحقيقها هذه الليلة ـــــ قال الرجل ذلك باعتزاز وهو يودعهما: ـــــ من المؤسف أنك مشغولة أيتها المهرجة الجميلة، لأنك تعجبينني على الرغم من أصبغتك الكثيرة. تشاو يا ابنتي العم.

عندما ضاع بين الطاولات ـــــ كان هناك أناس فـــي البار أكثر من ذي قبل، وكان الدخان قد تكاثف، وتضاعفت ضجة الأحاديث وصارت موسيقى مكبرات الصوت تصدح الآن بلحن ميرنغي لخوان لويس غيرّا ـــــ تقدمت آديليتا منها متأثرة:

ـــــ هل صحيح هذا الذي قلتِه عن الموعد؟ لقد كانت صفقة

جيدة مع هذا العجوز. ما قاله عن الخيول هو مجرد كلام. إنه تاجر مخدرات. الجميع يعرفونه. وهو ينتهي فوراً، بسرعة مئة فـــي الساعة. ما يدعونه سرعة القذف. إنه سريع جداً جداً إلى حد أنه لا يكاد يبدأ فـــي بعض الأحيان. لقد كان نعمة يا ابنة العم.

حاولت دونيا لوكريثيا أن ترسم ابتسامة حكيمة، لم تخرج منها. كيف يمكن لابنة إستير أن تقول مثل هذه الأشياء؟ تلك السيدة المتكبرة، الغنية، المعتدة بنفسها، المتأنقة، والكاثوليكية جداً. أستيرثيتا، عرابة فونتشيتو. وكانت الفتاة تواصل تعليقاتها الساخطة وتذمراتها التي أذهلت دونيا لوكريثيا:

ـــــ من الحماقة إضاعة فرصة كسب مئة دولار فـــي نصف ساعة، بل فـــي خمس عشرة دقيقة. أنا أرى أن صعودي وإياك للعمل مع هذا العجوز هو مثل الحلوى، أقسم لك. كل شيء سيتم على ما يرام، وفـــي ثوانٍ قليلة. لست أدري ما رأيك أنت، أما أنا فإن ما يزعجني هو التعامل مع زوجين معاً. الزوج المتفرج، بينما يكون عليك تحمية الزوجة. إنني أكره هؤلاء يا ابنة العم! لأن الزوجة تكاد تموت دائماً من الخجل. الضحكات، التصنع، يجب تقديم كأس لها، ملاطفتها. ياه، أقول لك إنني أشعر بالغثيان منهن. وخصوصاً عندما يبدأن بالبكاء وينتابهن الندم. إنني مستعدة لقتلهن عندئذ، أقسم لك. وتمضي أنصاف الساعات، والساعات فـــي هذه السخريات. يردن، لا يردن، ويسببن لك خسارة كومة من النقود. لم يعد لدي صبر عليهن يا ابنة العم. ألم يحدث لك مثل هذا؟

ـــــ ومن لم يحدث لها مثل ذلك أحياناً ـــــ وجدت دونيا

لوكريثيا نفسها مضطرة إلى قول ذلك مجاهدة لكي توافق كل كلمة على الخروج من فمها.

ـــ والأسوأ هو التعامل مع صديقين معاً، ثوريّ النير، الشريكين، ألا ترين ذلك؟ ـــ تتهدت آديليتا. وكان صوتها قد تبدل، ففكرت لوكريثيا بأنها قد مرت دون ريب بتجربة فظيعة، مع ساديين أو مجانين أو متوحشين ـــ. كم يشعرون بأنهم فحول حين يكونون اثنين معاً. ويبدؤون بطلب كل أنواع الحماقات الجوفاء. البوق، السندويش، التشيكيتو. لماذا لا تذهب وتطلب هذا من أمك يا صغيري؟ لست أدري ما رأيكِ أنت يا ابنة العم، أما أنا فلا أريد ممارسة التشيكيتو بأي ثمن. لا أحب هذه الطريقة. إنها تقرفني. وهي تؤلمني أيضاً. ولهذا لا أمارسها ولو دفعوا لي مئتي دولار. وأنتِ؟

فتلعثمت دونيا لوكريثيا:

ـــ وأنا مثلك. قرف وألم، مثلك تماماً. لا أقبل التشيكيتو لا بمئتي ولا بألف دولار.

ضحكت الفتاة:

ـــ حسن، بألف دولار، من يعرف. ألا ترين؟ إننا متشابهتان. حسن، ها هو ذا زبونك الموعود على ما أظن. ربما نستطيع في المرة القادمة إنجاز عمل مع معتوه الحمير. تشاو، وتمنياتي لك بالتمتع.

ابتعدت جانباً، تاركة مكانها للشبح النحيف الذي كان يقترب. وعلى ضوء الردهة الخافت، رأت دونيا لوكريثيا أنه شاب، أشقر

إلى حد ما، ذو تقاطيع طفولية، وبه شبه غامض بمن؟ بفونتشيتو! إنه فونتشيتو أكبر بعشر سنوات، نظرته قد تصلبت، وجسده طال ونحل. كان يرتدي بدلة زرقاء أنيقة ويضع فـــي جيب السترة منديلاً وردياً من لون ربطة العنق نفسه.

قال لها على سبيل التحية بصوت صارم:

ـــــ مخترع كلمة **فردية** هو أليكسيس دي توكفـــيل. هل هذا صحيح أم خطأ؟

ـــــ صحيح. بدأت دونيا لوكريثيا تتعرق عرقاً بارداً: ما الذي سيحدث الآن؟ ولأنها كانت مصممة على الوصول إلى النهاية، فقد أضافت: ـــــ أنا أدونزا، أندلسية روما. قحبة، منجمة ورَفّاءة، رهن إشارتك.

ـــــ الكلمة الوحيدة التي أفهمها هي قحبة ـــــ قالت خوستينيانا وهي دائخة مما تسمع ـــــ أكان جدياً؟ ألم تفلت منه أي ضحكة؟ أعذريني لمقاطعتك يا سيدتي.

ـــــ اتبعيني ـــــ قال الرجل دون أي أثر للسخرية. وكان يتحرك مثل روبوت.

نزلت دونيا لوكريثيا عن مقعد الكونتوار وفهمت نظرة النادل الخبيثة وهو يراها تتصرف. لحقتْ بالشاب الأشقر الذي كان يتقدم بسرعة ما بين الطاولات المزدحمة، مخترقاً الجو الدخاني باتجاه مخرج البار. ثم اجتاز بعد ذلك الممر نحو المصعد. رأته دونيا لوكريثيا يضغط زر الطابق الرابع والعشرين وأحست بقلبها يقفز مع

خواء فـي بطنها بسبب السرعة التي صعدا بها. وما إن خرجا إلى الممر حتى انفتح باب. كانا فـي ردهة جناح فسيح: ووراء زجاج النافذة كان يمتد تحت أقدامهما بحر من الأنوار مع لطخات مظلمة وكتل من الضباب.

ـــ يمكنك خلع الباروكة والتعري فـي الحمام ـــ وأشار لها الفتى إلى غرفة فـي أحد جانبي الصالة. ولكن دونيا لوكريثيا لم تقو على التقدم خطوة واحدة، مبهورة بالوجه الفتي ذي النظرة الفولاذية والشعر المشعث ـــ كانت قد حسبته أشقر وكان فاتحاً، يميل إلى السواد ـــ فـي جبهته، يكشفه مخروط ضوء يرسله مصباح. كيف يمكن ذلك؟ يبدو وكأنه هو، بشخصه.

ـــ كيف يكون إيغون شيلي؟ ـــ اعترضتها خوستينيانا ـــ أهو الرسام الذي يهدس به فونتشيتو؟ ذلك البارد الذي كان يرسم موديلاته وهن يقمن بحركات لا حياء فـيها؟

ـــ ولماذا تظنينني بقيت مبهورة لولا ذلك؟ لقد كان هو نفسه.

ـــ أعرف أنني أشبهه ـــ أوضح لها الفتى، بالنبرة الجدية والعملية وغير الإنسانية نفسها التي واجهها بها منذ اللحظة الأولى ـــ أهذا هو ما يشوشك؟ حسن، إنني أشبهه. وماذا فـي ذلك؟ أم أنك تظنينني إيغون شيلي منبعثاً؟ لستِ حمقاء إلى هذا الحد، أليس كذلك؟

واعترفت دونيا لوكريثيا:

ـــ لقد أذهلتني تماماً. فليس الوجه وحده، وإنما كذلك الجسد

الطويل، الضعيف. واليدان الكبيرتان. والطريقة التي تلعب بها بأصابعك، مخفـياً الإبهام. إنك مشابه، مطابق تماماً لكل صور إيغون شيلي. أيمكن هذا؟

فقال الفتى ببرود وبإيماءة نزق:

ـــ يجب ألا نضيع الوقت. انزعي هذه الباروكة المقرفة وهذه العقود والأقراط الفظيعة. سأنتظرك فـي غرفة النوم. تعالي عارية.

كان فـي وجهه شيء من التحدي والهشاشة. وفكرت دونيا لوكريثيا بأنه يبدو مثل صبي سيئ التربية وعبقري، وأنه على الرغم من كل شيطنته وعجرفته، جسارته وترهيبه، يفتقد أمه كثيراً جداً. أكانت تفكر فـي إيغون شيلي أم فـي فونتشيتو؟ لقد كانت دونيا لوكريثيا واثقة تماماً من أن ذلك الفتى هو تشخيص مسبق لما سيكون عليه ابن دون ريغوبيرتو بعد بضع سنوات.

«منذ هذه اللحظة سيبدأ الأصعب»، قالت ذلك لنفسها. وكانت موقنة من أن الفتى الذي يشبه فونتشيتو وإيغون شيلي قد أقفل الباب بقفل مزدوج، وأنها لن تستطيع الهرب من الجناح حتى لو أرادت ذلك. يجب عليها أن تبقى هناك بقية الليل. وإلى جانب الخوف الذي سيطر عليها، كان ينهشها الفضول، وشيء من الاستثارة أيضاً. فالاستسلام إلى هذا الشاب النحيل ذي الملامح الباردة والقاسية بعض الشيء سيكون مثل ممارسة الحب مع فونتشيتو ـــ شاب ـــ رجل ـــ تقريباً، أو مع ريغوبيرتو متجدد الشباب والجمال، ريغوبيرتو-شاب-طفل-تقريباً. وجعلها هذا الخاطر تبتسم. وأبدت لها مرآة

الحمام ملامحها المسترخية، والسعيدة تقريباً. وجدت مشقة فـــي خلع ملابسها. وكانت يداها محتقنتين وكأنهما وضعتا فـــي الثلج. وحين نزعت الباروكة السخيفة، وتحررت من التنورة القصيرة التي تقيدها، تنفست بعمق. استبقت السروال الداخلي وحمالة الصدر ذات التخريمات السوداء، وقبل أن تخرج أفلتت شعرها ورتبته ـــــ وكانت قد ثبتته بشبكة ـــــ، وتوقفت لحظة عند الباب. الرعب مرة أخرى. «قد لا أخرج حية من هنا» ولكن هذا الخوف لم يجعلها تندم على مجيئها وتمثيلها هذه المهزلة القاسية لكي تمتع ريغوبيرتو (أم فونتشيتو؟). حين خرجت إلى الردهة، لاحظت أن الفتى قد أطفأ كل أنوار الغرفة، باستثناء مصباح صغير فـــي ركن قصي. ومن خلال النافذة الواسعة كانت تتلألأ آلاف الأضواء الصغيرة فـــي سماء مقلوبة. لقد كانت ليما تبدو متنكرة بزي مدينة كبيرة؛ فالعتمة تمحو أسمالها وقذارتها، بل ورائحتها الكريهة أيضاً. وكانت تغمر الظلمة موسيقى قيثارات وكمانات ناعمة. وبينما هي تتقدم خائفة باتجاه الباب الذي كان الفتى قد أشار إليه، أحست بموجة جديدة من التهيج صلّبتْ حلمتي نهديها («هذا ما يروق ريغوبيرتو كثيراً»). كانت تتسلل ببطء على السجاد. طرقت الباب بأصابعها. لم يكن مقفلاً، فانفتح دون أي صرير.

ـــــ هل كان هناك الشخصان السابقان؟ـــــ هتفت خوستينيانا غير مصدقة ـــــ كيف يمكن هذا. الاثنان السابقان؟ كانت هناك آديليتا ابنة السيدة استير؟

فأكدت دونيا لوكريثيا:

ـــــ ومعها رجل الخيول، أو تاجر المخدرات أو ذاك الذي لا أدري من هو. أجل، كلاهما كانا فـــي السرير.

وأطلقت خوستينيانا ضحكة وهي ترفع يدها إلى فمها وتقلّب عينيها بوقاحة:

ـــــ وكانا عاريين بالطبع. بانتظارِكِ يا سيدتي.

بدت الغرفة أوسع مما هو معتاد فـــي الفنادق، بل وأكبر من جناح فاخر، ولكن دونيا لوكريثيا لم تستطع أن تنتبه إلى أبعادها، لأنه لم يكن مضاء سوى مصباح الكوميدينو الصغير، وكان النور الدائري الذي بلون العقرب لا يضيء بوضوح كامل إلا الرجل والمرأة المستلقيين مختلطين على الفرشة الحمراء، مع لطخات بلون الخوخ القاتم، التي تغطي السرير المزدوج. أما بقية الغرفة فكان غارقاً فـــي الظلام.

ـــــ ادخلي يا حبي ـــــ رحب بها الرجل وهو يهز إحدى يديه، دون أن يتوقف عن تقبيل آديليتا التي كان يمتطيها تقريباً، ثم أضاف:

ـــــ تناولي كأساً. هناك شمبانيا على الطاولة. وكوكائين فـــي هذه العلبة الفضية.

مفاجأة اللقاء هناك بآديليتا ورجل الخيول لم تُنسها الشاب ذا الفم القاسي. هل اختفى؟ أهو يتجسس من العتمة؟

وبرز وجه آديليتا الطفولي الخبيث من فوق كتف الرجل:

ـــــ أهلاً يا ابنة العم. لحسن الحظ أنك تخلصت من موعدك. أسرعي، تعالي. ألا تشعرين بالبرد؟ المكان هنا دافئ.

انزاح عنها الخوف تماماً. ذهبت إلى الطاولة وسكبت كأساً من الشمبانيا من زجاجة غاطسة فـــي سطل من الثلج. وماذا لو أخذت جرعة من الكوكائين أيضاً؟ وبينما هي تشرب، فـــي رشفات متتالية، فـــي العتمة، فكرت: «هذا سحر أو شعوذة. ولكنه لا يمكن أن يكون معجزة». كان الرجل أسمن مما بدا عليه وهو بملابسه، وكان لجسده الأبيض ذي الشامات تجعدات لحمية مترهلة فـــي البطن، وإليتان ناعمتان، وساقان قصيرتان جداً يغطيهما شعر أسود. أما آديليتا بالمقابل فكانت أنحف مما تصورتها؛ جسد متطاول أسمر، وخصر شديد الضيق تبرز فـــيه عظام الردفـــين. كانت تسمح لتاجر المخدرات والخيول بتقبيلها ومعانقتها، وتعانقه هي بدورها، ولكن على الرغم من تظاهرها بالاهتمام، فقد لاحظت دونيا لوكريثيا أنها لا تقبّله، بل إنها تتفادى فمه أيضاً.

توسل الرجل فجأة باندفاع:

ــــ تعالي، تعالي، لم أعد أستطيع الصبر. نزوتي، نزوتي. إما الآن وإما لن أفعلها إلى الأبد يا بنات!

على الرغم من أن تهيجها الذي كان قبل لحظات قد اختفى وصار إحساسها أقرب إلى القرف، إلا أن دونيا لوكريثيا انصاعت له. وبينما هي تتقدم نحو السرير، رأت مرة أخرى من النافذة أرخبيل الأنوار هناك فـــي الأسفل، وفـــي الأعلى أيضاً، حيث تبدأ سلسلة الجبال. جلست فـــي أحد أركان السرير، دون خوف، ولكنها كانت مشوشة وأشد قرفاً فـــي كل لحظة. أمسكتها يد من ذراعها، وشدتها وأجبرتها على الاستلقاء تحت جسد ضئيل ومترهل.

استرخت، وأسلمت نفسها متلاشية، قانطة، مخذولة. وكانت تردد مثل إنسان آلي: «لن تبكي يا لوكريثيا، لن تبكي». احتضنها الرجل بذراعه اليسرى واحتضن آديليتا بذراعه اليمنى بينما رأسه يلتفت من واحدة إلى أخرى، ويقبلهما على العنق، على الأذن، ويبحث عن الفم. رأت دونيا لوكريثيا قريباً جداً منها وجه آديليتا المشعث، المحتقن، ورأت فـــي عينيها علامة تواطؤ، وسخرية واستهتار، تشجعها. التصقت شفتاه وأسنانه بشفتيها وأجبرتها على فتح فمها. ودخل لسانه فـــيه مثل أفعى.

سمعته يتضرع بينما هو يعضعض ويداعب نهديها:

ـــــ أنت سأخوزقك. هيا امتطيني، هيا، بسرعة، إنني أذهب.

وبما أنها كانت مترددة، فقد ساعدتها أديليتا على الصعود فوقه، وقرفصتْ الفتاة أيضاً مارة بإحدى ساقيها فوق الرجل لتصبح فـــي وضع يكون فـــيه فمه عند مستوى عضوها منزوع الشعر، حيث لم تلمح دونيا لوكريثيا سوى خط خفـــيف من الزغب. وفـــي هذه الأثناء أحست بأنها قد اختُرقت. أيكون قد كبر إلى هذا الحد بعد أن دخل فـــيها ذلك الشيء الضئيل، نصف المتصلب، الذي كان يحتك قبل لحظات بساقيها؟ إنه الآن حربة، مكبس يرفعها، يثقبها ويجرحها بقوة إعصارية.

وكان رجل الحمير يلهث:

ـــــ تبادلا القبلات، تبادلا. لست أراكما جيداً، يا للعنة. كنا بحاجة إلى مرآة!

مبللة بالعرق من شعرها حتى قدميها، مذهولة، متألمة، دون أن

تفتح عينيها، مدت ذراعيها باحثة عن آديليتا، ولكنها حين وجدت الشفتين النحيلتين، أبقتهما الفتاة مطبقتين، وإن كانت قد ألصقتهما بشدة بشفتيها. لم تنفتحا حين ضغطت عليهما هي بلسانها. وفـــي أثناء ذلك، ما بين رموشها وقطرات العرق التي تقطر من جبهتها، رأت الشاب المختفـــي ذا العينين المتصلبتين، هناك فـــي الأعلى، قريباً من السقف، يتوازن فوق سلم عال. شبه مختف وراء ما يشبه برافاناً مطلياً باللك ومزيناَ بكتابة صينية، وكانت أذناه شبه منتصبتين، وعيناه متوقدتين، وفمه القاسي مزموماً، لقد كان يرسمها، يرسمهم، باحتدام، مستخدماً قلم فحم طويلاً وقطعة كرتون ناصعة البياض. وكان يشبه بالفعل طائراً جارحاً وهو فـــي أعلى السلم المزدوج، يراقب، يتأمل، يرسمهم بخطوط طويلة، نشطة، بينما عيناه القاسيتان، الحيويتان تقفزان من قطعة الكرتون إلى السرير، ومن السرير إلى قطعة الكرتون، دون أن توليا أدنى اهتمام إلى أي شيء آخر، غير مباليتين بأضواء ليما المنثورة عند أقدام النافذة ولا بعضوه الذي كان قد شق طريقه خارج البنطال جاعلاً الأزرار تتفزر، وامتد ونما مثل بالون ينفخون فـــيه الهواء. إنه حية طائرة تتأرجح الآن فوقها، يراقبها بعينه الوحيدة مثل السيكلوب. لم تفاجأ ولم تهتم. لقد كانت ممتطية، مترعة، ثملة، ممتنة، معلبة، وهي تفكر مرة بفونتشيتو ومرة بريغوبيرتو.

ـــ لماذا تواصلين الاهتزاز، ألا ترين أنني ذهبت؟ ـــ تباكى رجل الخيول. وكان وجهه يبدو وكأنه من رماد فـــي العتمة الخفـــيفة. وكان يكشر مثل طفل سيئ المزاج ـــ يا لحظي اللعين،

دائما يحدث لي الشيء نفسه. عندما يحلو الأمر أذهب وأنتهي. لا أستطيع منع نفسي. لا توجد طريقة، لا توجد. ذهبتُ إلى الاختصاصي، فوصف لي حمامات الطين. مجرد براز. كانت تسبب لي آلاماً فـي المعدة وتقيؤات. المساجات. إنها براز آخر. ذهبت إلى مداوٍ شعبي فـي حي فـيكتوريا فأنزلني فـي برميل أعشاب، له رائحة الخراء. وماذا أفادني ذلك؟ لا شيء. إنني انتهي الآن أسرع من السابق. لماذا هذا الحظ الكلب، يا للعنة ؟

أُفلتت منه اجهاشة وبدأ ينتحب.

ــــ لا تبكِ يا صاحبي، ألم تحصل على نزوتك؟ ــــ واسته آديليتا وهي تسحب ساقها من فوق رأس الرجل الباكي وتستلقي إلى جواره.

يبدو أن أياً منهما لم ير إيغون شيلي، أو بديله، الذي يتوازن على ارتفاع متر عنهما، فـي أعلى السلم ويسعى لكي لا يسقط إلى الحفاظ على مركز توازنه بفضل عضوه الضخم الذي يتأرجح برفق فوق السرير، مُظهراً فـي الضوء الخافت ثناياه الوردية الحساسة وأوردة ظهره المرحة. ولم يكونا يسمعانه كذلك. أما هي فكانت تسمعه. فقد كان يكرر الترتيلة نفسها من بين أسنانه بصوت صارخ، محارب: «إنني المرهوب بين المرهوبين. إنني إلهي».

وقالت لها آديليتا برفق:

ــــ استريحي يا ابنة العم، ما الذي تفعلينه هناك، لقد انتهت الحفلة.

ــــ لن تذهبا، اضربهما قبل ذلك. لا تتركهما تذهبان.

اضربهما، اضرب الاثنتين بقوة!

لقد كان فونتشيتو بالطبع. لا، ليس الرسام المستغرق في رسمهم. إنه الطفل، ربيبها، ابن ريغوبيرتو. هل كان هناك هو أيضاً؟ أجل. أين؟ في مكان ما، بين أشباح غرفة العجائب. نظرت دونيا لوكريثيا إلى اليمين وهي هادئة، منكمشة، خامدة الشهوة، مرتعبة، مغطية نهديها بيديها، وبحثت إلى اليسار. وأخيراً وجدتهما، منعكسين في مرآه كبيرة متعددة الأجزاء، حيث رأت نفسها أيضاً، مكررة مثل إحدى موديلات إيغون شيلي. لم يكن الضوء الخافت يخفيهما، بل كان يُظهر الأب والابن جالسين أحدهما إلى جانب الآخر ــــ الأول يراقبهم بأريحية ودودة، والثاني مستثار بإفراط، ووجهه الملائكي محتقن لكثرة صراخه «اضربهما، اضربهما» ــــ على كرسي يبدو وكأنه شرفة معلقة فوق مقدمة السرير.

ــــ أتعنين أن السيد وفونتشيتو قد ظهرا هناك أيضاً؟ ــــ علقت خوستينيانا بنبرة جافية وبخيبة أمل صريحة ــــ هذا لا يوجد من يستطيع أن يصدقه.

فأكدت دونيا لوكريثيا:

ــــ كانا جالسين يراقباننا. ريغوبيرتو في وضع وقور جداً، يبدو متفهماً ومتسامحاً. والطفل جامح، يقوم بشيطنته المعتادة.

فقالت خوستينيانا فجأة، مقاطعة روايتها دفعة واحدة وناهضة:

ــــ لا أدري ما هو حالك يا سيدتي. أما أنا فأحتاج في هذه اللحظة بالذات إلى دش ماء بارد جداً. لكي لا أقضي ليلة أخرى مؤرقة ومكدرة. هذه الأحاديث مع حضرتك تفتنني. ولكنها تسبب لي

الضيق وتشحنني بالكهرباء. إذا كنت لا تصدقين، ضعي يدك هنا وسترين الصعقة الكهربائية التي ستتلقينها.

لُعاب الدودة

مع أنني أعرف جيداً أنكَ شر لا بد منه، ولا يمكن للحياة الجماعية أن تعاش بدونك، إلا أنه يتوجب علي أن أقول إنك تمثل كل ما أمقته في المجتمع وفي شخصياً. ذلك أنني منذ ربع قرن على الأقل، ومن الاثنين حتى الجمعة من كل أسبوع، منذ الثامنة صباحاً حتى السادسة مساء، مع بعض النشاطات الإضافية (حفلات كوكتيل، ندوات، حفلات تدشين، مؤتمرات) التي لا يمكنني التهرب منها دون أن أعرض وسيلة عيشي إلى الخطر، أكون أيضاً نوعاً من البيروقراطي، مع أنني لا أعمل في القطاع العام وإنما في الخاص. ولكنني مثلك وبسببك أضعت في هذه السنوات الخمس والعشرين طاقتي ووقتي وموهبتي (كانت لي موهبة ما) وابتلعتْ معظمها المعاملاتُ، والمراجعات، والطلبات، والعرائض، والإجراءات التي اخترعتها حضرتك لكي تبرر الراتب الذي تتقاضاه والمكتب الذي يترهل عليه كفلك، دون أن تترك لي سوى فتات من الحرية للمبادرة والقيام بعمل يمكن القول عنه إنه إبداعي. أعرف أن العمل في التأمين (وهو مجالي المهني) والإبداع هما أمران متباعدان بعد كوكبي بلوتو وزحل في الفضاء الكوني، ولكن

هذا البعد لن يكون مدوخّاً جداً لو أنك لم تجعله هوة سحيقة الغور يا أفعوان اللوائح، يا يرقة الإجراءات الشكلية، يا ملك الأوراق المختومة. لأنه، حتى فـــي صحراء شركات التأمين وإعادة التأمين القاحلة، يمكن تقليب مخيلة الكائن البشري والخروج منها بمحرضات فكرية، بل ومتعة أيضاً، لولا أنك، وأنت محبوس فـــي الشبكة الكثيفة من الأنظمة الخانقة ـــــ المكرسة لإضفاء طابع الضرورة الملحة على العوائق البيروقراطية التي تفتت التقسيمات العامة وتخلق أعداداً لا حصر لها من الحجج والتبريرات لابتزازاتها، وعاهراتها، وتجارتها وسرقاتها ـــــ لم تحول مهمة شركة تأمين إلى روتين مُعَرقِل شبيه بماكينات جان تينغلي المعقدة والمُدقِّقة التي تحركُ سلاسلَ وبكراتٍ وسككاً ومجارف ورفوشاً ومكابس تنتهي كلها بتوليد كرة بنغ بونغ صغيرة. (أنت لا تعرف من هو تينغلي، ولا يناسبك كذلك أن تعرفه، مع أنني واثق من أنك قد اتخذت كل الاحتياطات لكي لا تفهم وتتفّه السخريات القاسية ـــــ إذا ما وضعها القدر فـــي طريقك ـــــ التي تنبعث من أعمال هذا النحات، وهو أحد الفنانين المعاصرين القلائل الذين يفهمونني.)

إذا ما قلت لك إنني قد دخلت للعمل فـــي هذه الشركة بعد تخرجي من دراسة المحاماة، فـــي وظيفةٍ تافهة فـــي قسم الشؤون القانونية. وإنني تدرجت خلال هذه السنوات الخمس والعشرين فـــي السلم الوظيفـــي إلى أن وصلت إلى منصب مدير وعضو مجلس الإدارة ومالك كمية لا بأس بها من أسهم الشركة، فسوف تقول إنه ليس هناك، فـــي مثل هذه الظروف، ما يدعوني إلى الشكوى، وإنني

شخص جاحد. ألست أعيش حياة جيدة؟ ألست ضمن تلك الفئة الميكروسكوبية من المجتمع البيروي التي تملك بيتاً خاصاً وسيارة وإمكانية السفر مرة أو مرتين فـــي السنة إلى أوربا أو الولايات المتحدة فـــي إجازات، والعيش فـــي ظروف وطمأنينة مستحيلة وبعيدة عن أحلام أربعة أخماس مواطنينا؟ كل هذا صحيح. وصحيح كذلك أنه بفضل هذا النجاح المهني (هكذا تسمونه أنتم، أليس كذلك؟) استطعتُ أن أملأ مكتبتي بكتب ورسوم ولوحات تحصنني ضد التفاهة والابتذال السائدين (أي ضد كل ما تمثله حضرتك) واستطعتُ أن أقيم مقاطعة خاصة من الحرية والخيال، حيث أمكنني كل يوم، وبكلمة أدق كل ليلة، أن أتخلص من سموم القشرة الكثيفة من التوافقات الكاذبة، والروتين الدنيء، والنشاطات المخصية والجماعية التي تفتعلها حضرتك وتتغذى عليها، وأن أعيش، أعيش حقاً، بأن أكون أنا نفسي، وأن أفتح للملائكة والشياطين الذين يسكنونني الأبواب الحديدية التي عليهم ـــــ بسببك أنت ـــــ أن يختبئوا وراءها بقية اليوم.

وستقول لي أيضاً: «إذا كنت تكره إلى هذا الحد الدوام فـــي المكتب، والرسائل والبوالص، والتقارير القانونية والبروتوكولات، والمطالبات، والتصاريح، والتعاليل، فلماذا لم تمتلك الجرأة على نفض هذا كله عن كاهلك لتعيش الحياة الحقيقية، حياة تخيلاتك ورغباتك، ليس فـــي الليل فقط، وإنما كذلك فـــي الصباح والظهيرة والمساء؟ ولماذا تنازلت عن أكثر من نصف حياتك للحيوان البيروقراطي الذي يستعبدك أيضاً مع ملائكتك وشياطينك؟». إنه

سؤال وجيه ـــ وقد طرحته على نفسي مرات كثيرة ـــ، ولكن جوابي عليه وجيه أيضاً: «لأن عالم الخيال، عالم اللذة، عالم الرغبات بحرية، وهو موطني الوحيد العزيز، لا يمكن له أن يستمر فـي الندرة، فـي التقشف، فـي الضائقات الاقتصادية، وتحت وطأة الديون والفقر. فالأحلام والرغبات لا تؤكل. وإلا لكان وجودي قد افتقر، وتحول إلى صورة كاريكاتيرية لنفسه». لست بطلاً، ولستُ فناناً عظيماً، وأنا أخلو من العبقرية، بحيث لا يمكن أن يعزيني الأمل بـ «عمل» ربما يبقيني حياً. إن تطلعاتي وكفاءاتي لا تصل إلى ما هو أبعد من معرفة التفريق ـــ وأنا فـي هذا متفوق عليك يا من قلص شرطك العرضي إلى العدم حسك فـي التمييز الأخلاقي والجمالي ـــ، ضمن نزوة الاحتمالات المحيطة بي، بين ما أحبه وما أكرهه، بين ما يجمل حياتي وما يقبّحها ويلطخها بالتفاهة، بين ما يستثيرني وما يضايقني، بين ما يمتعني وما يؤلمني. ولكي أكون على الدوام فـي ظروف تتيح لي التمييز ما بين هذه الخيارات المتناقضة أحتاج إلى الاطمئنان الاقتصادي الذي يوفره لي هذا العمل المهني المدنس بثقافة الإجراءات الشكلية، بأبخرة العفونة الوبيلة التي تولّدها حضرتك مثلما تولد الدودة اللعاب، والتي تحولت إلى الهواء الذي يتنفسه العالم بأسره. إن التخيلات والرغبات ـــ تخيلاتي ورغباتي على الأقل ـــ تتطلب لكي تتبدى حداً أدنى من الطمأنينة والأمان. وهي دون ذلك تذوي وتموت. وإذا أردت أن تستنتج من ذلك أن ملائكتي وشياطيني هم برجوازيون بصورة غير قابلة للاحتراق، فهذه هي الحقيقة الصارمة.

لقد ذكرتُ من قبل كلمة **طفــيلي** ولا بد أنك قد تساءلت إذا ما كان لي الحق فــي أن أستخدمها ضد أي كان، وأنا المحامي الذي يطبق منذ حوالى خمس وعشرين سنة علوم القانون ـــ أفضل غذاء مغذ للبيروقراطية وأول مولّد للبيروقراطيين ـــ على ميدان التأمين. أجل، لي الحق فــي استخدامها، وذلك لأنني أطبقها على نفسي أيضاً، على نصفــي البيروقراطي. وذروة الشرور بالفعل، هي أن الطفــيلية القانونية كانت أول اختصاصاتي، إنها المفتاح الذي فتح لي أبواب شركة بيريتشولي ـــ أجل، هذا هو الاسم المضحك لشركتي المحلية ـــ وأتاح لي الترفــيعات الأولى. وكيف لا يكون الأكثر عبقرية فــي تعقيد الحجج القانونية وحلها من اكتشف منذ درسه الحقوقي الأول أن ما يدعى تشريعاً هو، إلى حد بعيد، غابة متشابكة حيث يحقق تقنيو التعقيد، والمكر، والمكايد، والشكليات، والتحايل الشرعي صفقاتهم الرابحة؟ وأنه ليس لهذه المهنة أي علاقة بالحقيقة والعدالة، وإنما بفبركة المظاهر غير القابلة للجدل، والمغالطات والتعقيدات غير القابلة للحل وحسب. صحيح أنها مهنة طفــيلية من حيث الجوهر، مارستُها بالكفاءة اللازمة لكي أصعد إلى القمة، ولكن دون أن أخدع نفسي مطلقاً، واعياً أنني دُمَّل يتغذى على عجز وضعف وخذلان الآخرين. وخلافاً لحضرتك، فأنا لا أسعى لأن أكون «دعامة للمجتمع» (ولا فائدة من إحالتك إلى لوحة جورجيس غروز التي تحمل هذا الاسم نفسه؛ فأنت لا تعرف هذا الرسام، أو ربما أنك ـــ وهذا هو الأسوأ ـــ تعرفه من خلال المؤخرات التعبيرية الرائعة التي رسمها وليس من خلال رسومه

الكاريكاتيرية المميتة لزملائك فـي ألمانيا فـيمر): إنني أعرف ما أنا وما أفعله وأزدري هذا الجزء مني بالذات مثلما أزدريك أو أكثر. ونجاحي كقانوني ناجم عن هذا اليقين ـــ إن القانون هو تقنية غير أخلاقية تخدم المتهتك الذي يتقنها أكثر من سواه ـــ وهو ناجم عن اكتشافـي، المبكر أيضاً، بأن النظام القانوني فـي بلادنا (فـي كل البلاد؟) هو شبكة عنكبوتية من المتناقضات كل قانون فـيها أو تدبير بقوة القانون يمكن أن يتعارض مع قانون أو قوانين أخرى تعدّله وتلغيه. ولهذا فإننا جمعينا هنا، نخرق على الدوام قانوناً ما أو نرتكب جرماً بطريقة ما ضد النظام (وهو الفوضى فـي الواقع) القانوني. وبفضل هذه المتاهة تواصل حضرتك العيش، والتكاثر، والتناسل، والتفريخ بصورة دوارية. وبفضلها أيضاً نعيش نحن المحامين ويزدهر بعضنا.

والآن حسن، بالرغم من أن حياتي كلها كانت عذاباً تانتالياً[1]، صراعاً يومياً وأخلاقياً ما بين بيروقراطية وجودي المثقل من جهة، وملائكة وشياطين كينونتي، إلا أنك لم تقنعني. فقد استطعت على الدوام حيال ما أفعله من الاثنين إلى الجمعة، ومنذ الثامنة حتى السادسة مساء، أن أحتفظ بالسخرية الكافـية لازدراء هذا العمل وازدراء نفسي لأني أقوم به، بحيث يمكن لساعات اليوم الأخرى أن تتصفني وتنقذني، أن تعوضني وتُؤَنسنني (وهو ما يعني بالنسبة إليّ

[1] ـ نسبة إلى تانتال: ملك فريجيا أوليديا الذي غضب منه زوس وفرضت عليه الآلهة عذاب الحرمان من الطعام والشراب، فكان الماء يصل إلى شفتيه ولكنه يهرب منه حين يهم بالشرب، وتتدلى فوقه الثمار فإذا ما هم بقطفها ابتعدت عنه.

على الدوام ابتعادي عن الجماعة أو القطيع). إنني أتصور الحكة التي أصابتك، هذا الفضول الصفراوي الذي تتساءل به: «وما الذي يفعله فـي هذه الليالي ويحصنه ضدي، وينقذه من أن يكون مثلي؟». أتريد معرفة ذلك؟ بما أنني الآن وحيد ـــ أعني أنني منفصل عن زوجتي ـــ فإنني أقرأ، وأتأمل لوحاتي، وأراجع وأغذي دفاتري برسائل مثل هذه الرسالة، ولكنني أولاً وقبل كل شيء أتخيل، أحلم، أشيد واقعاً أفضل، نظيفاً من أي طفح أو زوائد ـــ منك ومن لعابك ـــ تجعل الحياة شديدة الشؤم والقذارة إلى حد حثنا على تمني حياة أخرى مختلفة. (أتكلم بصيغة الجمع وأنا نادم؛ وهو ما لن يتكرر.) فـي هذا الواقع الآخر الذي أشيده لا وجود لك. وإنما توجد فـيه المرأة التي أحببتها وسأحبها إلى الأبد ـــ لوكريثيا الغائبة ـــ وابني ألفونسو وبعض الأشخاص المتحركين والعابرين الذين يظهرون ببلاهة، فـي الوقت الذي يكونون فـيه مفـيدين لي. وحين أكون فـي هذا العالم فقط أكون موجوداً، لأنني أستمتع وأشعر بالسعادة.

حسن، هذه النتف من السعادة لن تكون ممكنة دون الإحباط الهائل، والملل القاحل، والروتين الذي يُثقل حياتي الواقعية. بكلمات أخرى، دون حياةٍ منزوعة الإنسانية بسببك وبسبب ما تحوكه وتستله من خيوط ضدي فـي كل تروس ومسننات السلطة التي تمسك بها. أتفهم الآن لماذا سميتك منذ البداية **بالشر الذي لا بد منه؟** أنت تعتقد يا سيد الطباعة والمكان المشترك، أنني صنفتك هكذا لأنني أفكر فـي أنه لا بد للمجتمع من أن يدور، وأن يكون له نظام، وشرعية،

وخدمات، وسلطة، حتى لا يغرق فـــي الفوضى. وأنت تظن أن هذا المنظم، هذه العقدة، هذه الآلية المنقذة والمنظمة لمملكة النمل، هو حضرتك، الضروري **الذي لا بد منه.** لا يا صديقي الفظيع. فمن دونك يدور المجتمع أفضل مما هو عليه الآن بكثير. ولكن، دون وجودك هنا، تُعَهّرُ، وتسمم، وتقتطع الحرية البشرية، لن تحظى هذه الحرية بكل هذا التقدير من جانبي، ولن تصبح مخيلتي بمثل هذه الرفعة، ولن تكون رغباتي بمثل هذا الاندفاع، لأن هذا كله يولد كتمرد ضدك، كرد فعل من إنسان حر وحساس ضد من هو نفـــي للحساسية والمشيئة الحرة. انتبه إذن من أين، وعبر أي طريق وعر، أصير من دونك أقل حرية وحساسية، وتصير رغباتي أكثر ابتذالاً وحياتي أشد خواء.

أعرف أنك لن تفهم هذا أيضاً، ولكن ما همّ إذا كانت عيناك الضفدعيتان المتورمتان لن تريا مطلقاً هذه الرسالة.

إنني أشتمك وأشكرك أيها البيروقراطي.

الحلم حياة

دون أن يخرج من الحدود النحيلة التي يختلط فـــيها النعاس والأرق، بقي دون ريغوبيرتو يرى روساورا مستحمة بالعرق، ومرتدية سترة بدلة رجالية وربطة عنق، وتنفذ تعليماته: دنت من الكونتوار وانحنت على الظهر العاري للخلاسية الجذابة التي كانت

تتفحصهما مذ دخلا حانة اللقاءات السرية تلك.

كانا فـــي مدينة مكسيكو، أليس كذلك؟ أجل، فبعد أن أمضيا أسبوعاً فـــي اكابولكو، توقفا هناك وهما فـــي طريقهما إلى ليما، بعد انتهاء تلك الإجازة القصيرة. ولقد راودت دون ريغوبيرتو نزوةَ جعل دونيا لوكريثيا تتنكر بزي رجل ويذهب معها وهي بذلك الزي إلى ملهى ترتاده العاهرات. همست روساورا–لوكريثيا بشيء للمرأة وهما تبتسمان ـــــ ورأى دون ريغوبيرتو كيف تضغط بتسلط على ذراع الخلاسية التي كانت تنظر بعينين متيقظتين ومتنبهتين ـــــ وأخيراً اقتادتها إلى الرقص. كانت الجوقة تعزف لحن مامبو لبيريث برادو بالطبع ـــــ ***لاعب الروليت*** ـــــ، وفـــي حلبة الرقص الضيقة، المدخنة، المزدحمة التي تغتصب ظلمتُها حزماً متقطعة من أنوار ملونة، أكد دون ريغوبيرتو لنفسه: روساورا–لوكريثيا تؤدي دورها بصورة جيدة. لم تكن تبدو عرضية بهذا الزي الرجولي، ولا مختلفة بقَصّة شعرها الصبيانية، ولا مرتبكة وهي تقود زميلتها فـــي الرقص، بعد تعبهما من التصنع، إلى لحظات من الارتباط. وبينما هو فـــي حالة من النشوة المتعاظمة، امتلأ دون ريغوبيرتو بالتقدير والامتنان تجاه زوجته، وكان عليه أن يصمد لتشنج العنق كي لا تغيبا عن نظره ما بين الرؤوس والأكتاف الكثيرة العارضة. عندما انتقلت الجوقة الموسيقية الناشزة ـــــ إنما الهيابة ـــــ من المامبو إلى لحن بوليرو ـــــ ***روحان***، الذي ذكّره بليو ماريني ـــــ أحس بأن الآلهة معه. ورأى تجسيد رغبته السرية حين شدت روساورا على الفور الخلاسية إليها مطوقة خصرها بذراعيها ومجبرة إياها

على وضع ذراعيها فوق كتفــيها. ومع أنه لم يكن قادراً فـــي تلك الإضاءة الشاحبة أن يميز بدقة، فقد كان واثقاً من أن امرأته المعبودة، الرجل المزيف، كانت قد بدأت بتقبيل وعض عنق الخلاسية برفق، وأنها تحتك ببطنها وثدييها مثلما يفعل أي رجل حقيقي تنخسه الإثارة.

لقد كان مستيقظاً دون أي ريب، ولكن على الرغم من تيقظ كل حواسه، فقد كانت الخلاسية وروساورا–لوكريثيا ما تزالان هناك، متعانقتين وسط تلك البشرية الليلية الماخورية، فـــي ذلك المحل الخارق والقاسي لنساء مطليات بأصبغة كببغاوات وذوات أرداف تروبيكالية وزبائن ذكور من النمط ذي الشوارب المتهدلة، والخدود الممتلئة، والنظرات الماريجوانية، أيكونون مستعدين لسحب المسدسات والاقتتال لدى أول سهو؟ وانتابته قشعريرة سعادة وهو يفكر: «فـــي هذه الرحلة إلى العالم السفلي لليالي المكسيكية، يمكن لي ولروساورا أن نفقد حياتينا». واستبق ما ستقوله عناوين الصحافة الدنيئة: «جريمة قتل مزدوجة: رجل أعمال وزوجته المتنكرة بزي رجل يُذبحان فـــي ماخور مكسيكي»، «الصنارة كانت خلاسية»، «الرذيلة كانت السبب فـــي ضياعهما»، «ذبح زوجين من مجتمع ليما الراقي فـــي عالم مكسيكو السفلي»، «وصمة بيضاء: يدفعان دمهما ثمناً لشططهما». تقيأ ضحكة أشبه بالتجشؤ: «حين يكونون قد قتلونا، فلن تهتم ديداننا بالفضيحة».

رجع إلى المحل، وكانت الخلاسية وروساورا ـــــ الذكر المزيف ـــــ ما تزالان ترقصان. ولسعادته، فقد كانتا الآن تتبادلان

المداعبات والقبلات على الفم. ولكن، كيف ذلك؟ ألا تمتنع المحترفات عن تقديم أفواههن إلى الزبائن؟ أجل، ولكن هل هناك عائق لا تستطيع روساورا–لوكريثيا أن تتجاوزه؟ كيف تمكنت من جعل هذه الخلاسية العظيمة تفتح فمها ذا الشفتين الممتلئتين الضاربتين إلى الحمرة وتتلقى زيارة لسانها الأفعواني الناعم؟ أتكون قد منحتها نقوداً؟ أتكون قد هيجتها؟ ليس مهماً كيف فعلت ذلك، المهم أن ذلك اللسان العذب الأبيض، شبه السائل، كان هناك، في فم الخلاسية، يبلله باللعاب ويرشف لعاب تلك المرأة الوافرة، وتخيله لعاباً كثيفاً وذا رائحة.

وعندئذ شغله السؤال: لماذا روساورا؟ فروساورا هو اسم امرأة أيضاً. وإذا كان ما يريده هو إخفاءها تماماً، مثلما فعل بجسدها حين أخفاه بملابس رجل، فمن الأفضل أن يسميها كارلوس، خوان، بيدرو، نيكانور. لماذا اختار اسم روساورا؟ ودون وعي تقريباً نهض من الفراش، وارتدى الروب وانتعل الخف وانتقل إلى المكتب. لم يكن بحاجة إلى النظر في الساعة ليعرف أنه عما قريب ستطل من الظلمة، وكأنها تخرج من البحر، أول أنوار الفجر. أتراه يعرف امرأة من لحم وعظم تدعى روساورا؟ بحث وكان الرد حاسماً: لا يعرف أي واحدة. إنها إذن روساورا متخيلة، جاءت لتسكن حلمه عن لوكريثيا وتنصهر بها في هذه الليلة، آتية من صفحات رواية منسية أو من لوحة زيتية أو لوحة غرافيك لا يتذكرها أيضاً. ولكن الاسم المستعار ما يزال هناك، ملتصقاً بلوكريثيا، مثل هذه البدلة الرجالية التي اشتراها عصر هذا اليوم

بالذات من أحد محلات المنطقة الوردية، ما بين الضحك والوشوشات، بعد أن سأل لوكريثيا إذا ما كانت توافق على تجسيد تخيله ذاك، وكان ردها («كالعادة، كالعادة») نعم. والآن، روساورا هو اسم واقعي تماماً مثل هذا الثنائي ـــ الخلاسية ولوكريثيا اللتين لهما طول القامة نفسه تقريباً ـــ الذي توقف عن الرقص وراح يدنو من الطاولة. نهض ليستقبلهما، ومد يده باحتفالية إلى الخلاسية:

ـــ أهلاً، أهلاً، تشرفنا، تفضلي بالجلوس.

وقالت الخلاسية وهي تهوّي بيديها:

ـــ أكاد أموت من الظمأ. هل نطلب شيئاً؟

فقالت لها روساورا–لوكريثيا وهي تداعب ذقنها وتستدعي النادل:

ـــ اطلبي ما تشائين يا حبي. اطلبي، اطلبي أنت.

وأمرت الخلاسية بابتسامة ظافرة:

ـــ زجاجة شمبانيا. هل صحيح أنك تدعى ريغوبيرتو؟ أم إنه اسم مستعار؟

ـــ هذا هو اسمي. إنه اسم غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟

ـــ بل غريب جداً ـــ قالت الخلاسية وهي تنظر إليه وكأنها بدلاً من العينين تملك جمرتين ملتهبتين في وجهها المستدير. وأضافت: ـــ حسن، إنه اسم أصيل على الأقل. والحقيقة أنك أنت أيضاً لا تقل أصالة. أتريد أن تعرف أمراً؟ لم أر في حياتي أذنين وأنفاً مثل أذنيك وأنفك. أماه، كم هي كبيرة! أتسمح لي بأن ألمسها؟ أتتركني أفعل؟

طلب الخلاسية ــــ وهي طويلة القامة، متلوية، لها عينان متألقتان، وعنق طويل، وكتفان قويتان، وبشرة لامعة يبرزها الفستان الأصفر الكناري ذو الفتحة الواسعة حول العنق ــــ جعل دون ريغوبيرتو يصاب بالبكم، وفقد القدرة حتى على الرد بمزحة على ذلك الطلب الذي بدا جدياً جداً. فهرعت لوكريثيا–روساورا إلى نجدته، قائلة للخلاسية وهي تداعب أذنها:

ــــ ليس بعد يا حبي. حين نلتقي معاً على انفراد فـــي الغرفة، ستلمسين كل ما تشائين فـــيه.

ضحكت الخلاسية وهي تقلب عينيها ذات الرموش الحريرية:

ــــ وهل سنجتمع الثلاثة معاً فـــي غرفة واحدة؟ شكراً لإخباري بذلك. وما الذي أفعله وحدي معكما أنتما الاثنين، يا ملاكيّ؟ لست أحب الأرقام الفردية. آسفة. يمكنني أن أستدعي صديقة لي فنكون زوجين مناسبين. لن أذهب أنا وحدي مع اثنين ولو ميتة.

ولكن حين أحضر النادل زجاجة ما أسماه شمبانيا، وكان شراباً رغوياً حلواً يذكّر بطعم الراتينج والكافور، بدا أن الخلاسية (قالت إن اسمها إستريّا) قد تحمست من تلقاء نفسها لفكرة قضاء بقية الليل مع هذين الشخصين المختلفـــين، وأطلقت بعض المزاح، وبعض الضحكات، ووزعت مداعبات لطيفة بيديها ما بين ريغوبيرتو وروساورا–لوكريثيا. وكانت تعود بين حين وآخر، مثل لازمة، إلى السخرية من «أذني وأنف الرجل المحترم»، وتنظر إليها بافتتان مضمخ بجشع غريب.

كانت تقول:

ــــ لا بد أن المرء بمثل هاتين الأذنين يسمع أكثر من الأشخاص العاديين. ويشم بمثل هذا الأنف ما لا يشمه عامة البشر.

«هذا ممكن»، فكر دون ريغوبيرتو. وماذا إذا كان ذلك صحيحاً؟ وماذا إذا كان هو، بفضل أريحية هذين العضوين، يرى أكثر ويشم أفضل من أبناء جنسه؟ لم يرق له الإلحاح الكوميدي الذي بدأت تتخذه القصة ــــ فرغبته التي انتعشت منذ لحظة، أخذت تتراجع، ولم يعد يتوصل إلى تجديدها، فبسبب سخريات إستريّا، كان اهتمامه يبتعد عن لوكريثيا–روساورا والخلاسية ليتركز فــي عدم تناسب حجم جهازي السمع والشم لديه. حاول أن يحرق المراحل، قافزاً فوق التفاوض مع إستريّا الذي استمر ما استمرته تلك الزجاجة من الشمبانيا المزعومة، وفوق الإجراءات لجعل الخلاسية تخرج من الملهى ــــ كان عليه أن يدفع مقابل فــيشة خاصة بذلك ورقة من فئة الخمسين دولاراً ــــ، وكذلك فوق التكسي المختنق الذي يشكو من ارتعاشات حمية، وفوق التفتيش فــي الفندق النتن ــــ فندق **السماء البديعة** مثلما تقول اللوحة المضيئة بالأحمر والأزرق على واجهته ــــ وفوق التفاوض مع موظف الاستقبال الأحول الذي يحرك أنفه، لكي يسمح لهم بالنزول فــي غرفة واحدة. وقد دفع دون ريغوبيرتو خمسين دولاراً أخرى لتهدئة مخاوفه من قيام الشرطة بمداهمة مفاجئة وتغريم المحل لتأجيره غرفة واحدة لثلاثة أشخاص.

وفــي اللحظة التي اجتازوا فــيها عتبة الغرفة، وتحت الضوء

الواهن المنبعث من المصباح الوحيد، ظهر سرير مزدوج مغطى بشرشف ذي لون مائل إلى الزرقة، وكانت إلى جانبه مغسلة، وطشت ماء، ومنشفة، ولفافة ورق صحي، ومبولة مشققة ـــ وكان الأحول قد انصرف للتو بعد أن سلمهم المفتاح وأغلق الباب وراءه ـــ، عندئذ تذكر دون ريغوبيرتو: بالطبع! روساورا! إستريّا! وضرب جبهته مرتاحاً. بالطبع! هذا الاسمان جاءا من ذلك العرض المدريدي لمسرحية **الحياة حلم** لكالديرون دي لاباركا. وأحس مرة أخرى فـــي أعماق قلبه بتدفق إحساس رقيق من الامتنان، مثل دفقة ماء زلال، تجاه عمق الذاكرة التي توفر له ما لا ينضب من المفاجآت، والصور، والتخيلات، والإيحاءات، من أجل منح التجسيد والمشهد والحكاية لأحلامه التي يصد بها الوحدة فـــي غياب لوكريثيا.

وتقول روساورا وهي تنهض، وتعود للجلوس:

ـــ فلنتعر يا إستريّا. ستكون مفاجأة حياتكِ الآن، فاستعدي.

فردت إستريّا، بحزم هذه المرة:

ـــ لن أخلع ثوبي قبل أن ألمس أنف وأذني صديقك. لست أدري لماذا، ولكن الرغبة فـــي لمسها تأكلني وأنا حية.

وبدل أن يغضب دون ريغوبيرتو، أحس هذه المرة بالافتتان.

لقد كان عرضاً مسرحياً شاهداه هو ودونيا لوكريثيا فـــي أحد مسارح مدريد، فـــي رحلتهما الأولى إلى أوربا بعد شهور قليلة من زواجهما، إنه عرض من الطراز القديم **للحياة حلم** إلى حد كانت تسمع معه ضحكات غير مستترة فـــي عتمة الصالة خلال العرض.

فالممثل النحيل والطويل الذي يجسد شخصية الأمير سيخسموندو كان سيئاً جداً، وصوته مصطنع ويبدو عليه الضيق الشديد من الدور لدرجة أن المشاهد ــــ «حسن، **هذا** المشاهد»، حدد دون ريغوبيرتو ــــ يشعر بالميل إلى الرفق بأبيه القاسي والمؤمن بالخرافات، الملك باسيليو، لتكبيله إياه بالأغلال طوال طفولته وشبابه، مثل وحش ضار، وحبسه فـــي ذلك البرج المنعزل، خوفاً من أن تتحقق على يد ابنه، إذا ما اعتلى العرش، الكوارث التي تنبأ بها المنجمون وعلومه الرياضية. لقد كان كل شيء فـــي ذلك العرض بائساً، ومرعباً وبليداً. ومع ذلك، فقد تذكر دون ريغوبيرتو بوضوح شديد أن ظهور الشابة روساورا، وهي ترتدي ملابس الرجال فـــي المشهد الأول، ثم وهي تحمل سيفاً على خصرها بعد ذلك، مستعدة لدخول المعركة، قد وصل إلى عمق روحه. أجل، إنه متأكد الآن من أنه قد أحس عدة مرات منذ ذلك الحين بالرغبة فـــي رؤية لوكريثيا يوماً بجزمة وقبعة ذات رياش وسترة محارب، عند ممارستهما الحب. ***الحياة حلم!*** على الرغم من سوء ذلك العرض، وانعدام إبداعية مخرجة، وضعف ممثليه، إلا أن ذاكرته لم تحتفظ فقط بتلك الممثلة الصغيرة التي ألهبت حواسه عدة مرات، بل هناك كذلك شيء ما أدهشه فـــي العمل، ودفعه ــــ الذكرى كانت مؤكدة ــــ إلى قراءته بعد بعض الوقت. لا بد أن هناك بعض الملاحظات من تلك القراءة. كان دون ريغوبيرتو يقعي على أربع فوق سجادة المكتب، وراح يقلّب الدفاتر ويستبعدها واحداً بعد آخر، ليس هذا، ولا هذا. يجب أن يكون هذا. فهذه هي السنة.

وقالت الخلاسية إستريّا:

ــــ ها أنا ذا قد تعريت يا بابيتو. دعني أمسك أذنيك وأنفك مرة واحدة. لا تجعلني أتوسل. لا تجعلني أتألم، لا تكن جلاداً. ألا ترى أنني أموت من الرغبة؟ امنحني هذه المتعة يا حبي، وسأُسعدك.

بدا جسدها ممتلئاً ووافراً، حسن التكوين، رغم بعض الرخاوة فـــي البطن، وبدء تهدل نهديها الرائعين، ووجود بعض الخطوط المستجدة فـــي الوركين. ولم يبد عليها أنها قد انتبهت إلى أن روساورا–لوكريثيا، التي تعرت كذلك واستلقت فـــي السرير، لم تكن رجلاً وإنما امرأة جميلة بارزة التقاطيع. لم تكن عينا الخلاسية تريان أي شيء سواه، أو سوى أذنيه وأنفه بكلمة أدق، وكان دون ريغوبيرتو قد جلس الآن على حافة السرير ليسهل عليها العملية ــــ فكانت تداعب الأذنين والأنف بشراهة، بغضب. أصابعها الملتهبة تلمس، تضغط، تقرص بيأس أذنيه أولاً، ثم أنفه بعد ذلك. أغمض هو عينيه مغموماً، لأنه أدرك أن وجود تلك الأصابع فـــي أنفه سيسبب له عما قريب نوبة من نوبات الحساسية التي لن تتركه إلا بعد ــــ الرقم الشهواني ــــ سبع وتسعين عطسة. وتنتهي تلك المغامرة المكسيكية المستوحاة من مسرحية كالديرون دي لاباركا بتعسف أنفـــي مضحك.

أجل، ها هو ذا ــــ وجد دون ريغوبيرتو الدفتر على ضوء المصباح: صفحة من الاستشهادات المنتقاة والملاحظات، كان قد كتبها فـــي أثناء القراءة، تحت عنوان **الحياة حلم** (1638).

الاستشهادان الأولان المأخوذان من محاورات سيخسموندو كان لهما عليه أثر ضربتي سوط: «**لا شيء يبدو لي عادلاً/ فــيما هو مناقض لذوقي**». والاستشهاد الثاني: «**وأعلمُ أنني/ مُركّب من بشر ووحش**». هل كانت هناك علاقة سبب–نتيجة ما بين العبارتين اللتين استنسخهما فـــي تلك المرة؟ أكان مركباً من بشر ووحش لأنه ليس هناك ما يبدو له جميلاً فــيما هو مخالف لذوقه؟ ربما. ولكنه حين قرأ ذلك العمل، بعد تلك الرحلة، لم يكن الرجل العجوز، المتعب، المتوحد، المحزون الذي يبحث بيأس عن ملاذ فـــي التخيلات ليحمي نفسه من الغرق فـــي الجنون أو الانتحار الذي صار إليه؛ لقد كان آنذاك خمسينياَ سعيداَ، مفعماً بالحيوية، وكان يكتشف بين ذراعي زوجته الثانية الباهرة أن السعادة موجودة، وأنه بإمكانه وهو إلى جانب الحبيبة، أن يبني مدينة فريدة، مسورة ضد الحماقة، والقبح، والوسطية، والروتين السائد فـــي تلك المدينة الأخرى التي يقضي فــيها بقية اليوم. لماذا أحس بضرورة تسجيل هذه الملاحظات وهو يقرأ عملاً، لم يكن يشير بأي حال آنذاك إلى وضعه الشخصي؟ أم أنه كان كذلك؟

هتفت الخلاسية وهي تتنهد بعمق:

ـــــ مع رجل مسلح بمثل هاتين الأذنين وهذا الأنف، أكون مستعدة لفقدان عقلي والتحول إلى عبدة له. أوفر له المتعة فـــي نزواته. أكنس الأرض بلساني من أجله.

كانت جالسة على عقبيها وهي تمسك بالوجه المحتقن، المتعرق

كما لو أنها قد ثبتته فوق وعاء حساء يغلي. وكان كل ما فيها يبدو وكأنه يرتعش. تتكلم وهي تمر بلسانها بشهية على شفتيها الرطبتين اللتين انتهت بهما للتو من تقبيل جهازي سمع وشم دون ريغوبيرتو وعضهما ولحسهما. وقد استغل هو استراحتها تلك ليستنشق الهواء ويخرج منديله ويمسح أذنيه. وينف بعد ذلك أنفه مصدراً دوياً هائلاً.

قالت روساورا–لوكريثيا بحزم:

ـــ هذا الرجل لي، وأعيرك إياه هذه الليلة فقط.

ـــ ولكن، هل أنتَ صاحب هذه الروعة؟ ـــ سألت إستريّا دون أن تولي الحوار أدنى اهتمام. فقد أمسكت يداها بوجه دون ريغوبيرتو المرعوب وتقدم فمها الغليظ من جديد، حازماً، نحو فريسته.

فاحتجت روساورا–لوكريثيا بغيظ:

ـــ ألم تنتبهي بعد؟ أنا لستُ رجلاً، إنني امرأة. انظري إليّ على الأقل.

ولكن الخلاسية استخفت بها بحركة خفيفة من كتفيها وواصلت مهمتها متأججة. كانت قد أدخلت في فمها الضخم الدافئ أذن دون ريغوبيرتو اليسرى، فلم يعد يستطيع كبح نفسه وأطلق قهقهة هستيرية. لقد كان عصبياً جداً في الحقيقة. فقد كان يخشى أن تنتقل إستريّا في أي لحظة من الحب إلى الحقد وتنتزع أذنه بعضة واحدة. وفكر بحزن: «لن تحبني لوكريثيا وأنا بأذن مصلومة»، وزفر زفرة عميقة، مبحوحة، كئيبة، مثل تلك الزفرات التي كان يطلقها الأمير سيخسموندو الملتحي والمقيد في برجه

السري، وهو يسأل السماء بصرخات محمومة عن الجريمة التي ارتكبها **فـــي حقها بمولده.**

قال دون ريغوبيرتو:«هذا سؤال أحمق». لقد كان يحتقر على الدوام الرياضة الأمريكية اللاتينية فـــي الإشفاق الذاتي، وانطلاقاً من هذه الرؤية، فإن أمير كالديرون دي لاباركا الباكي هذا (وهو جيزويتي فوق ذلك) الذي يقدم نفسه إلى الجمهور منتحباً «**يا لبؤسي، يا لحظي العاثر**»، لا يوجد فـــيه ما يشده إليه أو يوحده به. لماذا إذن بنت تخيلاته، فـــي الحلم، هذه القصة مقدمة له اسمي روساورا وإستريّا والتنكر الرجولي لتلك الشخصية فـــي ***الحياة حلم***؟ ربما لأن حياته قد تحولت إلى حلم محض منذ أن ذهبت لوكريثيا. وهل هو **يعيش** فـــي تلك الساعات الكئيبة القاتمة التي يقضيها فـــي الشركة مناقشاً الميزانيات، والبوليصات، وإعادات التأمين، والمحاكمات، والاستثمارات؟ الركن الوحيد من الحياة هو ذاك الذي يوفره له الليل، عندما يغفو وتنفتح فـــي وعيه بوابة الأحلام، مثلما كان يحدث لسيخسموندو فـــي برجه الحجري المعزول فـــي تلك الغابة التائهة. وهو الذي كان قد وجد هناك أن الحياة الحقيقية، الحياة الغنية، الحياة الرائعة التي تنطوي وتتشكل حسب نزواته، هي الحياة الأكذوبة، التي يُسِرّ بها ذهنه ورغباته ـــــ سواء وهو مستيقظ أو نائم ـــــ، لإخراجه من زنزانته والهرب إلى رتابة حبسه الخانقة. بعد كل هذا، لم يكن ذلك الحلم الفريد مجانياً: فهناك تقارب، تشابه ما بين كلا الحالمين البائسين.

وتذكر دون ريغوبيرتو نكتة تصغيرية كانت، بحماقة محضة، قد

أضحتكه هو ولوكريثيا مثل صبيين صغيرين: «اقترب فـيل ليشرب الماء من بحيرة، فعض له تمساح خرطومه وانتزعه. فبكى الفـيل الأفطس محتجاً: «يا للنكتة الخرائية».

ــــ أفلتي أنفـي وسأعطيك ما تشائين ــــ تضرع بصوت أخن، صوت كانتينفلاسي، لأن أسنان إستريّا الضارية كانت تمنع تنفسه، وأضاف: ــــ سأعطيك ما تشائين من المال. أفلتيني، أرجوكِ!

ــــ اصمت، إنني أنتهي ــــ تلعثمت الخلاسية، مفلتة أنف دون ريغوبيرتو لحظة، ثم عادت تقبض عليه بصفـي أسنانها الجارحة.

إنها فرس مجنح عنيف، أجل إنها تنتهي بسرعة الريح، مرتعشة بكاملها، بينما دون ريغوبيرتو غارق فـي الرعب، يرى بطرف عينه روساورا–لوكريثيا مغمومة، مشوشة، وقد استوت جالسة فـي السرير وأمسكت الخلاسية من خصرها محاولة إبعادها برفق، دون مماحكة، وهي تخشى بكل تأكيد أن تعمد إستريّا المندفعة إلى انتزاع أنف زوجها بأسنانها كإجراء عقابي. بقوا على هذا الحال لبعض الوقت، وادعين، متشابكين، بينما الخلاسية تجمح وتئن، لاعقة بمجون جهاز دون ريغوبيرتو الأنفـي، وكان هذا بدوره، وسط ضباب الجزع، يتذكر مسخ باكون، **رأس إنسان**، تلك اللوحة الزيتية المؤثرة التي كانت هاجساً مسلطاً على عقله لوقت طويل، وقد صار يعرف الآن السبب: فهكذا ستتركه أنياب إستريّا بعد أن تعضه. لم يكن وجهه المشوه هو ما يرعبه، وإنما السؤال: هل ستبقى لوكريثيا على حبها لزوجها مصلوم الأذنين ومجدوع الأنف؟ هل ستهجره؟

قرأ دون ريغوبيرتو فـــي دفتره هذا المقطع:

ماذا كان
هذا الذي حدث
لمخيلتي وأنا نائم،
ووصلتُ إلى رؤيته هنا؟

وهو ما كان سيخسموندو يردده لدى استيقاظه من ذلك الحلم الاصطناعي الذي كان يُغرقه فـــيه (بمركّب من الأفـــيون والخشخاش والبنج) الملك باسيليو والعجوز كلوتالدو، ويمثلون له تلك المهزلة الدنيئة، بنقله من برج سجنه إلى البلاط، لكي يتولى الحكم لوقت قصير، جاعلينه يعتقد أن هذا الانتقال هو حلم أيضاً. وفكر:«ما جرى لمخيلتك وأنت نائم، أيها الأمير المسكين، هو أنهم نوّموك بمخدر وقتلوك. أعادوك للحظة إلى شرطك الحقيقي، جاعلينك تعتقد بأنك تحلم. لذلك بادرتَ إلى ممارسة الحريات التي يمارسها أحدنا وهو يستمتع بتهور الأحلام الخالي من العقاب. أفلتَ العقال لرغباتك، فألقيت برجل من الشرفة، وكدت تقتل العجوز كلوتالدو والملك باسيليو نفسه. وهكذا وجدوا الذريعة اللازمة ـــــ فأنت عنيف، وأنت نزق، وأنت غير جدير ـــــ لكي يعيدوك إلى الأغلال وإلى عزلة سجنك.» ومع ذلك، فقد أحس بالحسد تجاه سيخسموندو. فهو أيضاً مثل الأمير التعس الذي حكمت عليه الرياضيات والنجوم بالعيش حالماً كي لا يموت من الحبس والعزلة، كان يمثل ما كان قد دونه فـــي دفتره: «هيكل عظمي حي»،

«متحرك ميت»، ولكنه على العكس من ذلك الأمير، لن يأتي أي ملك مثل باسيليو أو نبيل مثل كلوتالدو لإخراجه من هجرانه ووحدته، ولتنويمه بالأفــيون والبنج، إيقاظه بين ذراعي لوكريثيا.

ــــ وتنهد: «لوكريثيا، لوكريثياي»، متنبهاً إلى أنه كان يبكي. يا للبكَّاء الذي تحوّل إليه فــي هذه السنة الأخيرة!

وكانت عينا إستريّا تدمعان أيضاً، ولكن من اللذة والسعادة. فبعد رعشتها الأخيرة، التي أحس ريغوبيرتو خلالها بهزة موازية فــي كل تلافــيف جسده العصبية، فتحت فمها، وأفلتت الأنف وانهارت على ظهرها فوق السرير المغطى بشرشف أزرق، مطلقة صرخة سعادة طوباوية: «كم كان لذيذاً انتهائي يا أيتها العذراء المقدسة!» وبقيت ممتنة دون أي حماسة لمزيد من تدنيس المقدسات.

فقال دون ريغوبيرتو متذمراً:

ــــ لذيذ بالنسبة إليك، أما بالنسبة إلي فقد كدتِ تتركينني دون أنف ودون أذنين أيتها اللصة.

كان واثقاً من أن مداعبات إستريّا قد جعلت وجهه مثل وجه شخصية ارسيمبولدو تلك التي لها درنة جزر مكان الأنف. وبإحساس متزايد بالإذلال، رأى من بين أصابع يديه التي تفرك كدمات أنفه أن روساورا–لوكريثيا، ودون أي ذرة من شفقة أو اهتمام به، كانت تنظر إلى الخلاسية (وهذه تتمطى راضية فوق السرير) بفضول، ثم تسألها وابتسامة إعجاب تطفو على وجهها:

ــــ وهل هذا هو ما يعجبك فــي الرجال يا إستريّا؟

وقالت الخلاسية موافقة:

ـــــ إنه الشيء الوحيد الذي يعجبني ـــــ ثم حددت وهي تلهث وتطلق نفساً نباتياً زخماً: ـــــ أما ما سوى ذلك فليدسوه حيث لا تضيئه الشمس. وأنا عموماً أكبح نفسي وأخفـــي رغبتي، خوفاً مما يقال. ولكنني فـــي هذه الليلة أطلقت لنفسي العنان. فأنا لم أر من قبل أذنين وأنفاً مثل أذني زوجك وأنفه. لقد جعلتماني أشعر بالثقة يا صاحبتي.

تفحصت لوكريثيا من أعلى إلى أسفل بنظرة عارفة وبدا عليها الإعجاب بها. فمدت إحدى يديها ووضعت إصبعها الإبهام على الحلمة اليسرى (وخيل لدون ريغوبيرتو أنه يرى كيف أن زر زوجته راح يتصلب) لنهد روساورا–لوكريثيا وقالت ضاحكة برقة:

ـــــ لقد اكتشفتُ أنك امرأة حين كنا نرقص فـــي الحانة. أحسست بنهديك وانتبهت إلى أنك لا تعرفـــين كيف تحركين رفـــيقتك فـــي الرقص. فقد كنت أنا التي أقود خطواتك بدل أن تقوديني أنت.

فهنأتها دونيا لوكريثيا:

ـــــ لقد أخفـــيتِ ذلك جيداً، فظننتُ أنني قد خدعتك.

أحس دون ريغوبيرتو الذي كان ما يزال يواصل فرك أنفه المرضض وأذنيه المنكمشتين بنفحة تقدير جديدة لزوجته. كيف يمكنها أن تكون سريعة التقلب والتأقلم إلى هذا الحد! لقد كانت المرة الأولى التي تقوم فـــيها لوكريثيا فـــي حياتها بهذه الأشياء ـــــ ارتداء زي الرجال، والذهاب إلى وكر مومسات فـــي بلد أجنبي، ثم الدخول إلى فندق سيئ السمعة مع عاهرة ـــــ، ولكنها لا تبدي مع

ذلك أدنى قدر من القلق أو التردد أو الاستياء. ها هي هناك، تتحدث دون تكلف مع الخلاسية المتخصصة بالأنف والأذن، وكأنها مثلها، من أجوائها ومهنتها. كانتا تبدوان صديقتين حميمتين تتبادلان التجارب فـــي لحظة راحة خلال يوم عملهما المُتعب. وكم تبدو جميلة وشهية! ولكي يستمتع بمنظر زوجته هذا وهي عارية إلى جانب إستريّا، على هذا السرير الظريف ذي الشرشف الأزرق، فـــي الضوء الزيتي الشاحب، أغمض دون ريغوبيرتو عينيه. كان مستلقياً على جنبه، وجهه مستند إلى يده اليسرى، فـــي شرودٍ تحققه تلقائية وضعه الممتع. كانت بشرتها تبدو أكثر بياضاً بكثير فـــي هذا الضوء الخافت، وشعرها القصير أشد سواداً وكذلك حزمة الزغب الداكنة فـــي العانة. وبينما هو يتابع بحب انحناءات فخذيها وظهرها الناعمة، ويتسلق ردفـــيها، ونهديها وكتفـــيها، بدأ دون ريغوبيرتو ينسى أذنيه المتألمتين وأنفه المتضرر، وكذلك إستريّا والفندق سيئ السمعة الذي التجؤوا إليه فـــي مدينة مكسيكو: فقد راح جسد لوكريثيا يستعمر وعيه، ويشغله، مزيحاً أي صور أو تقديرات أو هموم أخرى.

ولم يبد على روساورا–لوكريثيا ولا على إستريّا أنهما قد انتبهتا ـــــ أو ربما لم يكن يهمهما ذلك ـــــ إلى أنه راح يخلع، بصورة آلية، ربطة عنقه، وسترته، وقميصه، وحذاءه، وجوربيه، وبنطاله، وسرواله الداخلي، ويلقي بها إلى أرضية مشمع اللينوليوم الخضراء المشققة. وحتى عندما ركع على ركبتيه عند قدم السرير، وبدأ يداعب بيديه ويقبّل باحترام ساقي زوجته، لم تولياه أي اهتمام.

وواصلتا حديثهما الهامس ونمائمهما غير مباليتين به، وكأنهما لا تريانه، وكما لو أنه كان الشبح.

«إنني كذلك»، فكر وهو يفتح عينيه. وكان التهيج حاضراً هناك على الدوام، يضرب ساقيه، دون قناعة كبيرة، ودون سعادة أو حزم، مثلما تضرب مدقة جرس صدئة ناقوساً قديماً ناشزاً بفعل الزمن والروتين فـــي كنيسة دون راعٍ.

وعندئذ أعادت له الذاكرة الاشمئزاز العميق ـــــ الطعم الكريه فـــي الفم، فـــي الحقيقة ـــــ الذي خلفته لديه تلك النهاية البلاطية، المتذللة بدناءة لمبدأ السلطة وللاأخلاقية دولة القانون، فـــي تلك المسرحية لكالديرون دي لاباركا، فالجندي الذي بدأ التمرد ضد الملك باسيليو، وبفضله تمكن الأمير سيخسموندو من اعتلاء عرش بولونيا، يحكم عليه الملك الجديد الجاحد والوغد بأن يتعفن حياً فـــي البرج الذي كان هو نفسه محبوساً يعاني فـــيه، وذلك بالحجة التي دوّن أبياتها المرعبة فـــي دفتره: «**الخائن لم يعد ضرورياً لنا/ بعد أن مضت الخيانة**».

«فلسفة مريعة، وأخلاق مقرفة»، فكر دون ريغوبيرتو، ناسياً بصورة مؤقتة زوجته الجميلة العارية التي ما زال مع ذلك يداعبها بطريقة آلية. «الأمير يعفو عن باسيليو وكلوتالدو اللذين ظلماه وعذباه، ويعاقب الجندي المجهول الشجاع الذي حرض القوات على الثورة ضد الملك الجائر، وأخرج سيخسموندو من مغارته وجعله ملكاً، لأنه لا بد من الاستجابة قبل أي شيء إلى متطلبات السلطة السائدة، التي تقضي بمعاقبة مبدأ وفكرة التمرد ضد الملك. يا

للقرف!»

أيستحق مثل هذا العمل المسمم بهذا المعتقد غير الإنساني المعادي للحرية أن يحتل أحلامه ويغذيها، وأن يؤثث رغباته؟ ومع ذلك، لا بد أن هناك سبباً جعل أشباح تلك المسرحية تسيطر، في هذه الليلة، بحزم وتفرد على أحلامه. وعاد إلى مراجعة دفاتره بحثاً عن تفسير.

لقد كان العجوز كلودوالدو[1] يدعو المسدس «الصل المعدني»، وروساورا المتنكرة كانت تتساءل عما «**إذا كان النظر لا يعاني الخداع/ صانعاً الخيال،/ في الضوء الخجول الذي ما زال يملكه النهار**». تطلع دون ريغوبيرتو إلى البحر. وهناك في البعيد، عند خط الأفق، كان ضوء خجول يعلن قدوم اليوم الجديد، هذا الضوء الذي يدمر بعنف كل صباح، عالمه الصغير من الأحلام والأشباح، حيث هو سعيد (سعيد؟ لا، حيث هو أقل شقاءً بقليل) ويعيده إلى روتين الحبس خمسة أيام في الأسبوع (استحمام، فطور، مكتب الشركة، غداء، الشركة، عشاء) حيث لا تكاد تبقى له فجوة صغيرة لتنقية ابتكاراته. كانت هناك أبيات شعر قصيرة محددة بعلامة على الهامش تقول «لوكريثيا» وسهم صغير يشير إلى الأبيات: «**خالطة بين زينات ديانا الفاخرة وسروج/ بالاسي**». إنهما الصيادة

---

[1] ـ قد يخيل إلى القارئ أن كلودوالدو clodoaldo هو شخصية جديدة، ولكن الحقيقة أن هناك خطأ مطبعي على ما يبدو في كتابة اسم كلوتالدو clotaldo ، لأن تسمية المسدس بالصل المعدني ترد في المشهد الثالث من الفصل الأول في مسرحية الحياة حلم على لسان كلوتالدو، عندما يعتقل روساورا وكلارين.

والمحاربة[1] مجتمعتين فــي محبوبته لوكريثيا. ولم لا. ولكن، لا ريب فــي أن هذا لم يكن هو السبب فــي ترسخ قصة الأمير سيخسموندو فــي عقله الباطن ولا فــي إخراجها إلى تخيلاته هذه الليلة. فما هو السبب إذن؟

«**لا يمكن لحلم/ أن يتسع لكل هذه الأشياء**»، هذا ما يقوله الأمير مذهولاً. ويرد عليه دون ريغوبيرتو: «إنك أحمق. فحلم واحد يمكنه أن يتسع لكل الحياة». وقد أثر فــيه أن سيخسموندو، عند نقله وهو تحت تأثير المخدر، من سجنه إلى القصر، يرد عليهم حين يسألونه عما كان له أشد الوقع عليه لدى عودته إلى الحياة: «**لم يدهشني أي شيء/ فكل شيء حسبت له حساباً؛ غير أنني لو عجبتُ/ لشيء فــي العالم، لكان الجمال/ فــي المرأة**». وفكر دون ريغوبيرتو:«وتقول هذا مع أنك لم تر لوكريثيا». أما هو فــيراها الآن، رائعة، خارقة، مسكوبة على ذلك الشرشف الأزرق، تخرخر برقة لمداعبات شفتي زوجها المحب وهو يقبلها من إبطيها. كانت إستريّا اللطيفة قد نهضت، تاركة لدون ريغوبيرتو مكانها على السرير إلى جوار روساورا–لوكريثيا، ومضت لتجلس فــي الركن الذي كان يجلس فــيه دون ريغوبيرتو من قبل، بينما هي تتأمل أذنيه وأنفه. احتفظت بالتكتم والسكون، غير راغبة فــي شغلهما أو مقاطعتهما، وكانت تراقبهما بفضول لطيف بينما هما يتعانقان، يتشابكان ويبدأان الحب.

---

[1] ـ ديانا وبالاسي: الأولى إلهة الصيد والثانية إلهة الحرب فـي الأساطير الإغريقية.

ما هي الحياة؟ مجرد جنون.
ما هي الحياة، مجرد وهم،
مجرد ظل، مجرد خيال،
وأعظم خير فـــيها ضئيل؛
فالحياة كلها حلم،
والأحلام هي مجرد أحلام.

«هذا كذب»، قالها بصوت عال وهو يضرب بقبضته طاولة مكتبه. الحياة لم تكن حلماً، فالأحلام كذبة واهنة، خديعة عابرة تنفع فقط للهرب المؤقت من الإحباط والوحدة، ومن أجل تقدير أفضل، بغم أشد ألماً، للجمال والجوهر الذي كانت عليهما الحياة الحقيقية، الحياة التي تؤكل وتُلمس وتُشرب، هي أرقى بكثير وأشد اكتمالاً بالمقارنة مع التصنع الذي تلتمسه الرغبات والمخيلة. ومثقلاً بالغم ـــــ كان النهار قد طلع، وبدأ ضوء الفجر يكشف جروف الساحل الرمادية، والبحر الرصاصي، والغيوم المكرشة، والقرميد المخرب والرصيف الأجذم ـــــ تشبث بجسد لوكريثيا-روساورا العاري بيأس، ليستغل هذه الثواني الأخيرة، فـــي السعي إلى متعة مستحيلة، يؤرقه الهاجس المضحك بأنه فـــي أي لحظة، ربما فـــي لحظة الذروة، سيشعر بيدي الخلاسية المفاجئتين تحطان على أذنيه.

الرقطاء وحَيّةُ الماء

وأنا أفكر فـيكِ قرأتُ ***المتزوجة الفاضلة*** لفراي لويس دي ليون، وفهمت لماذا فضل ذلك الشاعر المرهف، فـي فكرة الزواج التي بشّر بها، الزهد ومسوح أتباع القديس أغوسطين، على المخدع الزفافـي. ومع ذلك، وفـي تلك الصفحات من النثر الجميل المكتظة بسخريات غير إرادية، وجدت هذا المقطع لغبطة القديس باسيليو الذي ينطبق مثلما ينطبق قفاز على اليد، احزري أي يد عاجية لامرأة استثنائية، وزوجة نموذجية وحبيبة مشتهاة؟:

الحية الرقطاء هي حيوان شرس بين الثعابين، تمضي مسرعة للزواج من الحية البحرية؛ تصل، تصفر، وكأنها تعطي إشارة لوجودها هناك، لكي تجتذبها بهذه الطريقة من البحر وتتعانق معها عناقاً زوجياً. وتنصاع حية البحر، وتلتقي مع تلك الضارية السامة دون خوف. ماذا أقول فـي هذا؟ ماذا؟ أقول إنه مهما كان الزوج فظاً وشرس الطباع لا بد للمرأة أن تتحمله، وألا تسمح لأي فرصة بأن تقوض الوئام بينهما. آه! أهو جلاد؟ ولكنه زوجك! أهو سكير؟ ولكن رابطة الزواج وحدته بكِ. أهو فظ، خشن! ولكنه صار عضواً منك، وعضواً أساسياً كذلك. ولأن الزوج يسمع ما يناسبه أيضاً: فإن الرقطاء، آخذة بعين الاحترام الجماع الذي تمارسه، تبعد عن حية البحر سمها، وأنتِ، ألن تتركي جفاء طبعك غير الإنساني، فـي سبيل تشريف زواجك؟ هذا من باسيليو».

فراي لويس دي ليون، *الزوجة الفاضلة*، الفصل الثالث.

تعانقي عناقاً زوجياً مع هذه الرقطاء، يا حية البحر الحبيبة.



خـــاتمـــــــة

أسرة سعيدة

ـــــ على الرغم من كل شيء، لم تكن النزهة كارثية تماماً ـــــ قال دون ريغوبيرتو ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة ـــــ لقد أفادتنا فـــي تعلم درس جديد: فـــي البيت نكون خيراً من أي مكان آخر، وخيراً من الذهاب إلى الريف على وجه الخصوص.

احتفلت دونيا لوكريثيا وفونتشيتو بالفكرة، وحتى خوستينيانا انفجرت فـــي الضحك أيضاً حين دخلت فـــي تلك اللحظة حاملة سندويشات الفروج والبالتا مع البيض والبندورة المتبقية من غداء النزهة الفاشلة.

وهنأته دونيا لوكريثيا:

ـــــ الآن أدركتُ ما يعنيه التفكير فـــي الإيجابيات يا زوجي العزيز. وما يعنيه اتخاذ موقف بنّاء من المصائب.

وأكد فونتشيتو:

ـــــ مواجهة الوقت العصيب بوجه باسم. مرحى يا أبى.

ـــــ لا يمكن لأحد أو لشيء أن يطفئ سعادتي اليوم ـــــ قال دون ريغوبيرتو وهو يتأمل السندويشات، ثم أضاف: ـــــ لن أقول نزهة بائسة. ولا يمكن لقنبلة ذرية أن تؤثر بي. حسن، بصحتكم.

شرب رشفة من البيرة الباردة برضا ظاهر وقضم لقمة من سندويش الفروج. كانت شمس تشاكلاكايو قد أحرقت جبهته، وكان الاحمرار يغطي وجهه وذراعيه من أثر الشمس. وكان يبدو سعيداً جداً بالفعل، ومستمتعاً بالغداء المرتجل. لقد خرجت منه، فـــي الليلة السابقة، فكرة النزهة إلى تشاكلاكايو فـــي يوم الأحد هذا، للهرب من ضباب ليما ورطوبتها والاستمتاع بالوقت فـــي تماس مع

الطبيعة، على ضفاف النهر وضمن الأسرة. وقد استغربت دونيا لوكريثيا كثيراً هذا الاقتراح، فهي تتذكر الرعب المقدس الذي كان يوحي به إليه كل ما هو ريفـــي على الدوام، ولكنها وافقت على العرض ببهجة. ألا يكون راغباً فـــي بدء شهر عسل جديد؟ وسيبدأ كذلك بإتباع عادات جديدة. وقد انطلقوا إلى النزهة صباح اليوم فـــي الساعة الموعودة ــــ التاسعة ــــ، مزودين بمؤونة جيدة من المشروبات، وبغداء كامل أعدته الطاهية، بما فـــي ذلك منخاربلانكو مع فواكه، وهو الحلوى المفضلة لدى دون ريغوبيرتو.

وكان أول أمر سيئ صادفهم هو الطريق فـــي مركز المدينة، فقد كانت مزدحمة جداً والتقدم فـــيها بطيء جداً، حين يكون التقدم ممكناً، ما بين شاحنات وحافلات من كل الأنواع، وسيارات مخلعة لم تكن تعرقل حركة المرور وتشلها فـــي وقفات طويلة وحسب، وإنما تطلق كذلك دخاناً أسود ورائحة بنزين محروق تبعث على الدوار. وصلوا إلى تشاكلاكايو بعد منتصف النهار، مستنفدين ومحتقنين.

وبدا العثور على مكان منعزل، إلى جانب النهر، أشد صعوبة مما تصوروه. فقبل أن يتخذوا السبيل الذي يقربهم من ضفة ريماك ــــ وهو يبدو هناك، على خلاف ما هو عليه فـــي ليما، نهراً حقيقياً، عريضاً وغزير المياه، مزيناً بزبد وأمواج فـــي الأماكن التي يصطدم فـــيها بالحجارة والصخور ــــ كان عليهم أن يدوروا ويدوروا ليجدوا أنفسهم يرجعون إلى الطريق العام نفسه. وعندما اكتشفوا بفضل مساعدة أحد الجيران، مفترقاً قرّبهم من الضفة، بدأت

الأمور تسوء بدلا من أن تتحسن. فنهر ريماك فـــي ذلك المكان يستخدم كمزبلة للمتنزهين (ومكاناً للتبول والتغوط أيضاً) الذين ألقوا هناك كل أنواع الفضلات التي يمكن تخيلها ـــــ ابتداء من الورق، والعلب والمرطبانات الفارغة، وحتى بقايا الطعام والبراز والحيوانات الميتة ـــــ، وفضلاً عن المشهد المقزز، كانت تنبعث من المكان رائحة نتانة لا تطاق. وكانت سُحب من الذباب العدواني تجبرهم على إغلاق أفواههم بأيديهم. ولم يكن أي شيء من ذلك يتوافق مع حملة الاستكشاف التي تخيلها مسبقاً دون ريغوبيرتو. ولكنه تسلح مع ذلك بصبر لا يلين وبتفاؤل صليبي أدهش زوجته وابنه، وأقنع أسرته بعدم الرضوخ للخوف من الظروف العابرة، وواصلوا البحث عن مكان أفضل.

وعندما بدا لهم بعد بعض الوقت بأنهم قد وصلوا إلى مكان أشد كرماً ـــــ أي أنه خال من الروائح النتنة والزبالة ـــــ وجدوا أن أعداداً من الجماعات الأسرية قد سبقتهم إلى احتلاله، وكان بعضهم تحت مظلات شاطئ، وهم يأكلون المعكرونة الملطخة بصلصات حمراء اللون، ويستمعون إلى موسيقا تروبيكالية صاخبة، من أجهزة المذياع أو آلات التسجيل المحمولة. والخطأ الذي اقترفوه حينئذ كان من مسؤولية دون ريغوبيرتو وحده، مع أن أكثر الرغبات شرعية هي التي أوحت به: فبحثاً عن أدنى حد من الخصوصية، والابتعاد قليلاً عن حشود آكلي المعكرونة الذين لا يمكنهم على ما يبدو أن يتصوروا إمكانية الخروج من المدينة لعدة ساعات دون أن يحملوا معهم هذا النتاج المديني الذي هو الضجيج. اعتقد دون ريغوبيرتو

أنه قد وجد الحل. فقد اقترح مثل فتى فـــي الكشافة، أنه يمكنهم أن يخلعوا أحذيتهم ويشمروا بناطيلهم ويخوضوا قليلاً فـــي النهر للوصول إلى ما يشبه جزيرة صغيرة جداً من الرمل والأحجار وبعض النباتات الملتفة، والمعجزة هي أن جموع متنزهي يوم الأحد لم تكن قد احتلتها. وكان هذا ما فعلوه. أو من الأصح القول، ما بدؤوا بعمله، محملين بأكياس الطعام والشراب التي أعدتها الطاهية من أجل هذا النزهة الريفـــية الصباحية. وبينما كان دون ريغوبيرتو على بعد خطوات قليلة من الجزيرة ـــــ وكان الماء لا يصل إلا إلى ركبتيه، وقد اجتاز الطريق إلى هناك دون أي حوادث ـــــ انزلق بصورة مفاجئة. ووقع جالساً فـــي مياه نهر ريماك الباردة، وهو أمر ما كان سيثير كثيراً من الأهمية، نظراً لشدة الحر ولكثرة ما كان قد تعرق، لو لم تغرق فـــي الوقت نفسه سلة النزهة، ومن أجل إضفاء لمسة سخرية على الحادث، وقبل أن تبدأ السلة بالاستقرار فوق صفحة الماء، كان قد تبعثر كل ما فـــيها، وانتشر ذات اليمين وذات اليسار مع المياه التي تجرها باتجاه ليما والمحيط الهادي: السمك المطبوخ مع الثوم، والرز بالبط، ومقالي المنخاربلانكو، وكذلك الشرشف والفوط ذات المربعات الحمراء والبيضاء التي اختارتها دونيا لوكريثيا للنزهة.

ـــــ اضحكا كما تشاءان، لا تكبحا رغبتكما فـــي الضحك، فلن أغضب. ـــــ كان دون ريغوبيرتو يقول لزوجته وابنه اللذين كانا يساعدانه على النهوض وهما يحتالان فـــي إخفاء ضحكهما ويحاولان خنق قهقهاتهما. وكان الناس الذين على الشاطئ يضحكون

أيضاً وهم يرونه مبللاً من رأسه حتى قدميه.

واستعد دون ريغوبيرتو للبطولة (أهي المرة الأولى فـــي حياته؟) مقترحاً الإصرار على البقاء، متعللاً بأن شمس تشاكلاكايو ستجففه فـــي لحظات. ولكن دونيا لوكريثيا كانت حازمة. هذا غير ممكن، فقد يصاب بنزلة رئوية، ولا بد لهم من العودة إلى ليما. وكان هذا ما فعلوه، مهزومين، ولكن دون أن يستسلموا لليأس. وكانوا يضحكون بمحبة من دون ريغوبيرتو الذي خلع بنطاله وراح يقود السيارة وهو بسرواله الداخلي. وصلوا إلى البيت فـــي بارانكو قرابة الساعة الخامسة مساء. وبينما كان دون ريغوبيرتو يستحم ويبدل ملابسه قامت دون لوكريثيا، تساعدها خوستينيانا التي رجعت للتو من جولتها فـــي نهاية كل أسبوع ـــ كبير الخدم والطاهية لا يرجعان حتى الليل ـــ بإعداد سندويشات لحم دجاج والبالتا مع البندورة والبيض لهذا الغداء المتأخر والوعر.

ـــ مذ تصالحتَ مع خالتي أصبحت طيباً يا بابا.

أبعد دون ريغوبيرتو رأسه عن السندويش الذي كان قد أكل نصفه. وفكر بتروٍ.

ـــ أتقول هذا بجد؟

ـــ بكل جد. رد عليه الطفل، ثم التفت إلى دونيا لوكريثيا:

ـــ أليس صحيحاً يا خالتي؟ منذ يومين وهو لا يتذمر ولا يشكو من شيء، إنه طيب المزاج ويقول أشياء لطيفة طوال الوقت. أليست هذه هي الطيبة؟

ـــ لقد تصالحنا منذ يومين فقط ـــ ضحكت دونيا لوكريثيا.

ولكنها استعادت الوقار فوراً ونظرت بعذوبة إلى زوجها، وأضافت:
ـــ الواقع أنه كان طيباً جداً على الدوام. لقد تأخرت قليلاً في معرفة ذلك يا فونتشيتو.

وجاء رد فعل دون ريغوبيرتو أخيراً متخذاً هيئة مفرطة في التأمل والتروي:

ـــ لست أدري إذا ما كان يعجبني القول إنني طيب. فكل الأشخاص الطيبين الذين عرفتهم كانوا على قدر من البلاهة. كما لو أنهم صاروا طيبين بسبب افتقارهم إلى المخيلة والشهية. ولكي أشعر أنني على ما يرام، آمل ألا أكون قد ازددت بلاهة عما أنا عليه.

فقرّبت السيدة لوكريثيا وجهها من زوجها وقبلت جبهته:

ـــ لا مجال للخوف. فأنت كل شيء في الدنيا إلا هذا.

كانت جميلة جداً بخديها اللذين لوحتهما شمس تشاكلاكايو، وبكتفيها وذراعيها المكشوفة بهذا الفستان القطني الخفيف المزين بأزهار الذي يمنحها مظهراً طازجاً وصحياً. «كم هي جميلة، وكم هي فتية»، فكر دون ريغوبيرتو متلذذاً بعنق زوجته الطويل وبلطف انحناءة إحدى أذنيها التي تلتف عليها خصلة من شعرها المربوط عند رقبتها بشريط أصفر له لون خُفّ النزهة نفسه. لقد مرت إحدى عشرة سنة وها هي أكثر جمالاً وجاذبية مما كانت عليه يوم تعرف عليها. وأين تنعكس هذه الصحة وهذا الجمال الجسدي اللذان يتحديان الزمن؟ وأجاب: «في العينين». في هاتين العينين اللتين يتبدل لونهما من البني الشاحب إلى الأخضر القاتم، إلى أسود فاتح. والآن تبدوان فاتحتين جداً تحت الرموش الطويلة القاتمة المنتعشة بنور

بهيج يكاد يطلق الشرر. زوجته الغافلة عن التأمل الذي هي هدف له، كانت تأكل بشهية السندويش الثاني من البالتا مع البندورة والبيض، وتشرب بين لحظة وأخرى رشفات بيرة باردة ترطب شفتيها. أهذا الشعور الذي يكتنفه هو السعادة؟ هذا التقدير والامتنان والرغبة التي يشعر بها تجاه لوكريثيا؟ أجل، وتمنى دون ريغوبيرتو بكل قواه أن تنقضي طيراناً الساعات المتبقية للغروب. سيكونان وحدهما مرة أخرى وسيحتضن بين ذراعيه أخيراً، هنا، امرأته المعبودة بلحمها وعظمها.

ـــ الشيء الذي أشعر أحياناً أنني لا أشبه فيه إيغون شيلي هو أنه كان يحب الريف كثيراً بينما أنا لا أحبه على الإطلاق ـــ قال فونتشيتو وهو يتابع بصوت عال فكرة كان قد بدأها بصمت منذ بعض الوقت ـــ. في هذا الأمر خرجتُ مشابهاً لك يا بابا. فأنا لا أحب مطلقاً رؤية الأشجار والأبقار.

وفلسف دون ريغوبيرتو الأمر:

ـــ لهذا أخفقت نزهتنا تماماً. إنه انتقام الطبيعة من اثنين من أعدائها. وما هذا الذي تقول عن إيغون شيلي؟

فأوضح فونتشيتو:

ـــ أقول إن الشيء الذي لا أشبهه فيه هو مسألة الريف، فقد كان مغرماً بالريف وأنا لست كذلك. لقد دفع غالياً ثمن حبه للطبيعة. فقد سجنوه وأبقوه شهراً في السجن، حيث كاد أن يصاب بالجنون. لو أنه بقي في فيينا لما جرى له ذلك مطلقاً.

فوجئ دون ريغوبيرتو:

ـــــ كم أنت حسن الإطلاع على حياة إيغون شيلي يا فونتشيتو.

فقاطعته دونيا لوكريثيا:

ـــــ لا يمكنك أن تتصور إلى أي حد. إنه يعرف عن ظهر قلب كل ما فعله وقاله وما جرى له في سنوات عمره الثماني والعشرين. يعرف كل لوحاته ورسومه وأعمال حفره بأسمائها وتواريخها. بل إنه يظن نفسه كذلك إيغون شيلي مجسداً. إنه يخيفني، أقسم لك.

لم يضحك دون ريغوبيرتو. هز رأسه موافقاً وهو يتمعن في هذه المعلومات باهتمام كبير، ولكنه كان يخفي في الحقيقة الظهور المفاجئ لدودة الشك في وعيه، للفضول السخيف، هذه الأم لكل الرذائل. كيف عرفت لوكريثيا أن فونتشيتو يعرف كل هذه الأشياء عن إيغون شيلي؟ وفكر: «شيلي! تنويع خبيث على الانطباعية يدعوه أوسكار كوكوشكا، بحق، الرسام البورنوغرافي.» واكتشف أنه ممسوس بحقد أحشائي، حامض، صفراوي تجاه إيغون شيلي. لتكن مباركة الأنفلونزا الاسبانية التي أجهزت عليه. من أين علمت لوكريثيا أن فونتشيتو يظن نفسه ذلك المخربش الذي أجهضته آخر أيام الإمبراطورية النمساوية–الهنغارية التي أجهزت عليها أيضاً المصيدة في ساعة سعد؟ والأسوأ أن دونيا لوكريثيا لم تكن تعي أنها تُغرق نفسها في مياه الوشاية الذاتية النتنة، وواصلت تعذيبه:

ـــــ أحب أن نناقش هذا الموضوع يا ريغوبيرتو. منذ زمن وأنا أريد التحدث معك في الأمر، حتى إنني فكرت بالكتابة إليك. إنني

قلقة جداً من هوس هذا الطفل بذلك الرسام. أجل، يا فونتشيتو. لماذا لا نناقش الأمر نحن الثلاثة؟ ومن هناك أفضل من أبيك لإرشادك؟ لقد قلت لك ذلك عدة مرات. ليس لأنني أنظر بعين غير راضية إلى تعلقك بإيغون شيلي. ولكن الأمر تحول إلى هوس لديك. لا يضايقك أن نتبادل الآراء فــيما بيننا نحن الثلاثة، أليس كذلك؟

ـــ أظن أن أبي ليس على ما يرام يا خالتي ـــ اكتفى فونتشيتو بقول ذلك بسذاجة اعتبرها دون ريغوبيرتو إهانة إضافــية.

ـــ رباه، كم أنت شاحب! ألا ترى؟ لقد قلت لك إن ذلك البلل فـــي النهر قد ألحق بك الأذى.

فطمأن دون ريغوبيرتو زوجته بصوت مبهم:

ـــ لا شيء يستحق الذكر، لا شيء. تناولتُ لقمة كبيرة وشرقت بها. أظنها عظمة. لقد انقضى الأمر، فقد بلعتها. إنني على ما يرام، لا تقلقي.

ذعرت دونيا لوكريثيا:

ـــ ولكنك ترتجف. لقد أُصبتَ بالزكام بالطبع. الآن فوراً ستتناول شراب أعشاب دافئ مع قرصي أسبرين. أنا سأعده لك. لا، لا تعترض. ثم إلى السرير، دون كلمة واحدة.

حتى كلمة السرير نفسها لم ترفع قليلاً من معنويات دون ريغوبيرتو الذي انتقل خلال لحظات قليلة من السعادة والحماسة الحيوية إلى قنوط مضطرب. رأى دونيا لوكريثيا تبتعد مسرعة باتجاه المطبخ. ولأن نظرات فونتشيتو الشفافة كانت تسبب له اضطراباً، فقد قال لكي يكسر الصمت:

ـــــ هل أُدخل شيلي السجن بسبب ذهابه إلى الريف؟

أطلق الطفل ضحكة:

ـــــ ليس بسبب ذهابه إلى الريف، مثلما خطر لك. لقد اتهموه بسوء الأخلاق والإغواء. فـــي قرية صغيرة تدعى نيولينغباخ. وما كان ليحدث له ذلك على الإطلاق لو أنه بقي فـــي فـــيينا.

ـــــ آه، هكذا إذن؟ أروِ لي عن ذلك ـــــ دعاه دون ريغوبيرتو إلى الحديث وهو يعي أنه يريد كسب الوقت، ولكن دون أن يعرف لماذا يريد ذلك. فبدلاً من التألق المجيد والمشمس فـــي هذين اليومين، تبدلت حالته المعنوية فـــي هذه اللحظة إلى فاجعة مع وابل من المطر والبروق والرعود. ولجأ إلى وسيلة كانت قد أظهرت جدواها فـــي مرات سابقة، فحاول تهدئة نفسه بأن يعد ذهنياً بعض الشخصيات المثولوجية. سيكلوبات، حوريات، مردة، نساء داهيات، كاليبسوات. وبقي مستغرقاً فـــي ذلك.

حدث فـــي ربيع 1912؛ وبالتحديد فـــي شهر نيسان ـــــ كان الطفل يشرح له بتشدق ـــــ أن إيغون شيلي وعشيقته فالي (وهذا مجرد لقب، أما اسمها الحقيقي فهو فاليريا نيزيل) كانا فـــي الريف، فـــي بيت خارج تلك القرية التي يصعب نطق اسمها: نيولينغباخ. وكان من عادة إيغون أن يرسم فـــي الهواء الطلق خارج البيت، منتهزاً فرصة الطقس الجيد. وفـــي مساء أحد الأيام، جاءت صبية راغبة فـــي تبادل الحديث. وقد تحدثا معها ولم يحدث أي شيء. ثم رجعت البنت عدة مرات. إلى أن حدث فـــي إحدى الليالي العاصفة أن جاءت مبللة وأخبرت فالي وإيغون بأنها قد هربت من بيت

أبويها. حاولا إقناعها بأنها قد أساءت التصرف، وبأن تعود إلى البيت، وأصرت هي، لا، لا، دعاني على الأقل أقضي هذه الليلة معكما. وافقا. نامت البنت مع فالي؛ ونام إيغون شيلي في غرفة منفصلة. وفي اليوم التالي... ولكن عودة دونيا لوكريثيا وهي تحمل بين يديها شراباً يتصاعد منه البخار وقرصي أسبرين، قطع حكاية فونتشيتو التي كان دون ريغوبيرتو لا يكاد يسمعها.

دللته دونيا لوكريثيا:

ـــ اشربه كله وهو ساخن هكذا. مع قرصي الأسبرين. وبعد ذلك إلى السرير مثل الأطفال الطيبين. لا أريدك أن تصاب بالزكام يا عجوزي.

أحس دون ريغوبيرتو ـــ وكان أنفه الضخم يتنشق عبير الأعشاب الجنائني ـــ أن شفتي زوجته تحطان على شعر رأسه الخفيف.

وقال فونتشيتو موضحاً:

ـــ إنني أروي له قصة سجن إيغون يا خالتي. لقد رويتها لك مرات كثيرة حتى إنك ستملين من سماعها مرة أخرى.

فشجعته هي:

ـــ لا، لا، ولا بأي حال، تابع فقط. مع أنني أعرفها بالفعل عن ظهر قلب.

وأفلت من بين أسنان دون ريغوبيرتو السؤال بينما هو ينفخ على شراب الأعشاب:

ـــ متى رويت هذه القصة لخالتك؟ إذا كانت قد رجعت إلى

البيت منذ يومين فقط، وقد احتكرتُها أنا فـيهما ليلاً ونهاراً.

فرد الطفل بصراحته البلورية المعتادة:

ــــ عندما كنت أذهب لزيارتها فـي بيتها فـي بستان الزيتون. ألم تخبرك بذلك؟

أحس دون ريغوبيرتو بأن هواء غرفة الطعام قد تكهرب. ولكي لا يضطر إلى الكلام أو النظر إلى زوجته شرب رشفة بطولية من شراب الأعشاب الساخن الذي أحرق حلقه ومريه. واستقر الجحيم فـي أحشائه.

ــــ لم يُتح لي الوقت بعد ــــ سمع زوجته تغمغم بذلك. نظر إليها ــــ آي، آي ــــ كانت شاحبة. ثم أضافت: ــــ ولكنني سأخبره بالطبع. وهل فـي هذه الزيارات أي سوء؟

وأكد دون ريغوبيرتو وهو يرشف جرعة أخرى من الجحيم السائل والمعطر:

ــــ أي سوء فـي ذلك. يبدو لي جيداً أنكَ كنت تذهب إلى خالتك وتنقل لها أخباري. وماذا عن قصة شيلي وعشيقته هذه؟ لقد وصلت إلى نصفها وأنا أريد أن أعرف كيف ستنتهي.

وابتهج فونتشيتو:

ــــ أيمكنني أن أواصل القصة؟

كان دون ريغوبيرتو يحس بأن حنجرته قد تحولت إلى قرحة خالصة، ويدرك أن قلب زوجته الصامتة والمتحجرة إلى جانبه قد جمح مثل قلبه.

حسن إذن... فـي اليوم التالي، أخذ إيغون وفالي البنت فـي

القطار إلى فـــيينا، حيث تعيش جدتها. وكانت قد وعدتهما بالبقاء مع تلك السيدة. ولكنها حين صارت فـــي المدينة ندمت، وأمضت تلك الليلة مع فالي فـــي الفندق. وفـــي صباح اليوم التالي رجع إيغون وعشيقته ومعهما البنت إلى نيولينغباخ، حيث بقيت البنت معهما يومين آخرين. وفـــي اليوم الثالث جاء أبوها. وواجه إيغون فـــي الخارج حيث كان يرسم. وحذره وهو هائج جداً من أنه قد شكاه إلى الشرطة متهماً إياه بالإغواء، ذلك أن ابنته كانت قاصراً. وبينما كان شيلي يحاول تهدئته، موضحاً له أنه لم يحدث أي شيء، انتبهت البنت التي كانت فـــي داخل البيت إلى وجود أبيها، فتناولت مقصاً وحاولت أن تقطع أوردتها. ولكن فالي وإيغون والأب تمكنوا من منعها، ومساعدتها. ثم تبادلت هي وذلك السيد التوضيحات وتصالحا. وانصرفا بعد ذلك معاً وظن إيغون وشيلي بأن كل شيء قد انتهى. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالطبع. فبعد بضعة أيام جاءت الشرطة لاعتقاله.

أكانا يستمعان إلى قصته؟ فـــي الظاهر، نعم. فقد كان دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا جامدين وكأنهما قد فقدا ليس القدرة على الحركة وحسب، وإنما على التنفس أيضاً. كانت عيونهما مسمرة على الطفل، ولم يرمش أي منهما طوال القصة التي كان يرويها دون تململ، مع وقفات وتفخيمات راوٍ جيد. ولكن، ماذا عن شحوب لوكريثيا؟ وماذا عن هذه النظرة المركزة والمستغرقة؟ أتؤثر فـــيهما إلى هذا الحد القصة الطريفة القديمة عن هذا الرسام البعيد؟ كانت هذه هي التساؤلات التي ظن دون ريغوبيرتو أنه يقرؤها فـــي عيني

فونتشيتو الواسعتين الحيويتين اللتين كان يتأملهما بهما الآن، منقلاً نظره من أحدهما إلى الآخر بهدوء، وكأنه ينتظر تعليقاً. أيضحك عليهما؟ أيضحك عليه؟ حدق دون ريغوبيرتو بعيني ابنه الصافـيتين اللامعتين باحثاً عن بريق خبث، عن تلك الغمزة أو الانعكاس اللامع الذي يكشف ميكافـيليته، استراتيجيته، ازدواجيته. ولكنه لم يكتشف شيئاً: بل النظرة الصحية، النقية، النظيفة للضمير البريء وحدها.

ـــ هل أتابع أم أنك مللت يا بابا؟

أنكر الملل بحركة من رأسه باذلاً مجهوداً كبيراً ـــ كانت حنجرته جافة وخشنة مثل ورقة سنفرة ـــ ودمدم: «وماذا جرى له فـي السجن؟».

احتجزوه أربعة وعشرين يوماً وراء القضبان، بتهمة الإخلال بالأخلاق والإغواء. الإغواء بسبب حادثة البنت، والإخلال بالأخلاق بسبب بعض اللوحات والرسوم العارية التي وجدتها الشرطة فـي بيته. وبما أنه ثبت أنه لم يمس البنت، فقد بُرئ من التهمة الأولى. ولكنه لم يُبرأ من تهمة الإخلال بالأخلاق. فقد رأى القاضي أن شيلي يستحق العقاب، لأن هناك أطفالاً وطفلات قاصرين يزورون بيته ويرون الرسوم العارية. وما هو العقاب؟ إحراق أشد لوحاته منافاة للحشمة.

لقد عانى فـي السجن ما لا يمكن وصفه. ففـي الصور الذاتية التي رسمها وهو فـي السجن، يبدو شديد النحول، وبذقن نامية، وعينين غائرتين، وملامح جثة. وكان لديه دفتر مذكرات كتب فـيه («انتظر، انتظر، إنني أحفظ العبارة التي كتبها عن ظهر قلب»):

«أنا، الذي كنت بطبيعتي من أكثر الكائنات حرية، أجد نفسي مقيداً بقانون ليس هو قانون الجماهير». رسم ثلاث عشرة لوحة مائية وكان هذا هو ما أنقذه من الجنون أو الانتحار. وكانت تلك اللوحات تمثل: سرير السجن، البوابة، النافذة، وتفاحة مضيئة، واحدة من تلك التفاحات التي كانت تحملها إليه فالي كل يوم. وقد كانت تذهب كل صباح لتقف فـــي مكان استراتيجي فـــي محيط السجن، حيث يتمكن إيغون من رؤيتها من خلال قضبان زنزانته. لأن فالي كانت تحبه كثيراً وقد كان سلوكها رائعاً معه، وقدمت له كل دعمها خلال ذلك الشهر الرهيب. أما هو فلم يكن يحبها كثيراً على ما يبدو. لقد كان يرسمها، أجل؛ ويستخدمها موديلاً، أجل؛ ولكن ليس هي وحدها، بل كثيرات أخريات، وخصوصاً كل أولئك الطفلات اللواتي كان يلتقطهن من الشوارع، ويضعهن هناك، شبه عاريات ليرسمهن فـــي كل الأوضاع التي يمكن تخيلها، وهو فوق السلم. لقد كانت الطفلات والأطفال هوساً بالنسبة إليه. كان يموت عليهم، حسن، يبدو أن ذلك لم يكن من أجل رسمهم فقط، وإنما لأنهم كانوا يعجبونه حقاً، بالمعنى الطيب والمعنى الخبيث للكلمة. هذا ما يقوله كاتبو سيرته. فهو، فضلاً عن كونه فناناً، كان فاسداً بعض الشيء، لأنه كان يميل إلى الأطفال والطفلات...

ـــ حسن، حسن، أظن أن حرارتي قد انخفضت قليلاً بالفعل ـــ قاطعه دون ريغوبيرتو وهو ينهض واقفاً فجأة، مما أوقع الفوطة التي كانت على ساقيه إلى الأرض ـــ من الأفضل أن أعمل بنصيحتك يا لوكريثيا وأنام. لا أريد أن أصاب بأحد هذه

الرشوحات الحصانية التي تأتيني.

تكلم دون أن ينظر إلى زوجته، وإنما كان ينظر إلى ابنه وحده الذي ما إن رآه ينهض واقفاً حتى صمت واتخذ وضعاً مذعوراً، وكأنه يتشوق إلى مدّ يد المساعدة إليه. ولم ينظر دون ريغوبيرتو كذلك إلى دونيا لوكريثيا حين مرّ بجانبها متوجهاً إلى السلّم، بالرغم من الفضول الذي كان ينهشه لمعرفة إذا ما كانت ما تزال شاحبة، أو على الأقل متوردة من السخط، من المفاجأة، من التردد، من الاضطراب، متسائلة مثله عما إذا كان هذا الذي قاله وفعله الصبي، يستجيب لآلية ما، أم أنه من عمل المصادفة الدساسة، العجيبة، المخيبة، والبائسة، المعادية للسعادة. انتبه إلى أنه يجرجر قدميه مثل عجوز محطم فاعتدل منتصباً. صعد الدرج بإيقاع حيوي، وكأنه يريد أن يثبت (لمن؟) أنه ما يزال رجلاً مفعماً بالنشاط وبكامل قوته.

خلع حذاءه فقط، واستلقى على السرير وأغمض عينيه. كان جسده يتوقد محموماً. رأى سيمفونية نقاط زرقاء فـــي عتمة أجفانه وخيل إليه أنه يسمع أزير الزنابير الحربي الذي سمعه هذا الصباح، فـــي أثناء النزهة المحبطة. وبعد قليل استغرق فـــي النوم وكأنه تحت تأثير منوم قوي. أم أنه غاب عن الوعي مغمى عليه؟ حلم بأنه مصاب بالتهاب الغدة النكافـــية وأن فونتشيتو، طفل بصوت شيخوخي ومظهر طبيب مختص، يحذره: «اعتن بنفسك يا أبتاه! إنه فـــيروس متسرب، وإذا ما نزل إلى الخصيتين فسيحولهما إلى ما يشبه طابتي تنس، وسيضطرون إلى بترهما لك. مثلما يقلعون أضراس العقل الأخيرة!». استيقظ لاهثاً، ومبللاً بالعرق ـــــ كانت

دونيا لوكريثيا قد ألقت عليه دثاراً ـــــ وانتبه إلى أن الليل قد حلّ. كان الظلام مخيماً، ولم تكن هناك نجوم فـــي السماء، وكان الضباب يطغى على أنوار كورنيش ميرافلوريس. فُتح باب الحمام، ووسط دفقة النور التي دخلت إلى الحجرة المظلمة، ظهرت دونيا لوكريثيا بروبها، مستعدة للنوم.

سألها دون ريغوبيرتو مغموماً:

ـــــ أهو خبيث؟ أيدرك ما يفعله وما يقوله؟ أيفعل ما يفعله عن معرفة وتقدير للعواقب؟ أم أنه ليس كذلك؟ ماذا يكون، أهو مجرد طفل شقي تؤدي شقاواته إلى نتائج مريعة، دون أن يكون راغباً فـــي ذلك؟

تهاوت زوجته عند قدمي السرير وقالت وهي تتنهد بحزن:

ـــــ إنني أسأل نفسي هذا السؤال كل يوم، مرات عديدة كل يوم. أظن أنه هو نفسه لا يعرف أيضاً. أتشعر بالتحسن؟ لقد نمتَ قرابة ساعتين. لقد أعددتُ لك ليمونادة دافئة، إنها فـــي الترمس. هل أسكب لك كأساً؟ وبالمناسبة. لم أفكر مطلقاً فـــي أن أخفـــي عنك أن فونتشيتو كان يزورني فـــي بستان الزيتون. لقد كان الوقت يفلت مني فـــي هذين اليومين المفعمين بالأعمال.

فعاجلها دون ريغوبيرتو محركاً يديه:

ـــــ بالطبع. فلنترك التحدث فـــي هذا الأمر، أرجوك.

نهض واقفاً ودمدم: «إنها المرة الأولى التي أنام فـــيها قبل موعد النوم»، وذهب إلى مشجب ملابسه. تعرى، ودخل بالروب والخف إلى الحمام للقيام باغتساله الدقيق قبل النوم. كان يشعر بالغم،

والتشوش، مع أزيز فـــي رأسه يبدو أنه نذير زكام شديد. راح يملأ حوض الحمام بماء فاتر ونثر فــيه نصف علبة من الأملاح. وبينما الحوض يمتلئ، نظف أسنانه بخيط الأسنان، ثم تمضمض وانتزع بملقط صغير الشُّعيرات الجديدة على أذنيه. كم من الوقت مضى مذ تخلى عن عادته فـــي تكريس يوم من كل أسبوع للنظافة المتخصصة لأحد أعضائه، فضلاً عن الحمام اليومي؟ منذ انفصاله عن لوكريثيا. منذ سنة تقريباً. سيعيد إقرار ذلك الروتين الأسبوعي الصحي: الاثنين للأذنين، الثلاثاء للأنف، الأربعاء للقدمين، الخميس لليدين، الجمعة للفم والأسنان. إلى آخره. حين غطس فـــي الحوض أحس بأنه أقل قنوطاً. وحاول أن يتكهن إذا ما كانت لوكريثيا قد اندست تحت ملاءات السرير، وأي قميص نوم ترتدي، أتكون عارية؟ واستطاع أن يبعد من ذهنه للحظة حضور المشهد المتسلط: بيت بستان الزيتون فـــي سان إيسيدرو، وصورة طفولية تقف عند الباب، وإصبع صغير يقرع الجرس. يجب اتخاذ قرار حاسم بشأن الطفل. ولكن، أي قرار؟ فكل القرارات تبدو خرقاء ومستحيلة. عندما خرج من حوض الاستحمام، جفف جسده، وفركه بكولونيا من محلات **فلورز** ، من لندن، حيث يوجد له زميل وصديق فـــي شركة لويدز، يرسل إليه بانتظام صابوناً ومعاجين حلاقة ومزيلات عرق ومساحيق وعطوراً. ثم ارتدى بيجاما نظيفة من الحرير وترك الروب معلقاً على المشجب.

كانت دونيا لوكريثيا فـــي السرير. وكانت قد أطفأت أنوار الغرفة باستثناء ضوء الكوميدينو. وفـــي الخارج، كان البحر يتكسر بقوة

مصطدماً بهاوية بارانكو والريح تطلق زفرات كئيبة. أحس بقلبه ينبض بقوة بينما هو ينزلق تحت الملاءات، إلى جانب زوجته. رائحة ناعمة لأعشاب طازجة، وأزهار ندية، رائحة ربيعية، تسللت إلى أنفه ووصلت إلى دماغه. فـي حالة أشبه بتسامي التصلب الذي كان فـيه، كان بإمكانه أن يشعر بوجود فخذ زوجته على بعد ميليمترات من ساقه اليسرى. وعلى الضوء الخافت غير المباشر رأى أنها ترتدي قميص نوم وردي اللون من الحرير مثبتاً على الكتفـين بشريطين رفـيعين، مع حاشية من الدنتلا يظهر من خلالها نهداها. زفر متحولاً. فالرغبة المندفعة المتحررة ملأت الآن جسده وراحت تطفح من مساماته. وأحس بأنه يغمى عليه ويسكر منتشياً بعطر زوجته.

وفـي أثناء ذلك، مدت لوكريثيا التي كانت تحس به، يدها وأطفأت ضوء المصباح، ثم التفتت بالحركة نفسها وعانقته. أُفلتت منه أنّة حين أحس بجسد لوكريثيا، واحتضنه بلهفة، وشدّ عليه وهو يطوقه بذراعيه وساقيه. وراح يقبّلها من عنقها وشعرها فـي الوقت نفسه وهو يهمس لها بكلمات الحب. ولكنه عندما بدأ يتعرى ويجرد امرأته من قميص نومها، همست دونيا لوكريثيا فـي أذنه جملة كان لها مفعول دش بارد:

ـــ جاء لزيارتي قبل ستة شهور. ظهر فجأة فـي مساء أحد الأيام فـي بيت بستان الزيتون. ومنذ ذلك الحين صار يزورني دون توقف، لدى خروجه من المدرسة، متخلفاً عن الذهاب إلى معهد الرسم. ثلاث أو أربع مرات فـي الأسبوع. كان يتناول الشاي معي،

ويبقى ساعة أو اثنتين. لست أدري لماذا لم أخبرك بذلك أمس، أو أول أمس. كنت سأفعل ذلك. أقسم لك أنني كنت سأفعل.

ـــــ بالطبع يا لوكريثيا ـــــ قال دون ريغوبيرتو متضرعاً ـــــ لستِ مضطرة لأن تروي لي أي شيء. بحق أعز ما تحبين. فأنا أحبكِ.

ـــــ أريد أن أخبرك. الآن، الآن.

كانت ما تزال تحتضنه، وعندما بحث زوجها عن فمها، فتحت فمه وقبلته أيضاً، بشراهة. ساعدته على خلع البيجاما وعلى تخليصها من قميص النوم. ولكن، بعد ذلك، وبينما هو يداعبها بيديه، ويمر بشفتيه على شعرها، على أذنيها، على خديها ورقبتها، واصلت التكلم:

ـــــ لم أنم معه.

ـــــ لا أريد أن أعرف شيئاً يا حبي. هل علينا أن نتكلم فـــي هذا الآن؟

ـــــ أجل، الآن. لم أضاجعه، ولكن، انتظر. ليس ذلك لمزية فـــي، بل لخطأ منه. لو أنه طلب مني ذلك، لو أنه أوحى إلي بأدنى إشارة لكنت ضاجعته. بألف حب يا ريغوبيرتو. كنت أبقى مريضة فـــي أمسيات كثيرة، لأنني لم أفعل ذلك. ألن تكرهني؟ يجب أن أخبرك بالحقيقة.

ـــــ أنا لن أكرهك أبداً. أنا أحبك. حياتي، امرأتي الحبيبة.

ولكنها عادت تقاطعه باعتراف آخر:

ـــــ والحقيقة أنه إذا لم يخرج من هذا البيت، إذا ما واصل العيش

معنا، فسيتجدد حدوث ذلك. إنني آسفة يا ريغوبيرتو. من الأفضل أن تعرف الأمر. لا دفاع لدي حيال هذا الطفل. لا أريد حدوث ذلك، لا أريد أن أسبب لك الألم، مثلما جرى فـــي المرة السابقة. أعرف أنك تألمت يا حبي. ولكن، لماذا سأكذب عليك. لديه سلطات، لديه شيء لا أدري ما هو. إذا ما خطر لذهنه ذلك مرة أخرى، فسأفعل. لا قدرة لدي على منعه. حتى ولو دُمر زواجنا فـــي هذه المرة إلى الأبد. آسفة، آسفة، ولكنها الحقيقة يا ريغوبيرتو. إنها الحقيقة القاسية.

انفجرت زوجته بالبكاء. وتلاشت آخر بقايا التهيج لديه. فاحتضنها بوله، ودمدم وهو يداعبها:

ـــ كل ما تقولينه أعرفه جيداً. ما الذي يمكنني عمله؟ أليس ابني؟ إلى أين يمكنني أن أرسله؟ إلى من؟ إنه ما يزال صغيراً. أوتظنين أنني لم أفكر كثيراً بهذا؟ عندما يكبر، بالطبع. حين ينهي المدرسة على الأقل. ألا يقول إنه يريد أن يصبح رساماً؟ حسن جداً إذن. فليذهب عندئذ لدراسة الفنون الجميلة. فـــي الولايات المتحدة. فـــي أوربا. فليذهب إلى فـــيينا، ألا تعجبه الانطباعية كثيراً؟ فليذهب إذن إلى الأكاديمية التي درس فـــيها شيلي، إلى المدينة التي عاش ومات فـــيها شيلي. ولكن، كيف يمكنني إخراجه من البيت الآن، وهو فـــي هذه السن؟

التصقت دونيا لوكريثيا به، وقاطعت ساقيها بساقيه، وبحثت قدماها عن مسند فوق قدمي زوجها. وهمست:

ـــ لا أريدك أن تخرجه من البيت. إنني مدركة تماما أنه طفل. لم أتوصل مطلقاً إلى معرفة إذا ما كان يعرف مدى خطورته،

والكارثة التي يمكن له أن يتسبب بها، فهذا الجمال الذي هو عليه، وهذا الذكاء النزوي، شبه الفظيع. إنني أقول لك هذا فقط لأنه.. لأنه الحقيقة. إذا عشنا معه، سنكون دائماً في خطر يا ريغوبيرتو. وإذا كنت لا تريد أن يتكرر ما حدث، فراقبني، أغر عليّ، حاصرني. لست أريد مضاجعة أحد على الإطلاق. لا أحد سواك أنت يا زوجي الحبيب. إنني أحبك كثيراً يا ريغوبيرتو. أنت لا تدري كم افتقدتك، وكم اشتقت إليك.

ـــ أعرف، أعرف يا حبي.

أمالها دون ريغوبيرتو، وجعلها تستلقي على ظهرها واعتلاها. ويبدو أن الشهوة كانت قد تغلبت كذلك على دونيا لوكريثيا ـــ لم تعد ثمة دموع على خديها، وكان جسدها دافئاً، وتنفسها مضطرباً ـــ وما كادت تحس به فوقها حتى فتحت ساقيها، وسمحت له باختراقها. قبّلها دون ريغوبيرتو طويلاً، وعميقاً، بعينين مغمضتين، مستغرقاً في استسلام شامل، وسعيداً من جديد. كانا منطبقين تماماً، جسداهما يلتصقان من القدمين إلى الرأس، يتبادلان عرقهما، يهتزان ببطء، بإيقاعية، مطيلين لذتهما.

قال لها:

ـــ الحقيقة أنكِ ضاجعتِ أشخاصاً كثيرين خلال هذه السنة.

ـــ آه، صحيح؟ ـــ خرخرت هي وكأنها تتكلم من بطنها، من غدة سرية، وأضافت: كم عددهم؟ من هم؟ أين ضاجعتهم؟

ـــ عشيق عالِم حيوان، ضاجعك بين القطط ـــ «يا للقرف، يا للقرف»، احتجت زوجته بوهن، وأضاف هو: ـــ ومحب من

أيام الشباب، مهندس أخذك في رحلة إلى باريس وفينيسيا وكان يغني...

لهثت دونيا لوكريثيا متكلمة بصعوبة:

ـــ إلي بالتفاصيل. كل التفاصيل، حتى أصغرها. ما الذي فعلتُه، ما الذي أكلتُه، ما الذي فعلوه بي.

ـــ وكان على وشك أن يغتصبك متعفن الصدر فيتو ثيبويّا، وأن يغتصب كذلك خوستينيانا. أنت أنقذتِها من هياج شبقه. وانتهى بك الأمر إلى ممارسة الحب معها، في هذا السرير بالذات.

ـــ مع خوستينيانا؟ وفي هذا السرير بالذات؟ ـــ أفلتت دونيا لوكريثيا ضحكة ـــ يا للأمور كيف تجري. فبسبب فونتشيتو كدتُ أن أمارس الحب مع خوستينيانا في مساء أحد الأيام، في بستان الزيتون. إنها المرة الوحيدة التي خدعك فيها جسدي يا ريغوبيرتو. أما مخيلتي بالمقابل، فمرات كثيرة. مثلما تفعل أنت بي.

ـــ مخيلتي لم تخدعك قطّ. ولكن، أخبريني، أخبريني ـــ سارع زوجها الاهتزاز والتأرجح.

ـــ أنا سأخبرك فيما بعد، أكمل أنت أولاً. مع من أيضاً؟ وكيف، وأين؟

ـــ مع أخ شقيق لي اخترعته، أخ كورسيكي في سهرة حمراء. ومع سائق دراجة نارية مخصي. وكنتِ أستاذة في القانون في فيرجينيا، وأفسدت أخلاق رجل قانون قديس. ومارست الحب من سفيرة الجزائر، في حمام بخار. وسببت قدماك الجنون لمهووس فرنسي من القرن الثامن عشر. وعشية مصالحتنا كنا معاً

فـــي ماخور مكسيكي، مع خلاسية انتزعت إحدى إذني بعضة من أسنانها.

فاحتجت دونيا لوكريثيا:

ـــــ لا تُضحكني أيها الأحمق، ليس الآن. سأقتلك، سأقتلك، إذا ما أضحكتني وقطعتني.

ـــــ أنا أيضاً بدأت أذهب. فلنذهب معاً، أحبك.

بعد لحظات من ذلك، وكانا قد استكانا، كان هو يدير ظهره، وهي تقبع إلى جانبه ورأسها على كتفه، جددا النقاش. وفـــي الخارج، فضلاً عن دوي البحر، كانت تمزق صمت الليل صرخات صاخبة تطلقها قطط فـــي صراع أو تهيج تناسلي، وبين حين وآخر تُسمع أبواق سيارات أو زمجرة محركات.

ـــــ أنا أسعد رجل فـــي العالم ـــــ قال دون ريغوبيرتو.

فاحتكت به بتواضع:

ـــــ وهل سيستمر ذلك؟ هل سنجعل السعادة دائمة؟

ـــــ لا يمكن لها أن تدوم ـــــ قال برقة ـــــ. كل سعادة هي لحظة عابرة. إنها استثناء، نقيض السائد. ولكن علينا أن نحييها بين حين وآخر، وألا نسمح لها بالانطفاء. يجب أن ننفخ وننفخ على الشعلة.

وهتفت دونيا لوكريثيا:

ـــــ سأبدأ بتدريب رئتي منذ الآن. سأجعلهما مثل كير. وعندما تبدأ بالانطفاء، سأطلق عليها نفخة تؤججها، تلهبها. فُ فففووو! فُفففووو!

بقيا صامتين، متعانقين. وظن دون ريغوبيرتو، بسبب سكون زوجته، أنها قد نامت. ولكن عينيها كانتا مفتوحتين.

قالت له فـــي أذنه:

ــــ لقد كنت أعرف طوال الوقت أننا سنتصالح. كنت أريد ذلك، أبحث عنه منذ شهور. ولكنني لم أكن أعرف كيف أبدأ. وفـــي أثناء ذلك، بدأت تصلني رسائلك. لقد قرأتَ أفكاري يا حبي. أنت أفضل مني.

تصلب جسد زوجته، ولكنه عاد يسترخي على الفور.

وواصل هو:

ــــ إنها فكرة عبقرية، فكرة الرسائل هذه. أعني الرسائل المغفلة. إنها كرمبولا باروكية، استراتيجية متألقة. أن تبتدعي فكرةَ أنني قد أرسلت لك رسائل مغفلة لكي تجدي الذريعة وتكتبي لي. إنك تفاجئينني دوما يا لوكريثيا. ظننت أنني أعرفك، ولكن لا. فأنا لم أتصور مطلقاً بأن رأسك سيبدع مثل هذه الألعاب، هذه التشابكات. يا للنتيجة الطيبة التي أوصلتنا إليها تلك الرسائل، أليس كذلك؟ إنها ساعة مباركة بالنسبة إلي.

ساد صمت آخر، عدّ خلاله دون ريغوبيرتو نبضات قلب زوجته، التي كانت تطفر وتختلط أحياناً بنبضات قلبه.

ــــ أرغب فـــي أن نقوم برحلة ــــ قال بشرود بعد قليل، وهو يشعر بأن النعاس قد بدأ يغلبه ــــ أن نذهب إلى مكان بعيد، وغريب تماماً. حيث لا نعرف أحداً ولا أحد يعرفنا. إلى أيسلندا مثلاً. ربما نفعل ذلك فـــي نهاية السنة. يمكنني أن آخذ إجازة

لأسبوع، أو عشرة أيام. أيروقك ذلك؟

فقالت هي وفـــي لسانها شيء من الثقل، أهو النعاس؟ أم أنه الكسل الذي يظهر عليها دوماً بعد ممارسة الحب؟:

ـــ أفضلُ الذهاب إلى فـــيينا. ورؤية أعمال شيلي، وزيارة الأماكن التي عمل فـــيها. ففـــي هذه الشهور لم أفعل شيئاً سوى سماع أحاديث عن حياته، وعن لوحاته ورسومه. وقد لسعني الفضول فـــي نهاية المطاف. ألا يفاجئك افتتان فونتشيتو بهذا الرسام؟ فأنت، مثلما أعلم، لم تحب شيلي كثيراً فـــي يوم من الأيام. من أين جاءه هذا الاهتمام به إذن؟

هز كتفـــيه. لم تكن لديه أي فكرة عن مصدر ذلك الميل. وقال:

ـــ حسن، فـــي كانون الأول سنذهب إلى فـــيينا إذن. لنرى أعمال شيلي، ونسمع موسيقى موزارت. لم يعجبني فـــي أي يوم من الأيام، هذا صحيح؛ ولكن ربما سيبدأ إعجابي به الآن. فإذا كان يعجبك أنت، فسوف يعجبني أنا أيضاً. لست أدري من أين جاءت هذه الحماسة إلى فونتشيتو. هل بدأت تغفـــين؟ وأنا لا أتركك تنامين بإلحاحي على الكلام. طابت ليلتك يا حبي.

دمدمت هي «طابت ليلتك». وانقلبت ملصقة ظهرها بصدر زوجها الذي كان قد انقلب أيضاً وثنى ساقيه لكي تبدو وكأنها جالسة على ركبتيه. هكذا ناما طوال السنوات العشر السابقة على انفصالهما. وهكذا فعلا أيضاً منذ أول أمس. مر دون ريغوبيرتو بإحدى ذراعيه على كتف لوكريثيا وترك يده ترتاح على أحد نهديها بينما كان يطوق بذراعه الأخرى خصرها.

توقفت القطط عن الصراع أو الحب فـــي الجوار. وكان آخر بوق أو زمجرة محرك قد انطفأ منذ بعض الوقت. وأحس دون ريغوبيرتو الدافئ والمدفّأ بقرب هذه التكورات المحبوبة الملتحمة به، بأنه يبحر، ينزلق، يتحرك فـــي خمول بهيج، فـــي مياه ساكنة رقيقة، أو ربما فـــي الفضاء الكوكبي غير المسكون، باتجاه النجوم الجليدية. كم من الأيام، من الساعات الإضافـــية سيستمر دون انكسار، هذا الإحساس بالكمال، من الهدوء المنسجم، من التوافق الإيقاعي مع الحياة؟ وكرد على سؤاله الصامت، سمع دونيا لوكريثيا تقول:

ـــ كم رسالة مغفلة تسلمت مني يا ريغوبيرتو؟

فرد هو مرتعشاً:

ـــ عشر رسائل. ظننتك نائمة. لماذا تسألينني؟

وأجابته هي دون أن تتحرك:

ـــ وأنا أيضاً تلقيت عشر رسائل مغفلة منك. هذا ما يسمى حباً بالتناسب على ما أظن.

وكان هو الآن من تصلّب.

ـــ عشر رسائل مغفلة مني؟ أنا لم أكتب لك ولا رسالة واحدة. لا رسالة مغفلة ولا رسالة موقعة.

فقالت وهي تتنهد بعمق:

ـــ أعرف ذلك. أنت من لا يعرف. أنت من تمضي شارداً فـــي القمر. هل بدأت تفهم؟ وأنا أيضاً لم أرسل لك رسائل مغفلة. رسالة واحدة فقط. ولكنني أراهن أن هذه الرسالة الحقيقة الوحيدة لم

تصلك على الإطلاق.

مرت ثانيتان، ثلاث، خمس ثوان، دون أن يتكلما أو يتحركا. ومع أنه لم يكن يُسمع سوى صخب البحر، فقد خيل لدون ريغوبيرتو أن الليل قد امتلأ بذكور قطط هائجة وإناث قطط فـــي دورتها النزوية.

ـــــ أنت لا تمزحين، أليس كذلك؟ ـــــ دمدم أخيراً وهو يعرف جيداً أن دونيا لوكريثيا كانت تكلمه بكل جد.

لم ترد عليه. وبقيت ساكنة وصامتة مثله لوقت لا بأس به. يا لقصر هذه السعادة الغامرة، يا للوقت القليل الذي استمرته. وها هي من جديد يا ريغوبيرتو الحياة الواقعية بقسوتها وفجاجتها.

واقترح عليها أخيراً:

ـــــ إذا كان النوم يجافــيك مثلي، فــيمكننا، مثلما يعد آخرون أغناماً لكي يناموا، أن نحاول توضيح الأمر. من الأفضل أن نفعل ذلك الآن مرة واحدة. هذا إذا كنتِ ترين ذلك وتريدينه. أما إذا كنت تفضلين نسيان الأمر، فسننساه. ولن نتحدث مطلقاً عن هذه الرسائل المغفلة.

فأكدت زوجته بنبرة متعبة:

ـــــ أنت تعرف جيداً أننا لن نستطيع نسيان ذلك مطلقاً يا ريغوبيرتو. فلنفعل ما نعرف جيداً أنا وأنت أننا سننتهي إلى فعله على أي حال.

ـــــ هلمي بنا إذاً ـــــ قال وهو ينهض ـــــ هلمي لنقرأها.

كان الجو قد برد، وقبل أن ينتقلا إلى المكتب ارتديا روبيهما.

وحملت دونيا لوكريثيا ترمس الليمونادة الدافئة التي أعدتها من أجل زكام زوجها المزعوم. وقبل أن يعرضا الرسائل بالتبادل، تناولا رشفات من الليمونادة الفاترة، من الكأس نفسها. كان دون ريغوبيرتو يخبئ رسائله المغفلة فـــي الدفتر الأخير من دفاتره، والذي ما زالت فـــيه صفحات دون ملاحظات أو لصاقات؛ ورسائل دونيا لوكريثيا كانت فـــي حقيبة يدوية، مربوطة بشريط بنفسجي. تأكدا من أن المغلفات متماثلة وكذلك الورق؛ إنها مغلفات وأوراق من تلك التي تباع بأربعة ريالات فـــي دكاكين الصينيين. ولكن الخط كان مختلفاً. ورسالة دونيا لوكريثيا، الرسالة الحقيقية الوحيدة، لم تكن بينها.

ـــــ إنه خطي ـــــ تلعثم دون ريغوبيرتو، متجاوزاً ما كان يظنه أقصى حدود ذهوله ومبدياً قدراً أكبر بقليل من الذهول. كان قد تفحص الرسالة الأولى باهتمام كبير، دون أن ينتبه تقريباً إلى ما تقوله، مركزاً على الخط وحده، ثم قال: ـــــ حسن، هذا صحيح، فخطي من أكثر الخطوط الموجودة شيوعاً. أي شخص يمكنه تقليده.

ـــــ وخصوصاً إذا كان فتى يهوى الرسم، طفل–فنان ـــــ أضافت زوجته ذلك، وهي تقلت الرسائل المغفلة التي يفترض أن تكون هي كاتبتها بعد أن انتهت من تصفحها ـــــ أما هذا فليس خطي. ولهذا لم يسلمك الرسالة الوحيدة التي كتبتها إليك. حتى لا تقارنها بهذه وتكتشف الاحتيال.

ـــــ إنه يشبه خطك بعض الشيء ـــــ صحح لها ريغوبيرتو، وكان قد تناول عدسة مكبرة وتفحصه، مثل هواة جمع الطوابع النادرة، ثم أضاف: ـــــ إنه على كل حال خط مدور، مرسوم بتأن.

خط امرأة درست فـــي مدارس الراهبات، ومن المحتمل أن تكون مدرسة سوفــيانوم تحديداً.

ـــــ أولم تعرف خطي؟

ـــــ لا، لم أكن أعرفه ـــــ أقر هو. وكانت هذه هي المفاجأة الثالثة فـــي ليلة المفاجآت الكبيرة ـــــ الآن انتبهت إلى أنني لا أعرف خطك. وأنتِ على ما أذكر، لم تكتبي لي أي رسالة من قبل.

ـــــ وهذه الرسائل أيضاً لم أكتبها أنا.

بعد ذلك، وخلال أكثر من نصف ساعة، بقيا صامتين، كل منهما يقرأ رسائله، أو بعبارة أدق، كل منهما يقرأ النصف الآخر المجهول من هذه المراسلات. كانا قد جلسا متجاورين على الأريكة الجلدية الكبيرة ذات الوسائد، تحت ذلك المصباح العمودي الذي يزين كلته رسم قبيلة أسترالية. وكانت دائرة الضوء الواسعة تكفـــيهما كليهما. وبين حين وآخر، يشربان رشفات من الليمونادة الدافئة. ومن وقت لآخر، تفلت من أحدهما ضحكة، ولكن الآخر لا يلتفت ليسأله أي شيء. ومن حين لآخر، تتعكر ملامح أحدهما، بسبب الذهول، أو الغضب، أو الضعف العاطفـــي، أو الرقة، أو التسامح، أو الحزن الغامض. أنهيا القراءة فـــي وقت واحد. وكان كل منهما ينظر إلى الآخر بطرف عينه، مستنفداً، حائراً، متردداً. من أين سيبدأان؟

وأخيراً قال دون ريغوبيرتو مشيراً إلى دفاتره وخزانته:

ـــــ لقد دخل هنا. لقد قلّب أشيائي. أقدس ما لدي وأشده سرية. ما لا تعرفـــينه أنتِ نفسك. رسائلي المزعومة إليك هي فـــي الحقيقة رسائلي. مع أنني لم أكتبها. لأنني متأكد من أنه استنسخ كل

جملة فـــيها من دفاتري، جاعلاً منها سَلطة روسية. خالطاً الأفكار بمقاطع من المزاح واللعب ومن تأملاتي الخاصة وتأملات الآخرين.

فقالت دونيا لوكريثيا:

ــــ لهذا السبب بدت لي هذه الألعاب، وهذه الأوامر منك أنت. أما رسائلي بالمقابل، فلستُ أدري كيف بدت لك أنها مني.

واعتذر دون ريغوبيرتو:

ــــ كنتُ أتلهف بجنون لمعرفة أخبارك، لتلقي إشارة منك. الغرقى يتمسكون بما يجدونه فـــي طريقهم، دون قرف من أي شيء.

ــــ ولكن، هذا التكلف؟ هذا التصنع؟ ألا يبدو أقرب إلى أسلوب كورين تييّادو؟

وقال دون ريغوبيرتو متذكراً، موافقاً:

ــــ إنها لكورين تيّادو، بعضها على الأقل. منذ عدة أسابيع بدأت رواياته تظهر فـــي البيت. ظننت أنها للفتاة الطاهية. الآن عرفت من كان يأتي بتلك الروايات ولأي شيء كان يستخدمها.

صرخت دونيا لوكريثيا:

ــــ سأقتل هذا الصغير. أيجعلني أكتب بأسلوب كورين تييّادو! أقسم لك أنني سأقتله.

وقال هو بافتتان:

ــــ أتضحكين؟ أيبدو لك الأمر طريفاً؟ هل علينا أن نحتفل بذلك؟

وضحكت هي الآن بجد، ضحكة أطول وأكثر صراحة من ذي

قبل.

ـــ الحقيقة أنني لا اعرف كيف يبدو لي الأمر يا ريغوبيرتو. من المؤكد أنه ليس مضحكاً. أهو مبك؟ أهو يدعو إلى الغضب؟ حسن، فلنغضب إذا كان هذا هو ما علينا عمله. أهذا ما ستفعله غداً؟ هل ستعنفه؟ تعاقبه؟

هز دون ريغوبيرتو كتفــيه. وكانت به رغبة إلى الضحك أيضاً. وأحس بأنه أخرق، واعترف بشيء من الخجل:

ـــ لم أعاقبه قط من قبل، ولم أفكر فــي ضربه قط، فأنا لا أعرف كيف أفعل ذلك. لهذا صار إلى ما هو عليه. الحقيقة أنني لا أعرف ماذا أفعل به، فهو سيكسب دائماً.

واستسلمت دونيا لوكريثيا لذراع زوجها التي مرت على كتفها، فالتصقت به قائلة:

ـــ حسن، لقد كسبنا نحن أيضاً فــي هذه الحالة. فقد تصالحنا، أليس كذلك؟ أنت لم تكن لتتجرأ مطلقاً على الاتصال بي هاتفــياً، وعلى دعوتي لتناول الشاي فــي تينديثيتا بلانكا، لولا هذه الرسائل المغفلة المسبقة. أليس صحيحاً؟ وأنا ما كنت لأذهب إلى الموعد لولا هذه الرسائل المغفلة كذلك. من المؤكد أنني ما كنت لأذهب. فالرسائل هيأت الطريق. لا يمكننا أن نتذمر؛ لقد ساعدنا، لقد صالحنا. فأنت غير نادم على أننا قد تصالحنا، أليس كذلك يا ريغوبيرتو؟

وانتهى هو إلى الضحك أيضاً. فرك أنفه برأس زوجته وهو يشعر بأن شعرها يدغدغ عينيه، وقال:

ـــــ لا، لن أندم على ذلك أبداً. حسن، بعد كل هذه الانفعالات الكثيرة، فقد كسبنا الحق فـــي النوم. كل هذا جيد جداً، ولكنني مضطر إلى الذهاب إلى العمل فـــي المكتب غداً يا زوجتي.

رجعا إلى غرفة النوم المظلمة، أحدهما يمسك بيد الآخر. وتجرأت هي على قول مزحة أخيرة:

ـــــ هل سنأخذ فونتشيتو معنا إلى فـــيينا فـــي كانون الأول؟

هل كانت مزحة حقاً؟ واستبعد دون ريغوبيرتو الفكرة الخبيثة على الفور معلناً بصوت عالٍ:

ـــــ إننا بالرغم من كل شيء نشكل أسرة سعيدة، أليس كذلك يا لوكريثيا؟

لندن 19 تشرين الأول 1996

